

الْجَوَابُ الصَّحِيحُ

لِمَنْ بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ

تَأليفُ

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية
(٦٦١ - ٧٢٨ هـ)

تحقيق

د. عبد الرحمن بن حسن قائد

إشراف

د. علي بن محمد العمران

المجلد الأول



راجع هذا المجلد
د. عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الدَّمِيَّي
الشيخ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ صَالِحِ السُّدَيْسِ

③ مركز دار التأصيل للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن تيمية، احمد بن عبدالحليم
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. / احمد بن عبد الحليم ابن
تيمية ؛ علي محمد العمران - جدة ، ١٤٤٠ هـ
٥ مج.

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٣١٠-٠٠-٧ (مجموعة)

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٣١٠-١-٤ (ج ١)

١- الإسلام والنصرانية ٢- الديانات المقارنة أ- العمران ، علي
محمد (محقق) ب.العنوان

١٤٤٠/١١٣١٧

ديوي ٢٩١

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١١٣١٧

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٣١٠-٠٠-٧ (مجموعة)

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٣١٠-١-٤ (ج ١)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م



مركز التأصيل للدراسات والبحوث
Taseel Center for Studies & Research

جدة، شارع عبدالله السليمان، مقابل اكسترا
المملكة العربية السعودية

هاتف: 00966126288685

جوال: 00966596747896

الرمز البريدي: 22246، الرقم الإضافي: 6929
البريد الإلكتروني: sabban.taseel@gmail.com

الجواب الصحيح

لمَنْ بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ

تَأْلِيفُ

شَيْخِ الْإِسْلَامِ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْحَكِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ تَيْمِيَّةَ

(٦٦١ - ٧٢٨ هـ)

تَحْقِيقُ

د. عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَنٍ قَائِدِ

إِشْرَافُ

د. عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَمْرَانِ

المجلد الأول



مركز تاسيل للدراسات والبحوث
Taseel Center for Studies & Research

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

مقدمة

مركز تأصيل للدراسات والبحوث

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه.

وبعد، فقد وقف النصارى من دعوة نبينا محمد ﷺ موقف المعادي والمحارب لها من أول يوم صدع فيه بدعوة الحق، وقد أخبرنا الله تعالى عن عدواتهم فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

فعدواتهم للإسلام مستمرة إلى يوم القيامة، فهم لا يفتأون يكيدون للإسلام والمسلمين بكل ما استطاعوا من سبل ووسائل، وسلوكوا في هذا السبيل طرائق شتى، ما بين حروب أوقدوها ضد المسلمين، أو حملات لإخراج المسلمين من دينهم، أو الكتابة والتأليف لتشويه شرائع الإسلام والظعن فيها، أو التشكيك في عقيدة المسلمين، أو تشويه تاريخهم وأعلامهم.

لكن هذا الكيد والعداوة للإسلام من أعظم أسباب ظهوره وإقبال الناس عليه، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (من أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين ظهور المعارضين من أهل الإفك المبين... وذلك أن الحق إذا جُحد وعُورِض بالشبهات، أقام الله تعالى له ممَّا يُحَقُّ به الحقُّ ويُبطل به الباطل من الآيات البينات، بما يظهره من أدلة الحقِّ وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة)^(١).

(١) «الجواب الصحيح»: ١/ ٢١

ومن فضل الله أن سخر لهذا الدين علماء ربّانيين يدافعون عن الحق ويجاهدون الباطل وأهله، وممن حمل راية الدفاع والجهاد في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية رحمه الله، فقد رد على شبهات وتضليل النصارى في كتابه العظيم (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح).

ومع أنه قد رد على النصارى قبله وفي زمانه فثام من العلماء - على اختلاف مشاربهم - مثل الجاحظ، والقاضي عبد الجبار الهمداني، وابن حزم، والباجي، والغزالي، والرازي، والقرطبي، والقرافي، وغيرهم من العلماء، لكن نقد ابن تيمية للنصارى تميّز عن كافة الردود الأخرى بأنه أقواها حجة، وأفضلها منهجاً، وأعمقها فكرة، وذلك أن المنطلقات السنية، والمنهجية السلفية التي اعتمد عليها جعلته يتميز بقوة الحجة، وتناسق المنهج، وشمولية المجادلة، هذا إضافة إلى ما تميزت به شخصية ابن تيمية العلمية من سعة الاطلاع والمعرفة، فقد ناقش الفلسفة والمنطق اليوناني بمنهجية فريدة يندر وجودها، وكان واعياً بالحركة الفكرية عند المسلمين والنصارى وما يكون بينها من التداخل.

وكذلك استمر الرد على النصارى، وبيان باطلهم بعد ابن تيمية، لتجدد عقائد وأحوال وأفكار النصارى والعقائد النصرانية.

وإسهاماً في الدفاع عن الدين وحماية المسلمين وتثبيت عقيدتهم، وبيان عقائد النصارى الباطلة، وما طرأ على دينهم المحرف والمبدل، اقتضى ذلك العناية بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» من وجوه متعددة، فرأينا أولاً إعادة تحقيق الكتاب تحقيقاً علمياً منهجياً، وذلك بعد أن وجدنا عشر نسخ خطية بعضها قريب العهد من المؤلف،

وفي بعضها فصل جديد ملحق بالكتاب لا يوجد في كل المنشورات السابقة
يقدر بأربعين صفحة.

ونرجو أن يتلو هذا التحقيق دراسة علمية مطولة حول الكتاب بعنوان
«المدخل إلى الجواب الصحيح»، ثم اختصار وتقريب للكتاب ليكون سهل
التناول حيث تبين لنا بعد إجراء استطلاع رأي المختصين في العقيدة أن
الأغلب لم يقرأ الكتاب كاملاً، فإذا كان هذا حال المختصين بالعقيدة فكيف
سيكون حال غير المختصين فيها، بله بقية العلوم الأدبية أو الطبيعية وغيرهم.

وهذا العمل الذي يقوم «مركز التأصيل للدراسات والبحوث» بالدور
العلمي والمنهجي فيه، وتقوم «مؤسسة العيسى الخيرية» بالتمويل والرعاية، هو
جزء من الواجب المتحتم على أهل العلم القيام به، نصرة للدين، وإقامة
للحجة، وانتصاراً للشريعة الغراء، والواجب كبير، وهو بحاجة إلى تضافر
الجهود الإسلامية المباركة، ونرجو أن ينهض لها دعاة الإسلام، وأهل الغيرة
فيهم بإذن الله تعالى.

وفي الختام نشكر الله تعالى أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً على توفيقه في
اكتمال تحقيق هذا الكتاب، كما نشكر مؤسسة العيسى الخيرية، على رعايتهم
للمشروع، ونسأل الله تعالى أن يتقبل ذلك ويجعله في ميزان حسنات أبيهم
رحمه الله، وفي ميزان حسناتهم جميعاً وهو الغني الكريم، والحمد لله رب
العالمين.

إدارة مركز التأصيل

مقدمة المشرف على تحقيق الكتاب

د. علي بن محمد العمران

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الرسل أجمعين
محمد بن عبدالله، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد طبع كتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لشيخ
الإسلام ابن تيمية أول مرة عام ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م أي قبل نحو مئة وعشرين
عامًا، ولم نعرف على وجه التحديد على أي النسخ اعتمد طابعوه آنذاك. ثم
طبع بعد ذلك في مصر في مطبعة المدني بالاعتماد على تلك الطبعة دون الرجوع
للمخطوطات. ثم طبع محققًا في ثلاث رسائل جامعية معتمدين على أربع نسخ
خطية، وفاتهم الوقوف على ست نسخ أخرى للكتاب، وفيها ما هو بالغ الأهمية
من حيث القدم والقرب من المؤلف، ومن حيث صحة القراءة، ومن حيث
الزيادات، كما سنشرحه عند الكلام على نسخ الكتاب.

وكان معلومًا لدى الفاحصين لطبعات هذا الكتاب والمعتنين بكتب شيخ
الإسلام أن هذه الطبعات الثلاث وما تلاها من طبعات معتمدة عليها قد
اعتوّرها العديد من أوجه النقص؛ ليس في فوات نسخ الكتاب المهمة فحسب،
بل في العناية به، وفي قراءة كثير من نصوصه، وفي التعليق عليه وخدمته
بالفهارس الكاشفة.

وحينما ناقش «مركز تأصيل للدراسات والبحوث» معنا فكرة إعادة
العمل في تحقيق الكتاب، وخلص الأمر بعد التداول والمناقشة إلى أن الكتاب

بحاجة إلى تحقيق جديد يقدم الخدمة التي يستحقها الكتاب بإخراجه على نهج صحيح، واستكمال النظر في مخطوطاته الجديدة، وما إليها من وجوه التجويد والخدمة.

وكانت الركيزة الأولى لهذا العمل هي البحث عن جميع مخطوطات الكتاب وتحصيل ما أمكن منها، تمهيداً لفحصها والانتفاع بها، فكان ذلك والحمد لله، فتمكّنّا من تحصيل عشر نسخ خطية ست منها لم تستخدم في الطبعات السابقة، منها نسخ قديمة غاية في الجودة تُقدّم قراءات جديدة وتزيد على المطبوع نصوصاً جديدة.

وقد سار العمل في خمس مراحل:

الأولى: تكوين الفريق العلمي للعمل في الكتاب، وتحرير المنهج الذي يسير عليه العمل، وهو نهج طالما سلكناه في تحقيق كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في المشاريع العلمية التي دأبنا على إخراجها ضمن سلسلة آثار شيخ الإسلام وابن القيم وما لحقهما من أعمال، وقد شرحنا تفاصيله مراراً في مقدمات تيك الكتب، وفي كتيب صدر بعنوان «التعريف بمشروع نشر آثار العلماء ومنهج تحقيقها». وسنشرح ما يتعلق بخصوص هذا الكتاب في مكانه من هذه المقدمة.

الثانية: الشروع في تفاصيل عملية التحقيق، وقد تولى كل محقق من الفريق مجلّداً خاصاً يقوم عليه بكل متطلباته، وقد استغرق العمل في هذا الكتاب نحو سنة ونصف، وسرنا فيه سيرةً مقتصدة في التعليق سابغة في مراجعة النص وضبطه، والتعليق بما يفيد القارئ ويخدم الكتاب.

الثالثة: بعد الانتهاء من التحقيق أو كل كل مجلد من مجلداته إلى محكمين مختصين في العقيدة وكتب شيخ الإسلام أو في أحدهما، عاد بعدها الكتاب لفريق التحقيق للمراجعة والتعديل.

الرابعة: بعد استقرار صفحات الكتاب دفع للفهرسة العلمية واللفظية.

الخامسة: كتابة مقدمة التحقيق، وقد اشترك الفريق في كتابة جملة المقدمة مع مراجعتها.

ومباحث المقدمة كالتالي:

- (١) بين يدي الكتاب
- (٢) اسم الكتاب
- (٣) تاريخ تأليفه
- (٤) سبب التأليف
- (٥) إثبات نسبته إلى المؤلف
- (٦) منهج المؤلف
- (٧) موضوع الكتاب، وأهميته، وترتيبه
- (٨) موارده
- (٩) نسخه الخطية
- (١٠) أهم مطبوعاته، وتقويمها
- (١١) منهج التحقيق

فامتازت هذه الطبعة بحمد الله بميزات عديدة:

❖ استيعاب النسخ الخطية للكتاب وقد بلغت عشرين، وإخراج نصه بالاعتماد عليها.

♦ العناية اللائقة به من حيث الضبط وتصحيح النص. واستدراك ما فات الطبعات السابقة من نقص أو سقط أو خطأ أو تصحيف.

♦ التعليق على ما يحتاجه النص ويكمل غرضه.

♦ العزو إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية الأخرى التي اشتركت في مباحثها مع كتابنا هذا.

♦ مقدمة تكشف أهمية الكتاب وما يتعلق به.

♦ الفهارس الكاشفة لعلومه وكنوزه بما لم يصنع في طبعة أخرى.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر لكل من أسهم لإنجاح هذا العمل، فنشكر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ومركز جمعة الماجد، ودارة الملك عبد العزيز، والإخوة المشايخ إبراهيم بن منصور الأمير، ود. خالد الزهراني = على تفضلهم جميعاً بالإعانة على توفير أو تصوير بعض النسخ الخطية. وكذلك الشيخ جليل عياد إذ تفضل بقراءة بعض المصادر والموسوعات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية وترجمة ما احتجنا إليه منها إلى اللغة العربية، لاسيما فيما يخص تاريخ النصرانية وتراجم أعلامها.

ونرجو بذلك أن نكون قد قدمنا الكتاب للقراء في صورة أقرب إلى ما تركه مؤلفه، في عمل علمي يليق به وبمؤلفه، وصلى الله وسلم على محمد النبي الخاتم.

وكتب

د. علي بن محمد العمران

٦ / رمضان / ١٤٤٠ هـ



بين يدي الكتاب

ألّف شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى في سنة ٧٢٨هـ كتابه المرجعي: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) جواباً على رسالة الراهب بولس الأنطاكي أسقف صيدا، وهي رسالة انتشرت - أو نُشرت - بين المسلمين على نطاق واسع، في عصر ابن تيمية وقبله بقرن من الزمان.

وقد ألّف ابن تيمية موسوعته (الجواب الصحيح) في علم الجدل الديني مع علماء النصرانية، وجرت في أوروبا بعد ابن تيمية بقرنين من الزمان وقائع (حركة الإصلاح الديني على يد كل من مارتين لوثر، وكالفن، وزونجلي) وقد حققت حركة الإصلاح الديني هدفها بتقييد سلطات البابا المطلقة، وإصلاح بعض ما لحق بالكنيسة من فساد، وقد تمخض الإصلاح عن حدث كبير هو: انقسام المسيحية إلى فرقتين كبيرتين هما: الكاثوليكية والبروتستانتية.

وقد مثل الإصلاح الديني تحولاً هائلاً في سيرورة التاريخ في الغرب، لأن انحسار طغيان الكنيسة وبابواتها فتح الباب أمام الإصلاح المنهجي الفكري الذي وقع في القرن السابع عشر، وقد كان لعلماء المسلمين ومفكريهم دور مؤثر في تحولات الأحداث في الغرب، وهذه مسألة لم تجد من عناية الباحثين المسلمين ما تستحقه من بيان للكشف عن مدى تأثير الحضارات وفاعلية بعضها في بعض.

ولم تحرك رسالة الراهب بولس الأنطاكي الملكاني أسقف صيدا، ابن تيمية وحده لكتابة رد عليها^(١)، لكنها استفزت عالماً كبيراً في مصر هو أحمد

(١) ينظر مبحث سبب تأليف الكتاب من هذه المقدمة.

ابن إدريس القرافي المتوفى سنة ٦٨٢ هـ لكتابة رد عليها سماه: (الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة).

كما أن عالماً معاصراً لابن تيمية، هو شمس الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ قد كتب ردّاً ثالثاً على رسالة الأسقف بولس الأنطاكي.

وأما رسالة بولس، فهناك مخطوطات باقية للرسالة منها مخطوط بالمتحف القبطي بالقاهرة (رقم ٢٥٤ / ٩٥، ويقع في ٢٦ صفحة)، وبه بعض اختلاف عما أورده كل من ابن تيمية وأبي طالب الدمشقي والقرافي.

وهناك المخطوطة السينائية للرسالة وهي التي نشرها بولس خوري مع بعض الرسائل الأخرى للراهب الأنطاكي، مع ترجمة فرنسية لها في كتابه بعنوان (بولس الأنطاكي أسقف صيدا الملكاني، سنة ١٩٦٤ م).

وهناك أكثر من ترجمة إنجليزية لرسالة الراهب بولس الأنطاكي أسقف صيدا.

هذا وقد أورد المستشرق الأب لويس شيخو في كتابه (المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، نشرة مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت ١٩٢٤ م) ترجمة مختصرة لصاحب الرسالة بولس الراهب، جاء فيها: (هو أسقف صيدا الأنطاكي الرّومي الملكي من أهل القرن الثالث عشر الميلادي... له عشر مقالات حسنة الإنشاء جليلة الفائدة، بليغة المعنى، سديدة البرهان... منها:

(١) شرح العقيدة النصرانية.

(٢) خلاصة معتقد النصارى في التوحيد والاتحاد.

(٣) رسالة إلى بعض المسلمين من صيدا.

(٤) رسالة في فرق النصارى... إلخ).

وجاء في مقدمة كتاب «مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارى»، (طبعته المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٠٦ م بعناية بعض المستشرقين والرهبان): (أن معظم هذه المقالات لأحد كتبة الروم الملكية بولس الراهب الأنطاكي أسقف صيدا، وكان في القرن الثالث عشر كما يظهر من كتابات تقي الدين ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ - ١٣٢٨ م ويؤخذ من كتاباته أنه رحل إلى بلاد الروم والفرنج واجتمع بأساقفتها، وأنه زار مدينة روما، ومقالاته كلها سديدة الرأي واضحة البرهان).

ويلاحظ أن علماء النصارى المعاصرين قد تنبهوا إلى أهمية رسالة بولس الأنطاكي هذه؛ يقول الدكتور ديفيد توماس^(١): (ربما كانت هذه الرسالة أعمق وأقوى رسالة في تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية).

ويرى أن ردّ ابن تيمية لم يكن موجهًا بالدرجة الأولى إلى رسالة بولس، وإنما كتبه إجابة عن رسالة متأخرة وردت إليه من قبرص من نصراي مجهول الاسم أعاد صياغة رسالة بولس، فغيّر نبرة الرسالة، كما شملت حذفًا وإضافات وتعديلات وسلامة لغتها العربية^(٢).

(١) في تقديمه لرسالة بولس في الكتاب المشار إليه أعلاه (ص ٢٠٣ - ٢٢٣).

(٢) بحث بعنوان: الدفاع والجدل من خلال رسالة قبرص وردّ ابن تيمية، ليديفيد توماس، نشرت ضمن كتاب ابن تيمية وعصره ص ٢٨٦-٢٨٧.

أما من حيث محتواها فيرى ديفيد توماس: أن الرسالة تهدف إلى تقديم نظرة لا تريح الطرف المسلم وتسبب له إزعاجاً، وتتمثل هذه النظرة في اعتبار القرآن وثيقة نصرانية مشفرة! مستنداً على بعض الآيات أو أجزاء منها^(١).

ويرى ديفيد توماس أن ابن تيمية قد فطن إلى أن الرسالة التي قد وصلته من أهالي قبرص قد تأسست على رسالة بولس الأنطاكي، كما كان واعياً بأن هذه الرسالة قد نشرت بين المسلمين على نطاق واسع.

أما ابن تيمية فيتحدث عن علاقته بالرسالة التي ألف موسوعته (الجواب الصحيح) في تنفيذها ودحض ما جاء فيها من افتراءات وشبهات، ويقول: «وكان من أسباب نصر الدين وظهوره أن كتاباً ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصراني، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم - قديماً وحديثاً - من الحجج السمعية والعقلية. فاقضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب.

وأنا أذكر ما ذكره بالفاظهم بأعيانها فصلاً فصلاً، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً وعقداً وحلاً»^(٢).

ثم يبين جانباً من أهمية الرسالة قائلاً: «وما ذكره في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماءهم في هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض بحسب الأحوال، فإن هذه الرسالة قد وجدناهم

(١) المصدر السابق ص ٢٨٤.

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٢٨).

يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماءهم بينهم، والنُّسخ بها موجودة قديمة، وهي مُضافة إلى بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، كتبها إلى بعض أصدقائه، وله مصنفات في نصر النصرانية، وذكر أنه لما سافر إلى بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد الملافة وبعض أعمال الإفرنج ورومية، واجتمع بأجلاء علماء الديانة. كتب رسالته واسمها: الكتاب المنطقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم»^(١).



(١) (٢٩/١). وقد استفدنا أكثر هذا التمهيد مع تصرف وإضافة مما كتبه الدكتور محمد الشرقاوي في دراسة له عن أثر كتاب الجواب الصحيح في الأكاديمية الغربية، ستُنشر إن شاء الله مع دراسات أخرى في كتاب بعنوان «المدخل إلى الجواب الصحيح» عن مركز تاصيل.

اسم الكتاب

لم يصرح المصنف باسم الكتاب في مقدمته كما يفعل بعض المصنفين، أو في أثناء الكتاب أو خاتمته كما يقع من البعض الآخر، لكنه سماه في مواضع أخرى من كتبه وفتاويه، كما ورد اسمه على ظهور نسخ الكتاب الخطية، وعند مترجمي المصنف، والناقلين عن كتبه ممن جاء بعده، وذلك على أنحاء سنورها فيما يلي، ثم ننتهي إلى ما هو الأقرب في تحرير اسمه العلمي الموضوع له إن شاء الله.

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

هكذا نصَّ المصنف على تسميته في بعض تأليفه، كما قال في موضع: «وقد بسط ما في كلامهم من صواب وخطأ في الكتاب الذي سمَّيناه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»^(١).

وقال في موضع آخر معللاً تلك التسمية: «وقد ذكرت في الرد على النصارى من مخالفتهم للأنبياء كلهم مع مخالفتهم لصريح العقل ما يظهر به من كفرهم ما يظهر؛ ولهذا قيل فيه: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»^(٢).

وهكذا سماه غير واحد من كبار أصحابه العارفين به.

قال ابن القيم بعد أن ذكر القول بالتوسط في مسألة ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل والتحريف، وأنه قد زيد فيها وغير ألفاظ يسيرة، ولكن

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٦٢/١٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨٩/١٩).

أكثرها باقٍ على ما أنزل عليه: «وممن اختار هذا القول شيخنا في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»^(١).

وقال ابن عبد الهادي في سياق ذكره لكتب الشيخ وتصانيفه: «ومنها كتاب الرد على النصارى سماه: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، في مجلدين وبعض النسخ منه في ثلاث مجلدات وبعضها في أكثر...»^(٢).

وقال ابن رشيقي في رسالته التي ذكر فيها أسماء مؤلفات شيخ الإسلام: «ومما صنفه في الأصول مبتدئاً أو مجيباً لمعترض أو سائل: ... كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح في مجلدين»^(٣).

وكذلك سماه مترجمو المصنف من أهل عصره فمن بعدهم، كالصفدي وابن رجب وغيرهما^(٤)، وسماه بعض العلماء الناقلين عنه الواقفين عليه كالسفاريني^(٥).

(٢) «بيان الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

ورد اسم الكتاب بهذه الزيادة في أوله «بيان» على ظهور عدد من نسخه الخطية، كنسخة المكتبة التيمورية التي وصلتنا قطعة من أولها كتبها المحدث الصوفي الثقة محمد بن أبي بكر الساوجي سنة ٧٣٦ بعد وفاة المصنف ببضع سنين، ونسخة متحف طوب قابي المنسوخة سنة ٧٣٠

(١) «إغاثة اللهفان» (١١٣٨).

(٢) «العقود الدرية» (٤٤)، وذكره كذلك في «مختصر طبقات علماء الحديث» (٢٨٩/٤).

(٣) «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٩٥).

(٤) «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣٥٤، ٣٧٧، ٤٨٢، ٦٠٩، ٦١٩).

(٥) «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (١/٢١٨، ٢/١٠، ٢٦٤)، و«لوائح الأنوار السنية» (٢٤٩/١).

بعد وفاة المصنف بستين وعليها تملك سنة ٨٦١، ونسخة مكتبة يني جامع المنسوخة سنة ١٠٩٤، والنسخة المتأخرة التي استكتبها العلامة نعمان الألوسي وعليها خطه سنة ١٣٠١.

وعلى النسختين المحفوظتين في خزائن إسطنبول اعتمد حاجي خليفة في تسميته للكتاب^(١).

(٣) «الرد الصحيح على من بدل دين المسيح».

وقع الاسم بصيغته هذه عند الحافظ ابن حجر^(٢) وهو ينقل قول شيخ الإسلام في مسألة تحريف التوراة والإنجيل التي سبقت الإشارة إليها. (٤) «الرد على النصارى».

أشار المصنف إلى كتابه بهذا الوصف في بعض كلامه، فقال: «وكذلك بيّنّا طرق الناس في إثبات العلم بالنبوات في شرح الأصبهانية وكتاب الرد على النصارى وغيرهما»^(٣).

وقال في موضع آخر: «وقد بسطنا ذلك في الرد على النصارى، وبيّنّا أن الحواريين لم يكونوا رسلا...»^(٤)، وفي سياق آخر بعد كلام له: «وقد بسّط هذا في الرد على النصارى»^(٥)، ونحو ذلك في مواضع أخرى^(٦).

(١) «كشف الظنون» (١/ ٢٦٠).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٥٢٤).

(٣) «الرد على المنطقيين» (٢٥٤).

(٤) «جامع الرسائل» (١/ ٦٦).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٦٨).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٧٥، ١٩/ ١٨٩).

وسمي بهذا الاسم بخط قديم على طرة الورقة الأخيرة من نسخة مكتبة بودليان، فكتب أحدهم: «هذا آخر الكتاب وهو الرد على النصارى تأليف سيدنا شيخ الإسلام أبي العباس...».

وسمي بهذا الاسم أيضًا في القطعة التي بين أيدينا من نسخة مكتبة الإفتاء التي كتبها الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى سنة ١٢٧٤، فكتب في صفحة عنوانها: «الجزء الأخير من الرد على النصارى تأليف فاروق زمانه...»، ثم استدرك بجوارها اسم الكتاب العلمي، فكتب: «من كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

وكذلك فرّق ناسخ نسخة المتحف البريطاني بين وصف الكتاب واسمه العلمي، فكتب: «الجزء الثاني من كتاب الرد على النصارى المسمى بالجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

(٥) «تخجيل أهل الإنجيل والنهج الصحيح في الرد على من بدل دين عيسى ابن مريم المسيح».

كذا وقع اسم الكتاب على ظهر نسخة مكتبة بودليان بجامعة أكسفورد بخط ناسخ متأخر كتب صفحة العنوان ووضع مقدمة للكتاب من إنشائه أو إنشاء غيره ورد فيها: «فيقول العبد المتمسك بذيل الألفاف الخفية، أبو العباس أحمد بن تيمية، الحنبلي، عامله المولى بغفران ذنبه الخفي والجللي، هذا كتاب سميته تخجيل أهل الإنجيل والنهج الصحيح في الرد على من بدل دين عيسى بن مريم المسيح، أذكر فيه بنص الحديث والكتاب الفصيح،

فأقول والله الهادي...»، وهي مقدمة مصنوعة لا تشبه كلام شيخ الإسلام ولم ترد في نسخ الكتاب الأخرى. ولسقوط صفحة العنوان الأصلية من هذه النسخة العتيقة اضطرب الواقفون عليها في تسمية الكتاب، فكتب هذا الناسخ المتأخر ما كتب، وكتب أحدهم في نهاية النسخة: «تمت النبوات تصنيف الشيخ الإمام...»، وكتب آخر على طرة الورقة: «هذا آخر الكتاب وهو الرد على النصارى تأليف سيدنا شيخ الإسلام أبي العباس...»، كما سبق.

وبعد، فهذه هي العنوانات التي وقفنا عليها في تسمية الكتاب، والأقرب أن الاسم العلمي الذي اختاره المصنف لكتابه هو ما سماه به في مواضع من كتبه وصرح به في قوله: «في الكتاب الذي سَمَّيناهُ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، وهو الذي ذكره أصحابه ومترجموه والناقلون عنه من أهل العلم على ما مضى تفصيله.

أما استبدال الحافظ ابن حجر لفظ «الرد» بلفظ «الجواب» فتسُمُّحٌ ونقلٌ بالمعنى كما هو ظاهر.

وأما زيادة «بيان» قبله، فهي وإن وردت على ظهور بعض النسخ القديمة إلا أنها لم ترد في كلام المصنف ولا غيره، وهي زائدة لا حاجة إليها، وهي بالتفسير والعبارة عن موضوع الكتاب أشبه.

وكذلك القول في عنوان «الرد على النصارى»، فهو وصف لموضوع الكتاب لا تسمية له، ولذا جمع بعضهم بينه وبين الاسم العلمي، كما مر.

وَمِنْ وَصَفِ الْكِتَابِ بِمَوْضُوعِهِ قَوْلُ ابْنِ الْقَيْمِ فِي نَوْنِيَّتِهِ^(١):

وَكَذَا جَوَابٌ لِلنَّصَارِيِّ فِيهِ مَا يَشْفِي الصَّدُورَ، وَإِنَّهُ سِفْرَانِ

أَمَّا الْأَسْمُ الْأَخِيرُ الطَّوِيلُ الْمَسْجُوعُ، فَهُوَ ظَاهِرُ الصَّنَاعَةِ، بَيِّنُ الْوَضْعِ، عَلَى فُسَادٍ فِي لَفْظِهِ، إِذْ وَصَفَ نَهْجَ النَّصَارِيِّ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِالصَّحِيحِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةً، وَهُوَ مُحْتَمَلٌ.



(١) «الكافية الشافية» لابن القيم (٧٧٠).

إثبات نسبة الكتاب إلى المؤلف

لا ريب أن لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله كتاباً مفرداً في الرد على النصارى، ذكره في كتبه وذكره له أصحابه ومترجموه، وسمّاه وسمّوه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، كما رأيت في مبحث «اسم الكتاب»، ثم لا ريب أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو ذاك الكتاب المذكور المنعوت بأنه «من أجل الكتب وأكثرها فوائد» وأنه «يشتمل على تثبيت النبوات وتقريرها بالبراهين النيرة الواضحة، وعلى تفسير آي كثيرة من القرآن، وعلى غير ذلك من المهمات»^(١)، ودلائل ذلك وقرائنه كثيرة متضافرة من داخل الكتاب ومن خارجه.

فمن الدلائل والقرائن المستخرجة من نصّ الكتاب:

(١) إحالته في الكتاب على بعض مصنفاته المشهورة مصرحاً بأسمائها، فمن ذلك:

أ) أحال على كتابه «درء التعارض»، فقال: «الثالث: أن يبين فساد تلك الحجة العقلية، إن كانت من باب الخبريات بين فسادها، كما قد بسطنا القول في ذلك في كتاب درء تعارض العقل والشرع، وذكرنا أن جميع ما يحتج به على خلاف نصوص الأنبياء من العقليات فإنه باطل»^(٢).

ب) أحال على كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، فقال: «ويظن كثير من الناس أن هذا من كرامات عباد الله الصالحين، ويكون

(١) «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (٤٤).

(٢) (٣/٤٩٥).

من إضلال الشياطين، كما قد بسط الكلام في هذا الباب في غير هذا الكتاب، مثل الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وغير ذلك»^(١).

(ت) أحال على كتابه «الإيمان»، فقال: «وقد بسطنا الكلام على هذه في مسألة الإيمان، وبيننا أن ما يقوم بالقلب من تصديق، وحب الله ورسوله، وتعظيم، لا بد أن يظهر على الجوارح، وكذلك بالعكس»^(٢).

(ث) أحال على رسالته في تفسير سورة الإخلاص، كما سيأتي في النص الآتي.

(ج) أحال على جوابه المشهور في أن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن، فقال: «ولنا مصنف مبسوط في تفسير هذه السورة، وآخر في بيان أنها تعادل ثلث القرآن...»^(٣).

(ح) أحال على رده على الرافضة، ويشبه أن يكون أراد كتابه «منهاج السنة»، فقال: «كما بينا في الرد على الرافضة أنه لا يقدر أحد في الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان إلا أمكن أن يقدر بمثل ذلك وبأعظم منه في علي»^(٤).

(٢) إحالته المجملة في الكتاب على ما كتبه في بعض مسائله في موضع آخر، ووجدنا تصديقه في تصانيفه، ومن ذلك:

(أ) ذكر ظن بعض الناس أن الذي صاهره موسى عليه السلام كان شعيباً النبي عليه السلام، وقال: «وحكي أنه شعيب عمن لا يعرف من العلماء

(١) (٢/٣٢١).

(٢) (٤/٥٧٢).

(٣) (٣/٣١٥، ٣١٦). وكلاهما مطبوع مفرداً وضمن «مجموع الفتاوى».

(٤) (٣/٤٩٤).

ولم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين، كما بسطناه في موضعه»^(١)، وقد بسط ذلك في رسالة لطيفة منشورة^(٢).

(ب) ذكر غلط الفلاسفة وغيرهم في ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية أو طبيعية أو قوى فلكية وأن الفرق بين النبي والساحر إنما هو حسن قصد هذا وفساد قصد الآخر، ثم قال: «كما قد بسطنا الكلام عليه وبيننا جهل هؤلاء وضلالهم في غير هذا الموضع»^(٣). وقد بين ذلك في مواضع من كتبه^(٤).

وأمثلة هذا كثيرة لا حاجة للإطالة بها.

(٣) وقوع بعض ما لم نقف على سياقه بلفظه في المصادر، كما وقع في كتب الشيخ الأخرى، كما في سياق حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي»^(٥)، وحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب...»^(٦)، وغيرهما.

ومن الدلائل والقرائن الخارجية المستفادة من الأصول الخطية المعتمدة ونقول العلماء:

(١) (٤٢٩/١).

(٢) «جامع الرسائل» (١/٥٩-٦٦).

(٣) (٤٨٥/١).

(٤) «النبوات» (١٣٨، ٥٠٦، ٦٧٨، ٧٠٤-٨٣٧، ٨٦٦)، و«الصفدية» (١/١٣٤-١٦٣، ١٦٥،

٢٢٢)، و«شرح الأصبهانية» (٥٧٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٧/٣٣٧، ١٩/١٥٨).

(٥) (١٠/١).

(٦) (٤٧٣/١).

(١) قراءة الكتاب على مصنفه شيخ الإسلام وكتابه استدراكاً في طرة النسخة المقروءة عليه بخطه المعروف (ق ٩٧ / ظ)، وقد أكد ذلك أحد العلماء الذين طالعوا النسخة فكتب تحت خط شيخ الإسلام: «حاشية: هذه التخریجة بخط المصنف رحمته الله»، وهي نسخة دار الكتب المصرية المرموز إليها في تحقيقنا برمز (د)، وأصلها من مكتبة العلامة أحمد تيمور باشا.

(٢) نسبة الكتاب إليه على ظهور وخواتيم نسخ خطية قريبة العهد بحياته بخطوط علماء معروفين بالثقة والعناية بتراث شيخ الإسلام، كنسخة التيمورية التي بخط المحدث محمد بن أبي بكر الساوجي (ت: ٧٤٩)، ونسخة الظاهرية التي بخط المحدث أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب عبدالله المقدسي (ت: ٧٧٦)، ونسخة متحف طوبقبو المكتوبة سنة ٧٣٠ بعد وفاة المصنف بستين.

(٣) نقل أهل العلم عن الكتاب منسوباً إلى شيخ الإسلام، ووجود ما نقلوه في كتابنا، كما مضى في نقل الحافظ ابن حجر والسفاريين وغيرهما.



سبب تأليف الكتاب

أشار المصنف رحمته الله في مقدمته إلى سبب تأليف الكتاب، فذكر أنه ألفه جواباً عن كتاب ورد إليه من «قبرص» يُنسب إلى أحد علماء النصارى ومؤلفيهم وهو «بولس» الراهب أسقف «صيدا» الأنطاكي، وقد سمى كتابه: «الكتاب المنطقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم»^(١).

وكان «بولس» قد كتب هذه الرسالة إلى بعض أصدقائه، وذكر فيها أن رسالة محمد صلوات الله عليه خاصة بالعرب، وأن المسلمين على دين محرّف، وأنه لما سافر إلى بلاد الروم والقسطنطينية، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية من المسلمين، وفاوض أفاضلهم، وناظر علماءهم = أفحمهم، وأبطل دينهم، وحطّم شبهاتهم...!

وقد ضمّن رسالته هذه الاحتجاج لدين النصارى، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملّتهم من الحجج السمعية والعقلية، والاستدلال على عقيدة التثليث وتناسخ الأرواح والاتحاد والحلول، وغير ذلك من معتقدات النصارى.

ولذلك صارت هذه الرسالة عمدة النصارى التي يعتمد عليها علماءهم في زمان المصنف وقبل زمانه، ويتناقلونها بينهم.

(١) وهي رسالة صغيرة لها نسخ خطية كثيرة، ونشرت مراراً.

وما زالت إلى الآن معتمد النصارى ومستندهم في حواراتهم ومناظراتهم^(١).

وهي من أهم مصادر النصرانية؛ لأنها تحوي خلاصة معتقد النصارى، وقد تلقوها بالقبول والتقدير، بل ذهب بعضهم إلى وجوب الاكتفاء بها، ولا سيما في بيان موقف النصرانية من الإسلام^(٢).

قال لويس شيخو: «ومن يطلع على هذه المقالة يقر بلا شك لصاحبها بسعة العلم وسداد الرأي وحسن البيان؛ إذ ميّز كل فرقة من نصارى زمانه، وعرف ما في قولها من الشطط، مفندًا مزاعمها تفنيديًا لطيفًا قريب المنال»^(٣).

وقد تصدى لنقضها والرد عليها طائفة من علماء المسلمين، منهم:

♦ شهاب الدين القرافي (ت: ٦٨٤) في كتابه «الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة»، وقال في أوله: «أما بعد، فإن بعض النصارى قد أنشأ رسالة على لسان النصارى، مشيرًا أن غيره هو القائل، وأنه هو السائل، مشتملة على الاحتجاج بالقرآن الكريم على صحة مذهب النصرانية، فوجدته قد التبس عليه المنقول، وأظلمت لديه قضايا العقول...»^(٤).

♦ محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت: ٧٢٧) في جواب أفردته للرد عليها، طبع بتحقيق بولس الخوري سنة ٢٠١٢م عن المكتبة البولسية ببلبنان، كما سجل رسالة دكتوراه بالجامعة الإسلامية بالمدينة

(١) انظر: «منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى» لعبد الراضي عبد المحسن (ص ٦٣).

(٢) المصدر السابق، و«الصحائح في جواب النصائح» للشماس ابن العسال (ص ٤٠).

(٣) مجلة المشرق، السنة ٧، العدد ١٥، آب سنة ١٩٠٤م (٧/٧٠٢).

(٤) «الأجوبة الفاخرة» للقرافي (ص ٤٧).

المنورة سنة ١٤٣٢ للباحث عبد الإله بن عبد العزيز التويجري، بعنوان: كتاب فيه جواب رسالة أهل جزيرة قبرص في الرد على النصاري لشمس الدين محمد ابن أبي طالب الدمشقي المتوفى ٧٢٧هـ دراسة وتحقيقاً.

♦ شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨) في كتابنا هذا «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، وهو أوسع الكتب التي أفردت لنقض الرسالة وإبطالها.

وقد اختلف الباحثون في تقدير عصر مؤلفها، فظن لويس شيخو أن مؤلفها كان في القرن السابع الهجري، معاصراً للشيخ الإسلام، وذهب آخرون إلى أنه في القرن السادس، بينما رجح بعض المحققين أنه كان في القرن الرابع الهجري وكان معاصراً للحسن بن أيوب صاحب الرسالة التي أوردها شيخ الإسلام كاملة في معرض الرد على ما جاء في رسالة «بولس»، يؤيد ذلك ما جاء في رسالة الحسن بن أيوب من حكاية بعض ألفاظ بولس وعباراته بنصها، مما يؤكد تزامنها، إضافة إلى أن المصنف قد أشار إلى قدم هذه الرسالة وتعدد نسخها واختلاف حجمها^(١).

وأيّ ما كان، فقد تجرّد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ للجواب عن هذه الرسالة بما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب؛ طلباً للنفع، وإحقاقاً للحق، ونشراً ودعوة للدين الصحيح.



(١) ينظر: «منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصاري» لعبد الراضي عبد المحسن (ص ٦٨، ٦٩).

موضوع الكتاب، وترتيبه، وأهميته

موضوع الكتاب:

أبان المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عن موضوع الكتاب في مقدمته، وأنه في الرد على رسالة «بولس» المذكورة، وردًا على ما فيها من معتقد النصارى ومزاعمهم، وقد انحصر موضوع رسالة «بولس» في ستة فصول:

الفصل الأول: دعواهم أن محمدًا ﷺ لم يُبعث إليهم بل إلى أهل الجاهلية من العرب، ودعواهم أن في القرآن ما يدل على ذلك، والعقل يدل على ذلك.

الفصل الثاني: دعواهم أن محمدًا ﷺ أثنى في القرآن على دينهم الذي هم عليه، ومدَّحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه.

الفصل الثالث: دعواهم أن نبوات الأنبياء المتقدمين، كالتوراة والزبور والإنجيل وغير ذلك من النبوات تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم، والتثليث، والاتحاد، وغير ذلك، بأنه حق وصواب، فيجب التمسك به، ولا يجوز العدول عنه إذا لم يعارضه شرعٌ يرفعه، ولا عقل يدفعه.

الفصل الرابع: فيه تقرير ذلك بالمعقول، وأن ما هم عليه من التثليث ثابت بالنظر المعقول، والشرع المنقول، موافق للأصول.

الفصل الخامس: دعواهم أنهم موحدون، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظٍ يظهر منها تعدد الآلهة، كألفاظ الأقانيم: فإن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التي يظهر منها التشبيه والتجسيم.

الفصل السادس: أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال، فلا حاجة بعد النهاية إلى شرع يزيد على الغاية، بل يكون ما بعد ذلك شرعاً غير مقبول.

فتصدى المصنف ﷺ للرد على تلك الدعاوى، وانتصر للمذهب الحق، وحشد من الأدلة النقلية والعقلية = الدالة على رد مذهبهم وتقرير العقيدة الإسلامية الصحيحة = ما لا يدع مجالاً للشك أو الريب.



ترتيب الكتاب:

بنى المؤلف ترتيب كتابه - في الجملة - على فصول رسالة «بولس» الستة المذكورة آنفاً في موضوع الكتاب، لكنه فصل القول فيها، واستطرد في ذكر مسائل وقواعد يفوتها الحصر.

✧ فبدأ كتابه بمقدمة ضمَّنْها أموراً، منها: تقرير أن الدين عند الله الإسلام، وأنه دين الأنبياء كلهم، وهو الدين الذي ارتضاه لنفسه سبحانه وتعالى، ولا يقبل من أحد ديناً غيره لا من الأولين ولا من الآخرين.

✧ كما أشار في المقدمة إلى سبب تأليف هذا الكتاب، وما تضمنته رسالة «بولس» من دعاوى، وبين منهجه - باختصار - في رد تلك الدعاوى.

✧ ثم عرَّض الشبهة الأولى من شبهاتهم وهي ادَّعائهم أن الرسول لم يبعث إلا إلى أهل الجاهلية من العرب، وأبطل ما يتمسكون به مما يدَّعون أنه أدلة، وذكر في مقابل ذلك النصوص النقلية والعقلية القاطعة بعموم رسالته ﷺ، وأنه

بعث للناس كافة، وللثقلين الإنس والجن.

❖ ثم عقد فصولاً للردّ على النصارى في بعض عقائدهم، كالصلب والفداء، والاتحاد والحلول، وادعائهم أن النبي ﷺ لم يبشّر به، وبين - أيضاً - في ثنايا ذلك حقيقة الروح، والفرق بين ما يضاف إلى الله من صفاته، وما يضاف إليه من مملوكاته.

❖ ثم كرّ أخرى على النصارى في رد احتجاجهم على صحة مذهبهم بأن الإسلام عظم الإنجيل والحواريين، كما قدّس معابدهم، وشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيراً، وأن القرآن صدّق كتبهم التي بين أيديهم، وأنه أقرّهم على ما هم عليه، وأن بعض آياته جاءت في امتداحهم والثناء عليهم، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وكقوله تعالى - في الثناء على الرهبانية -: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

❖ وقرّر ﷺ في ثنايا ذلك قضايا عدة، منها: ثبوت صدق محمد ﷺ عند أهل الكتاب وأن التبديل والتحريف في ألفاظ التوراة والإنجيل من قبل مبعث النبي ﷺ وبعده، إضافة إلى انقطاع سندهما، وعلى هذا فقياس النصارى كتبهم على القرآن قياس باطل.

❖ كما تعرّض لبيان أسباب ضلال النصارى، والخوارق التي تُضلل بها الشياطين بني آدم.

❖ ثم توسّع في بعض ما أورده في المقدمة مختصراً من إلزام اليهود والنصارى بدين الإسلام، وذكر أنه دين الأنبياء جميعاً، وأن على المسلمين الدعوة إليه ومحاكاة الظالمين، لإقامة الحجة، وبيان المحجة.

❖ ثم رجع أخرى لرد بعض دعاوى النصارى، وذكر منها: دعواهم أن الظلم اتصف به اليهود دونهم، وأن القرآن نفى عنهم الشرك، بل سوى بين جميع الأديان، كما أنه لا يليق بهم أن يتركوا كلمة الله عندهم التي عظمها القرآن، والمسيح الذي وصفه بأنه عبد الله ورسوله.

❖ ثم أسهب في بيان اضطراب النصارى الشديد في قضايا الاعتقاد الأساسية عندهم كالتثليث، ومعنى الروح، وطبيعة المسيح، وحقيقة الاتحاد والحلول، والجواهر والأقانيم، وردّ ما تعلقوا به من نصوص الأنبياء، وادعائهم تصديق الكتب السماوية لما قالوه.

❖ ونقل في خلال ذلك رسالة لأحد علمائهم ممن أسلم وهو الحسن بن أيوب، يذكر فيها سبب إسلامه ويذكر الأدلة والحجج العقلية والسمعية على بطلان دين النصارى وصحة دين الإسلام، وهو من أخبر الناس بمقالاتهم، وقد أسلم على بصيرة بعد الخبرة بكتبهم ومعتقداتهم.

❖ ثم أورد كلام بعض المنتصرين لدين النصرانية، كسعيد ابن البطريق، بطريك الاسكندرية، الذي صنف كتاباً سماه: «نظم الجواهر» ذكر فيه أخبار النصارى ومجامعهم واختلافهم، وتاريخ النصرانية، وسبب إحداثهم ما أحدثوه، مع انتصاره لقول الملكية والرد على من خالفهم.

وقد استوعب المؤلف ﷺ كلامه في ذلك مع نقده ونقضه.

❖ ثم ذكر فصلاً في ردّ ما احتجّوا به من التوراة والإنجيل وغيرهما مما يدّعون أنه من كلام الأنبياء، ولم يَقم دليلٌ على نبوة من احتجوا بكلامه، كميخا وعاموص وغيرهما.

❖ ثم عقد فصلاً طويلاً في بشارات الأنبياء، وبين طرق معرفتها، وشهادات الكتب المتقدمة لمحمد ﷺ وضرب لذلك أمثلة من الزبور، وأسفار التوراة، وبشارات المسيح ﷺ.

❖ وأخيراً ختم الكتاب بسرد دلائل نبوة محمد ﷺ وآيات صدقه، وبعض معجزاته ﷺ.

وقد رتب هذه الدلائل وصنفها بحسب أنواعها، وذكر أمثلة لكل نوع، وتخلل ذلك ذكر بعض المسائل المهمة المتعلقة بدلائل النبوة.



أهمية الكتاب:

يعد هذا الكتاب معلمة في علم مقارنة الأديان، ومن أجل ما أُلّف في بابه، بل لا نظير له في فنّه، وهو أغزر ما كتب عن المسيحية في الإسلام.

قال ابن عبد الهادي مبيناً بعض جوانب جلالة الكتاب وأهميته: «وهذا الكتاب من أجلّ الكتب وأكثرها فوائد، ويشتمل على تثبيت النبوات وتقريرها بالبراهين النيرة الواضحة، وعلى تفسير أي كثير من القرآن، وعلى غير ذلك من المهمات»^(١).

(١) «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص ٤٤).

ولجلالة هذا الكتاب قال العلامة أبو زهرة: «هو - وحده - جديرٌ بأن يكتب ابن تيمية في سجلّ العلماء العاملين، والأئمة المجاهدين، والمفكرين الخالدين».

ولا غرو، فقد قال الذهبي عن إمامة شيخ الإسلام في هذا الباب: «أما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له نظيراً»^(١).

وقال ابن سيد الناس: «ألفيته ممن أدرك العلوم حظاً، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته»^(٢).

ويمكن إبراز أهمية كتابه هذا في أمور:

منها: اعتماده الوحيين (الكتاب والسنة) المصدر الأول في مقام الاستدلال والاحتجاج، وهذا النهج التأصيلي في الاستدلال يظهر من خلال ما رَسَّخه من قواعد محكمة تتمثل في تقديم النقل على العقل مطلقاً، وأن تقرير أي معتقد من المعتقدات متوقف على ثبوته بنقل صحيح أو دلالة العقل الصريح عليه، إضافة إلى أن الشريعة المحمدية هي المهيمنة على سائر الشرائع، والقرآن هو النصّ الوحيد المحكم الذي يُمكن الركون إليه، والتعويل عليه، والمشهود له - بشهادة النصارى أنفسهم - بصحة نقله وتواتره.

(١) نقله عنه البرزالي مما كتبه بخطه في بعض الإجازات. ينظر: «العقود الدرية»: (ص ٣٩)، و«الرد الوافر»: (ص ٣٣).

(٢) حكاه عنه ابن عبد الهادي في «العقود الدرية»: (ص ٢٦)، والذهبي في «المعجم المختص بالمحدثين»: (ص ٢٥)، وابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة»: (٤/ ٥٠٠).

ومنها: توظيف الأساليب المختلفة واستعمال المناهج المتعددة في طرح القضايا، وبيان الأدلة، ومناقشة النصارى في استدلالاتهم، فقد جمع في ذلك بين منهج الوصف والتحليل، ومنهج النقد والجدل، والناظر إليه بإنصاف يقرُّ بيقين ما يقره من فكر واعتقاد، فهو لا يكاد يذكر شبهة إلا ويظهر فسادها ويجلي الحق فيها، بأصدق حجة، وأقوى محجة، شأنه في ذلك شأن سائر مؤلفاته رَحِمَهُ اللهُ.

ومنها: توسُّعه في المقارنة بين الإسلام والأديان الأخرى، فلم تقف الموازنة عند الإسلام والنصرانية فحسب، بل تخطت ذلك إلى الأديان والعقائد الأخرى؛ كاعتقادات اليونان والهنود والفرس والتُّرك والبربر وغيرهم، وذلك لبيان وجوه المشابهة، وأوجه الاختلاف، ونقاط الالتقاء والافتراق..

فكان في ذلك كله تصويرٌ واضحٌ لمحاسن الإسلام، وإظهارٌ بينٌ لفضائل تعاليمه وشرائعه..

وحصل بهذا التوسع في الموازنة والمقارنة والعمق في النظر والتحليل أن تبين للمطالع مدى تأثير الوثنية في النصرانية، وتأثير النصرانية بها، ودخول التبديل والتحريف إليها عن طريقها، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿[التوبة: ٣٠].

كما فتح هذا التوسُّع بابًا جديدًا للرد على النصارى، ونقد معتقداتهم، وذلك بتوظيف مواضع الإجماع والمسلمات بين أهل الملل؛ لتكون ألزم في الاحتجاج بها عليهم.

ومنها: اشتماله على أكثر ما يورده النصارى من شبهات وردود، وما يستشكلونه من نصوص قرآنية يدعون تناقضها، مع الإحاطة بمذاهب القوم وآرائهم، ومسالكتهم في الاستدلال والاحتجاج، ومعرفة بطرائق الرد ودفع الافتراءات، ممهّداً لذلك بكليات يشدها بأدلة الاستقراء من صحيح المنقول وصريح المعقول.

ومنها: دراسته الكتاب المقدس - عندهم - دراسة نقدية قائمة على أسس علمية منهجية، وقد وضع جملة من المعايير المنهجية التي تتوقف عليها معرفة البرهان اليقيني على صحة كتاب من الكتب الإلهية التي أوحى الله بها إلى أنبيائه ورسله، من ذلك:

- ◀ ثبوت نبوة من تُنسب إليه هذه الكتب.
- ◀ العلم القطعي بإملاء النبي أو كتابته تلك الكتب بناء على وحي إلهي.
- ◀ اتصال السند المتواتر إلى هذه الكتب حتى وصولها إلينا.
- ◀ نقل متونها دون تغيير أو تبديل.
- ◀ صحة ترجمتها من لسان النبي المعين إلى اللغات الأخرى.

وهذا كله مما يفقده كتابهم المقدس؛ إذ ليس عند اليهود ولا النصارى نقل متواتر ولا آحاد بهذه الأسفار والأنجيل في الجملة، بل وقع فيها من التحريف والتبديل والتغيير ما هو ظاهر بين، يدل على ذلك اختلاف نسخها في نصوصها، وترجمتها، وتفسيرها، ولذا اختلفت النسخ المعتمدة في العهد القديم، لدى كل من اليهود والنصارى والسامرة كما هو معروف، وكذا العهد الجديد فإن أسفاره المعتمدة اليوم لا تمثل إلا نزرًا يسيرًا من عشرات الكتب المماثلة، والتي استبعدتها علماء النصارى في القرن الخامس الميلادي.

إضافة إلى اختلاف النصوص والألفاظ بين النسخ، وتناقض المعاني وتضاربها.

ومنها: الاحتجاج على النصارى بما في كتبهم، وترجمته نصوص التوراة والإنجيل من العبرانية إلى العربية، ونقله منها عند الحاجة لإلزام الخصم ورد الشُّبه والدعاوى.

وللشيخ اطلاع على التوراة باللغة العبرية، كما له إلمام ومعرفة بهذه اللغة، فقد قال عن نفسه^(١): «والألفاظ العبرية تقارب العربية بعض المقاربة، كما تتقارب الأسماء في الاشتقاق الأكبر. وقد سمعت ألفاظ التوراة بالعبرية من مسلمة أهل الكتاب فوجدت اللغتين متقاربتين غاية التقارب، حتى صرت أفهم كثيرًا من كلامهم العبري بمجرد المعرفة بالعربية».

ولذا لم يكتف بنقل البشارات بالنبي ﷺ من كتب دلائل النبوة، بل رجع إلى كتب النصارى بنسخها المتعددة، وقارن بينها.

قال رحمه الله: «إن الاختلاف في نسخ التوراة ونسخ الإنجيل والزبور قد رأيناه نحن بأعيننا، ورآه غيرنا، فرأيت عدة نسخ من الزبور يخالف بعضها بعضًا اختلافًا كثيرًا»^(٢).

إلا أنه في نقل البشارات من التوراة والإنجيل اعتمد على المصنفين السابقين، وعلى الترجمات التي اعتمدها، ولا سيما ثلاثة علماء، هم: ابن قتيبة، وأبو البقاء الهاشمي، وابن ظفر.

(١) في «مجموع الفتاوى»: (٤/ ١١٠).

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٣٠٨، ٢/ ٥٧، ٨٧، ٩٣).

ومنها: استيفاءه ما كُتب قبله في الملل والنحل، بل أربى عليه، حيث كشف عما كتبه الشهرستاني والأشعري وابن حزم وغيرهم في الرد على النصارى، وزاد على ذلك.

ومنها: اشتماله على فنون كثيرة، وعلوم شتى، ليس فيما يتعلق بالرد على النصارى فحسب، بل تطرق لمواضيع أخرى، منها:

مباحث في علم العقيدة، وفي النبوات، والتفسير، والحديث ومصطلحه، والتاريخ عمومًا، وتاريخ النصرانية خصوصًا، بل حرر مسائل فقهية قد لا توجد في كتاب، وتعرض لعلم النفس والاجتماع والسياسة الشرعية، وقارن أحوال المسلمين في ذلك بأحوال الروم، ونقد المنطق، وأشار إلى بعض مسائله، وفند شبهات الفلاسفة، وذكر أبحاثًا في الأدب واللغة والترجمة عند حديثه عن الكتاب المقدس - عندهم -، إلى آخر تلك العلوم التي تضمنها هذا السفر العظيم.

ومنها: تضمّنه رسائل مفقودة، ورجوعه إلى مصادر ربما تكون نادرة أو مخطوطة، كرسالة الحسن بن أيوب المشار إليها، وكتاب بولس المتقدّم ذكره في سبب تأليف الكتاب، مما يكشف سعة اطلاع الشيخ على تلك النحلة ومصادرها.

هذا فضلًا عن مصادر إسلامية لم تتصل بنا في هذا الزمان، مثل دلائل النبوة لأبي زرعة الرازي.

ومنها: الإفادة من كتابات المهتدين للإسلام، وتوظيفها في الرد على النصارى، فقد نقل رسالة الحسن بن أيوب إلى أخيه علي بن أيوب،

التي أشار إليها النديم^(١) حيث قال: «الحسن بن أيوب من المتكلمين، وله من الكتب كتابٌ إلى أخيه: عليّ بن أيوب في الرد على النصارى، وتبيين فساد مقالتهم، وتثبيت النبوة». ولم نعثر عليها في غير هذا المصنّف.

وقد تضمنت هذه الرسالة الردّ على معتقدات النصارى ممن كان من أهلها، والشهادة بأن الدين الصحيح هو الإسلام، حيث قال الحسن بن أيوب: «ثم أعلمك - أرشدك الله - أن ابتداء أمري في الشك الذي دخلني فيما كنت عليه والاستبشاع بالقول به منذ أكثر من عشرين سنة؛ لما كنت أقف عليه في المقالة من فساد التوحيد لله عز وجل بما أدخل فيه من القول بالثلاثة أقانيم وغيرها مما تضمّنته شريعة النصارى، ووضع الاحتجاجات التي لا تزكو ولا تثبت في تقرير ذلك، وكنت إذا تبخّرت وأجلّت الفكر فيه، بان لي عوارّه، ونفرت نفسي من قبوله، وإذا فكّرت في دين الإسلام الذي منّ الله علي به، وجدت أصوله ثابتة وفروعه مستقيمة وشرائعه جميلة».

ومنها: تميّزه عن سائر كتب الردود بتوسّعه في المصادر، وإشرافه على أغلبها، فقد اعتمد في إثبات عقائد النصارى على كتبهم، واعتاد الإشارة إلى مصادره - غالباً - إما بالتصريح أو التلميح، متلافياً بذلك قصور المؤلفات قبله في اكتفائها بالنقل من المؤلفات الإسلامية في بيان عقائد النصارى والرد عليهم، كما هو شأن كتاب القرافي وغيره، وسيأتي الكلام عليه.

(١) في «الفهرست» (ص ٢١٤).

ومنها: التحرير العلمي في نقل الأقوال والمذاهب، وكذا سرد التواريخ والأحداث، أدّى إليه اعتماده على مصادر أصيلة موثوق بها، وسلوكه منهج الفحص والتحليل، غير مكتفٍ بمجرد النقل والتسليم دون نقد أو تمحيص. ومنها: الموضوعية، والتحرّر من ركوب الهوى والانقياد للميل الشخصي والنزعات الذاتية في الطّرح والتحليل وإصدار الأحكام والنتائج. آية ذلك وشاهده: تقريره المسائل والقضايا بالاعتماد على دعائم ثلاث؛ هي: (العلم، وشمول الاستقراء والتتبع، والعدل والإنصاف في الحكم). فقد تناول جميع جوانب النصرانية وقضاياها من زاويتين مهمتين:

○ تبديل دين المسيح.

○ وتكذيب محمد ﷺ.

ولم يكن الإمام في ذلك إلا متعصّباً للحق وحده، دائراً معه حيث يدور، وبهذا تنطق كتبه ورسائله وآراؤه.

وليس أدلّ على التزامه التام بالعدل والإنصاف من تفضيله النصاريّ وعلومهم بعد النسخ والتبديل على الفلاسفة وإن كانوا من المنتسبين للإسلام، وعلى بعض الملاحدة كغلاة الشيعة القائلين بألوهية علي بن أبي طالب، والقائلين بوحدة الوجود من الصوفية، لأن النصاريّ يؤلّهون المسيح وهو نبي أفضل ممن يؤلّهُه هؤلاء، كعليّ وغيره. كقوله: «اليهود والنصاريّ بعد النسخ والتبديل أعلم من هؤلاء بالعلوم الإلهية والأخلاق والسياسات فضلاً عما وراء ذلك».

ومنها: التزامه الحسنّى في الحوار، والهدوء في المناقشة، وامتناله الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وقد أكد على ذلك في أكثر من موضع، لكنه قسّم أهل الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

﴿أهل الذمة والعهد والمستأمن يدخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن.﴾

﴿والظالمون في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وهم نوعان: ظالم مستحق للقتال، طالب للعلم معاندٌ يعلم أنه على باطل، وهذا لا يجادل بالتي أحسن، بل بطرق أخرى تبين عناده وظلمه.

﴿والمستجير المستأمن من أهل الحرب فهذا قد أمر بإجابته وإبلاغه مأمنه، حتى تقوم حجة الله عليه، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾﴾ [التوبة: ٦]، والمراد بالسمع هنا السمع الذي يمكن معه من فهم المعاني.

ولهذا يُعدّ منهجه في دراسة النصرانية خير مثال للجدل بالتي هي أحسن، ولعل هذا الكتاب أهدأ ما كتب ابن تيمية في الجدل.

ومنها: تفرّده بمسائل وفوائد لم يسبق إليها، كتقسيمه المبتكر لأنواع المعجزات إلى:

◆ معجزات العلم، كالإخبار بالغيوب.

◆ ومعجزات القدرة، ومنها ما هو في العالم العلوي، كانشقاق القمر، والإسراء والمعراج. وما في العالم السفلي كتصرفه في الإنسان والجن والبهائم.

◆ ومعجزات الغنى^(١).

(١) ينظر: «منهج أهل السنة والجماعة في الردّ على النصارى»، دراسة علمية من خلال جهود الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، للدكتور: عبد الراضي بن محمد عبد المحسن، و«المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية»، للشيخ بكر أبو زيد، و«ابن تيمية؛ حياته وعصره، آراؤه وفقهه» للشيخ محمد أبو زهرة.

منهج المؤلف في كتابه

بيّن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مِنْهُجَهَ باختصار في مقدمة كتابه، فقال: «وأنا أذكر ما ذكره (أي: النصارى) بألفاظهم بأعيانها فصلًا فصلًا، وأُتبع كلَّ فصلٍ بما يُناسبه من الجواب فرعًا وأصلًا، وعقدًا وحلًّا»^(١).

وقال: «ونحن والله الحمد والمنة نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية من القرآن، أو من الكتب المتقدمة على القرآن، أو عقلية، فلا حجة لهم في شيء منها، بل الكتب كلها مع القرآن والعقل حجة عليهم لا لهم، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، ومن المعقول فهو نفسه حجة عليهم، ويظهر منه فساد قولهم مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية، والموازن التي هي مقاييس عقلية»^(٢).

وعلى ضوء هذين النصين يمكن الحديث عن معالم منهجه في أمور:

أولاً: يذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ شبهات النصارى مقسّما كلام علمائهم إلى فقرات، بحسب موضوعاتها.

ثانياً: يفرد كل فقرة بعنوان فصل مستقل، يتناول ما جاء فيها بالبيان والرد، سالكا مسلك الوصف والتحليل، والنقد والجدل.

ثالثاً: يستوعب في ردّ الشبه الأدلة من القرآن والسنة، إضافة إلى الاستشهاد بالبراهين العقلية، والقواعد المنطقية، بل يحتجّ على النصارى بما في

(١) (٢٨/١).

(٢) (٣١/١).

كتبهم، ويترجم ما فيها، وينقل أقوال مَنْ أسلم من علمائهم، إذ هم بهذا الطريق أعرف، وبمسالكه أخبر.

رابعًا: يعتمد على المنهج التاريخي في بعض القضايا، كإثبات ضياع التوراة الأصلية بعد استيلاء «بختنصر» على بيت المقدس، وتبديل دين المسيح بإقرار «الأمانة» في مجمع نيقية (٣٢٥م)، وكذلك عند ذكره بعض دلائل نبوة محمد ﷺ.

خامسًا: قلب الأدلة التي يأتي بها أهل الضلال ليستدلوا بها على باطلهم، فإنه ﷻ كان يبطل مذهبهم بنفس ما احتجوا به، ويبين من أي الجهات أتوا.

سادسًا: كان ﷻ في كثير من ردوده يكتفي (بالمنع) لأنه أصل قاعدة لمناقشة ما ينقله النصارى ابتناها على ثلاثة أركان، وقد استعملها في عامة أجوبته، وكان أحيانًا يشير إليها ويحيل عليها، اكتفاء بذكرها في بعض المواضع.

وهذه الأركان هي:

١- أن ما ينقلونه عن الأنبياء إنما تتم الحجة به إذ عُلِمَ إسناده وامتته، فيُعْلَم أنه منقول عنهم نقلًا صحيحًا.

٢- الركن الثاني: أن نعلم أن ترجمته من العبرية إلى اللسان الآخر، كالرومية والعربية والسريانية ترجمة صحيحة.

٣- الركن الثالث: أن يُعْلَم أنهم أرادوا به ذلك المعنى^(١).

فكان ﷺ إذا أفسد ما ذكره بنقض هذه المقدمات يتنزل معهم أحياناً بعرض ما نقلوه ويردّ عليهم بالحجج البينة والبراهين الواضحة التي لا تجعل لهم معها بعد ذلك أدنى شبهة.

سابعاً: تنظيره ﷺ النصارى ببعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام في غلوهم وما آل إليه أمرهم فيه سواء بسواء.

ثامناً: من الأمور التي انتهجها المصنف ﷺ - وهي عادته في عموم كتبه - إحالته للمسألة أو القضية التي يناقشها على مواضع أخرى من الكتاب أو إلى مصنفاته الأخرى. وقد اجتهدنا في عزو هذه الإحالات إلى مواضعها.

تاسعاً: كثيراً ما يذكر المصنف ﷺ المسألة ثم يأخذ في تقسيمات وتفصيلات تثري الباب وتزيد المسألة بياناً ثم يعود بقوله: والمقصود كذا وكذا. وقد تكرر مجيء هذه العبارة في هذا الكتاب كثيراً. وهي من سمات بحوث المؤلف الطويلة، فإنه عادة ما يستطرد، ثم يعود إلى المسألة الأصلية بنحو هذه العبارات، وهذا من سيلان قلمه وذهنه المعروفين عنه.

عاشراً: يعيد المصنف ﷺ بعض التفصيلات أو الأوجه التي مرّت في أجوبته أحياناً، ويكون سبب الإعادة أن الشبهة مقصودها واحد، أو أن الجواب فيه ذكر قواعد عامة تصلح لكثير مما أوردوه، أو أن المقام يستدعي التكرار بتفصيل أكبر، وهكذا فإن ما في هذا الكتاب من التكرار والاستطراد لا ينفك عن بيان زائد وتأكيد على القواعد وزيادة علم وتحقيق.

حادي عشر: ناقش المؤلفُ النصاريّ بالعلم والعدل لا بالظن والهوى. ولم
يحمّله بغضه لهم على ردّ كل ما جاؤوا به، فإنه كان إذا ورد
شيء من الحق من جهتهم يقرّه ويبين أن هذا مما لا ينازعون
فيه، وإذا ردّ عليهم باطلهم ردّه بحجج وأدلة دامغة.



موارد الكتاب

يمكن تقسيم موارده إلى ثلاثة أقسام:

- ◀ كتب صرح بأسمائها.
- ◀ كتب لم يصرح بأسمائها.
- ◀ أعلام نقل آراءهم، وهي على قسمين، ما عرف الكتاب الذي نقل عنه، وما لم يعرف.

✽ أما التي صرح بأسمائها: فهي إما كتب أو رسائل أو وثائق.

✽ أما الكتب:

فمن كتب الفرق والطوائف:

- ◀ «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» أو «نظم الجواهر»، لافتيشوس، المعروف بسعيد ابن البطريق، بطريق الاسكندرية.
- ◀ «الملل والنحل»، لأبي الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ).
- ◀ «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، لأبي محمد ابن حزم (ت ٤٥٦هـ).

ومن كتب الدلائل:

- ◀ «دلائل النبوة»، لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ).
- ◀ دلائل النبوة للبيهقي (ت ٤٥٦هـ).

ومن كتب السنة:

- ◀ الكتب الستة.
- ◀ مسند أحمد. (ت ٢٤١هـ).
- ◀ صحيح ابن حبان (٣٥٤هـ).

- ◀ كتاب السنة. للخلال (٣١١هـ).
- ◀ «الموضوعات»، لأبي الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).
- ◀ جامع الترمذي (ت ٢٧٩).
- ◀ سنن أبي داود (ت ٢٧٥).
- ◀ الأموال لأبي عبيد (ت ٢٤١).
- ◀ الصحيحان

ومن كتب التفسير:

- ◀ تفسير ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧).
- ◀ تفسير الطبري (ت ٣١٠).
- ◀ تفسير سنيد (ت ٢٢٦).

ومن كتب التاريخ:

- ◀ «التاريخ الكبير»، للإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ).
- ◀ الحلية لأبي نعيم (ت ٤٣٠).
- ◀ السيرة لابن إسحاق (ت ١٥١).
- ◀ شرح السيرة «الروض الأنف» للسهيلي (ت ٥٨١).
- ◀ الطبقات لابن سعد (ت ٢٣٠).
- ◀ الفتوح لمحمد بن عائذ
- ◀ أخبار النصارى = التاريخ لابن البطريق
- كتاب فراكسيس.

◀ الأناجيل

◀ الزبور

ومن كتب الاعتقاد:

- ◀ «الرد على الجهمية»، للإمام أحمد (ت ٢٤١هـ).
- ◀ «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد»، لإمام الحرمين الجويني (ت ٤٧٨هـ).
- ◀ «شرح الإرشاد» لأبي القاسم الأنصاري، صاحب الجويني (ت ٥١٢هـ).

ومن كتب الفلسفة:

- ◀ «كتاب أثولوجيا». وهو فصول متزعة من «التاسوعات» لأفلاطون، وقد دفع هذا بعضهم إلى التشكيك في نسبته لأرسطو.
- ◀ «آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابي.
- ◀ «رسائل إخوان الصفا»
- ◀ «المضنون به على غير أهله»، لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ).
- ◀ «نظم السلوك» لابن الفارض (ت ٦٣٢هـ).

وأما الرسائل، فهي:

- ◀ «رسالة بولس الأنطاكي»، وهي سبب تأليف الكتاب، كما سبقت الإشارة إليه.
- ◀ «رسالة الحسن بن أيوب، إلى أخيه علي بن أيوب»، يذكر فيها سبب إسلامه، ويذكر الأدلة والبراهين على صحة دين الإسلام ومزاياه، وعلى بطلان دين النصاري، وقد وصفه شيخ الإسلام بأنه كان من أعلم الناس بدين النصاري، وأخبرهم بأقوالهم ومقالاتهم.

وأما الوثائق، فهي:

◀ الأمانة المقدسة، وهي قانون الإيمان، وخلاصة العقائد النصرانية، التي وضعها آباء المجمع المسكوني الأول المنعقد في نيقية سنة (٣٢٥هـ)

وأما الموارد التي لم يصرح بأسمائها فمنها:

◀ التعليقة للقاضي أبي يعلى (ت ٤٥٨) (١/٧٢).

◀ الشفا للقاضي عياض (ت ٥٤٤) (١/٢٢٧).

◀ نهاية العقول للرازي (ت ٦٠٦) (١/١١٣).

ومنها: موارد نص على أسمائها دون أسماء مؤلفيها:

مصنّف في حيل الرهبان (١/٤٩١).

وأما الأعلام الذين أفاد منهم أو نقل آراءهم وصرح بأسمائهم دون أسماء كتبهم، فهم على النحو التالي مرتبين على المعجم، ويراجع فهرس الأعلام:

◀ ابن إسرائيل.

◀ ابن الجوزي، من المنتظم وكشف المشكل وزاد المسير

◀ ابن الفارض.

◀ ابن حزم، من الفصل

◀ ابن رشد (الجد).

◀ ابن رشد (الحفيد).

◀ ابن سبعين.

◀ ابن سينا.

◀ ابن عربي.

◀ ابن عقيل، من الواضح.

- ◀ ابن هشام، من السيرة.
- ◀ أبو الحسن ابن الزاغوني.
- ◀ أبو الحسن التَّميمي.
- ◀ أبو الحسن الدارقطني.
- ◀ أبو الخطاب الكلوذاني، من التمهيد
- ◀ أبو القاسم الأنصاري.
- ◀ أبو القاسم سعد بن علي الزَّنجاني.
- ◀ أبو المعالي الجويني.
- ◀ أبو بكر الأثرم.
- ◀ أبو بكر الأنباري.
- ◀ أبو بكر القفال.
- ◀ أبو جعفر العقيلي.
- ◀ أبو حاتم ابن حبان.
- ◀ أبو حامد الغزالي.
- ◀ أبو حنيفة النعمان.
- ◀ أبو زرعة الرازي.
- ◀ أبو سعيد الخراز.
- ◀ أبو عبد الله الرازي.
- ◀ أبو عبد الله بن حامد.
- ◀ أبو نصر السَّجزي.
- ◀ أبو نصر الفارابي.

- أبو نعيم الأصبهاني.
- أبو يعلى القاضي.
- الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة).
- ارسطو.
- إسحاق ابن راهويه.
- أشهب (عبد العزيز بن داود).
- الأصمعي.
- الباقلاني.
- البويطي (يوسف بن يحيى).
- البيهقي.
- التلمساني (سليمان بن علي).
- الثعلبي، من تفسيره الكشف والبيان
- الجعد بن درهم.
- الجهم بن صفوان.
- الحاكم.
- حرملة بن يحيى.
- الحسن بن أيوب.
- الحلاج.
- الخلال، من السنة
- الربيعي.
- زفر بن الهذيل.

- سعيد بن البطريق.
- سفيان الثوري.
- سفيان بن عُيينة.
- السهروردي.
- الشافعي.
- الششتري.
- عبد الله البلياني.
- عبد الله بن المبارك.
- عبد الله بن كُلاب.
- الفارابي.
- فم الذهب (من علماء النصارى)
- قباد بن فيروز.
- قزمان.
- الليث بن سعد.
- محمد بن إسحاق القونوي.
- محمد بن إسحاق. (إمام المغازي).
- محمد بن الحسن الشيباني.
- محمد بن جبير.
- محمد بن نصير.
- محمود بن لبيد.
- مناني (مؤسس المنانية).
- يعقوب البرادعي.

وصف النسخ الخطية

تمكنا بحمد الله تعالى من الحصول على كل النسخ الخطية التي وجدنا إشارة إليها في الفهارس، وقد بلغ مجموعها عشر نسخ خطية، وهذا وصفها:

١. نسخة دار الكتب المصرية (د):

محفوظة بدار الكتب المصرية من مقتنيات المكتبة التيمورية برقم (٢٧٨ عقائد تيمور)، وعدد صفحاتها: (٨٣٤) صفحة، أسطر كل صفحة ما بين (٣١ — ٣٤) سطرًا تقريبًا، في كل سطر ما بين (١١ — ٢٣) كلمة؛ لتفاوت الخطوط.

وهي نسخة عتيقة — في أصلها — كتبت في حياة المصنف رحمته الله، وقرئت عليه، كما يظهر من التصويبات وعلامات المقابلة، بل عليها خطه كما في (٩٨/أ)، وعُلّق تحته: «حاشية: هذه التخریجة بخط المصنف رحمته الله».

وقد تعاقب على كتابة هذه النسخة نساخ بخطوط مختلفة متغايرة.

ووقع بها خروم في مواضع كثيرة من أولها وأثنائها وآخرها، وقد عمد بعض الناسخين وهو الحاج علي اللبدي الحنبلي فقام بترميمها وأكمل أغلب مواضع الخروم والنقص بها سنة (١٢٨١ هـ)، ومع ذلك لم تسلم من طمس كثير وبياض لا سيما أعلى الصفحة وأسفلها.

في أعلى صفحة العنوان كتب بخط واضح: (الجواب الصحيح)، وفي وسطها ختم وقفية لم يتبين في التصوير.

وفي آخرها: «تم الكتاب، آخر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

تسليماً كثيراً، بقلم أحقر الوري، وأذلّ الفقراء، الراجي رحمة اللطيف
المبدي، الحاج علي اللبدي الحنبلي، اللهم اغفر له ذنوبه واستر عيوبه،
 واجمعه بحبيبه سيد المرسلين، واغفر لمن دعا له بالمغفرة والرضوان، آمين
أمين، آمين.

وذلك ليلة الأربعاء في غرة ربيع الأول المبارك، من شهور سنة ألف
ومائتين وواحد وثمانين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم
التحية، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد عبدك ورسولك، النبي
الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم، تم».

وعلى النسخة تعليقات منقولة من نسخة السفاريني الحنبلي
(ت: ١١٨٨).

وهذه النسخة اعتمد عليها محققو طبعة النيل، وقلّ أن تخرج عنها، ولعلها
من الأصول التي وقفوا عليها وأشاروا إليها بقولهم: «وكل تلك الأصول
صحيحة مقروء بعضها على المؤلف، وبعضها عليه قراءة بعض الأفاضل
كالحافظ ابن حجر، وبهذا جاءت نسختنا غاية في الصحة والاعتناء».

٢. نسخة المكتبة الظاهرية (ظ):

محفوظة في دار الكتب الظاهرية برقم (٥٦٦٦).

وكاتب النسخة هو أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب عبدالله
المقدسي، من آل المحب المقدسة الذين كانت لهم عناية كبيرة بنسخ تراث
شيخ الإسلام وجمعه والاهتمام به، قال فيه ابن حجر: «وتمهّر وتكلم على

النَّاسُ^(١) فأجاد وكانت له عناية بالحديث^(٢)، وكانت وفاته سنة (٧٧٦هـ) في ربيع الآخر.

بيّن ابن المحب أنه نقل النسخة من أصل عمه إبراهيم أبي إسحاق، وأن عمه نقل من نسخة المصنف.

وكتب في أواخر النسخة (ق: ١٧٣): «بلغ مقابلة بنسخة عمي أبي إسحاق إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ التي قوبلت على الأصل خط المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بعد أن نقلها منه والله الحمد والمنة على الإسلام والسنة». وذكر نحو ذلك في (ق: ١٨٥).

ومما يدل على أن الأصل المنقول منه مقابل على نسخة المؤلف ما ذكره في (ق: ١٦٣) حيث كتب في أول الجملة: (لا)، وفي آخرها (إلى)، ثم كتب في الهامش: كذا عليه بخط الشيخ (لا إلى).

وأبو إسحاق إبراهيم عم الناسخ من تلاميذ المؤلف، فقد وُلِدَ بعد سنة (٧٠٢هـ)، وطلب الحديث وقتاً، وقد وُصف بحسن الكتابة، حتى قال الذهبي: «سمع جملةً وقرأً ولديه فضيلةٌ وذهنه جيد وكتابه سريعة حلوة»^(٣).

وكانت وفاته في العشرين من رَجَب سنة (٧٤٩هـ) في الطاعون^(٤).

وليست هذه النسخة هي النسخة الوحيدة التي قابل عليها ابن المحب، بل هي الأصل، وقد قابل على نسخ أخرى، وأثبت الفروق بين أصله وبين

(١) مراده من الكلام على الناس: الوعظ، فقد كان مشهوراً به، فقد ذكره ابن حجر في إنباء الغمر (١/ ١٠٦) وقال: وكان لوعظه وقع في القلوب.

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٢٨٩. إنباء الغمر ١/ ٨٠.

(٣) المعجم المختص ٥١.

(٤) الدرر الكامنة ١/ ٨.

هذه النسخ، ولكنه لم يبين ما هي هذه النسخ، وإنما يكتفي بالرمز: (خ). وفي موضع واحد (ق ١٦٧) كتب: «نسخة: دعوى النبوة مع...».

وما أثبتته النسخ في آخر النسخة يفيد أنه قابل على عدة نسخ، حيث ثبت فيها (ق: ١٧٣): «آخر النسخ كلها».

تمتاز هذه النسخة بجودتها، وقلة السقط والتصحيف، وبأنها مقابلة على الأصل المنقول منه، حيث يثبت في الهامش بلاغات المقابلة في موضعها، وقد صان النسخة بهذه المقابلة فأثبت في هوامشها ما سقط عليه أثناء النسخ، ويضبط ذلك بكتابة: (صح) في آخر السقط.

ولا تخلو هذه النسخة من حواشٍ مفيدة، وهي على ثلاثة أنواع: إما تعريف بغريب، أو تخريج لحديث، أو عزو لبشارة في الإنجيل. وأطول هذه الحواشي ما يكون في تخريج الأحاديث، وقد أثبتناها كلها في أماكنها.

ويميز النسخ ذلك كله بأن يكتب أولها: (حشه)، وآخرها: (صح). وربما ميز آخرها بدائرة منقوطة.

وللنسخ تصويبات يسيرة، علق فيها على ما ثبت في الأصل.

وخط هذه النسخة واضح ومسطرتها ثابتة، ففي كل صفحة منها (٢١) سطرا، وتقع في (١٨٥) ورقة في كل ورقة صفحتان.

وعلى نفاسة هذه النسخة الخطية إلا أن الموجود منها مجلد واحد فقط، وفي أوله سقط، وأول الموجود يبدأ من: «فصل نبوة حبقوق»، فتمت المقابلة على هذه النسخة في المجلد الرابع فقط، والأصل المعتمد لتحقيق هذا المجلد.

وتمتاز هذه النسخة بأن فيها زيادات عن باقي النسخ، أثبتها الشيخ أبو إسحاق في آخر نسخته التي نقلها من خط المصنف، وهذه الزيادات بقدر كراسة، تقع في (١٣) ورقة من الأصل، وهي تطبع لأول مرة.

وجاء في آخر الأصل ما صورته: «ووجدت في نسخة عمي أبي إسحاق إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ التي بخطه المنقولة من الأصل المقابلة عليه قال: وجدت فصولاً في كراس منفرد، فظننت أنها إما أن تكون بعد هذا الكلام وإما أن تكون سقطت من وسطه، وإما أن تكون مستقلة، وهي على كل حال مناسبة لهذا الكلام فأحببت أن أكتبها هاهنا لتتم الفائدة».

ولا شك أن هذه الكراسة من تصنيف الشيخ، لكن هل هي من هذا الكتاب أو من غيره؟ موضع احتمال، كما ذكر أبو إسحاق ابن المحب، فألحقناها به كما صنع هو.

ثبت تاريخ النسخ في آخر المخطوط، وهو العشر الأوسط من شهر رمضان سنة (٧٧٢هـ)، حيث جاء في آخر الأصل ما صورته: «آخر ما وجد في الكراس وبه كمل جميع الكتاب والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

علقه لنفسه: أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب عبد الله المقدسي، عفا الله عنهم، وفرغ منه في العشر الأوسط من شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، والحمد لله على الإسلام والسنة».

ولم يذكر في هذه النسخة اسم الكتاب لا في أولها ولا في آخرها، ولا في أثنائها، ولا شك أن اسم الكتاب كان مسطوراً في الورقة الأولى، إلا أن أول

المجلدة مخروم.

٣. نسخة طوبقبو سراي (و):

هذه النسخة من محفوظات متحف طوبقبو سراي من مكتبة أحمد الثالث بإستانبول برقم (٢٨٧).

وتقع في (٢٩٢) ورقة، في كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرًا، نسخت سنة ٧٣٠ أي بعد وفاة المؤلف بستين^(١)، وهي تمثل المجلدين الأوّلين من طبعتنا، أي نصف الكتاب، وتعتبر نسخة (مكتبة جامعة ليدن) المشار إليها بحرف (ل) مكّملة لها، كما سيأتي الحديث عنها.

وقد كتب على صفحة العنوان: «كتاب فيه (بيان الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)، تأليف شيخ الإسلام مفتي فرق الأنام مظهر سنن المرسلين وقامع الكفرة والملحدّين الإمام العلامة أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمته الله».

ثم كتب تحته تملك بلفظ: «انتقل بالبيع الشرعي إلى أحمد بن محمد بن زيد على يد شمس الدين اللولوي الكتبي، وعلى يد ولده في أوائل شعبان سنة إحدى وسبعين وثمانمائة. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا».

وتحت الكتابة السابقة ختمان لم يتبين.

(١) كما جاء في خاتمة المجلد الثاني من نسخة ليدن الآتي وصفها.

وفي أعلى هذه الصفحة عبارة تملك مؤرخة: «دخل في ملك الفقير: عبد العليم ١٣٠٠هـ» وبجانب هذه العبارة توقيع على شكل ختم في داخله رقم: (٦٥)، وكتب تحته بخط حديث: «من كتب العقائد ٥٩».

ورد في هامش هذه النسخة كثيرًا وضع (مطالب) توضيحية لإبراز موضوع ما أو قضية معينة تناولها المصنف، ومما تكرر في هامشها كذلك تصويب بعض الكلمات التي قد لا تتوافق مع السياق، أو تكون مطموسة، وذلك بقوله: «لعله كذا» وتكون غالبًا هي الأنسب للنص. وثم تعليقات تدل على كونها وضعت بعد عام (٩٠٠هـ).

وهذه النسخة جيدة واضحة الخط، وهي أقرب النسخ من عهد المؤلف، وقد كان المعول عليها أن تتخذ أصلًا، إلا أنه اعترأها سقط في مواضع كثيرة لانتقال النظر وغيره، وكذلك فإنها انفردت كثيرًا عن سائر النسخ في مواضع بقراءات وتصحيحات وزيادات، وفروق في السياق والكلمات. ونص هذه النسخة يتفق في مواضع كثيرة مع نسخة (يني جامع) فيحتمل أنها منسوخة منها.

٤. نسخة ليدن (ل):

هذه النسخة من محفوظات مكتبة ليدن بإيرلندا، برقم (٣٣٠١). وتقع في مجلد كبير في (٣٢٤) ورقة، في كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرًا، وهي تمثل المجلدين الثالث والرابع من طبعتنا، أي نصف الكتاب الثاني، وتعتبر مكملًا لنسخة (متحف طوبقبو) المشار إليها برمز (ق)، كما سبق الحديث عنها، ومن خاتمتها عرفنا تاريخ نسخها، وهو سنة ٧٣٠. حيث جاء في خاتمتها: «نجز الكتاب المسمى بالجواب الصحيح لمن بدل دين

المسيح صلى الله عليه وعلى نبينا وسائر المرسلين، تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية رحمته الله، في سنة ثلاثين وسبعمئة، وقوبل على أصل صحيح نقل من خط مؤلفه».

كتب على صفحة العنوان داخل إطار مذهب: «الجزء الثاني من (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)، تأليف شيخ الإسلام مفتي فرق الأنام، مظهر سنن المرسلين وقامع الكفرة والملحدّين الإمام العلامة أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلّيم بن عبد السلام بن تيمية رحمته الله». ثم كتب خارجه عن الإطار جهة اليسار: «وبتمامه تم جميع الكتاب».

ثم كتب تحته تملك نصه: «انتقل بالبيع الشرعي إلى أحمد بن محمد بن زيد على يد شمس الدين اللولوي الكتبي، وعلى يد ولده في أوائل شعبان سنة إحدى وسبعين وثمانمائة. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا».

وفي أعلى هذه الصفحة تملك غير مؤرّخين، الأول: «تملكه علي بن عبد الله [الحنبلي غفر الله له]، ثم كتب تحته: «ثم ملكه سراج الدين عمر الحلبي عفى الله عنه».

ويقال في هذا المجلد ما قيل في وصف نسخة طوبقبو فهي الجزء الثاني منها، تفرقت النسخة في مكتبتين في دولتين مختلفتين. ونصّ هذه النسخة يتفق في مواضع كثيرة مع نسخة (ي) الآتي وصفها.

٥. نسخة مكتبة يني جامع (ي):

أصلها محفوظ بمكتبة يني جامع (yeni cami) أي: الجامع الجديد، ويسمى جامع والدة السلطان، بإسطنبول، وهي اليوم ضمن المكتبة السلمانية، برقم (٧٣٢).

تقع في (٢٣١) ورقة، تمثل نصف الكتاب الأول كنسخة متحف طوب قابي سراي، وكتب ناسخها معلقاً على آخر جملة فيها مشيراً إلى نقص نسخته بعربية فيها عجمة: «أقول: بعد قوله: معقول، كما في النسخ، قوله: فصل، قالوا: وقد جاء... الخ. فعلى هذه النسخ أن هذه النسخة نصف الكتاب، بل ناقص أيضاً عن النصف، فلا تغفل».

لم يذكر اسم الناسخ، إلا أنه قيّد تاريخ فراغه من نسخها يوم السبت الخامس عشر من رجب الفرد سنة ١٠٩٤.

وهي مكتوبة بخط نسخي جميل، وعلى طررها تصحيحات واستدراكات للسقط مختومة بالتصحيح تدل على مقابلتها على أصلها، والتزم الناسخ بكتابة بلاغ المقابلة في رأس كل عشر ورقات (ق ٢١/ و، ٣١/ و، ٤١/ و، ...) فيقول: «بلغ مقابلة»، وفي الطرر كذلك توضيح لبعض الكلمات التي أشكل رسمها يبدوها بقوله: «بيان»، وإشارات إلى مقابلتها على نسخة أخرى بذكر فروقها مبدوءة برمز (خ) كما في (ق ٢٢/ ظ).

ومع ذلك فلم تخل النسخة من تحريف وسقط دلّ عليه ما وقع في الأصول الأخرى، ولا يبعد أن تكون هي ونسخة المتحف تعودان إلى أرومة واحدة، وإن اختلفتا في بعض المواضع.

وقد وضع الناسخ أو غيره خطوطاً بالحمرة فوق أوائل الجمل والفقرات لتسهيل متابعة القراءة.

وكتب أحدهم بقلم أحمر في طرة (ق ١٥٥ / و): «هذا أول الجزء الرابع من الجواب الصحيح» ولم يسبق ذلك أو يتلوه إشارة إلى بدايات باقي الأجزاء. وفي آخر النسخة ختم وقفية السلطان أحمد خان بن السلطان محمد.

ويغلب على الظن أنها النسخة المصححة التي أشار إليها العلامة نعمان الألوسي في صدر نسخته الآتي وصفها بقوله: «هذا الكتاب يوجد منه أيضاً نسخة في المكتبة المقابلة لجامع الحميدية قرب الجسر في إسلامبول المحمية، لكنها قطعة، وناقصة، نمرة ٧٣٢»، وقال في إحدى طرره على نسخته: «أقول: قد راجعتُ نسخةً مصحَّحةً في إسلامبول...».

ووقع اسم الكتاب في صفحة العنوان: «بيان الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وبعده: «تأليف شيخ الإسلام، مفتي فرق الأنام، مظهر سنن المرسلين، وقامع الكفرة والملحدين، الإمام العلامة أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية عفي عنهم».

وتحتة ختم لم يتبين، ثم قيد سنة ١١٣٧.

٦. النسخة التيمورية (ت):

أصلها في مكتبة العلامة أحمد تيمور المحفوظة في دار الكتب المصرية، برقم (٧٥٦ عقائد تيمور).

وهي قطعة جليلة قريبة العهد بالمصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، تمثل الجزء الأول الكتاب، وتقع في (١٧٨) صفحة من القطع الصغير، في الصفحة عشرة

أسطر، في السطر نحو ثمان كلمات، بخط نسخي متقن، كتبها المحدث الصوفي الثقة محمد بن أبي بكر بن أحمد بن هارون الساوجي المتوفى سنة ٧٤٩^(١)، وقيد تاريخ نسخه لها في آخر الجزء بقوله: «وكان الفراغ منه في بكرة السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ست وثلاثين وسبعمئة، كتبه لنفسه العبد المعترف بتقصيره في يومه وأمسه محمد بن أبي بكر بن أحمد بن هارون الساوجي عفا الله عنه».

وعلى النسخة من دلائل الإتيان وآثار المقابلة والتصحيح واستدراك السقط ما يزكي الثقة بها وبما تفردت به من الزيادات في بعض المواضع.

وصلتنا هذه القطعة من الكتاب أوراقاً مبددة مشوشة الترتيب سقطت منها أوراق كثيرة، وقد حاول أحدهم ترتيبها فرقم ما بقي من صفحاتها فلم يصب في مواضع عديدة. ولا ريب أن طبعة النيل الأولى للكتاب قد اعتمدت على هذه النسخة، لانفرادها بالصواب في مواضع موافقة لها، وتفردتها بزيادات لا توجد إلا فيها، والظاهر أنهم كانوا يصفون منها الحروف في المطبعة مباشرة؛ لجمال خطها ووضوحه، فتفرقت أوراقها وتبددت ملازمها بين أيدي عمال المطبعة وضاع بعضها في أثناء طباعة الكتاب، والذي بقي منها اشتراه العلامة أحمد تيمور باشا، ولعل أصل هذا الجزء الأول هو الذي كان عند الشيخ عبد السلام الأمير، كما ذكر ناشر طبعة النيل في خاتمة الطبع.

(١) ترجمته في «وفيات ابن رافع» (٢/ ٨٩)، و«ذيل العبر» للحسيني (٢٧٤)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ١٣٧)، و«ذيل التقييد» (١/ ١٨١)، وغيرها.

وقد كتب الناسخ اسم الكتاب في صفحة العنوان بخط ثلث محبّر: «الأول من بيان الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تصنيف الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمة الله عليه وأحله جنته بمنه».

وأشار في آخرها إلى نهاية الجزء الأول وبداية الثاني، فقال: «الثاني: فصل وكان يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته ﷺ، ومعجزاته...»، ثم ذكر تاريخ فراغه من نسخ الجزء.

٧. نسخة مكتبة بودليان (ب)

محفوظة بجامعة أكسفورد بإنجلترا برقم ٢ / ٤٥

ثبت اسم الكتاب في ورقة العنوان هكذا: «كتاب تخجيل أهل الإنجيل والنهج الصحيح في الرد على من بدل دين عيسى ابن مريم المسيح تأليف: شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين بن أحمد بن تيمية الحراني رضي الله تعالى عنه، آمين».

كذا في صفحة العنوان، ويظهر أن صفحة العنوان والتي تليها بخط مختلف عن الورقة الثالثة. وفي أول الكتاب بعد البسملة حمدلة تخالف ما في باقي النسخ، بل تخالف أسلوب المصنف، وفيها: «الحمد لله الذي شرع لنا الدين، والصلاة والسلام على أفضل من اعتصم بحبله المتين، سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الرحماء فيما بينهم الأشداء على الكافرين، صلاة دائمة متعاقبة في كل وقت وحين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين».

أما بعد، فيقول العبد المتمسك بذيل اللطاف الخفية، أبو العباس

أحمد بن تيمية الحنبلي، عامله المولى بغفران ذنبه الخفي والجلي، هذا كتاب سميته: تخجيل أهل الإنجيل والنهج الصحيح في الرد على من بدل دين عيسى بن مريم المسيح، أذكر فيه بنص الحديث، والكتاب الفصيح، فأقول والله الهادي...».

ثم بدأت النسخة بقوله: (إن النصارى لهم سؤال مشهور بينهم...) وهذا يقابل في مطبوعتنا: (٣/ ٥٠٨).

في حين أنه سمى الكتاب في آخر النسخة: الرد على النصارى، وسماه كذلك: النبوات. فجاء في آخر النسخة جهة اليمين بخط مغاير ما صورته:

«هذا آخر الكتاب وهو الرد على النصارى ما ألف سيدنا شيخنا الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن تيمية تغمده الله بالرحمة والرضوان وأسكنه فسيح الجنان بمنه وكرمه».

وكتب الناسخ في آخر الكتاب:

«تمت النبوات تصنيف الشيخ الإمام العالم العلامة أوحده العصر فريد الدهر شيخ الإسلام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمته الله وأرضاه آمين».

ولا شك أن هذا من وهم الناسخ، فإنه لم يكن متقناً.

ثبت اسم الناسخ في آخر النسخة، إلا أن الأرضة قد أتت على بعض اسمه وعلى تاريخ النسخ، وبقي منه ما يلي:

«كتبها العبد الفقير إلى... محمد بن يوسف بن أحمد بن... الحنبلي المقدسي... الله له ولوالديه وكان الفراغ...».

ولم نهتد لمعرفة الناسخ ولا لقراءة التاريخ، ويغلب على الظن من أمارات هذه النسخة أنها مكتوبة في القرن التاسع، والله أعلم.

عدد أوراق هذه النسخة (٢٠٠) ورقة في كل ورقة صفحتان، في كل صفحة (٢١) سطرًا، وخطها واضح، وهي نسخة كثيرة التصحيف، وفيها اختلال في ترتيب الجمل أحيانًا، وقد نبهنا على بعض ذلك في مواضعه، ومع أن الناسخ يكتب بلاغات في هوامش نسخته، إلا أننا لم نجد ما يدل على أنه قابلها إلا في موضع واحد، حيث كتب (ق: ١٤٢): «بلغ المقابلة من عند الفصل».

وكذا أثبت بعض الفروق بين أصله وبين نسخة يشير إليها ب (خ) في موطنين، ويحتمل أن يكون هذا من هوامش الأصل لا من معارضته هو على نسخة أخرى، ولم نجد ما يدل على أصله الذي انتسخ منه.

ويظهر أن الناسخ كان عجلًا في كتابة هذه النسخة، ولا أدل على ذلك من كثرة السقط والضرب والبياض في النسخة، بل الخطأ في اسم مؤلف الكتاب!

وبين هذه النسخة ونسخة (ل) تشابه ظاهر، فربما انحدرتا من أصل واحد، ومن دلائل ذلك: اشتراكهما في مواطن كثيرة من اللحق، فمثلا في (ب: ق ٧٧، ول: ق ٢٣٥) وكذا اشتراكهما في مواضع البياض وقدره، كما في (ب: ٨٠، ل: ٢٣٨).

٨. نسخة المتحف البريطاني (ح):

محفوظة فيه برقم (١/١٠٦٠٧)، وهي جزءان، توفّر بين أيدينا الجزء الثاني منهما، وهو يمثل الثلث الأخير من الكتاب، وينتهي قبل نهاية الكتاب بنحو مائة ورقة، وعدد أوراقه (٧٨) ورقة، في كل ورقة لوحتان، في كل لوحة

(٢٦) سطرًا.

وهذه النسخة كتبت بخط نسخ دقيق، ولم يذكر فيها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، ويظهر أنها تعود للقرن الثاني عشر. والله أعلم.

وجاء في أعلى الصفحة الأولى: الجزء الثاني من كتاب الرد على النصارى المسمى بالجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (كذا؛ إشارة لسقط) عليه الصلاة والسلام، تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم.

وفي آخرها عبارة قريبة.

وهذه النسخة كثيرة الخروم والسقط الطويل الذي يتجاوز عشرات الأوراق، فهي بما بقي منها قد لا تُمثّل سوى سدس الكتاب، وفي أولها اضطراب في ترتيب صفحاتها.

ومما يظهر في هذه النسخة جليًا إقبال الهوامش بكثرة احتمالات القراءة للألفاظ، مع كتابات ليست قليلة بلغة إنجليزية، وتكون عند مواضع السقط غالبًا، وكأنها إشارة إلى السقط ومقداره.

وهذه النسخة تسير ونسخة الإفتاء في صف واحد، أو هما من أصل واحد، لكثرة توافقهما عند اختلاف النسخ في القدر المشترك بينهما من الكتاب.

٩. النسخة النعمانية (ع):

استكتب هذه النسخة نعمان الألوسي كما سيأتي. وهذه النسخة جزآن وتمثل كامل الكتاب، إلا أن الذي وجد هو الجزء الأول منها ويقع في (٢٩٣ ورقة) وهي تمثل المجلدين الأولين من طبعتنا، أي نصف الكتاب.

وقد كُتبت كما صرَّح ناسخها في آخر النسخة في دمشق سنة (١٣٠١ هـ) بقلم: رسلان العطار، الشهير بالكلاس الدمشقي. وقد أشار الناسخ في آخر الجزء الأول إلى أنه يليه الجزء (الثاني) أوله: «فصل قالوا: وقال أيضًا في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾».

والنسخة حالتها ممتازة، وهي قليلة السقط والخطأ. في كل صفحة منها خمسة وعشرون سطرًا، في كل سطر نحو عشر كلمات، مكتوبة بخط واضح جميل.

كتب على صفحة العنوان: «كتاب بيان الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تأليف شيخ الإسلام مفتي فرق الأنام مظهر سنن المرسلين وقامع الكفرة والملحدين الإمام العلامة أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية الحنبلي الحراني الدمشقي عليه الرحمة».

وكتب بجانب العنوان: الكراس أول من كتاب «رد النصارى» للشيخ ابن تيمية الحنبلي عليه الرحمة.

وكتب العلامة نعمان الألوسي في أسفل الورقة من يسارها: «هذا الكتاب يوجد منه أيضًا نسخة في المكتبة المقابلة لجامع الحميدية قرب الجسر في إسلامبول المحمية، لكنها قطعة، وناقصة، نمرة ٧٣٢». ولعله يشير إلى نسخة مكتبة بني جامع (ي) المتقدم وصفها.

وكتب تحتها ما يلي: استكتبه العبد الفقير إليه سبحانه نعمان ابن السيد محمود أفندي الشهير بالوسي زاده مفتي بغداد غفر لهما الجواد، وذلك سنة (١٣٠١هـ).

والظاهر أن هذه النسخة مأخوذة عن نسخة دار الكتب المصرية (د) فهي تطابقها إلى حد كبير في جملة الاختلافات الواقعة، وكذلك في السقط والتصحيح والتكرار، ولغير ذلك من القرائن كوجود بعض التعليقات في هامش (د) فتجدها بنصّها هنا، وقد تكرر هذا في أكثر من موضع. ومن الأدلة الظاهرة: وجود سقط كبير في (د) وكتب في هامشها: (يتلوه في وريقة) ولم يوجد الكلام فيها، وهي كذلك هنا سواء بسواء.

كذلك من المرجحات أنه قد كتب في هامش هذه النسخة: (بياض في الأصل) وهو كذلك في (د). ثم كُتِبَ في هامشها ذات النص، وهو قوله: «ولعله: فلما رآه النبي ﷺ ساكتاً لا يتكلم أنشده. أو نحو هذا» ولم يوجد هذا النص في سائر النسخ.

وللعلامة نعمان الالوسي تعليقات قليلة متفرقة بخطه على هذه النسخة، وقد راجع بعض المواضع المشككة على نسخة أخرى في إسطنبول، لعلها نسخة يني جامع المشار إليها آنفاً، كما قال في موضع: «أقول: قد راجعتُ نسخةً مصحّحةً في إسلامبول، فوجدتها محرّرة مثل هذا الكتاب».

١٠. نسخة الإفتاء (ف):

وهي نسخة كانت ضمن مكتبة الرياض العامة بالمملكة العربية السعودية برقم ٤٤٢، ثم آلت إلى مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

وتقع في ١١٠ ورقات، ٢٢٠ صفحة بحسب الترقيم على النسخة.

وهي تمثل الجزء الأخير من الكتاب، كما كتب على الورقة الظهرية: «الجزء الأخير من الرد على النصارى، تأليف فاروق زمانه وصديق أوانه شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية قدس الله روحه». ثم كتب مقابلاً لهذا الكلام: من كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

وتمثل هذه النسخة نحو ثلث الكتاب، فتبدأ من طبعتنا من ٥٠٧ / ٣ إلى آخر الكتاب. عدا الزيادات التي في نسخة الظاهرية.

وعلى الورقة ختمان، الأول للشيخ محمد بن عبداللطيف آل الشيخ، وختم آخر لمكتبة الرياض العامة مؤرخ بـ ١٣٩٢ / ٦ / ٢٣ هـ. ويبدو أنها آلت إليها إهداء من الشيخ محمد بن عبداللطيف.

وفي أعلى الصفحة تملك نصه: تملكه العبد الفقير إلى الله محمد بن عبداللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ.

وعلى الغلاف فوائد متعدد عن ابن الجوزي.

كتبت النسخة سنة ١٢٧٦ كما جاء في آخرها بخط أحمد بن إبراهيم بن عيسى، في شهر ربيع الأول من السنة.

والنسخة معتنى بها، كما يظهر في الطرر قيود المقابلة والتصحيح والاستدراك وغيره. وكتب في آخرها في حرد النص: بلغ مقابلة بحمد الله تعالى على أصله.



طبقات الكتاب وتقويمها

للكتاب طبقات عديدة، وقد طبع مبكرًا قبل أكثر من مئة وخمسة عشر عامًا، وسنعرض هنا للكلام على أربع طبقات، بدءًا بأقدمها، ثم ما أضاف جديدًا إلى ما قبله، مع بيان أهم الملاحظات على تلك الطبقات على وجه الإيجاز:

(١) طبعة النيل: وهي أولى طبقات هذا الكتاب، حيث طبعت عام ١٣٢٢هـ - ١٩٠٥م، بمطبعة النيل بمصر، في أربعة أجزاء، وكان ذلك بمعرفة فرج الله زكي الكردي، والشيخ مصطفى القباني الدمشقي.

وقد ذكرنا بأنهما تحصّلا - بعد بذل غاية الجهد - على نسخة من أجزاء متفرقة للكتاب بعد أن كاد الكتاب يُفقد، ولا تكاد توجد نسخة كاملة له في قطر من الأقطار. وتحصّلا على الأجزاء المذكورة من بعض الأعيان في بغداد ومصر، بعضها مقروء على المؤلف، وبعضها عليه قراءة للحافظ ابن حجر.

وهذه الطبعة موافقة في الجملة لنسخة دار الكتب المصرية (د)، لكنها مع ذلك انفردت عن جميع النسخ بزيادات في مواضع كثيرة، بزيادة كلمة أو كلمتين، وهو الأكثر، وربما كانت الزيادة نحو سطر، اعتمادًا على نسخة المكتبة التيمورية على ما مضى استظهاره.

كما اعتمدت طبعة النيل على نسخة عبد الرحمن الكيلاني (١٨٤١ - ١٩٢٧) نقيب أشرف بغداد الذي ذكرته بلقبه ولم تسمّه في خاتمة الطبع، ويبدو أنها نسخة قديمة وعليها خط السفاريني.

وقد تميزت هذه الطبعة بقلة السقط فيها فلا تكاد تجد ذلك إلا في مواضع قليلة جدًا، لكنها خلت من الخدمات التي تعين على قراءة النص والإفاده منه؛ فلم توثق نصوص الكتاب، ولم يضبط ما يحتاج ضبط، ولم تخرج الأحاديث ولا الآثار، ولا ما يتبع ذلك من نصوص الإنجيل، وكذلك فإن الكتاب يخلو من تفكير النص وعلامات الترقيم وما إلى ذلك من وجوه الخدمة.

وأما الفهارس العلمية فقد خلت منها هذه الطبعة، وليس فيه سوى فهرسة تتعلق بفصول الكتاب، حيث يعنون بـ (فصل) ثم يُنقل بجانبه أول الكلام الوارد تحت الفصل. وقد يصل الكلام المنقول في الفهرس إلى اثني عشر سطرًا.

(٢) طبعة المدني، سنة ١٣٧٩ هـ في مجلدين مجموع صفحاتهما ١٤١٢ صفحة، قدم له وأشرف على طبعة علي السيد صبح المدني.

قدم للكتاب مقدّمة مقتضبة فيها تعريف بالكتاب من حيث اسمه، وسبب تأليفه، ومنهجه، ومضمون الكتاب، في نحو ثلاث صفحات.

ثم قسّم الكتاب إلى أربعة أجزاء، بناءً على أربعة عناصر كان قد أثبتّها في مبحث مضمون الكتاب.

ثم فصل ما احتوى عليه كل جزء من الأجزاء الأربعة، فذكر في الجزء الأول أنّ المؤلّف ردّ على الدّعاوى ودحض الأباطيل. ونقل نقولا تبين ذلك في نحو ست صفحات.

ثم ابتدأ الكلام عن الجزء الثاني، وذكر كذلك فيه ردّ المؤلف على بعض الدّعوى، مع نقله لبعض النقول في نحو أربع صفحات. وكذلك صنع في الجزء الثالث.

وفي الجزء الرابع: ابتدأ فيه بالنقل عن المؤلف بذكر بعض نقول الأنبياء، ثم ذكر أن المؤلف انتقل من التمهيد إلى صلب الدعوى، ثم ختم ذلك بالأدلة الدالة على صدق الرسول ﷺ.

لم يذكر المعتنون بهذه الطبعة أنهم قد تحصّلوا على نسخ خطية أو مطبوعة اعتمدوا عليها في إخراج هذا الكتاب، ولم يذكروا اختلاف النسخ في ثنايا الكتاب وصفحاته إلا نادرا جدا، فذكروا في (١ / ٣٥) اختلاف عبارة أحوالوا فيه إلى (المطبوعة الأولى)، وبالرجوع إلى طبعة النيل تبين أنها هي المقصودة.

وأما الاختلاف الثاني ففي (٢ / ٢٩٤)، فقد ذكروا أن العبارة الأخرى في (نسخة أخرى)، ولم يذكروا ما هي النسخة التي اعتمدوا عليها، إذ الخلاف المذكور كانت عليه جميع الأصول التي بأيدينا.

والذي يظهر من صنيعهم أنهم اعتمدوا على طبعة النيل في مقابلة ما أخرجوه، والذي رجّح ذلك أمور:

منها: متابعة طبعة المدني لمطبوعة النيل فيما وقفنا عليه من الأخطاء والزيادات والتحريفات التي انفردت فيها عن الأصول.

ومنها: مطابقة طبعة المدني لمطبوعة النيل في تقسيم الكتاب إلى أربعة أجزاء.

ومنها: انتهاء كل جزء من طبعة المدني عند ذات النص الذي انتهت إليه مطبوعة النيل.

ومنها: مجاراة نصوص صفحات طبعة المدني وأرقام صفحاتها لمطبوعة النيل وأرقامها، ولم يقع إلا اختلاف قليل في الفرق بين أرقام الصفحات.

إلا أن طبعة المدني قد زادت على طبعة النيل بوضع عناوين - ليست في الأصول - مع كل فصل من فصول الكتاب، وهذه العناوين هي التي وضعت فهرس موضوعية للكتاب في آخر كل جزء.

وقد حاول الذين اعتنوا بالكتاب تقسيم وتفجير نصوص الكتاب، وقد فعلوا ذلك في كثير من صفحاته، وتركوا كثيرًا. وكذلك يقال في علامات الترقيم.

(٣) طبعة دار العاصمة: وهي ثلاث رسائل علمية لنيل درجة الدكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. أعدها: علي بن حسن عسيري، وعبدالعزیز العسكر، وحمدان الحمدان، عام ١٤٠٦ و ١٤٠٧ هـ، ثم طبعت في دار العاصمة ١٤١٩ - ١٩٩٩ في ٧ مجلدات مع الفهارس.

وقد اعتمدوا في المقابلة على أربع نسخ خطية، واحدة منها تمثل الكتاب كاملاً، وهي نسخة دار الكتب المصرية التي رمزنا لها بحرف (د)، والنسخ الثلاثة الباقية هي: نسخة «طوب قابي سراي» المشار إليها عندنا بحرف (و) ونسخة «يني جامع» بإسطنبول، ورمزها عندنا حرف (ي). ونسخة «مكتبة جامعة ليدن» ورمزنا لها بحرف (ل). بالإضافة إلى اعتمادهم كذلك على نسخة مطبوعة، وهي طبعة المدني التي طبعت عام ١٩٦١ م، وقد أشاروا إلى أنها

مطابقة لطبعة النيل التي تقدّمتها بنحو خمس وخمسين سنة عام ١٩٠٥م، ولا ندري لماذا تركوا الرجوع إلى طبعة النيل مع أنها الأصل.

وقد ذكر محققوها أن هذه الطبعة قد لاقت من التحقيق والضبط وخدمة النص درجة كبيرة يظهر من خلالها الفرق الشاسع بين الكتاب في طبعته القديمة وهذه الطبعة.

ولا شك أن الباحثين قد بذلوا جهداً مشكوراً في إخراج هذا الكتاب، خاصة فيما يتعلق بتوثيق النقل عن العهد القديم والجديد، وترجمة أعلام النصاري، وكذلك فيما يتعلق بتقسيم النص إلى فقرات، وجعل عناوين عند كل فصل توضح مضمونه في الجملة، وتضمن المقدمة عرضاً لمحتوى الكتاب.

إلا أنه قد كثر الخلل في هذه الطبعة من جهات متعددة، سواء فيما يتعلق بقراءة النص، أو فيما يتعلق بالتعليقات.

أما فيما يتعلق بقراءة النص:

فقد وقع السقط والتحريف والتغيير والإضافة في مواضع كثيرة جداً، فمن أمثلة السقط:

﴿ في (١ / ١٢٥) سقط قوله: «قبل أن يُعْلَم ما يذكره، وقد يُعْلَم ما يذكره قبل أن يُعْلَم صدقُه أو كذبه».

﴿ في (١ / ١٦٢) سقط قوله: «وإن قالوا: نحن مقصودنا بيان تناقضه، وأن كلامه ينقض بعضه بعضاً. قيل: فهذا أيضاً يستلزم أنه ليس رسولاً صادقاً، فلا يصحُّ لكم الاحتجاج بشيءٍ من قوله على هذا التقدير، وإن كنا نحن نبين أنه والله الحمد قوله يصدّق بعضه بعضاً، وكذلك يصدّق قول الأنبياء قبله،

وأن قول الأنبياء كلهم يوافق صريح العقل، فلا يتناقض شيء من الحقّ
المعلوم بسمع أو عقل».

◀ في (٣٧٧ / ٢) سقط قوله: «في موضعين» بعد سياق آية المائدة.

◀ في (١٧٥ / ٣) سقطت عبارة: «كان عن هوى» في قوله: «لأن أصل
ابتداعهم هذه البدعة كان عن هوى من أنفسهم مع ظن كاذب».

ومن أمثلة التحريف:

◀ في (١٨٤ / ٣): ما يناقض صريح النقل. وهي في جميع النسخ: العقل.

◀ في (١٩٤ / ٣): والمراد بالابن عنده المسيح الذي رباه. في جميع النسخ:
عبده.

وقد يجعلون الكلام ساقطاً وهو مثبت إما في الأصل أو في الهامش. وقد
يكون نفي السقط المزعوم أسطراً. وكثيراً ما يقع هذا معهم في نسخة دار
الكتب المصرية.

مثل ما ورد في (٣١٠ / ٣) قوله: «فهذا أشد استحالة، وليس فيهم من
يقول بهذا». فقد زعم المحقق سقوطها من نسخة دار الكتب. وهي ليست
كذلك.

وكذلك قوله في: (١٧٧ / ٣) (وكان اليهود قد أسرفوا في ذم المسيح
عليه السلام). قال في الحاشية: كلمتا (ذم) و (عليه السلام) ساقطتان.
والصواب أنها مثبتة.

وقد وقع كذلك منهم عكس ما فعلوه في الفقرة الماضية فيثبتون
ويضيفون كلمات ليس لها وجود في جميع النسخ. كإثباتهم (هل) في

(٣/ ٣٠٣): (هل هو صفة قائمة بغيرها). حيث زعم أن: (هل) ساقطة من (ط) فقط. وأنها مثبتة في جميع النسخ المخطوطة!

وكإثباتهم (قال) الثانية، كما في (٣/ ٢٦٠): «كما قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ...﴾. وهي ليست في جميع النسخ.

وربما وقع خلط كبير وحذف وتقديم وتأخير في مواضع من بعض النسخ ولم يشيروا إليه. مثل قوله في: (٣/ ٢٧٤): «فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح... إلى قوله: قد اتحد به أقنومان». وهو بمقدار خمسة أسطر.

وأما ما يتعلق بالتعليقات والتخريج:

✽ فقد أخذ عليهم إثقال الحواشي بكثير من الفروق التي لا تؤثر.
✽ وكذلك إطالة الحواشي بالتخريج بما لا طائل تحته، كأن يكون الحديث في الصحيحين أو أحدهما: انظر: (٢/ ٣٨٢)، (٢/ ٤٢٨-٤٢٩)، (٢/ ٤٣٥)، (٢/ ٤٤٦-٤٤٧)، (٣/ ١٠٤-١٠٥)، (٣/ ١٦٠)، (٣/ ١٦١-١٦٢)، (٣/ ٢٦٧).

✽ أو بالتعليقات الطويلة التي لا تناسب المقام: انظر: (٢/ ٣٩٥).
(٢/ ٣٩٩)، (٢/ ٤١١)، (٢/ ٤١٣-٤١٤)، (٢/ ٤٢١)، (٢/ ٤٣٦)، (٢/ ٤٤١)، (٢/ ٤٥٠)، (٣/ ٢٩).

✽ أو بالإسهاب في تعريف بعض الفرق، أو المواضع المعروفة كمصر أو العراق، أو الأعلام المشهورين كالبخاري وأحمد بن حنبل وابن معين... الخ: انظر: (٢/ ٤٠٣-٤٠٥)، (٢/ ٤٤٣-٤٤٥)، (٣/ ١٦)،

(٢٣ / ٣)، (٩١ / ٣)، (١٤٣ / ٣)، (١٦٨ / ٣)، (١٧٧ / ٣)، (١٨٧ / ٣)

✽ والتكرار قد وقع كثيرًا في الحواشي سواء في تراجم الأعلام، أو تخريج الأحاديث، أو الفرق، أو غيرها، وبعضها قد يتكرر في ثلاثة مواضع:

انظر: (١٤٥ / ٣)، (١٦١ / ٣)، (١٦٨ / ٣)، (١٦٩ / ٣)، (١٧١ / ٣)، (١٧٥-١٧٦ / ٣)، (١١٠ / ٥)، (٣٠٣ / ٤)، (٢٢٣ / ٣)، (٣٠٧ / ٤).

✽ وقد تزداد بعض الكلمات أو العبارات في الأصل معلّين ذلك بأن العبارة لا تستقيم بدونها. والأمر ليس على ما قاله المحقق.

كقولهم في (٣٦٥ / ٣): «بل لم تخصه إلا بما خصه الله به على لسان محمد في قول الله تعالى...» وهي بدل قوله «بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد ﷺ في قوله...» هكذا زاد المحقق في عبارته معللاً بأن عبارة الأصل تحيل المعنى وتجعل الآية منسوبة للنبي ﷺ!

✽ ومما يؤخذ عليهم تركهم الإحالة إلى كثير من المواضع التي ذكر المصنف أنه بحثها أو تكلم عليها في مواضع أخرى.

◀ جرى المحققون في إثبات الآيات القرآنية على رواية حفص من طريق عاصم ابن أبي النجود الكوفي، بينما كانت القراءة المثبتة في النسخ الخطية على قراءة أبي عمرو البصري، وهي القراءة التي كان يقرأ بها المصنف وأهل الشام في عصره.

(٤) طبعة مكتبة البيان، عناية د. سفر بن عبدالرحمن الحوالي، في مجلدين ضخمين، طبعت عام ١٤٣٢ هـ، ذكر في المقدمة أنه اعتمد على طبعة دار العاصمة في إثبات النص دون الرجوع لأي من النسخ الخطية.

◀ قَدِّمَ لها بمقدِّمة في نحو سبعين صفحة، ابتدأها بعرضٍ موجزٍ للبداية التاريخية لعداوة النصارى وجهود المنصرين، ذاكراً تحت هذا العنوان أربعة مباحث:

◀ تحريف العقيدة النصرانية.

◀ نشر الديانة النصرانية في أوروبا.

◀ تحريف الدين النصراني ونشره في العالم الإسلامي.

◀ جهود التنصير قديماً في الدخول إلى الجزيرة العربية.

◀ ثم عرّف بالمؤلف والكتاب، مبيناً في تعريفه للمؤلف تمكُّنه من انتقاد الفكر اليوناني وتفوّقه فيه، وبراعة أساليبه في كشف انحرافاتهم وضلالاتهم.

◀ ثم ذكر سبب تأليف الكتاب، وعرض خصائصه وما تميّز به في تسعة نقاط.

◀ ثم نقل المحقّق نقولاً من الكتاب تحت خمسة عشر عنواناً في نحو ثلاث عشرة صفحة، مبيناً سبب هذه النقول في كونه قد رأى كثيراً من العلماء وطلبة العلم قد عزفوا عن قراءة هذا الكتاب؛ لظنهم أنّه يتعلّق بالأقانيم والصّلب وفرق النصارى ونحوها من الأمور التي قد لا يحتاجها إلّا المتجرّد في الردّ عليهم = فأورد المحقّق هذه النقول ليبين غزارة ما في هذا الكتاب من العلم وتنوّع موضوعاته.

◀ ثم ذكر أنّه بذل الجهد في جمع الفقرات التي تتحدّث عن موضوع واحد في مكان واحد، ذاكراً أرقامها كلّاً بحسب موضوعه، آخذةً بذلك نحو نصف المقدّمة.

◀ وأخيرًا بيّن المحقق عمله في الكتاب، وأنه قسّمه حسب المواضيع العامّة إلى مجلدين، وقام بترقيم فقرات الكتاب حسب الموضوع وجعلها في عناوين جانبية، وقام بتخريج الآيات والأحاديث والآثار، وعرّف بالأعلام والفرق.

* بعض المآخذ على الطبعة:

◀ لم يعتمد المحقق على نسخ خطية للكتاب، فقد ذكر أنه اعتمد على طبعة «دار العاصمة» التي تقدّم الكلام عنها، وقام بمقابلة أجزاء من الكتاب على بعض المصوِّرات. فجاء الكتاب بطبيعة الحال تابعًا لجملة ما وقعت فيه طبعة دار العاصمة من سقط أو تحريف أو زيادة.

◀ عدم بيان درجة صحة وضع كثير من الأحاديث، مع تكرار تخريج كثير منها.

◀ عدم ضبط الآيات الشعرية، وإغفال عزوها إلى قائلها.

◀ عامة المواضيع التي ذكر المؤلف أنه قد بسطها أو بحثها في موضع آخر لم تجر الإحالة إلى مواضع بسطه فيها، سواء في نفس الكتب أو في كتبه الأخرى.



منهج التحقيق

◀ اعتمدنا طريقة النص المنتخب من النسخ الخطية؛ وذلك لتقاربها في الجودة، ونسخة «دار الكتب» وإن تميزت بكون أصلها مكتوباً في حياة المصنف ومقروءاً عليه، غير أن الباقي من تلك النسخة النفيسة أقل مما فُقد منها، فضلاً عما اعترأها من آفات وعلل.

وأما المجلد الرابع فقد اعتمدنا على النسخة (ظ) وهي نسخة المكتبة الظاهرية، التي نسخها ابن المحب من أصل عمه أبي إسحاق، وقد نقلها عمه من نسخة المصنف، فهي نسخة في غاية الصحة والإتقان.

◀ أشرنا إلى مواضع السقط والفروق بين النسخ غالباً، واكتفينا بما له أثر وفائدة، أو نماذج من التصحيف أو التحريف الواقع في النسخ، وكذا الطبعات السابقة خاصة (النيل، والعاصمة) أشرنا إلى ما وقع فيها من أخطاء أو سقط أو زيادات مقحمة ليست في النسخ الخطية.

وحيثما أطلق (المطبوع) فإنه ينصرف إلى طبعة العاصمة، و(المطبوعتان) إشارة إلى النيل والعاصمة.

◀ وثقنا نصوص أهل الكتاب من «الكتاب المقدس» عندهم، بذكر عنوان السُّفر ورقم الإصحاح والعدد، مع المقارنة بين النسخ، والإشارة إلى اختلاف الترجمات حال تعارضها، لاسيما إذا كانت الترجمات الحديثة لا تتوافق مع النص الذي نقله المصنف.

◀ ترجمنا لأعلام النصارى من مراجعهم المعتمدة، ورجعنا إلى المصادر الأجنبية (الإيطالية والإنجليزية) وترجمنا ما يُحتاج إليه منها.

◀ عرَّفنا بالأعلام والأماكن والمصطلحات - باختصار - عند الإبهام أو الاشتباه أو الغرابة.

- ◀ ضبطنا ما يحتاج إلى ضبط من نصوص الكتاب وأسماء الأعلام والأماكن والمصطلحات.
- ◀ أشرنا إلى ما في الأصول الخطية من زيادات، ولحق، وحواش، وتتمات.
- ◀ تتبعنا مصادر المؤلف المختلفة، سواء التي نص عليها أو التي لم ينص، مع عزو الأقوال المنقولة منها وتوثيقها، ومعارضة ما نقله المصنف بالأصول التي صدر عنها وتقييد الفروق المهمة إن وجدت.
- ◀ وإحالة المسائل إلى المواضع الأخرى في كتب المؤلف التي توسّع فيها أو أضاف إليها إضافة مهمة.
- ◀ جرينا في تخريج الأحاديث على الإيجاز والتوسط، والاكتفاء بعزوها إلى الصحيحين إن كانت فيهما، مع بيان الحكم عليها صحة وضعفاً - إن كانت في غيرهما - بنقل أحكام الأئمة المحققين، بعد تخريجها دون استقصاء.
- ◀ راعينا تقسيم المؤلف لكتابه وترتيبه له، ولم نضف عناوين جديدة للفصول ولا للفقرات.
- ◀ اعتنينا بتوزيع النص ووضع علامات الترقيم من النقط والفواصل وغيرها.
- ◀ وبالنسبة للأصلين (ب)، (ل) فالتشابه بينهما كبير جداً، حتى إنه ليخيل للقارئ أنهما ينقلان من أصل واحد، ومن شدة التشابه بينهما: اشتراكهما في مواطن كثيرة في مواضع اللحق، وكذا اشتراكهما في مواضع البياض وقدره، كما في (ب: ٨٠، ل: ٢٣٨). فحصلت المقابلة على النسخة (ب) كاملة، ومواضع متقاة من (ل).

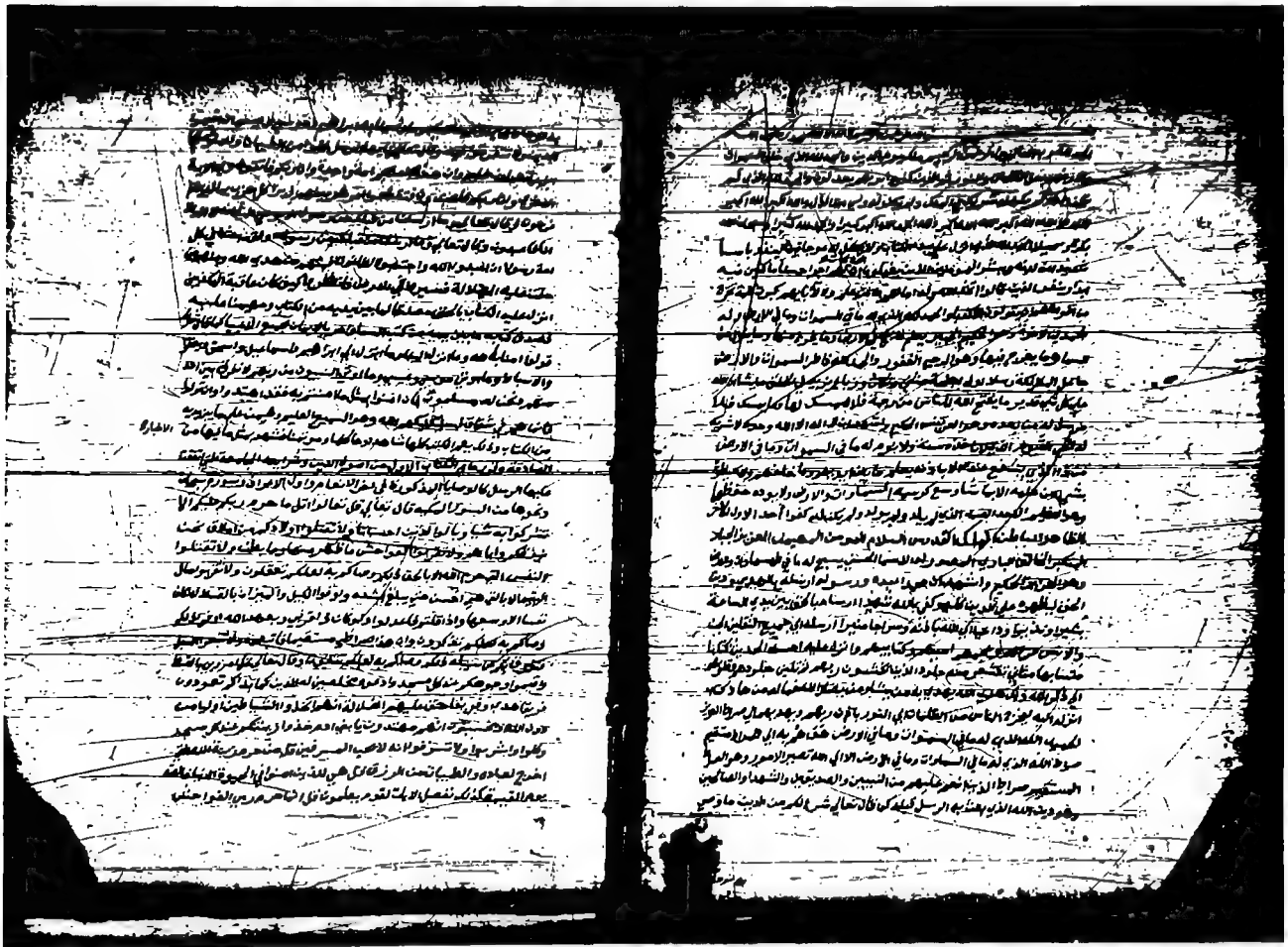
وأما التشابه . إلى حد التطابق - بين نسخة دار الكتب المصرية المرموز لها (د) وبين طبعة النيل التي طبعت سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٥م، فلا يخفى على الناظر فيهما.

وتمتاز النسخة (د) بأنها جمعت كل ما زادته النسخ على بعضها البعض، إلا أنه أحيانا لا يفرق في هذه الزيادات بين ما ثبت منها، وما ضرب عليه في الأصل المنقول منه.

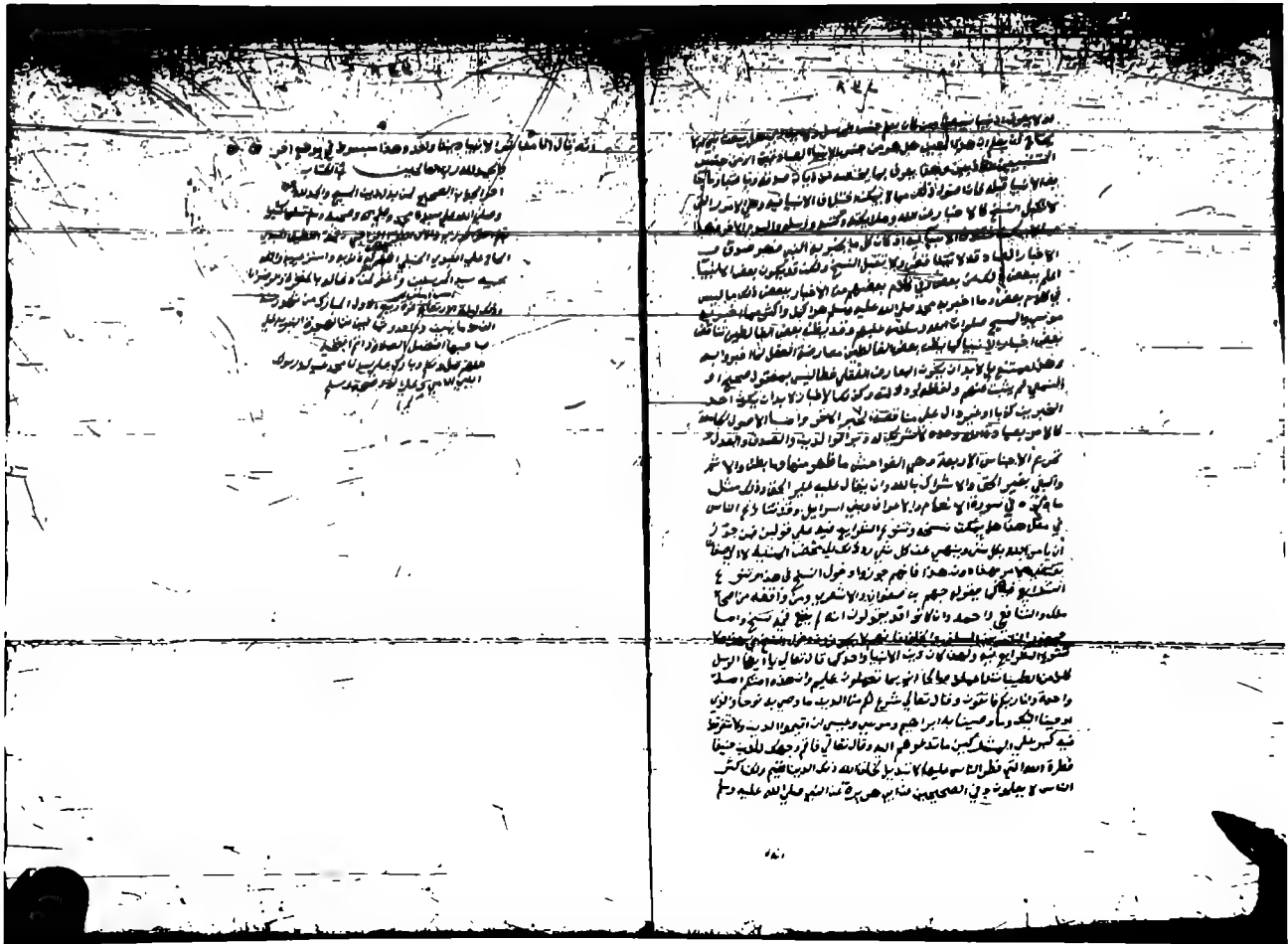
والله الموفق.



نماذج من النسخ الخطية



الورقة الأولى من نسخة دار الكتب (د)



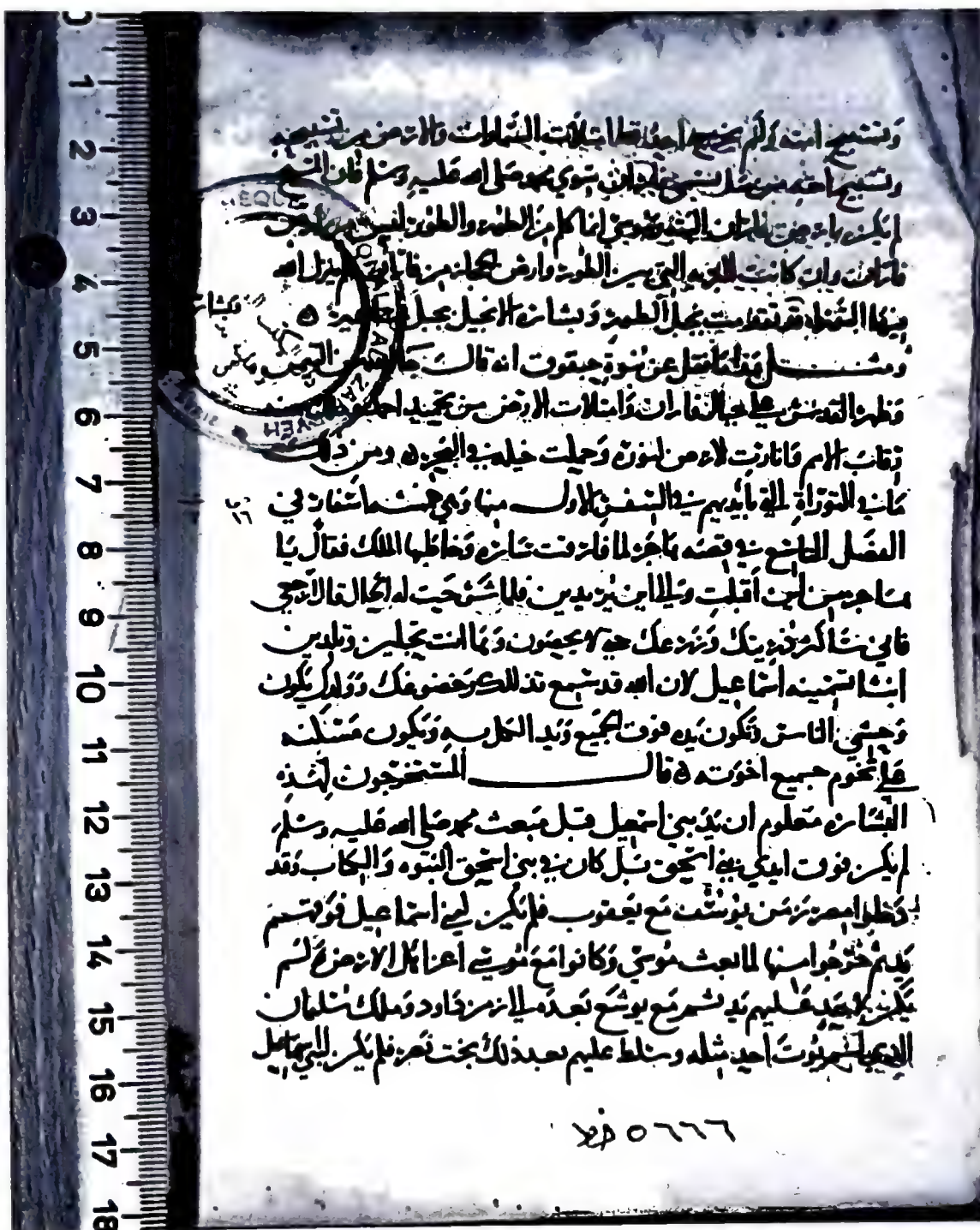
الورقة الأخيرة من نسخة دار الكتب (د)

هـ لا اله الا الله محمد رسول الله المجدد رب العالمين
 الذي خلقنا من طين الطينين الذي خلق
 السموات والارض وجعل السموات والنور
 الذي كفروا بهم بعد لون الجدة الذي لم
 يولدوا ثم يكن له شركاء في الملك ولم يكن له
 ولي من الزل وكبره تكبيرا والله أكبر الله أكبر
 لا اله الا الله الله أكبر الله أكبر والله الحمد
 الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله
 بكرة واصيلا الحمد لله الذي انزل على عبده
 الكتاب ولم

الصفحة الأولى من النسخة التيمورية (ت)

الحمد لله على نبوته صلى الله عليه وسلم وبجرائته نزيل على
الف بجره مثل استبان القمر وغيره من المراتب
وكان الفراغ منه بكرة السبت
الثاني والعشرين من شعبان
سنة ست وبلاتين وسبع مائة
كتبه لنفسه العبد المعترف بتقصيره في يومه
محمد بن أبي بكر بن أحمد بن هريرة الساجدي عن الله عنه
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي والجميع
وسلم تسليمًا

الصفحة الأخيرة من النسخة التيمورية (ت)



الورقة الاولى من النسخة الظاهرية (ظ)

[illegible]

此

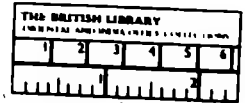
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَوْلُهُ الْمُسْلِمُونَ
لَا تُكْفِرُونَ بَعْدَ مَا
آمَنْتُمْ بِهِ أَلَمْ تَكُونُوا
أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ

[illegible]

فكلمة أن هذه داخله في معنى اسمه ليستم إنيما ماينه له بل اسلمه النبي
 صاوله لذاته المقدسة المتصية بهذه الصفات لا يجوز أن يرد بأسليه ذاتا مجردة
 عن صفات الكمال فان تلك لا حقيقة لها ومنع وجود ذات مجردة من صفه فضلا عن
 وجود ذاته تعالى مجردة عن صفات كماله التي لا يرد له ذاته مسخ ذاته دونها
 ولهذا لا يقل الله وعلمه خلق الله وقدرته خلقه وان أرادوا بخلقته وجه المسرور
 سى الله أناسوت المسيح بالمسيح ثم كنه مخلوق كسائر المخلوقين والله وجهه هو المالك
 وإن سبقت خلقه أن أراد بخلقته والروح ما هو صفه الله فنكر داخله في معنى اسمه
 وإن لربنا ليس صفه فذلك مخلوق له كمالا سوت
 بكونه للما في العباد هو الله الثالث لا شيء من صفاته فلكل من يعلم يقين يا الله
 يا ربنا يا خالقنا أرضنا وأعزنا لنا ولا يجوز أن يرد بأسليه ذاتا مجردة
 يا قدره الله وبأشبهه الله وبأعلم الله أعزنا ولولا الله تعالى خلق بقدرته
 ومخلوقه وكلامه وليست صفاته هو الله - الوجهة الثامنة أن قول داود حرم
 بخلقته الله خلقت السموات والأرض يوافق ما جاء في القرآن والسنن وغيره من كتب
 التفسير أن الله يقول للمنى ستن يكون وهذا في القرآن غير موضع وفي التوراة قال
 ليكن هذا ليكن هذا
 ثم يرد على من يقول بخلقته الله (الوجهة التاسعة) فانه يصح أن يقال بخلقته الله
 الوجه العاشر أن داود لم لا يجوز أن يرد بخلقته الله لأن الاسم عودج الناس هو اسم
 للناسوت وهو مندم لم يخلق وتكونت لما أتته ولا نقاد فعل جاد من عدم فخلق
 لا نقاد لم يكن بخلق الناسوت ولا يسمى مسيحا فعلم أن داود لم يرد بخلقته الله المسيح
 وكما يعلم أن بخلق الله أراد الكلمة التي قدرت فيها بعد بالمسيح لكن الذي خلق ما أتته
 لله هو خلقه بخلقته بخلقها [بلود] بخلقها وأما هي التي بها خلقت السموات والأرض
 ليست هي اسم بخلقته الذي خلق من الطين كهيئة الطين بخلق الله فاحق بهم
 بهذا على هذا أنما لا يخل بل تلك الكلمة التي خلقت بها السموات والأرض لم يكن
 معها الناسوت من خلقت بانفاد فيهم والمسيح كونه أن يدخل فيه الناسوت هم
 خلقه أن لم يرد بالكلمة المسيح

للاله

ولكن عاينهم



الورقة الأولى من نسخة المتحف البريطاني (ح)

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله
 الموصوف بالعلمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين هو المجدد الذي خلق السموات
 والارض ومعل الطلقات والنور والظلمة الذين كفروا به هم يعدلون والمجدد الذي
 لم يلد ولم يولد ولم يكن له شرك في الملك ولم يكن له ولي من الدن والاله الا الله اكبر
 لا اله الا الله والله اكبر والله المجدد اكبر كبريا والمجدد كبريا وسبحانه
 بكرة واسيله المجدد الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوما فيما لينذر
 باس شديد من لدنه ويشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم
 اجر استام كنفي فيه ايدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم
 ولا لابعام كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا والمجدد الذي
 له ما في السموات وما في الارض ولم يلد ولم يولد في الاخرة وهو الحكيم الخبير يمد ما في الارض
 وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يخرج فيها وهو الرحيم الغفور والمجدد قائل
 السموات والارض جاعل الملايكه رسلا وفي اخيه مثنى وثلاث ورباع يزيد في
 الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك له وما
 يحسك فلا يرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم واتخذ ان لا اله الا الله وحده لا شريك
 له الخالق المجدد الذي لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي
 يشفع عنده لا ياذن به يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه
 الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يئود حفظهما وهو العلي العظيم الحمد
 الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد الا والالاخر الظاهر الباطن
 الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور
 له الاسماء الحسن يعجب له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم واتخذ
 ان محمدا عبدا ورسولا رسلا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى
 بالله شهيدا ورسوله ارسله بالحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وما الى الله بازنة
 ومراجعة ورسوله ارسله الى جميع القبلين الحين والانس من ٧٧ ومحمد امينهم وكنائهم
 وانزل عليه احسن الحديث كتابا متشابها متباين تقشعر منه جلود الذين يخشون
 ربهم ثم تلتن جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدي الله بهدي به من
 يشا

ومن ينقل الله فانه من هاد كتاب انزل الله ليجرح الناس من الظلمات
 الى النور ياذن ربهم ويهديهم الى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في
 السموات وما في الارض هدا هديهم الى صراط مستقيم صراط الله الذي
 له ما في السموات وما في الارض وهو الصراط المستقيم الذي انعم الله عليهم
 من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو دين الله الذي بعث به الرسل
 قبله كما قال تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما
 وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه وقال
 تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا الي ما تفتنون عبادكم
 وان هذه امتكم امة واحدة واننا نريك ما تفعلون وقال في الآية الاخرى وانما
 ربكم فاعبدون فمقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون وقال
 تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسولا الا يوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون
 وقال تعالى ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت
 فمن من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا
 كيف كان عاقبة المكدين انزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من
 الكتاب ومهيئا عليه قصدا في كتابه ما بين يديه من كتب السما وامر الانبياء
 جميع الانبياء كما قال تعالى قلوا انساب الله وما انزلنا وما انزلنا الى ابراهيم واسماعيل وما
 يعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لا يخفى
 بين احد منهم ونحن له مسلمون فان اسماوا عتلت ما استم به فقد اهتدوا واولات
 نزلوا فامامهم في شقاق فسيلكم الله وهو السميع العليم وهيمن عليه ما بين
 يديه من الكتاب وذلك نعم الكتب كلها شاهدا وحكما وموعظا ينهدم مثل ما فيها
 من الاخبار الصادقة وقرر ما في الكتاب الاول من اصول الدين وترجع الى الله
 التي اتفقت عليها الرسل كالوصايا المذكورة في اخر الانعام واول الاعراف وسورة
 سبحان ونحوها من السور المكية قال تعالى قل تقالوا انزل ما جرم ربكم عليكم ان لا
 تشرلوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نزركم وايام
 ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق

الورقة الاولى من نسخة يني جامع (ي)

اعقبن فرعون وقومه فكوا كان هورب العالمين كان ما يوديه نفسه
الابن اعظم ما يوديه عبيد موسى ومن عبيد النصاري انهم يدعون فيه
الالهة مع ادعائهم فيه غاية العز حق صلب واما المسلمون فيقولون هو
رسول مريد يصلب وهذا في رسله فانه يريهم وينصرهم على عروم
كان من رجاو ابراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم فاذا كان لا يجوز ان يكون رسولا
فكيف يكون رجاو صلب الوجب السابغ عشر قوام فعل المعية بلاهوت
واظهر المعية بناسوته فيقال لهم ان الله فعل من المعجزات ما هو اعظم من المعجزات
التي ظهرت على يد المسيح عليه السلام ولم يكن يتخذ بشي من البشر كاي ضرورة
له ان يتخذ بالبشر اذا فعل معجزات ذلك الوجه الثامن عشر ان المسيح ظهرت
على يده معجزات كالمظهر لسائر الرسلين ومعجزات بعضهم اعظم من معجزاته ومع هذا
ظلمت المعجزات دليلا على اتحاد اللاهوتيات التي ظهرت على يده فعمل ان الاسكندر
بظهور المعجزات على يده في غاية الفساد الوجه التاسع عشر ان اللاهوت ان كان
مختصا بالناسوت لم يتميز فعله عن فعل الناسوت فانها اذا صار اشيا واحدا
كان كل ما فعله من معجزات هو ذلك الواحد كما لا يشك في ذلك الذي يضر به الله سبحانه
وتعالى فانه يقولون ذلك بالناسوت الحديدي والماضي والمزج معلوم ان الحق
اذا دخلت النار صارت بيضا كالنار البيضاء ففعلها فعل واحد ليس لها فعلات
متميزة احدها بالحديد والاخر بالنار بل فيها قوة ثالثة ليست قوة الحديد
ولا قوة النار اذ ليست حديدا محضا ولا نارا محضة وكذا كلما اذا اختلط بالثاني
والجزء المقتضى شي واحد فعله فعل واحد فيه ليس ما محضا ولا نارا محضا
لا يقولوا قل ان له فعلين يتميز احدهما عن الاخر ففعل يكون له محضا وفعل
يكونه ما محضا فقولوا لاتحاد بوجوب استحالة اللاهوت بالناسوت وان يصير فعل
للمتدشيا واحدا وان كان اللاهوت لم يتحد به فيما اثنان شخصان وجوه صلات
وطبقتان وشبهان وليس هذا من النصاري مع ان حلول الرب عز وجل في البشر
متنوع كما قد بسط في موضع اخر وكذلك اذا منلوه بالنفس مع البدن فان النفس تتغير
صفتها بمقارنته البدن وكذلك البدن تتغير صفاته بمقارنته الروح له والاشارة
الذي

231

الذي تحت فيه الروح فصارت بدنا فيه الروح هو نوع ثالث ليس فيه بدن
محض وروح محض حتى يخلو انه يعمل كذا بدنه وكذا بنفسه بل افعال يشترك فيها
الروح فهو اذ اكل وشرب فالروح تتلذذ بالاكل والشرب وبما صار اكل وشربا
ولا قال بدن الميت لا ياكل ولا يشرب واذا نظر واستدرك وتعلم ومع وراي
فالنفس فعلت ذلك بالبدن والبدن يظهر فيه ذلك والروح وحدها
لا تفعل ذلك وعندهم ان فعل اللاهوت بعد الاتحاد كمنعه قبله وكذلك فعل
الناسوت وهذا بناقض الاتحاد والقول بمذاهب الاتحاد في غاية التناقض
والفساد ولا يعقل فظير هذا في شي من الموجودات ونفس المتكلم
بعد ان النصاري لا يتصور ما يقول ولا يمكن ان يحتله بشي معقول واقه سبحانه يعلم

بسم الله وعونه وحسن توفيقه

وكان الذراع من تكملة هذا الكتاب

المبارك بزم السبت حاسن

رجب الزم من شهر رمضان

وصلى الله على سيدنا

محمد وعلى آله

وسلم والحمد لله

على

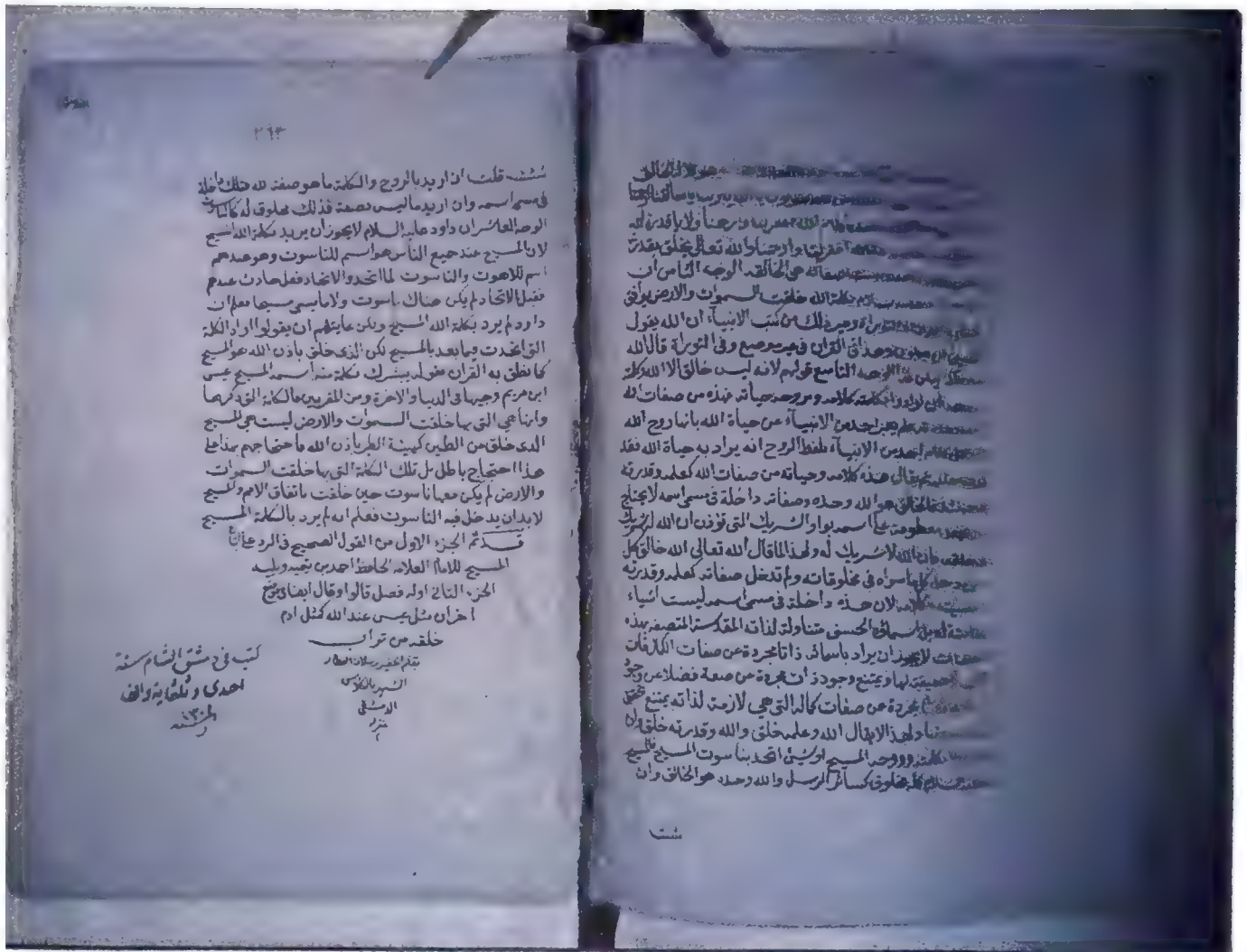


اقول بعد قوله مستور
كأن الشيخ قوله نفسا قالوا
قد جاء في نقل هذه الشيخ ان
هذه النسخة هي من كتاب بل ناقصا
عن النصف فلا تغفل

الورقة الأخيرة من نسخة يني يجامع (ي)



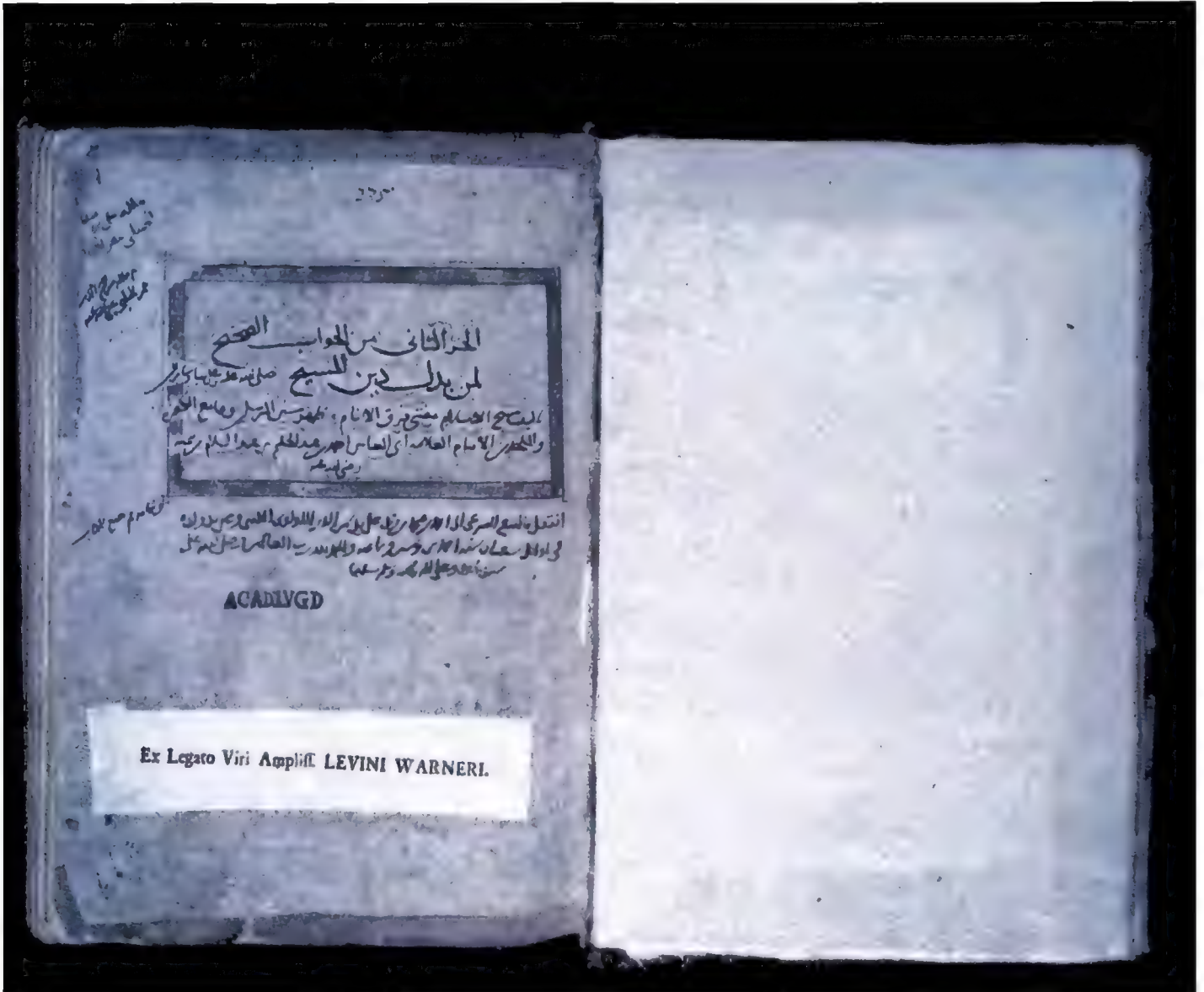
الورقة الأولى من النسخة النعمانية (ع)



الورقة الأخيرة من النسخة النعمانية (ع)



الورقة الأولى من نسخة طوبقبوسراي (و)



صفحة العنوان من نسخة ليدن (ل)

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر لي
 فصل قالوا وقد جاء في هذا الكتاب الذي جاء به
 هذا الانسان يتول انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله
 وكلنا القاطن الى مريم وروح منه وهذا ما يوافق قولنا
 لاذ قد شهد انه انسان مثلنا بالناسوت الذي اخذ من مريم وكله
 الله وروحه المخلص فيه وحاشا ان يكون كلمة الله وذو وجه
 الخلقه مثلنا نحن المخلوقين وايضا قال في سورة النساء ما نقلوه
 وما ملوه ولكن شبه لهم فاشار بهذا القول الى اللاهوت الذي
 هو كلمة الله التي لم يدخل عليها الم ولا عرض وقال ايضا
 يا عيسى ابن مريم اذ اقبل الى ومطهر من الذين كفروا
 وحامل الذين آمنوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة وعلم هذا
 الناس يقول ان المسيح ملب وثالم باسوته ولم يصلب
 ولا اقام بالاهوته والكواب من وجوه احدها ان يقال
 وهو لم يلبس على محمد صلى الله عليه وسلم انه اثبت في المسيح الالهوت
 والناسوت كما يزعم هو لا المضاد في فيه هو من الكذب
 الواضح المعلوم على محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعلم من دينه بالاضلال
 كما يعلم من دينه تصديق المسيح عليه السلام واثبات رسالته
 لمواذي اليهودي على محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعلم من دينه
 بالاضلال كما يعلم من دينه تصديق المسيح عليه السلام واثبات
 رسالته لمواذي اليهودي على محمد صلى الله عليه وسلم انه كان
 يكذب المسيح ويخبر رسالته كان كدعوى المضاد على انه كان
 يقول انه رب العالمين وان اللاهوت اتخذ اللاهوت ومحمد صلى
 الله عليه وسلم قد اخذ منها لطفه من الله عز وجل تكبير من قال ذلك

بما ناضر في غير موضع كقوله تعالى هو كقوله الذين قالوا ان الله
 هو المسيح بن مريم قل من ملك من الله شيئا ان اراد ان يعذب
 المسيح بن مريم وامه ومن في الارض جمعا والله ملك السموات
 والارض وما بينهما يخفى ما يشاء والله على كل شيء قدير وقوله
 تعالى لنذكر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وقال
 المسيح يا بني اسرائيل اعدوا الله ذبي وديكم انه من شرك
 بالله يقتلهم الله عليه الجنة وما واه النار وما للعالمين من
 انصار لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من الاله الا
 اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمس الذين كفروا منهم
 عذاب اليم افلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم
 ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وانه
 صديق كانا ياكلان الطعام انظر كيف ينزعهم الالهات
 ثم انظر ان يوتفكون قل ان قدس من دون الله ما لا يملك لكم
 شيئا الا نفعا والله هو السميع العليم قل يا اهل الكتاب لا تقلوا
 في دينكم ولا تتبعوا اهلهم فدخلوا من قبل واضلوا كثيرا
 وضلوا عن سبيل السبيل وقال تعالى وكانت اليهود عذري
 ابن الله وكانت المضادى للمسيح بن الله ذلك قولهم بانواهم
 بضاهون قول الذين كفروا من قبل قال لهم الله ان يوتفكون
 اتخذوا الجاهل وديانهم لربا ما من دون الله والمسيح بن مريم
 وما اسروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون
 وقال تعالى يريدون ليطغوا انزول الله انزولهم والله متم نوره ولو كره
 الكافرون هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره
 على الدين كله ولو كره المشركون ايها الذين آمنوا ان لهدا من الجاهل

الورقة الاولى من نسخة ليدن (ل)



الورقة الأخيرة من نسخة ليدن (ل)

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي شرع لنا الدين والصلوة والسلام على
 افضل من اعظم جمل النبي سيدنا محمد وآله وصحبه ورسوله الامي صلى الله عليه وعلى الرضا
 فيما بينهم الاستدراك على الكافرين صلة دائمة متعاقبة في كل وقت وحين ، وسلم تسلما كبيرا اليوم الدين
 اما بعد فيقول العبد المتكبر بذيل اللطاف الخفية ابو العباس عليه تيممة الخيلة ، عامل الحجة
 ذنبه الخفي المجلي هذا كتاب سميته بتجليل اهل الاجيال والنهج المبيح ، في الرد على من يدّعون
 عيسى بن مريم المسيح ، اذ كفيه اعلام النبوات بنص الحديث والكتاب الفصيح ، فاقول والله
 الهادي وعليه توكل واعقادي واليه المرجع واستنادي اعلم وفقك الله وايدنا ، ان
 المنصاري لهم قول مشهور بينهم وهو انهم من يقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يشر به النبوات عدا
 المسيح فانه بشر به النبوات وزعموا ان من لم يشر به النبوات فليس نبيا ، وهذا القول يورد على جميع
 احداهما انه لا يكون نبيا حتى يشر به ، والثاني ان من يشر به اكل او افضل ممن لم يشر به ، وان هذا
 طريق يعرف به نبوة المسيح اختص به وانتم قد قلتم ما من طريق ثبت به نبوة بني الاوحد ثلثت نبوة
 بشرك الطريق وافضل فاما هذا الثاني فيستحق الجواب ، والاول فتم نعيمهم عن انشاء كل هل يجب
 الاجابة عنه في قولنا بنا على اصل وهو انه هل من شرط الفسخ لا شعابا بالنامخ ولتظار المسلمين فيه
 قولنا احدثا الله لا بد اذا شرع حكما يريد ان ينسخه فلا بد ان يشعر الخاطئين بانه نسخه ليلا
 يظنوا دامة فيكون ذلك تجهيلا لهم والثاني لا يشترط ذلك وايضا فربعت بعد موسى
 بشرية هل يجب ان يكون بشرابه فيه قولنا ، وبكل حال فلا ريب
 عند علماء المسلمين ان المسيح عليه السلام بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم
 كما قال تعالى واذا قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني
 رسول الله اليكم مصدقا لما بيدي من التورية ومبشرا برسول
 ياتي من بعدي اسمه احمد وقال تعالى الذين يتبعون الرسول
 النبي الامي الذي يجلدونه مكوثا عندهم في التورية والاجيل يا مريم
 بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعجل لهم الطيبات وعيد عليهم العبايث

مع
المخاطبي

وقال

الورقة الاولى من نسخة بودليان (ب)

[illegible]

لمت المنهات نصف السبع

الامام العالم العلامة ابو جلال العمر

مريد الرحمن مع الاسلاف

44

مجلس الشورى

طریقہ شافعی

اعاد الله تعالى

من زیاده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لواء

Abstract

فیوض باختر

ويعلم الصالحين والبر

پیشہ کار کے لئے رہنما

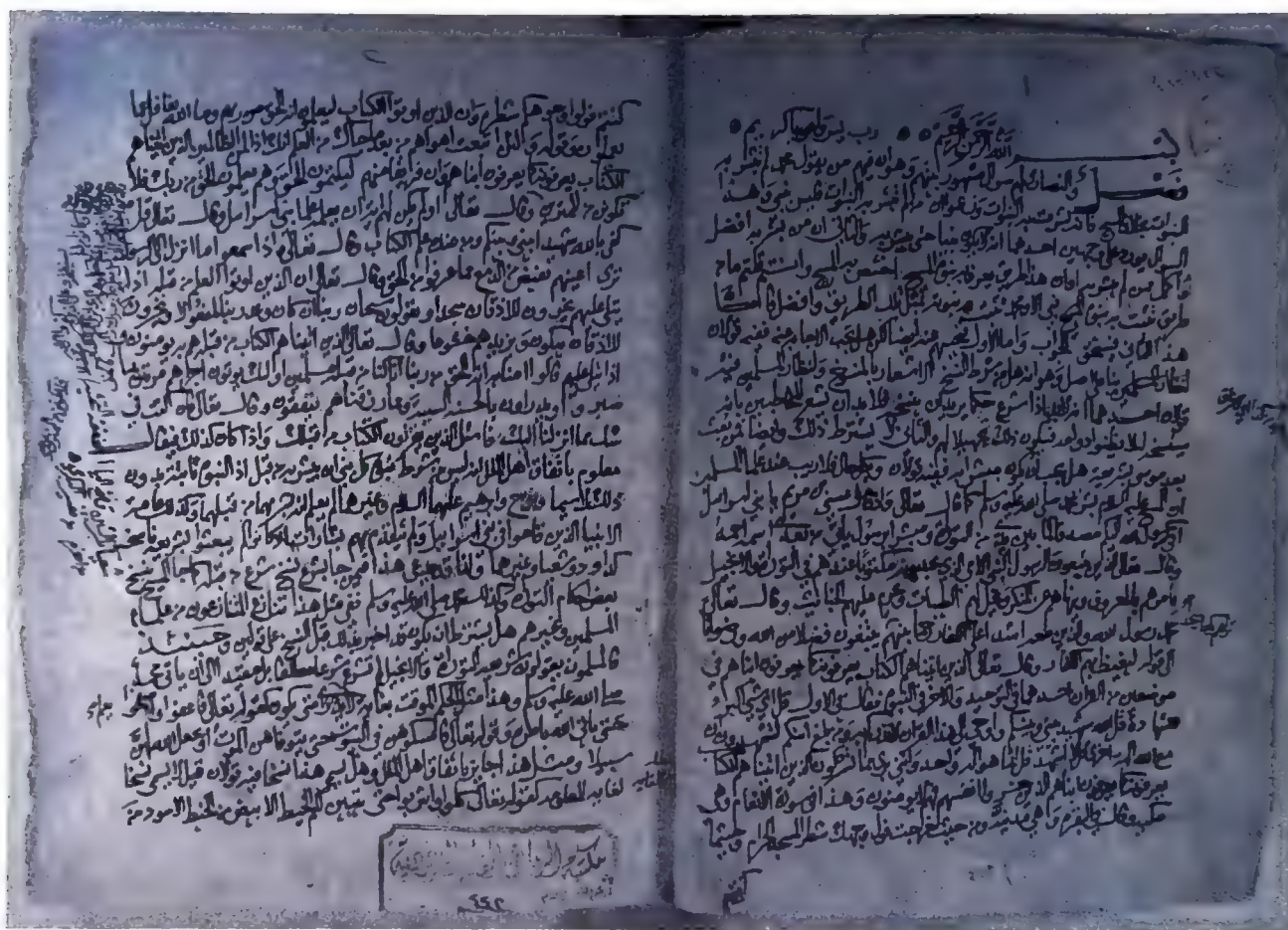
محمد باقر

21

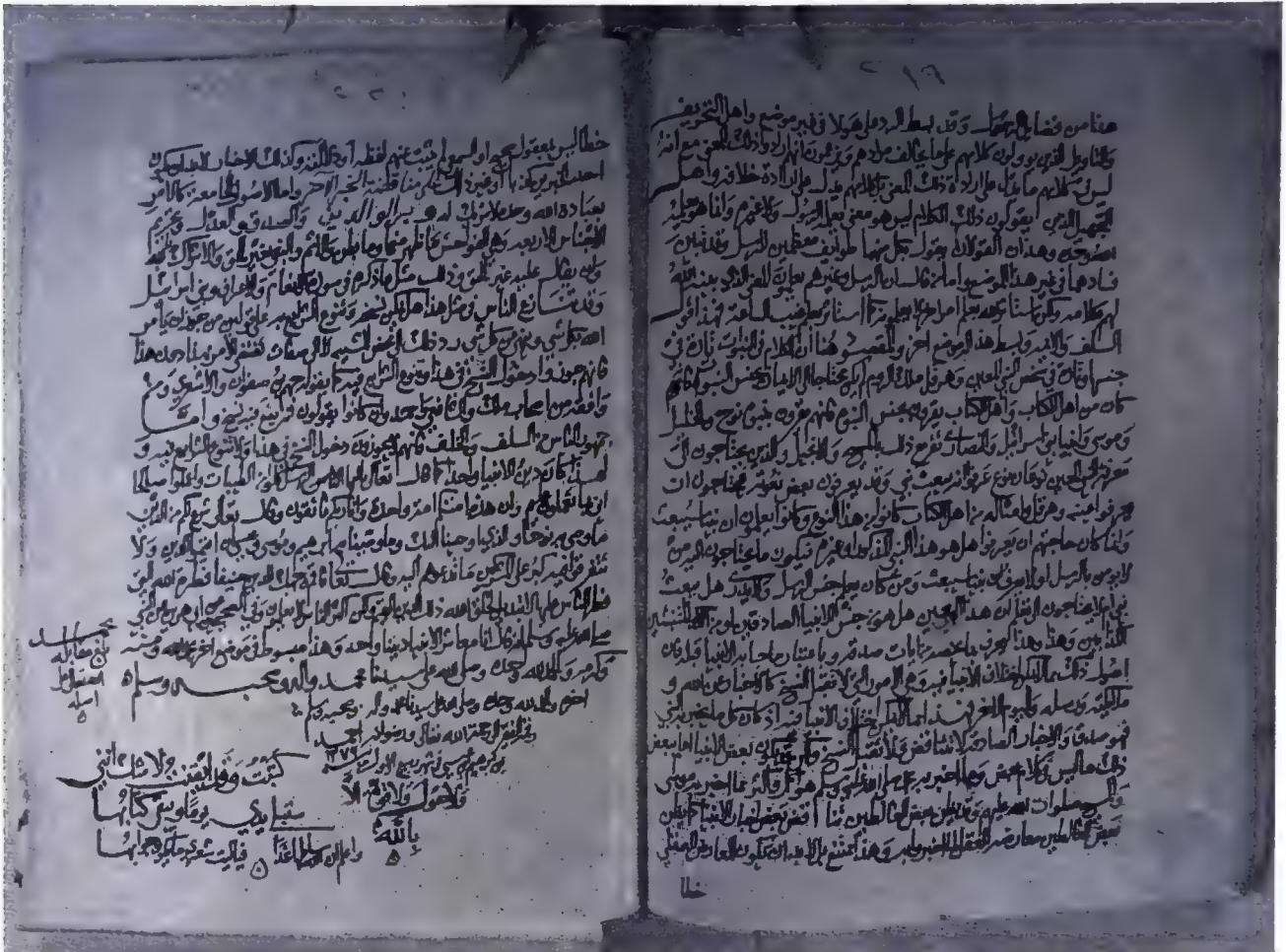
100

100

الورقة الا



الورقة الأولى من نسخة الإفتاء (ف)



الورقة الأخيرة من نسخة الإفتاء (ف)



الجواب الصحيح

لمَن بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ

تَأْلِيفُ

شَيْخِ الْإِسْلَامِ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْحَكِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ تَيْمِيَّةَ

(٦٦١ - ٧٢٨ هـ)

تَحْقِيقُ

د. عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَنٍ قَائِدِ

إِشْرَافُ

د. عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَمْرَانِ

المجلد الأول

طبع برعاية

مجلس إشراف



مؤسسة عبد الله بن عبد العزيز آل سعود



مركز التأسيس للدراسات والبحوث

Taseel Center for Studies & Research

الأصول المعتمدة في تحقيق هذا الجزء

- (ت) نسخة المكتبة التيمورية (كتبت سنة ٧٣٦)
- (د) نسخة دار الكتب المصرية (نسخة عتيقة عليها خط المصنف، ثم جرى ترميمها وإكمال خرومها سنة ١٢٨١)
- (و) نسخة متحف طوبقبوسراي (كتبت سنة ٧٣٠)
- (ي) نسخة مكتبة يني جامع (كتبت سنة ١٠٩٤)
- (ع) نسخة المكتبة النعمانية (عليها تعليقات بخط نعمان الألوسي، كتبت في دمشق سنة ١٣٠١)
- ط. النيل (الطبعة الأولى للكتاب بمطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٢)

لا إله إلا الله محمد رسول الله

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤].

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

والله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فَيَمَّا يَلِيْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّا كَثُتْ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥].

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبا: ١ - ٢].

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ١ - ٢].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿[البقرة: ٢٥٥].

الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً.

أرسله بالحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. أرسله إلى جميع الثقليين، الجن والإنس، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنزل عليه ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِّثْلَانِ نَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

كتاب أنزله إليه ^(١) ليُخرج النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ويهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ① اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿[إبراهيم: ١ - ٢].

(١) ساقطة من ط. العاصمة. وأصلحت في (ع) لتوافق لفظ الآية: «أنزلناه إليك لتخرج الناس».

هداهم به ﴿وَإِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم ﴿٢﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهو دينُ الله الذي بعث به الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ٥١ وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿- وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] - ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

أنزل عليه الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه. فصدق كتابه ما بين يديه من كتب السماء، وأمر بالإيمان بجميع الأنبياء،

(١) أكملت الآية في (د)، ولعله من الناسخ.

(٢) (ي، و، ع): «وهو الصراط المستقيم الذي أنعم الله عليهم».

كما قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نَوْلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧].

وهيمن على ما بين يديه من الكتاب، وذلك يعم الكتب كلها، شاهداً وحاكماً ومؤتمناً.

فشهد^(١) بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة، وقرّر ما في الكتاب الأوّل^(٢) من أصول الدين وشرائعه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل، كالوصايا المذكورة في آخر الأنعام، وأول الأعراف، وسورة سبحان، ونحوها من السور المكية.

قال تعالى^(٣): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

(١) (و، ي، ع): «يشهد». والمثبت من (د) أجود.

(٢) ط. النيل: «ما في الكتب المتقدمة».

(٣) زادت ط. العاصمة الآية (١٥٠) ﴿قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شَهِدَاءُ كُمْ﴾ إلى آخرها، وليست في الأصول ولا في ط. النيل.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ٣٠﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ٣٣﴾ (١)

[الأعراف: ٢٩ - ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَقْتُلُوا نَفْسًا نَزَّلْنَاهُمْ وَلِئَاكُمُ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا ٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُولًا ٣٤﴾ وَأَوْفُوا أَلْكِيلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا

(١) الآية الأخيرة ساقطة من ط. العاصمة.

بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿الإسراء: ٢٣ - ٣٩﴾.

فدين الأنبياء والمرسلين دينٌ واحد، وإن كان لكل من التوراة والإنجيل والقرآن شرعةٌ ومنهاج.

ولهذا قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي»^(١).

فدين المرسلين يخالف دين المشركين المبتدعين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿الروم: ٣٠ - ٣٢﴾.

(١) لم أجده بهذا اللفظ في الصحيحين والجمع بينهما للحميدي (٧٣/٣). وكذلك يورده الشيخ في كتبه. انظر: «الرد على المنطقيين» (٢٩٠)، و«التدمرية» (١٦٧)، و«مجموع الفتاوى» (٣/٩٠، ١٥/١٥٩)، وغيرها. وزاد في «الصفدية» (٢/٣٠٥): «ولهذا ترجم البخاري على ذلك: باب ما جاء في أن دين الأنبياء واحد»، ولم أجد التبويب كذلك، ولعلها رواية وقف عليها. والحديث في البخاري (٣٤٤٢) ومسلم (٢٣٦٥) بنحوه. وفي (د، ع): «وأنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي».

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ٥٠﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ - وقال في الآية الأخرى: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ^(١) [الأنبياء: ٩٢] - ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٠ - ٥٣].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد خصَّ الله تعالى محمداً ﷺ بخصائص ميّزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شريعةً ومنهاجاً أفضل شريعةً وأكمل منهاج مبین ^(٢). كما جعل أمته خير أمةٍ أُخرجت للناس، فهم يوفون سبعين أمةً هم خيرها وأكرمها على الله ^(٣) من جميع الأجناس.

هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلف ^(٤) فيه من الحقّ قبلهم، وجعلهم وسطاً عدلاً خياراً، فهم وسطٌ في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسوله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام.

فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأحلّ لهم الطيبات، وحرّم عليهم الخبائث.

(١) قوله: «وقال في الآية الأخرى فاعبدون» ليست في (ي، و).

(٢) ليست في (ي، و، ع).

(٣) سياقي تخريجه (١/٤١٨).

(٤) (و، د، ي، ع): «اختلفوا». وصححت في طرة (ت).

لم يحرم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحلّ لهم شيئاً من الخبائث كما استحلتها النصارى.

ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة، ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعدّ كثير من عبّادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات، حتى يقال في فضائل الراهب: «له أربعون سنة ما مسّ الماء»^(١)، ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه السلام وأتباعه.

واليهود إذا حاضت عندهم المرأة لا يؤاكلونها، ولا يُشارِبونها، ولا يقعدون معها في بيتٍ واحد^(٢)، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض.

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة، بل إذا أصاب^(٣) ثوب أحدهم قرّضه بالمقراض، والنصارى ليس عندهم شيء نجس يحرم أكله أو تحرّم الصلاة معه.

وكذلك^(٤) المسلمون وسطّ في الشريعة؛ فلم يجحدوا شرع الناسخ لأجل شرعه المنسوخ كما فعلت اليهود، ولا غيّروا شيئاً من شرعه المُحكّم ولا ابتدعوا شرعاً^(٥) لم يأذن به الله كما فعلت النصارى.

(١) وكلما كان الراهب أبعد عن الطهارة وأكثر ملابسة للنجاسة كان معظماً عندهم. انظر: «منهاج السنة» (٥/١٧١)، و«الصفدية» (٢/٣١٣)، و«اقتضاء الصراط» (١/٢١٦)، ومجموع الفتاوى (٣/٣٧٢، ٢١/١٨، ٣٣٢، ٢٨/٦١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) كذا في الأصول، من باب الحمل على المعنى، والجادة: أصابت.

(٤) (و، ي): «ولذلك».

(٥) (ع): «شيئاً».

ولا غَلَّوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود.

ولا جعلوا الخالق سبحانه متَّصِفًا بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه من الفقر والبخل والعجز كفعل اليهود، ولا المخلوق متَّصِفًا بخصائص الخالق سبحانه التي ليس كمثله فيها شيءٌ كفعل النصارى.

ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدًا كفعل النصارى.

وأهل السُّنَّة والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في أهل المِلَل^(١).

فهم وسطٌ في باب صفات الله ﷻ بين أهل الجحد والتعطيل، وبين أهل التشبيه والتمثيل، يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله، من غير تعطيل ولا تمثيل، إثباتًا لصفات الكمال، وتنزيهًا له عن أن يكون له فيها أندادٌ وأمثال، إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيهٌ بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ردُّ على الممثلة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ردُّ على المعطلة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ [الإخلاص: ١ - ٤]، فالصَّمَد: السيّد المستوجب لصفات الكمال، والأحد: الذي ليس له كفوٌ ولا مثال.

وهم وسطٌ في باب أفعال الله ﷻ بين المعتزلة المكذِّبين بالقدر^(٢)،

(١) قال أبو بكر بن عياش: «السُّنَّة في الإسلام كالإسلام في الشرك». أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١٥١٨).

(٢) (و، ي): «للقدر».

والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله، والمعارضين بالقدر أمر الله ونهيه
وثوابه وعقابه.

وفي باب الوعد والوعيد بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة
المسلمين في النار، وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد وما فضل الله به
الأبرار على الفجار.

وهم وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الغالي في بعضهم الذي يقول
بإلهية أو نبوة أو عصمة، والجافي فيهم الذي يكفر بعضهم أو يفسقه وهم خيار
هذه الأمة.

والله سبحانه أرسل محمداً ﷺ للناس رحمة، وأنعم به نعمةً يا لها من
نعمة!

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]،
وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ فأرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده.

فجمع^(١) الله لأمة بخاتم المرسلين^(٢)، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم
أجمعين، ما فرقه في غيرهم من الفضائل، وزادهم من فضله أنواع الفواضل، بل
آتاهم كفلين من رحمته، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا
بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ﴾ (٢٨) لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨ - ٢٩].

(١) (و، ي): «يجمع».

(٢) (ت): «النبين».

وفي الصحيحين^(١) عن ابن عمر وأبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمّالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراطٍ قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراطٍ قيراط^(٢)، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراط، ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس، ألا لكم الأجر مرتين. فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: نحن أكثر عملاً، وأقلّ عطاءً، فقال الله تعالى: فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال الله: فإنه فضلي أعطيه من شئت».

أما بعد؛ فإن الله ﷻ جعل محمداً ﷺ خاتم النبيين، وأكمل له ولأمته الدين، وبعثه على حين فترة من الرُّسل، وظهور الكفر وانطماس السُّبل، فأحيا به ما دَرَس من معالم الإيمان، وقمع به أهل الشرك والكفر^(٣) من عبّاد الأوثان والنيران والصُّلبان، وأذلّ به كفّار أهل الكتاب، أهل الشُّك^(٤) والارتياب، وأقام به منار دينه الذي ارتضاه، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه، وأظهر به ما كان مخفياً عند أهل الكتاب، وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصّواب، وحقّق به صدق التوراة والزّبور والإنجيل، وأمّاط به عنها

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧١، ٣٤٥٩)، وهو من أفرادهما كما في «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (١/ ٣١٥، ٢/ ٢٦٩).

(٢) «على قيراط قيراط» ليست في (و، ي).

(٣) ليست في (ي)، واستدركت في طرة (و).

(٤) (ع): «الشرك»، وفي طرة (ت) إشارة إلى أنها في نسخة.

ما لبس^(١) بحقها من باطل التحريف والتبديل.

وكان من سنة الله ﷻ مواترة الرُّسل، وتعميمُ الخلق بهم، بحيث يبعث في كل أمة رسولا؛ ليقيم هداه وحجته^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [١١٣] وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

ولما أهبط آدم إلى الأرض^(٣) قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال في الآية الأخرى^(٤): ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [١٢٣] وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

(١) أي: خُلط. وفي الأصول سوى (ت): «ليس» بالياء المعجمة، وهو تحريف.

(٢) (د، ع): «لستم هداة حجته». (ي، و): «لتعم هداه حجته». والمثبت من (ت).

(٣) (ي، و): «أهبط آدم الأرض».

(٤) من قوله: «فإما يأتينكم» إلى هنا ساقط من (و، د، ي، ع) لانتقال النظر، واستدراك في طرة

(ت) مختوماً بالتصحیح. وبسبب السقط غيّرت ط. العاصمة صدر الآية الأولى ليوافق

لفظ الثانية. ووقع نحو هذا السياق في «الاستقامة» (١٦٨/٢).

أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيْنَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهٖ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿طه: ١٢٣ - ١٢٧﴾.

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿الملك: ٨ - ١٠﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠ - ١٣١].

فصل

وكان دينه الذي ارتضاه لنفسه هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد ديناً غيره لا من الأولين ولا من الآخرين.

وهو دين الأنبياء وأتباعهم، كما أخبر الله بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِثَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١ - ٧٢].

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وقال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالى عن موسى أنه قال: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

وأخبر تعالى عن السحرة أنهم قالوا لفرعون: ﴿وَمَا نُنْقِمْ مِنْآ إِلَّا آتَآءَآمَنآ
يَأْتِيَتْ رَبِنآ لَمآ جَآءَآ رَبِنآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقال تعالى عن بلقيس ملكة اليمن: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ
مُسْلِمِينَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ
يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى عن المسيح: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي
إِلَى اللَّهِ قَالُوا الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾
رَبِّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١) [آل عمران:
٥٢، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو
عبادة الله وحده لا شريك له.

وعبادته تعالى في كل زمانٍ ومكانٍ بطاعة رسله عليهم السلام؛ فلا يكون
عابداً له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله، كالذين قال فيهم: ﴿أَمْ لَهُمْ
شُرَكَآؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

(١) الآية الأخيرة ساقطة من ط. العاصمة.

فلا يكون مؤمناً به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمناً به ولا عابداً له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسل إليه، فيطاع^(١) كلُّ رسولٍ إلى أن يأتي الذي بعده، فتكون الطاعة للرسول الثاني، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله^(٢)، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

ومن فرق بين رسله، فأمن ببعض وكفر ببعض كان كافراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝١٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

فلما كان محمدٌ ﷺ خاتم النبيين، ولم يكن^(٣) بعده رسولٌ ولا من يجدد الدين، لم يزل الله ﷻ يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضياً لظهوره، كما وعد به في الكتاب، فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده، ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده.

ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين: ظهور المعارضين^(٤) لهم من أهل الإفك المبين، كما قال تعالى: ﴿وكَذَٰلِكَ

(١) (د، ع): «ليطاع».

(٢) قوله: «ومن يطع الرسول فقد أطاع الله» لحق مختوم بالتصحيح في طرة (ت)، وليس في باقي الأصول، وأثبتته ط. النيل.

(٣) (ع): «يأت».

(٤) (د، ع): «المعارض».

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ
 غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا
 وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ
 رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ
 لِكَلِمَتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ
 وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
 الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا
 وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٣١].

وذلك أن الحق إذا جُحِدَ وعُورِض بالشبهات، أقام الله تعالى له ممَّا يُحَقُّ
 به الحقُّ ويُبطل به الباطل من الآيات البينات، بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه
 الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة.

فالقرآن لما كَذَّب به المشركون، واجتهدوا على إبطاله بكلِّ طريق، مع أنه
 تحدَّاهم بالإتيان بمثله، ثم بالإتيان بعشر سُور، ثم بالإتيان بسورة واحدة، كان
 ذلك ممَّا دَلَّ ذوي الألباب على عجزهم عن المعارضة، مع شِدَّة الاجتهاد وقوَّة
 الأسباب، ولو اتَّبَعُوهُ من غير معارضة وإصرار^(١) على التَّبْطِيل، لم يظهر
 عجزهم عن معارضته التي بها يتمُّ الدليل.

(١) (د): «وَصَد». (ع): «وَصَر».

وكذلك السّحرة لما عارضوا موسى عليه السلام، وأبطل الله ما جاؤوا به، كان ذلك ممّا بين الله تعالى به صدق ما جاء به موسى عليه السلام.

وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التي تسمّى بالمعجزات، وبين ما قد يشتهبها من خوارق السّحرة وما للشّياطين^(١) من التصرفات؛ فإن بين هذين فروقاً متعددة:

منها: ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢].

ومنها: ما بيّنه في آيات^(٢) التحدي من أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تُعارض بالمثل فضلاً عن الأقوى، ولا يمكن أحداً إبطالها، بخلاف خوارق السّحرة والشّياطين؛ فإنه يمكن معارضتها بمثلها وأقوى منها، ويمكن إبطالها.

وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، إذا أظهروا من حججهم ما يحتجّون به على دينهم المخالف لدين الرسول، ويموّهون في ذلك بما يلفّقونه من منقولٍ ومعقول، كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذي وعد بظهوره على الدّين كلّ بالبيان والحجّة والبرهان، ثم بالسيف واليد والسّنان^(٣)، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

(١) (ت، ي، و): «للشيطان».

(٢) (د، ع): «من آيات».

(٣) (د، ع): «واللسان»، تحريف.

وذلك بما يقيمه الله ﷻ من الآيات والدلائل، التي يظهر بها الحق من الباطل، والحالي^(١) من العاطل، والهدى من الضلال، والصدق من المحال، والغنى من الرشاد، والصّلاح من الفساد، والخطأ من السّداد، وهذا كالمحنة للرجال التي تميّز بين الخبيث والطيب، قال تعالى^(٢): ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿الْمَ ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ٣ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٤﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥﴾ [العنكبوت: ١ - ٤].

والفتنة هي الامتحان والاختبار، كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: امتحانك واختبارك، تُضِلُّ بها من خالف الرسل وتهدي بها من اتبعهم.

والفتنة للإنسان، كفتنة الذهب إذا أُدخل كير الامتحان، فإنها تميّز جيده من رديئه، فالحق كالذهب الخالص كلما امتحن ازداد جودةً، والباطل كالمغشوش المطلي^(٣) إذا امتحن ظهر فسادُه.

فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.

(١) (ت، د، ع) وط. النيل والعاصمة: «الخالي» بالمعجمة، وهو تصحيف. والحالي من عليه الحلي، وضده العاطل.

(٢) سقطت من هنا أوراق كثيرة من الأصل (ت).

(٣) (د) وط. النيل: «المغشى». (ع): «الغشي». وفي (و): «المضي» وزادتها ط. العاصمة همزة: «المضيء»! والوجه ما أثبت. واستشكلها ناسخ (ي) فأسقطها.

والدِّينُ الباطلُ إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يُقيم عودَه المائل، أقام الله ﷻ من يقذف بالحقّ على الباطل فيدْمَغُه فإذا هو زاهق، وتبيّن أن صاحبه الأحقّ كاذبٌ مائق، وظهر فيه من القبح والفساد، والحلول والاتحاد، والتناقض والإلحاد، والكفر والضلال، والجهل والمُحَال، ما يظهر به لعموم الرجال، أن أهله من أضلّ^(١) الضُّلّال، حتى يظهر فيه من الفساد، ما لم يكن يعرفه أكثرُ العباد، ويتنبّه بذلك من سِنَةِ الرُّقاد^(٢)، من كان لا يميّز الغيَّ من الرشاد، ويحيا بالعلم والإيمان من كان ميّت القلب لا يعرف معروفَ الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين، ولا ينكر منكراً المغضوب عليهم والضّالّين.

فإن ما ذمّ الله به اليهود والنصارى في كتابه، مثل تكذيب الحقّ المخالف للهوى، والاستكبار عن قبوله، وحسد أهله، والبغي عليهم، واتباع سبيل الغيِّ، والبخل، والجبن، وقسوة القلب^(٣)، ووَصَفِ الله تعالى بمثل عيوب المخلوقين ونقائصهم، وجَحَدِ ما وصفَ به نفسه من صفات الكمال المختصّة به التي لا يماثله فيها مخلوق، وبمثل الغلوّ في الأنبياء والصالحين، والإشراك في العبادة لرَبِّ العالمين، والقول بالحلول والاتحاد الذي يجعل العبد^(٤) المخلوق هو ربّ العباد، والخروج في أعمال الدّين عن شرائع الأنبياء والمرسلين، والعمل بمجرد هوى القلب وذوقه ووَجْدِه في الدّين، من غير اتباع العلم الذي أنزله الله في كتابه المبين، واتخاذ أكابر العلماء والعباد أرباباً يُتَّبَعُونَ فيما يتدعون من

(١) (د، ع): «أصل» بالمهملة، ويتجه أن تكون «أهل» بالهاء، وكلاهما يقتضي تخفيف لام «الضلال»، وهو أوفق للسجع.

(٢) ط. النيل: «من كان غافلاً من سنة الرقاد».

(٣) (و، ي): «القلوب».

(٤) ليست في (د، ع).

الذين المخالف للأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول بما يُظنُّ أنه من التنزلات الإلهية^(١)، والفتوحات القدسية، مع كونه من وساوس اللعين، حتى يكون صاحبها ممن قال الله فيه: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، إلى غير ذلك من أنواع البدع والضلالات التي ذمَّ الله بها أهل الكتابين = فإنها ممَّا حذَّر الله منه هذه الأمة الأخيار، وجعل ما حلَّ بأهلها^(٢) عبرة لأولي الأبصار.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا بدَّ من وقوعها في بعض هذه الأمة، وإن كان قد أخبر ﷺ أنه لا يزال في أمته أمة قائمة على الحق، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة^(٣)، وأن أمته لا تجتمع على ضلالة^(٤)، ولا يغلبها من

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٠٣، ٣٥/١١٧)، و«جامع الرسائل» (١/١٩٦).

(٢) (و، ي): «بها».

(٣) ورد من حديث جماعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما، وهو متواتر كما ذكر المصنف في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٨١). وانظر: «قطف الأزهار المتناثرة» للسيوطي (٢١٦)، و«نظم المتناثر» للكتاني (١٤١).

(٤) أخرج هذا الأصل أبو داود (٤٢٥٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه بإسناد فيه ضعف. وأخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بسند ضعيف، وقال: «غريب من هذا الوجه». وأخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي سنده لين.

سواها من الأمم، بل لا تزال ظاهرة^(١) منصوراً متبعةً لنبيها المهدي المنصور.

لكن لا بد أن يكون فيها من يتبع^(٢) سنن اليهود والنصارى والروم والمجوس، كما في الصحيحين^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!».

وفي الصحيحين^(٤) أيضاً عن أبي سعيد الخدري^(٥) رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لتأخذن^(٦) أمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع»، قالوا: يا رسول الله، فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا أولئك؟!».

وفي المظهرين للإسلام منافقون، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار تحت اليهود والنصارى؛ فلهذا كان ما ذمَّ الله به اليهود والنصارى قد يوجد في المنافقين المنتسبين إلى الإسلام الذين يُظهرون الإيمان بجميع ما جاء به

= وروي من وجوه أخرى لا تخلو من مقال، ولعل مجموعها يدل على أن له أصلاً. انظر: «تحفة الطالب» لابن كثير (١١٩)، و«تذكرة المحتاج» لابن الملقن (٥١)، و«موافقة الخبر الخبر» (١٠٥/١ - ١١٥).

وصحَّ عن أبي مسعود رضي الله عنه عند ابن أبي شيبة (٣٨٣٤٧) موقوفاً، ومثله لا يقال من قبل الرأي، كما قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢٢٢٥/٥).

(١) ليست في (و، ي).

(٢) (و، ي): «يتبع».

(٣) صحيح البخاري (٧٣١٩) بمعناه، وهو من أفرادها كما في «الجمع بين الصحيحين» (٢٤٨/٣)، ولفظه فيه قريب مما أورده المصنف من حديث أبي سعيد رضي الله عنه دون قوله: «حذو القذة بالقذة» فليس في الصحيح، وهو عند أحمد (١٧١٣٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري (٣٤٥٦)، وصحيح مسلم (٢٦٦٩) بمعناه.

(٥) ليست في (و، ي).

(٦) (و، ي): «لتأخذ». وليس اللفظ في الصحيحين.

الرسول، وَيُبْطِنُونَ خِلاَفَ ذَلِكَ، كَالْمَلَا حِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ، فَضْلًا عَمَّنْ يُظْهَرُ الْإِلْحَادُ مِنْهُمْ.

وَيُوجَدُ بَعْضُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِدْعِ، مَمَّنْ هُوَ مُقَرَّرٌ بِعَمُومِ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، لَكِنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ، فَاتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ، وَتَرَكَ الْمُحْكَمَ، كَالْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ.

وَاللنصارى فِي صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ وَاتِّحَادِهِ بِالْمَخْلُوقَاتِ ضَلَالٌ شَارِكُهُمْ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ، بَلْ مِنْ الْمَلَا حِدَةِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ ضَلَالًا مِنَ النصارى^(١).
وَالْحُلُولُ وَالْإِتِّحَادُ نَوْعَانِ: عَامٌّ، وَخَاصٌّ^(٢).

فَالْعَامُّ، كَالَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ بِذَاتِهِ حَالٌّ فِي كُلِّ مَكَانٍ، أَوْ إِنَّ وَجُودَهُ عَيْنٌ وَجُودُ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَالْخَاصُّ، كَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ فِي بَعْضِ أَهْلِ الْبَيْتِ، كَعَلِيِّ وَغَيْرِهِ، مِثْلَ النَّصِيرِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ. أَوْ بَعْضُ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ، كَالْحَاكِمِ^(٣) وَغَيْرِهِ، مِثْلَ الدُّرْزِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ. أَوْ بَعْضُ مَنْ يَعْتَقِدُ فِيهِ الْمَشِيخَةَ، كَالْحَلَّاجِيَّةِ^(٤) وَأَمْثَالِهِمْ.

(١) سَيَأْتِي بِسَطِ هَذَا الْمَعْنَى (٣/٢١٧-٢٣١).

(٢) انْظُرْ: «دَرءُ التَّعَارُضِ» (٦/١٥١)، وَ«بَيَانُ تَلْبِيسِ الْجَهْمِيَّةِ» (٦/٥٤٩)، وَ«الرَّدُّ عَلَى الشَّاذِلِيِّ» (١٦١، ١٧٢)، وَ«مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (٢/١٧١).

(٣) مَنْصُورُ بْنُ نَزَارِ بْنِ الْمَعْزِ بِاللَّهِ الْعَبِيدِيِّ، الْمُلَقَّبُ بِالْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ، أَبُو عَلِيٍّ، صَاحِبُ مِصْرَ، كَانَ خَبِيثًا مَآكِرًا رَدِيًّا لِعَقْدِاقِ مِصْرَ الْعَقْلِ سَفَاكًا لِلدَّمَاءِ. تَوَفَّى سَنَةَ ٤١١ هـ. انْظُرْ: «وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ» (٥/٢٩٢)، وَ«تَارِيخُ الْإِسْلَامِ» (٩/١٩٨).

(٤) طَائِفَةٌ مِنَ الْحُلُولِيَّةِ تَنْتَسِبُ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورِ الْحَلَّاجِ الْمَقْتُولِ عَلَى الزُّنْدَقَةِ سَنَةَ ٣٠٩ هـ. انْظُرْ: «الْفَرْقُ بَيْنَ الْفِرَقِ» (٢٤٦)، وَ«التَّبْصِيرُ فِي الدِّينِ» (١٣٢).

فمن قال: «إن الله ﷻ حَلَّ واتَّحَدَ بأحدٍ من الصحابة، أو القرابة، أو المشايخ»، فهو من هذا الوجه أكفر من النصارى الذين قالوا بالاتحاد والحلول في المسيح؛ فإن المسيح ﷺ أفضل من هؤلاء كلهم.

ومن قال بالحلول والاتحاد العام، فضلاله أعم^(١) من ضلال النصارى.

وكذلك من قال بقدم أرواح بني آدم، أو أعمالهم، أو كلامهم، أو أصواتهم، أو مداد مصاحفهم، أو نحو ذلك، ففي قوله شعبةٌ من قول النصارى.

فمعرفة^(٢) حقيقة دين النصارى وبطلانه يُعرَف به بطلان ما يشبه أقوالهم من أقوال أهل الإلحاد والبدع.

فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه، كما قال تعالى:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وأبان الله ﷻ من فضائل الحق ومحاسنه ما كان به محقوقاً.

وكان من أسباب نصر الدين وظهوره أن كتاباً ورد من قبرص، فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتجُّ به علماء دينهم وفضلاء ملَّتْهم قديماً وحديثاً من الحجج السَّمعية والعقلية، فاقترضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطأ، وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب.

وأنا أذكر ما ذكره بالفاظهم بأعيانها فصلاً فصلاً، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً، وعقداً وحلاً.

(١) كذا في الأصول، وهي مناسبة للقول بالحلول والاتحاد العام. وربما كانت «أعظم»، كما في «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٢٥، ١٣١، ١٧٣، ٢٩٦).

(٢) (ي): «ومعرفة». (و): «بمعرفة»، وهي أجود إن حذفت «به».

وما ذكروه في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماءهم في مثل هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض بحسب الأحوال؛ فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماءهم بينهم، والنسخ بها موجودة قديمة، وهي مضافة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي^(١)، كتبها إلى بعض أصدقائه، وله مصنفات في نصر النصرانية، وذكر أنه لما سافر إلى بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد الملافطة^(٢) وبعض أعمال الإفرنج ورؤمية، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية، وفاوض أفاضلهم وعلماءهم.

(١) من طائفة الروم الملكيين، اشتهر في القرن الثاني أو الثالث عشر الميلادي، وقيل: القرن الثامن، وله رسائل في اللاهوت والفلسفة والدفاع عن النصرانية، طبع كثير منها. ونشرت رسالته هذه في باريس مع دراسة مطولة بالفرنسية سنة ١٩٠٣م، ثم نشرها لويس شيخو في مجلة المشرق سنة ١٩٠٤م (٧/ ٧٠٢ - ٧٠٩)، ثم في «مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارى من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر»، ثم حققها ودرسها بولس خوري سنة ١٩٦٤م، وأعاد نشرها مع جواب محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي عنها سنة ٢٠١٢م. انظر: «المخطوطات العربية لكتبة النصرانية» للويس شيخو (٦٩)، وتقدمته لرسالة بولس الأنطاكي «خلاصة معتقد النصارى في التوحيد والاتحاد» مجلة المشرق (١/ ٨٤٠، سبتمبر ١٨٩٨م)، و«تاريخ الكنيسة الملكية» ليوسف الشماس (٩٦/ ٢)، و«الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية» لعيسى أسعد الخوري (٢٠١)، و«المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنواتي (٢٦٨ - ٢٧٠)، و«صيدا عبر حقب التاريخ» لمير الخوري (١٣٥).

(٢) (د، ع): «الملافطة». وفي رسالة بولس (٤١٣): «الملاطفة»، وهو أقرب لاسم البلدة اللاتيني: maldavic. انظر: «المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنواتي (٢٦٨). وهي بلدة قديمة في الجزء الجنوبي الشرقي لأوروبا، كانت إحدى الإماراتين اللتين تتكون منهما رومانيا، وتقع اليوم بين دولتي رومانيا وأوكرانيا، وتعرف بمولدافيا moldavia. وينسب إليها أهلها فيقال: «الملاطفة» أو «الملاطفة»، أما تقديم الفاء «الملافطة» فخطأ، وكذلك وقع في «البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان» لعماد الدين الأصفهاني (٨١)، وهو مألوف فيما يذكره العرب من أسماء البلدان الأعجمية القصية.

وقد عَظُمَ هذه الرسالة، وسَمّاها: «الكتاب المنطقي الدولة خاني»^(١)
المُبَرِّهن عن الاعتقاد الصّحيح والرأي المستقيم». ومضمون ذلك ستّة فصول:

الفصل الأول: دعواهم أن محمداً ﷺ لم يُبعث إليهم، بل إلى أهل الجاهلية من العرب، ودعواهم أن في القرآن ما يدلُّ على ذلك، والعقل يدلُّ على ذلك.

والفصل الثاني: دعواهم أن محمداً ﷺ أثنى في القرآن على دينهم الذي هم عليه، ومدّحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه.

والفصل الثالث: دعواهم أن نبوّات الأنبياء المتقدمين، كالتّوراة والزّبور والإنجيل وغير ذلك من النبوّات، تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد وغير ذلك بأنه حقٌّ وصواب، فيجب التمسُّك به، ولا يجوز العدول عنه إذا لم يعارضه شرعٌ يرفعه، ولا عقلٌ يدفعه.

والفصل الرابع: فيه تقرير ذلك بالمعقول، وأن ما هم عليه من التثليث ثابتٌ بالنظر المعقول، والشرع المنقول، موافقٌ للأصول.

والفصل الخامس: دعواهم أنهم موحدون، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظٍ يظهر منها تعدّد الآلهة - كألفاظ الأقانيم - بأن ذلك^(٢) من جنس ما عند المسلمين من النصوص التي يظهر منها التشبيه والتجسيم.

(١) السلطاني، نسبة إلى «خان» من ألقاب الملوك والسلاطين. «معجم المصطلحات والألقاب التاريخية» (١٥٧). والمنطقي: نسبة إلى المنطق، ويطلق على الجدليّ العالم بالمنطق. «تكملة المعاجم» (١٠ / ٢٤٤).

(٢) (و، ي): «فلن ذلك». وهو تحريفٌ مفسد للمعنى، واختارته ط. العاصمة وخطّأت الصواب. والمثبت من (د، ع) وط. النيل.

والفصل السادس: أن المسيح ﷺ جاء بعد موسى ﷺ بغاية الكمال، فلا حاجة بعد النهاية إلى شرع يزيد على الغاية، بل يكون ما بعد ذلك شرعاً غير مقبول.

ونحن - والله الحمد والمِنَّة - نبين أن كل ما احتجُّوا به من حجة سمعية من القرآن، أو من الكتب المتقدمة على القرآن، أو عقلية، فلا حجة لهم في شيء منها، بل الكتب كلها مع القرآن والعقل حجة عليهم لا لهم، بل عامة ما يحتجُّون به من نصوص الأنبياء ومن المعقول فهو نفسه حجة عليهم، ويظهر منه فساد قولهم مع ما يُفسدُه من سائر النصوص النبوية، والموازن التي هي مقاييس عقلية.

وهكذا^(١) عامة ما يحتجُّ به أهل البدع من كتب الله ﷻ، ففي تلك النصوص ما يبين^(٢) أنه لا حجة لهم فيها، بل هي بعينها حجة عليهم، كما ذكر أمثال ذلك في الرد على أهل البدع والأهواء وغيرهم من أهل القبلة^(٣)، وإنما عامة ما عند القوم ألفاظ متشابهة تمسَّكوا بما ظنُّوها تدلُّ عليه، وعدلوا عن الألفاظ المحكمة الصريحة المبينة، مع ما يقترن بذلك من الأهواء.

(١) (و، ي): «وهكذا يوجد».

(٢) (ي): «يبين».

(٣) نقل ابن القيم في «حادي الأرواح» (٢/٦١٨) عن شيخ الإسلام قوله: «أنا ألتزم أنه لا يحتجُّ مبطلٌ بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله». وانظر: «جامع الرسائل» (٢/٥١)، وما سيأتي (٢/٤٧٤).

وفي «مجموع الفتاوى» (٦/٢٨٨ - ٣٠٢) قاعدة في أن «جميع ما يحتجُّ به المبطل من الأدلة الشرعية والعقلية إنما تدل على الحق لا تدل على قول المبطل»، وهي ناقصة فيه، وتامها في بعض مجاميع العمريّة. وتطبيقات «قلب الدليل على المخالف» سواء أكان الدليل شرعياً أم عقلياً مستفيضة في آثار شيخ الإسلام.

وهذه حال جميع^(١) أهل الباطل، كما قال تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، فهم في جهلٍ وظلم، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٧٢ - ٧٣].

فالمؤمنون الذين تاب الله عليهم من الجهل والظلم هم أتباع الأنبياء عليهم السلام؛ فإن الأنبياء^(٢) بُعثوا بالعلم والعدل، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْوَى إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٤]، فبين ﷺ أنه ليس ضالًّا جاهلًا، ولا غاويًا متبعا هواه، فلا ينطق عن هواه، إنما نطقه وحْيٌ أوحاه الله ﷻ.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، فالهدى يتضمن العلم النافع، ودين الحق يتضمن العمل الصالح، ومبناه على العدل، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

(١) ليست في (و، ي).
 (٢) (د، ع): «الأنبياء الذين تاب الله عليهم»، وهو سهو.
 (٣) من أول الآية إلى هنا ليس في (و، ي).

وأصل العدل العدل^(١) في حق الله تعالى، وهو عبادته وحده لا شريك له؛ فإن الشرك ظلمٌ عظيم، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وفي الصحيحين^(٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]^(٣)، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»^(٤).

ولمَّا كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل، كان كلام أهل الإسلام والسُّنة مع الكفار وأهل البدع بالعلم والعدل، لا بالظن وما تهوى الأنفس، ولهذا قال النبي ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، رجل عِلِمَ الحقَّ وقضى به فهو في الجنة، ورجل عِلِمَ الحقَّ وقضى بخلافه فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهلٍ فهو في النار»^(٥) رواه أبو داود وغيره.

(١) ليست في (د، ع).

(٢) صحيح البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤). وقوله: «العبد الصالح» لم أجده فيهما، وذكره الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (١/٢٠٩)، وهو عند أحمد (٣٥٨٩)، وأبي عوانة في مستخرجه على صحيح مسلم (٢٨٠، ٢٨٢).

(٣) زادت ط. العاصمة: «الآية»، وليست في الأصول.

(٤) من هنا إلى قوله: «وكفر النصاري بتكذيب محمد» ساقط من (د)، وقد أشار إليه ناسخها في الطرة.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، وابن ماجه (٢٣١٥)، والترمذي (١٣٢٢) وغيرهم من حديث بريدة رضي الله عنه، وهو حديث حسن أو صحيح، كما قال ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٥/٦٢). وصححه ابن حبان (٣٦١٦)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٩/٥٥٢)، والعراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٧٨، ١٢٣٧).

فإذا كان من يقضي بين الناس في الأموال والدماء والأعراض إذا لم يكن عالمًا عادلاً كان في النار، فكيف بمن يحكم في الملل والأديان وأصول الإيمان والمعارف الإلهية والمعالم الكلية بلا علم ولا عدل؟! كحال أهل البدع والأهواء، الذين يتمسكون بالمتشابه المشكوك ويدعون المحكم الصريح من نصوص الأنبياء، ويتمسكون بالقدر المشترك المتشابه في المقاييس والآراء، ويعرضون عما بينهما من الفروق المانعة من الإلحاق والاستواء، كحال الكفار وسائر أهل البدع والأهواء، الذين يمثلون المخلوق بالخالق والخالق بالمخلوق ويضربون لله مثل السوء بالقول الهراء^(١).

وذلك أن دين النصاري الباطل إنما هو دين مبتدع، ابتدعه بعد المسيح ﷺ، وغيروا به دين المسيح، فضلّ منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعه.

ثم لما بعث الله محمدًا ﷺ كفروا به، فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول، وتكذيب الرسول الثاني، كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح ﷺ.

ونبيّن إن شاء الله أن ما عليه النصاري من التثليث والاتحاد لم يدلّ عليه شيء من كتب الله لا الإنجيل ولا غيره، بل دلّت على نقيض ذلك، ولا دلّ على ذلك عقل، بل العقل الصريح مع نصوص الأنبياء تدلّ على نقيض ذلك، بل وكذلك عامة شرائع دينهم محدثة مبتدعة لم يشرعها المسيح ﷺ.

(١) (ع) وط. النيل: «الهزء». وهو تحريف، والسجعة تأباه. ومشت عليه ط. العاصمة وأسقطت كلمة أخرى: «ويضربون لله المثل بالقول الهزء». وعلى الصواب في (ي، و): «الهرا». وانظر هذا التركيب في «التسعينية» (١/ ٢٢١).

ثم التكذيب لمحمد ﷺ هو كفرهم المعلوم^(١) لكل مسلم، مثل كفر اليهود بالمسيح ﷺ وأبلغ.

وهم يبالغون في تكفير اليهود بأعظم مما يستحقه اليهود من التكفير، إذ كان اليهود يزعمون أن المسيح ساحرٌ كذاب، بل يقولون: إنه ولدٌ غيَّة^(٢)، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، والنصارى يدَّعون أنه الله^(٣) الذي خلق الأولين والآخرين، وأنه ديان يوم الدين؛ فكانت الأمتان فيه على غاية التناقض والتعادي والتقابل، ولهذا كلُّ أمةٍ تذمُّ الأخرى بأكثر مما تستحقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ^٤ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

ذكر محمد بن إسحاق^(٤)، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضيهما الله أنهما قال: لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ نَجْرَانَ

(١) (ي، و، ع): «مثل المعلوم».

(٢) أي: زنا. وفي (ع): «ولد بغية»، وهو محتمل. وقد وقع نحو هذا الاختلاف في الرسم في أصول «منهاج السنة» (٢٠ / ٤).

(٣) ط. العاصمة: «أن الله». وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) سيرة ابن هشام (١٩٧ / ٢). وأخرجه من طريقه ابن جرير في التفسير (٤٣٤ / ٢)، وابن أبي حاتم (١١٠٣).

ومحمد بن أبي محمد تفرد عنه ابن إسحاق، وليس فيه توثيقٌ معتبر، ولم يعرفه أبو زرعة كما في «الضعفاء» للبرذعي (٥٦٤)، وقال الذهبي في «الميزان» (٢٥٧ / ٤): «لا يُعرف». وقد يقوِّي أمره تخريج الضياء في «المختارة» (٣٥١ / ١٠، ٢٥٥ / ١٢) من نسخته هذه التي يرويها ابن إسحاق، ولعل ذلك مستند ابن حجر في تجويد إسنادها في «العجاب في بيان الأسباب» (٣٥١ / ١)، وتبعه السيوطي في «الإتقان» (٢٣٣٦).

من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريملة^(١): ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى والإنجيل جميعاً، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى، وكفر بالتوراة؛ فأنزل الله ذلك في قولهما: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١١٣].

قال^(٢): كلُّ يتلو في كتابه تصديق ما كفر به^(٣)، أي: تكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل بإجابة عيسى بتصديق موسى^(٤)، وبما جاء به من التوراة من عند الله، وكلُّ يكفر بما في يدي صاحبه.

قال قتادة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ قال: بلى، قد كان أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرّقوا. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرّقوا^(٥).

فاليهود كذبوا بدين النصارى، وقالوا: ليسوا على شيء، والنصارى كذبوا بجميع ما تميّز به اليهود عنهم، حتى في شرائع التوراة التي لم ينسخها المسيح،

(١) الأصول: «ربيع بن حرملة». وهو تحريف، صوابه في مصادر التخريج، وله ذكر كثير في أخبار اليهود.

(٢) يعني ابن إسحاق، تفسيراً للآية.

(٣) ساقطة من (و، ي) وط. العاصمة.

(٤) سيرة ابن هشام: «وفي الإنجيل ما جاء به عيسى ﷺ من تصديق موسى ﷺ».

(٥) أخرجه ابن جرير (٤٣٧/٢)، وابن أبي حاتم (١١٠٤).

بل أمرهم بالعمل بها، وكذبوا بكثير من الذي^(١) تميزوا به عنهم، حتى كذبوا بما جاء به عيسى عليه السلام من الحق.

لكن النصارى وإن بالغوا في تكفير اليهود ومعاداتهم على الحد الواجب عما ابتدعوه من الغلو والضلال، فلا ريب أن اليهود لما كذبوا المسيح صاروا كفاراً، كما قال تعالى للمسيح: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وكفر النصارى بتكذيب محمد ﷺ وبمخالفة المسلمين أعظم من كفر اليهود بمجرد تكذيب المسيح؛ فإن المسيح لم ينسخ من شرع التوراة إلا قليلاً، وسائر شرعه إحالة على التوراة، ولكن عامة دين النصارى أحدثوه بعد المسيح، فلم يكن في مجرد تكذيب اليهود له من مخالفة شرع الله ما في تكذيب النصارى لمحمد ﷺ^(٢) الذي جاء بكتاب مستقل من عند الله لم يحل شيئاً^(٣) من شرعه على شرع غيره.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِبْرَافِيمَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

والقرآن أصل كالتوراة، وإن كان أعظم منها، ولهذا كان علماء النصارى يقرنون بين موسى ومحمد ﷺ، كما قال النجاشي ملك النصارى لما سمع

(١) ط. العاصمة: «الذين». وهو خطأ مخالف للأصول.

(٢) قوله: «ما في تكذيب النصارى لمحمد ﷺ» ساقط من ط. العاصمة.

(٣) (د، ع): «شيء».

القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة^(١).

وكذلك قال ورقة بن نوفل - وهو من أحبار نصارى العرب - لما سمع كلام النبي ﷺ، فقال له: إنه يأتيك الناموس الذي يأتي موسى، يا ليتني فيها جذعًا حين يخرجك قومك، فقال النبي ﷺ: «أومخرجي هم؟!» قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(٢).

ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن في مثل قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْل مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعني: التوراة والقرآن، وفي القراءة الأخرى: ﴿قَالُوا سَحِرَانِ﴾^(٣) أي: محمد وموسى^(٤)، ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾^(٥٨) قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿[القصص: ٤٨ - ٤٩]، فلم ينزل كتابٌ من عند الله أهدى من التوراة والقرآن. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وهؤلاء النصارى ذكر كاتبُ كتابهم في كتابه^(٥): أنه لما سأله سائلٌ أن يفحص له فحصًا بيّنًا عما يعتقدُه النصارى المسيحيون المختلفة ألسنتهم،

(١) سيأتي سياق خبره تامًا (١/١١٧ - ١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (٤٩٥)، و«معاني القراءات» للأزهري (٢/٢٥٤).

(٤) (د، ع): «موسى ومحمد».

(٥) رسالة بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي التي تقدم ذكرها.

المتفرقة في أربع زوايا العالم، من المشرق إلى المغرب، ومن الجنوب إلى الشمال، والقاطنون بجزائر البحر، والمقيمون بالبر المتصل إلى مغيب الشمس، وأن الأسقف دميان الملكي^(١) الرومي اجتمع بمن اجتمع به من أجلائهم ورؤسائهم، وفاوض من فاوض من أفاضلهم وعلمائهم، فيما علمه من رأي القوم الذين رأهم بجزائر البحر قبل دخوله إلى قبرص، وخاطبهم في دينهم وما يعتقدونه ويحتجون به عن أنفسهم.

قال الكاتب على لسان الأسقف: إنهم يقولون: إنا لما سمعنا^(٢) أن قد ظهر إنسان من العرب اسمه محمد، يقول: إنه رسول الله، وأتى بكتاب فذكر^(٣) أنه منزل عليه من الله، فلم نزل إلى أن حصل الكتاب عندنا.

قال: فقلت لهم: إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الإنسان، واجتهدتم على تحصيل هذا الكتاب الذي أتى به عندكم، فلائي حال لم تتبعوه، ولا سيما وفي الكتاب يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]؟!

أجابوا قائلين: لأحوال شتى.

قال: فقلت: وما هي؟

قالوا: منها: أن الكتاب عربي، وليس بلساننا، حسب ما جاء فيه، يقول:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال

(١) Damian من طائفة الروم الملكيين، وفيهم غير واحد بهذا الاسم. وتحرفت نسبته في

(و، ي) إلى «المللي». (د، ع) وط. النيل: «ديان الملك».

(٢) (و، ي): «إنا سمعنا».

(٣) في رسالة بولس الأنطاكي: «يذكر».

في سورة الشعراء: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ١٩٩]، وقال في سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ^(١) [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿لَنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال في سورة السجدة: ﴿لَنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣]، وقال في سورة يس: ﴿لَنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦].

قالوا: فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت إلينا، بل إلى جاهلية العرب الذين قال ^(٢): إنه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله، وأنه لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله، خاطبونا بالستتنا، وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا، وسلّموا إلينا التوراة والإنجيل بلغاتنا، على ما يشهد لهم هذا الكتاب الذي أتى به هذا الرجل، حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال في سورة الروم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٤٧]؛ فقد صحّ في هذا الكتاب أنه لم يأت إلا إلى الجاهلية من العرب.

(١) من قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ إلى آخر الآية ساقط من ط. العاصمة.

(٢) أي القرآن. وفي (ع): «قالوا»، وهو خطأ.

وأما قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فيريد - بحسب مقتضى العدل - قومه الذين أتاهم بلغتهم، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه. ونعلم أن الله عدلٌ، وليس من عدله أن يطالب يوم القيامة أمةً من الأمم^(١) باتباع إنسانٍ لم يأت إليهم، ولا وقفوا له على كتابٍ بلسانهم، ولا من جهة داعٍ من قبله.

هذه ألفاظهم بأعيانها في الفصل الأول^(٢).

وهذا الفصل لم يتعرّضوا فيه لا لتصديقه ولا لتكذيبه، بل زعموا أن في نفس هذا الكتاب أنه لم يقل: إنه مرسلٌ إليهم، بل إلى جاهلية العرب، وإن العقل أيضًا يمنع أن يرسل إليهم.

فنحن نبدأ بالجواب عن هذا، ونبيّن أنه ﷺ أخبر أنه مرسلٌ إليهم وإلى جميع الإنس والجنّ، وأنه لم يقل قط: إنه لم يرسل إليهم، ولا في كتابه ما يدلُّ على ذلك، وأن ما احتجُّوا به من الآيات التي غلطوا في معرفة معناها، فتركوا النصوص الكثيرة الصريحة في كتابه التي تبين أنه مرسلٌ إليهم، من جنس ما فعلوه في التوراة والإنجيل والزبور وكلام الأنبياء، حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة، وتمسّكوا بقليلٍ من المتشابه الذي لم يفهموا معناه.

ومعلومٌ أن الكلام في صدق مدّعي الرسالة وكذبه متقدّم على الكلام في عموم رسالته وخصوصها، وإن كان قد يُعلم أحدهما قبل الآخر، لكن هؤلاء القوم ادّعوا خصوص رسالته، وذكروا أن القرآن يدلُّ على ذلك.

فنجيب عمّا ذكروه على حسب ترتيبهم فصلًا فصلًا، فنقول وبالله التوفيق:

(١) «من الأمم» ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٣ - ٤١٤).

الكلام فيمن خاطب الخلق بأنه رسول الله إليهم، كما فعل محمد ﷺ وغيره ممن قال: إنه رسول الله، كإبراهيم وموسى ونحوهما من الرسل^(١) الصادقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وآل كل من الصالحين، وكمسيلمة الكذاب والأسود العنسي ونحوهما من المتنبئين الكاذبين = ينبي على أصليين:

أحدهما: أن يُعرف ما يقوله في خبره وأمره، فيُعرف ما يخبر به ويأمر به، وهل قال: إنه رسول الله إلى جميع الناس، أو قال: إنه لم يرسل إلا إلى طائفة معينة لا إلى غيرها؟

والثاني: أن يُعرف هل هو صادق أو كاذب؟

وبهذين الأصلين يتم الإيمان المفصل، وهو معرفة صدق الرسول، ومعرفة ما جاء به.

وأما الإيمان المجمل فيحصل بالأول، وهو معرفة صدقه فيما جاء به، كإيماننا بالرسول المتقدمة، وقد يُعلم صدقه أو كذبه قبل أن يُعلم ما يذكره، وقد يُعلم ما يذكره قبل أن يُعلم صدقه أو كذبه^(٢).

وهؤلاء بدؤوا في كتابهم هذا بما ذكره الرسول مما زعموا أنه حجة لهم على عدم وجوب اتباعه، وعلى مدح دينهم الذي هم اليوم عليه بعد النسخ والتبديل، ثم ذكروا حججاً مستقلة على صحة دينهم، ثم ذكروا ما يقدر فيه وفي دينه؛ فلهذا قدمنا الجواب عما احتجوا به من القرآن، كما قدمناه في كتابهم.

(١) (د، ع): «الأنبياء».

(٢) من قوله: «قبل أن يُعلم ما يذكره» إلى هنا ساقط من ط. العاصمة.

فصل

ودلائل صدق النبي الصادق، وكذب المتنبي الكذاب، كثيرةٌ جدًا.

فإن من ادَّعى النبوة وكان صادقًا فهو من أفضل خلق الله وأكملهم في العلم^(١) والدين، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، وإن كان بعضهم أفضل من بعض، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وإن كان المدَّعي للنبوة كاذبًا فهو من أكفر خلق الله وشرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴿٣٢﴾ والذي جاء بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴿[الزمر: ٣٢ - ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

فالكذب أصل للشر، وأعظمه الكذب على الله ﷻ، والصدق أصل للخير^(٢)، وأعظمه الصدق على الله ﷻ.

(١) (د، ع): «العدل».

(٢) (د، ع): «الخير».

وفي الصّحيحين^(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البرّ يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً».

ولمّا كان هذا في^(٢) أعلى الدرجات، وهذا في أسفل الدّركات، كان بينهما من الفروق والدلائل والبراهين التي تدلّ على صدق أحدهما^(٣) وكذب الآخر ما يظهر لكل من عرف حالهما. ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرةً متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبيّين كثيرةً متنوعة، كما قد بُسّط في موضعٍ آخر^(٤).

(١) صحيح البخاري (٦٠٩٤)، وصحيح مسلم (٢٦٠٧).

(٢) ط. العاصمة: «من». وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) ط. العاصمة: «أحدها». وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) بسط القول في ذلك في قاعدته في النبوات.

فصل

إذا عُرِفَ هذا، فهؤلاء القوم في هذا المقام ادَّعوا أن محمدًا ﷺ لم يُرسل إليهم، بل إلى أهل الجاهلية من العرب.

فهذه الدعوى على وجهين:

إما أن يقولوا: إنه بنفسه لم يدَّع أنه أُرسل إليهم، ولكن أمته ادَّعوا له ذلك.

وإما أن يقولوا: إنه ادَّعى أنه أُرسل إليهم، وهو كاذب في هذه الدعوى.

وكلامهم في صدر هذا الكتاب يقتضي الوجه الأول. وفي آخره قد يقال: إنهم أشاروا إلى الوجه الثاني، لكنهم في الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب، وإنما أنكروا رسالته إليهم، وأما رسالته إلى العرب فلم يصرَّحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه، [وإن كان ظاهر لفظهم يقتضي الإقرار برسالته إلى العرب]^(١)، بل صدَّقوا بما وافق قولهم وكذبوا بما خالف قولهم.

ونحن نبين أنه لا يصحُّ احتجاجهم بشيء مما جاء به النبي ﷺ.

ثم نتكلَّم على الوجهين جميعًا، ونبين أنه لا يصحُّ احتجاجهم بشيء من القرآن على صحَّة دينهم بوجه من الوجوه، ونبين أن القرآن لا حجة فيه لهم ولا فيه تناقض.

وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين التي يحتجُّون بها هي حجةٌ عليهم، ليس في شيء منها حجةٌ لهم ولو لم يُبعث محمدٌ ﷺ، فكيف والكتاب الذي جاء به محمدٌ ﷺ موافقٌ لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام في إبطال دينهم وقولهم في

(١) زيادة من ط. النيل، وليست في الأصول التي معنا، ويشبه أن يكون لحقًا في طرة (ت)، كنظاره.

التثليث والاتحاد وغير ذلك، مع العقل الصريح؟!

فهم احتجوا في كتابهم هذا بالقرآن، وبما جاءت به الأنبياء قبل محمد ﷺ، مع العقل، ونحن نبين أنه لا حجة لهم فيما جاء به محمد ﷺ، ولا فيما جاءت به الأنبياء قبله، ولا في العقل. بل ما جاء به محمد ﷺ وما جاءت به الأنبياء قبله، مع صريح العقل، كلها براهين قطعية على فساد دينهم.

ولكن نذكر قبل ذلك أن احتجاجهم بما جاء عن النبي ﷺ لا يصح بوجه من الوجوه، وأنه لا يجوز أن يحتج بمجرد المنقول عن محمد ﷺ من يكذبه في كلمة واحدة مما جاء به، وكذلك كلام^(١) سائر الأنبياء عليهم السلام، بخلاف الاحتجاج بكلام غير الأنبياء، فإن ذلك يمكن موافقة بعضه دون بعض، وأما ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام، أو من قال: إنه نبي، فلا يمكن الاحتجاج ببعضه دون بعض، سواء قدر صدقهم أو كذبهم.

فيقال لهم - على كل تقدير، سواء أقرؤا بنبوته إلى العرب أو غيرهم، أو كذبوه في قوله: إنه رسول الله^(٢)، أو سكتوا عن هذا وهذا، أو صدقوه في البعض دون البعض - : إن احتجاجكم على صحة ما تخالفون^(٣) فيه المسلمين مما جاء به محمد ﷺ لا يصح بوجه من الوجوه؛ فاحتجاجكم على أنه لم يرسل إليكم أو على صحة دينكم بشيء من القرآن حجة داحضة على كل تقدير.

مع أنا سنبين - إن شاء الله تعالى - أن الكتب الإلهية كلها مع المعقول لا حجة لكم في شيء منها، بل كلها حجة عليكم^(٤).

(١) ليست في (و).

(٢) ط. النيل: «رسول الله مطلقاً».

(٣) (ي، د، ع): «احتجاجهم على صحة ما يخالفون».

(٤) (١/١٩٢ - ٢/٤٩٩).

وهذا بخلاف المسلمين، فإنه يصحُّ احتجاجهم على أهل الكتاب اليهود والنصارى بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ﷺ، وأهل الكتاب لا يصحُّ احتجاجهم بما جاء به محمد ﷺ؛ وذلك أن المسلمين مقرُّون بنبوّة موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وعندهم يجبُ الإيمان بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبيّ أرسله الله، وهذا أصلُ دين المسلمين، فمن كفر بنبيّ واحدٍ أو كتابٍ واحدٍ فهو عندهم كافر، بل من سبَّ نبيّاً من الأنبياء فهو عندهم كافرٌ مباح الدم، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿البقرة: ١٣٦، ١٣٧﴾.

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ءَ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءَ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

و«الكتاب» اسمُ جنسٍ لكل كتاب أنزله الله، يتناول التوراة والإنجيل، كما يتناول القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴿الشورى: ١٥﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ عَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴿١﴾، وفي القراءة الأخرى^(١): ﴿وكتابه﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ [البقرة: ١ - ٥]، فذكر أن هذا الكتاب الذي أنزل عليه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويطعمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، والذين يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، وبالأخرة هم يوقنون. ثم أخبر أن هؤلاء هم المفلحون، فحصر الفلاح في هؤلاء، فلا يكون مفلحاً إلا من كان من هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هو صفة للمذكورين، ليس هؤلاء صنفاً آخر؛ فإن عطف الشيء على الشيء قد يكون لتغاير الصفات وإن كانت الذات واحدة. هذا هو الصحيح هنا.

وإن كان قد قيل: إن الصنف الثاني مؤمن^(٣) أهل الكتاب، والأول هم المسلمون^(٤)، فهذا ضعيف.

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (١٩٥)، و«معاني القراءات» للأزهري (٢٣٨/١).

(٢) زادت (و) وتبعها ط. النيل والعاصمة: «كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَامَنْتُ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾»، وهو تكرارٌ وسهوَ من الناسخ.

(٣) ط. العاصمة: «مؤمنو»، خلاف الأصول وط. النيل.

(٤) يروى عن ابن عباس وغيره، واختاره ابن جرير (١/٢٤٤، ٢٤٦). وانظر: «مجموع الفتاوى» (٧/١٩٩، ٢٧/٢٧٥)، وتفسير ابن كثير (١/١٧٠).

وأفسد منه قول هؤلاء النصارى: إن «الكتاب» المراد به الإنجيل، كما سيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى^(١).

والعطف لتغاير الصفات، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝۱ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝۲ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝۳ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝۴ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝﴾ [الأعلى: ١ - ٥]، وهو سبحانه الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝۱ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝۲ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝۳ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝۴ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١ - ٥] إلى آخر الآيات^(٢).

وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۝﴾ هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، وهم الذين على هدى من ربهم، وهم المفلحون.

ولكن فصل إيمانهم بعد أن أجمله لئلا يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع وإن لم يؤمن بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل إلى من قبله. فلو قال أحد من الناس: أنا أؤمن بالغيب، وهو مع ذلك لا يؤمن ببعض ما أنزل على محمد ﷺ، أو ببعض ما أنزل على من قبله، لم يكن مؤمناً حتى يؤمن بجميع ما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله.

ولو كانوا صنفاً آخر لكان المفلحون قسمين:

قسمًا يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله.

(١) (١/٤٤٧ - ٤٤٩).

(٢) انظر: «بيان تلبس الجهمية» (٨/٤٩٨)، و«النبوات» (٧٥٩)، و«مجموع الفتاوى» (٩/١٣).

وقسمًا يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله، ولا يؤمنون بالغيب.

وهذا باطلٌ عند جميع الأمم: المؤمنين واليهود والنصارى؛ فإن الإيمان بما أنزل إليه وإلى من قبله يتضمّن الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب لا يتمُّ إلا بالإيمان^(١) بجميع ما أنزله الله ﷻ.

والمسلمون لا يستجيز أحدٌ منهم التكذيبَ بشيءٍ ممّا أنزل على من قبل^(٢) محمدٍ ﷺ.

لكن الاحتجاج بذلك عليهم يحتاج إلى ثلاث مقدمات:

إحداها^(٣): ثبوت ذلك عن الأنبياء ﷺ.

والثانية: صحّة الترجمة إلى اللسان العربي، أو اللسان الذي يخاطب به، كالرومي والسرياني؛ فإن لسان موسى وداود والمسيح وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل كان عبرانيًّا^(٤)، ومن قال: إن لسان المسيح كان سريانيًّا أو روميًّا فقد غلط^(٥).

والثالثة: تفسير ذلك الكلام ومعرفة معناه.

فلهذا كان المسلمون لا يردّون شيئًا من الحجج بتكذيب أحدٍ من الأنبياء في شيءٍ قاله، ولكن قد يكذبون الناقل عنهم، أو يفسّرون المنقول عنهم بما أرادوه أو بمعنى آخر على وجه الغلط.

(١) (و، د، ع): «بأن يؤمن».

(٢) ط. النيل: «كان قبل».

(٣) (و، ي): «أحدها ... والثاني ... والثالث».

(٤) (و، د، ع، ي): «كانت عبرانية». والمثبت من ط. النيل.

(٥) انظر: «التسعينية» (٨١٨)، وما سيأتي (١/ ٣١٠، ٢/ ٧٩).

وإن كان بعض المسلمين قد يغلط في تكذيب بعض النقل، أو تأويل بعض المنقول عنهم، فهو كما يغلط من يغلط منهم ومن سائر أهل الملل في التكذيب على وجه الغلط ببعض ما يُنقل عمَّن يقرُّ بنبوته أو في تأويل المنقول عنه، وهذا بخلاف تكذيب نفس النبي؛ فإنه كفرٌ صريحٌ به^(١).

بخلاف أهل الكتاب؛ فإنه لا يتم مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله، ومتى كذب بكلمة واحدة ممَّا أخبر به من قال: إنه رسول الله بطل احتجاجه بسائر كلامه، فكانت حجَّتْهم التي يحتجُّون بها داحضة.

وذلك أن الذي يقول: إنه رسول الله، إما أن يكون صادقًا في قوله: إني رسول الله، وفي جميع ما يخبر به عن الله، وإما أن يكون كاذبًا ولو في كلمة واحدة عن الله.

فإن كان صادقًا في ذلك امتنع أن يكذب على الله في شيء ممَّا يبلغه عن الله؛ فإن من كذب على الله ولو في كلمة واحدة كان ممن افترى على الله الكذب، ولم يكن رسولًا من رسل الله.

ومن افترى على الله الكذب تبين أنه من المتنبيين الكذابين، ومثل هذا لا يجوز أن يُحتجَّ بخبره عن الله؛ فإنه قد عُلِمَ أن الله لم يرسله.

وإذا قال هو قولًا، وكان صادقًا، كان كما يقوله غيره، لا يُقبلُ^(٢) لأنه بلغه عن الله ولا لأنه رسولٌ عن الله، بل كما يُقبلُ من المشركين وسائر الكفار ما يقولونه من الحق؛ فإن عبَّاد الأوثان إذا قالوا عن الله ما هو حقٌّ، مثل إقرار مشركي العرب بأن الله خلق السماوات والأرض، لم نكذبهم في ذلك وإن كانوا كفارًا، وكذلك إذا قال الكافر: إن الله حيٌّ قادرٌ خالق، لم نكذبه في هذا القول.

(١) ليست في (و) وتبعثها ط. النيل وما تلاها، وإثباتها ضروري.

(٢) ط. النيل وما تبعها: «يقبل لا»، والمثبت من الأصول، وهما بمعنى.

فمن كذب على الله في كلمة واحدة قال: إن الله أنزلها عليه، ولم يكن الله أنزلها عليه، فهو من الكذابين الذين لا يجوز أن يُحتَجَّ بشيءٍ من أقوالهم التي يقولون: إنهم يبلغونها عن الله ﷻ، وما قالوه غير ذلك فهم فيه كسائر الناس، بل كأمثالهم من الكذابين، إن عُرِفَ صحة ذلك القول من جهة غيرهم قبل؛ لقيام الدليل على صحته، لا لكونهم قالوه، وإن لم يُعَرَفَ صحته من جهة غيرهم لم يكن في قولهم له مع ثبوت كذبهم على الله حجة.

وحينئذٍ، فهؤلاء إن أقرُّوا برسالة محمد ﷺ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة، وجب عليهم الإيمان بكل ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة، كما يجب الإيمان بكل ما جاءت به الرسل.

وإن كذَّبوه في كلمة واحدة أو شكُّوا في صدقه فيها، امتنع مع ذلك أن يقرُّوا بأنه رسول الله، وإذا لم يقرُّوا بأنه رسول الله كان احتجاجهم بما قاله كاحتجاجهم بسائر ما يقوله مَنْ ليس من الأنبياء، بل من الكذابين أو من المشكوك في صدقهم.

ومعلوم أن من عُرِفَ كذبه على الله فيما يقول إنه يبلغه عن الله أو شكَّ في صدقه، لم يُعَلَمَ^(١) أنه رسول الله، ولا أنه صادق في كل ما يقوله ويبلغه عن الله. وإذا لم يُعَلَمَ ذلك منه لم يُعَرَفَ أن الله أنزل إليه شيئاً، بل إذا عُرِفَ كذبه عُرِفَ أن الله لم ينزل إليه شيئاً ولا أرسله، كما عُرِفَ كذبُ مُسَيْلِمَةَ الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، وغيرهم^(٢)، وكما عُرِفَ كذبُ ماني^(٣)،

(١) (و): «لا يعلم».

(٢) ليست في (و).

(٣) ماني بن فاتك الحكيم، مجوسي الأصل، وقيل: كان من أساقفة النصارى، ثم ادعى النبوة وأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، وإليه تنسب «المانوية»، قتله بهرام بن هرمز ملك الفرس. انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٤٩)، و«المنتظم» (٢/ ٨٧)، و«درء التعارض» (٥/ ٣٦٢)، وما سيأتي (١/ ٣٢٥، ٣/ ١٢٥).

وأمثاله^(١) من المتنبيين الكذابين.

وإذا شك في صدقه في كلمة واحدة، بل جُوز أن يكون كذبها عمداً أو خطأ، لم يجز تصديقه مع ذلك في سائر ما يبلغه عن الله؛ لأن تصديقه فيما يخبر به عن الله إنما يكون إذا كان رسولا صادقا لا يكذب عمداً ولا خطأ، فإن كل من أرسله الله لا بد أن يكون صادقا في كل ما يبلغه عن الله، لا يكذب فيه عمداً ولا خطأ.

وهذا أمرٌ اتفق عليه الناس كلهم: المسلمون، واليهود، والنصارى، وغيرهم، اتفقوا على أن الرسول لا بد أن يكون صادقا معصوماً فيما يبلغه عن الله، لا يكذب على الله خطأ ولا عمداً؛ فإن مقصود الرسالة لا يحصل بدون ذلك، كما قال موسى ﷺ لفرعون: ﴿يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴿[الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥]. وفي القراءة المشهورة^(٢) يخبر أنه جديرٌ وحريٌّ وثابتٌ ومستقرٌّ على أن لا يقول^(٣) على الله إلا الحق، وعلى القراءة الأخرى^(٤) أخبر أنه واجبٌ عليه أن لا يقول على الله إلا الحق.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿[الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَبِمَحْ أَللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾

(١) ط. العاصمة: «وأمثاله وغيرهم»، وهو خطأ. وضرب على «وغيرهم» في (و، د).
(٢) قراءة (على) بالتخفيف. وبها قرأ عامة القراء غير نافع فقراً (علي) بتشديد الياء. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (٢٨٧)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (٢٨٩).
(٣) (د، ي، ع): «أقول».
(٤) قراءة (علي) بتشديد الياء.

[الشورى: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي ۚ إِنِ اتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ﴾ الآية [يونس: ١٥]، وهذا لبسطه موضع آخر^(١).

وإنما المقصود هنا أن احتجاجهم بكلمة واحدة ممّا جاء به محمد ﷺ لا يصحُّ بوجه من الوجوه:

فإنه إن كان رسولاً صادقاً في كل ما يخبر به عن الله ﷻ فقد علم كلُّ أحد^(٢) أنه جاء بما يخالف دينَ النصارى، فيلزم إذا كان رسولاً صادقاً أن يكون دينُ النصارى باطلاً.

وإن قالوا في كلمة واحدة ممّا جاء به: إنها باطلة، لزم أن لا يكون عندهم رسولاً صادقاً مبلغاً عن الله. وحينئذٍ، فسواءٌ قالوا: هو ملكٌ عادل، أو هو عالمٌ من العلماء، أو هو رجلٌ صالحٌ من الصالحين، أو جعلوه قديساً عظيماً من أعظم القدّاديس^(٣)، فمهما عظّموه به ومدحوه به لِمَا رأوه من محاسنه الباهرة

(١) (ي، ع، د): «بسطه في موضع آخر». وانظر: «شرح الأصبهانية» (٧٢٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٥٤ / ٥)، وما سيأتي (٢٤٥ / ١).

(٢) (و): «واحد».

(٣) جمع قديس، وهو استعمالٌ قليل، ووقع كذلك في «مجموع الفتاوى» (١٧ / ٣٣١، ٤٥٥، ٤٧ / ١٩)، وما سيأتي (٣٦٣ / ٣)، والأشهر استعماله جمعاً للقُدّاس، من صلوات النصارى. وفي ط. النيل وما تلاها: «القديسين» على الجادة. والمثبت من الأصول.

وفضائله الظاهرة وشريعته الطاهرة، متى كذّبوه في كلمة واحدة ممّا جاء به أو شكّوا فيها كانوا مكذّبين له في قوله: إنه رسول الله، وأنه بلغ هذا القرآن عن الله.

ومن كان كاذباً في قوله: إنه رسول الله، لم يكن من الأنبياء والمرسلين، ومن لم يكن منهم لم يكن قوله حجّةً البتّة، لكن له أسوة أمثاله، فإن عُرِفَ صحّةُ ما يقوله بدليل منفصل قُبِلَ القول؛ لأنه عُرِفَ صدقُه من غير جهته، لا لأنه قاله، وإن لم يُعَرَفَ صحّةُ القول لم يُقْبَل.

فتبيّن أنه إن لم يُقَرَّر المُقَرَّرُ لمن ذكّر أنه رسول الله بأنه صادق في كل ما يبلغه عن الله، معصومٌ عن استقرار الكذب خطأ وعمداً^(١)، لم يصحّ احتجاجُه^(٢) بقوله.

وهذا الأصل يُبطل قول عقلاء أهل الكتاب، وهو لقول جهّالهم أعظمُ إبطالاً، فإن كثيراً من عقلاء أهل الكتاب - أو أكثرهم^(٣) - يعظّمون محمداً ﷺ؛ لِمَا دعا إليه من توحيد الله تعالى، ولِمَا نهى عنه من عبادة الأوثان، ولِمَا صدّق التوراة والإنجيل والمرسلين قبله، ولِمَا ظهر من عظمة القرآن الذي جاء به، ومحاسن الشريعة التي جاء بها، وفضائل أمّته التي آمنت به، ولِمَا ظهر عنه وعنهم من الآيات والبراهين والمعجزات والكرامات.

لكن يقولون مع ذلك: إنه بُعث إلى غيرنا، وإنه ملكٌ عادل، له سياسةٌ عادلة، وإنه مع ذلك^(٤) حصّل علومًا من علوم أهل الكتاب وغيرهم، ووَضَعَ لهم ناموسًا

(١) (و): «أو عمداً».

(٢) ط. النيل: «احتجاجهم»، وهو خطأ. وتبعته ط. العاصمة خلافاً للأصول.

(٣) (و) وط. العاصمة: «وأكثرهم»، وعلى الصواب في باقي الأصول وط. النيل.

(٤) (ي، د، ع): «أو انه ملك عادل... أو انه مع ذلك».

بعلمه ودينه^(١)، كما وضع أكابرهم لهم القوانين والنواميس التي بأيديهم.

ومهما قالوه من هذا فإنهم لا يصيرون به مؤمنين به، ولا يسوغ لهم بمجرد ذلك الاحتجاج بشيء مما قاله؛ لأنه قد عُرِفَ بالنقل المتواتر الذي يعلمه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال: إنه رسول الله إلى جميع الناس، وأن الله أنزل عليه القرآن. فإن كان صادقاً في ذلك، فمن كذبه في كلمة واحدة فقد كذب رسول الله، ومن كذب رسول الله فهو كافر. وإن لم يكن صادقاً في ذلك لم يكن رسولاً لله، بل كان كاذباً، ومن كان كاذباً على الله يقول: إن^(٢) الله أرسلني بذلك، ولم يرسله به، لا يجوز أن يُحتَجَّ بشيء من أقواله.

وأما من كان من جهلاء أهل الكتاب الذين يقولون: إنه كان ملكاً مسلطاً عليهم، وإنه رسول غضب أرسله الله إرسالاً كونياً لا دينياً^(٣) لينتقم به منهم، كما أرسل بُخْت نَصْرَ وَسِنْحَارِيب^(٤) على بني إسرائيل، وكما أرسل جَنْكِس خان وغيره من الملوك الكافرين والظالمين مما ينتقم به ممن عصاه، فهؤلاء أعظم تكذيباً له وكفرًا به من أولئك؛ فإن هؤلاء الملوك لم يقل أحدٌ منهم: إن الله أنزل عليه كتاباً، ولا أن هذا الكلام الذي أبلغه إليكم هو كلام الله، ولا أن الله أمركم أن تصدقوني فيما أخبرتكم به، وتطيعوني فيما أمرتكم به، ومن لم يصدقني باطنًا وظاهرًا فإن الله يعذبه في الدنيا والآخرة، بل هؤلاء أرسلهم إرسالاً كونياً قدره وقضاه، كما يرسل الريح بالعذاب، وكما يرسل الشياطين،

(١) أي بما معه من العلم والدين. وهو تركيبٌ مألوفٌ في كلام شيخ الإسلام كثير الوقوع. وفي ط. النيل والعاصمة: «بعلمه ورتبه»، خلاف الأصول.

(٢) ليست في (و).

(٣) «لا دينياً» ساقطة من ط. العاصمة، وهي في الأصول وط. النيل.

(٤) من ملوك الفرس ببابل، وهم ملوك الصابئة بعد الخليل إبراهيم عليه السلام. انظر: «المعارف»

(٤٦، ٥٠)، و«تاريخ الأمم والملوك» (١/٥٣٢)، و«مجموع الفتاوى» (٢/٤٤٦)،

و«تاج العروس» (٤/٤٣٧، ١٤/٢٢٦).

قال تعالى: ﴿أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلَنَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [٤] ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٥].

وهذا بخلاف قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [١٦٣] ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [١٦٤] ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥]، فإن هذا يعني به الإرسال الديني الذي يحبه تعالى ويرضاه، الذي هدى به من اتبعهم وأدخله في رحمته، وعاقب من عصاهم وجعله من المستوجبين للعذاب، وهو الإرسال الذي أوجب الله به طاعة من أرسله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وهذه الرسالة التي أقام بها الحجّة على الخلق، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وهذا كما اصطفى روح القدس جبريل عليه السلام؛ لنزوله بالقرآن على من اصطفاه من البشر وهو محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١١٢ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ١١٣ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ١١٤ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١١١ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٢]، فأخبر أنه نزل به جبريل، وسمّاه «الروح الأمين»، وسمّاه «روح القدس».

وقد ذكره أيضًا في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ١٩ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ٢٠ ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ٢٢ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ ٢٣ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ ٢٤ (١) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ٢٥ ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾ ٢٦ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ٢٧ ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ٢٨ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٢ - ٢٩]، فهذا الرسول جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٤٠ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ﴾ ٤١ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ﴾ ٤٢ ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٣ ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ٤٤ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ٤٥ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ ٤٦ ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٧]، فهذا الرسول محمد ﷺ.

وأما الإرسال الكوني الذي قدّره وقضاه، مثل إرسال الرياح، وإرسال

(١) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو، قراءة المصنف وأهل الشام لعهد.

الشياطين، فذلك نوع آخر، قال تعالى: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ نُفْثًا^(١) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨].

والله تعالى له الخلق والأمر.

فلفظ: الإرسال، والبعث، والإرادة، والأمر، والإذن، والكتاب، والتحریم، والقضاء، والكلام، ينقسم إلى: خَلْقِي وأَمْرِي، كوني^(٢) وديني. وقد ذكرنا الإرسال.

وأما البعث، فقال تعالى في البعث الديني^(٣): ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال في الكوني: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١].

وأما الإرادة، فقال تعالى في الكونية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

(١) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو.

(٢) ط. النيل والعاصمة: «وكوني»، وفي الأصول بلا واو.

(٣) «في البعث الديني» ساقط من ط. العاصمة.

وقال تعالى في الإرادة الدنيّة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى في الأمر الكوني: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكذلك في أظهر القولين^(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦].

وأما الأمر الدينيّ مثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وأما الإذن الكونيّ مثل قوله في السّحرة: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والدينيّ مثل قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

(١) انظر: «بيان تلبس الجهمية» (٨ / ٤٢٠ - ٤٢٩)، و«شفاء العليل» لابن القيم (٤٨، ٢٨١).

والكتاب الكونيُّ مثل قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلَبَ لَنَا وَرُسُلُ﴾ [المجادلة: ٢١]،
وقوله: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

والدينيُّ مثل قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾ [النور: ١٧٨].

والقضاء الكونيُّ كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَنَواتٍ﴾ [است: ١٢].

والدينيُّ كقوله^(١): ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾
[الإسراء: ٢٣]، أي: أمر.

والتحريم الكونيُّ مثل قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النمل: ١٢]،
وقوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحاقة: ٢٦]،
﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرِيْبَةٍ أَهْلَ كُنْهَاتِهِمْ لَا يُرْجِعُونَ﴾ [الاب: ٩٥].

والدينيُّ مثل قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيسَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]،
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

والكلمات الكونيَّة مثل قول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي
لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر»^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٤٦١)، وأبو يعلى (٦٨٤٤) وغيرهما من حديث عبد الرحمن بن
خبش ﷺ في سياق خبر النبي ﷺ حين كادته الشياطين، وليس إسناده بالقوي، وقال
البخاري كما في «الإصابة» (٢٧٥/٦): «في إسناده نظر». وجوْده المنذري في «الترغيب
والترهيب» (٣٠٣/٢)، وثبته شيخ الإسلام وذكر استفاضته. انظر: «جامع الرسائل»
(١٠/١)، و«مجموع الفتاوى» (٢٦/١٠). وشواهد كثيرة.

والدينية مثل قول النبي ﷺ: «اتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذا مبسوط في موضع آخر^(٢).

والمقصود هنا أن^(٣) تفرق أهل الكتاب في النبي ﷺ كل يقول فيه قولاً هو نظير تفرق سائر الكفار؛ فإن الكفار بالأنبياء من عاداتهم^(٤) أن تقول كل طائفة فيه قولاً يناقض قول الطائفة الأخرى، وكذلك قولهم في الكتاب الذي أنزل عليه، وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة.

وهذا هو الاختلاف المذموم الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وفي قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ (٨) ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَن أَّفَكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) في حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حج النبي ﷺ.

(٢) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١٩٤ - ٢٠١).

(٣) ساقطة من ط. النيل. وفي ط. العاصمة: «أنه»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) ط. العاصمة: «عاداتهم»، خلاف الأصول.

ومثال أقوال الكفار في الأنبياء ما ذكره تعالى في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿ [الفرقان: ١ - ٩] .

فبين سبحانه أن الكفار ضربوا له أمثالا كلها باطلة، ضلُّوا فيها عن الحق، فلا يستطيعون مع الضلال سبيلا إلى الحق.

وضرب الأمثال له يتضمن تمثيله بأناس آخرين، وجعله في تلك الأنواع التي ليس هو منها ولا مماثلا لأفرادها، مثل قولهم: إنه (١) ﴿افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، مثلوه بالكاذب المستعين بمن يعينه على ما يفتره، ومثلوه بمن يستكتب أساطير الأولين من غيره، فتقرأ عليه طرفي النهار وهو يتعلم من أولئك ما يقوله، ومثلوه بالمسحور.

(١) (و، ي): «إنه إفك»، وغيره ط. العاصمة إلى «إن هذا إلا إفك» ليوافق لفظ الآية.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٤٧) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) لَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٨٧ - ٩٦].

قال كثير من السلف: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ هم الذين عَضَّهُوه، فقالوا: سَحَر، وشَعَر، وكهانة، ونحو ذلك^(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدَّكُرُونَ﴾ (٤٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٣) وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٧) وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٥٢].

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٤/١٣٧، ١٣٨).

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ تَتَّبِصُ بِهِءَ رِيبَ الْمَنُونِ ﴿ ٣٠ ﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿ ٣١ ﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿ ٣٢ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ٣٣ ﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿ [الطور: ٢٩ - ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ ١٩٣ ﴾ عَلَى قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ ١٩٤ ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ ١٩٥ ﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٩٦ ﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ
يَعْلَمَهُ عُلَمَاؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿ ١٩٧ ﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿ ١٩٨ ﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٩٩ ﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿ ٢٠٠ ﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿ ٢٠١ ﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ ٢٠٢ ﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿ ٢٠٣ ﴾
أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿ ٢٠٤ ﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿ ٢٠٥ ﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿ ٢٠٦ ﴾
مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿ ٢٠٧ ﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴿ ٢٠٨ ﴾ ذِكْرَى
وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ [الشعراء: ١٩٢ - ٢٠٩].

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿ ٢١١ ﴾
إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿ ٢١٢ ﴾ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿ ٢١٣ ﴾
وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿ ٢١٤ ﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢١٥ ﴾ فَإِنْ
عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ٢١٦ ﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢١٧ ﴾ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ
﴿ ٢١٨ ﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿ ٢١٩ ﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٢٢٠ ﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ
﴿ ٢٢١ ﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ ٢٢٢ ﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿ ٢٢٣ ﴾ وَالشُّعْرَاءُ
يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿ ٢٢٤ ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿ ٢٢٥ ﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا
يَفْعَلُونَ ﴿ ٢٢٦ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا
ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿ [الشعراء: ٢١٠ - ٢٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَلِلَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) سَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَنَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[العنكبوت: ٤٦ - ٥٥].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا

صَادِقِينَ ﴿[الطور: ٣٣، ٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا

مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) فَلْيَأْتِ بِسِتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿[هود: ١٣ - ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٤٩ - ٥١].

وقد أخبر تعالى أن هذه سنة الكفار في الأنبياء قبله، كما قال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ أَتَوَاصَوْنَاهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]، وقال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد أخبر سبحانه أن الكفار قالوا عن موسى عليه السلام: إنه ساحر، وإنه مجنون، فقال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧]، وقال^(١): ﴿يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزخرف: ٤٩]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١].

وكذلك قالوا عن المسيح ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

(١) (و، ي): «وقالوا» ذهاباً للفظ الآية، والمثبت من (د، ع) أجود. وفي ط. العاصمة: «وقوله: وقالوا»، وهو خطأ مخالف للأصول.

يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَتَمُّهُ
أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿[الصف: ٦]﴾.

وذكر تعالى عن اليهود أنهم قالوا على مريم بهتاناً عظيماً، فقول اليهود في
المسيح من جنس أقوال الكفار في الأنبياء، وكذلك قول كفار أهل الكتاب في
خاتم الأنبياء محمد ﷺ تسليماً.

وإن قالوا: نحن مقصودنا بيان تناقضه، وأن كلامه ينقض بعضه بعضاً.

قيل: فهذا أيضاً يستلزم أنه ليس رسولاً صادقاً، فلا يصحُّ لكم الاحتجاج
بشيءٍ من قوله على هذا التقدير، وإن كنا نحن نبين أنه والله الحمد قوله يصدق
بعضه بعضاً، وكذلك يصدق قول الأنبياء قبله، وأن قول الأنبياء كلهم يوافق
صريح العقل، فلا يتناقض شيءٌ من الحقِّ المعلوم بسمع أو عقل^(١).

فإذا عَلِمَ هذا فنقول بعد ذلك لمن قال: إنه رسولٌ أُرْسِلَ إلى العرب
الجاهلية دون أهل الكتاب:

إنه من المعلوم بالضرورة لكلٍّ من عَلِمَ أحواله، وبالنقل^(٢) المتواتر الذي
هو أعظمُ تواتراً ممَّا يُنْقَلُ عن موسى وعيسى وغيرهما، وبالقرآن المتواتر عنه،
وسنَّته المتواترة عنه، وسنَّة خلفائه الراشدين من بعده = أنه ﷺ ذَكَرَ أنه أُرْسِلَ
إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى، كما ذَكَرَ أنه أُرْسِلَ إلى الأُمِّيِّينَ، بل ذَكَرَ أنه
أُرْسِلَ إلى جميع بني آدم عربهم وعجمهم، من الروم والفرس والتُّرك والهند
والبربر والحبشة وسائر الأمم، بل إنه أُرْسِلَ إلى الثَّقَلَيْنِ الجن والإنس جميعاً.

(١) من قوله: «وإن قالوا نحن مقصودنا» إلى هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٢) ط. العاصمة: «بالنقل»، وهو خطأ، والصواب المثبت من الأصول. وانظر: «مجموع
الفتاوى» (٤/٢٠٨).

وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه التي اتفق على نقلها عنه أصحابه مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم، وقد صحبه عشرات ألوف لا يحصي عددهم على الحقيقة إلا الله تعالى، ونقل ذلك عنهم التابعون وهم أضعاف الصحابة عددًا.

ثم ذلك منقول قرنًا بعد قرنٍ إلى زمننا، مع كثرة المسلمين وانتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها، كما أخبر بذلك قبل أن يكون، فقال في الحديث الصحيح: «زُوِيَتْ لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وسيلغُ ملكُ أمتي ما زُوِيَ لي منها»^(١).

وكان كما أخبر، فبلغ ملكُ أمتِه طرفي العمارة شرقًا وغربًا، وانتشرت دعوته في وسط الأرض، كالإقليم الثالث والرابع والخامس^(٢)؛ لأنهم أكمل عقولًا وأخلاقًا، وأعدل أمزجةً، بخلاف طرفي الجنوب والشمال؛ فإن هؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم، وانحرفت أمزجتهم. أما طرف الجنوب؛ فإنه لقوة الحرارة احترقت أخلاطهم، فاسودَّت ألوانهم، وتجعَّدت شعورهم. وأما

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) الإقليم: أماكن تقطعها الشمس في طلوعها وغروبها وارتفاع درجتها. والأقاليم عند القدماء في الجزء المعمور من الأرض سبعة على هيئة دوائر، يقع الإقليم الرابع في وسطها، والأقاليم الستة الأخرى تدور حوله. ويتدئ الإقليم الثالث من المشرق، فيمر على بلاد الصين، فبلاد الهند، إلى جنوب العراق، ثم على بلاد الشام، فمصر، إلى بلاد المغرب. والإقليم الرابع وهو إقليم العراق، ويقال له: إقليم بابل، يتدئ من المشرق فيمر على بلاد التبت، ثم على خراسان، إلى أعالي العراق والشام، ثم يمر على جزيرة قبرص، إلى شمال المغرب. والإقليم الخامس، وهو إقليم الروم، يتدئ من المشرق، ثم يمر على شمال حرّان، فبلاد الروم، إلى الأندلس، ثم ينتهي إلى بحر المغرب. انظر: «التنبيه والإشراف» للمسعودي (٢٩ - ٣٠)، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (٥٣ - ٤٨/١).

طرف^(١) الشمال؛ فلقوة البرد لم تنضج أخلاطهم، بل صارت فجّة، فأفرطوا في سبوبة الشعر، والبياض البارد الذي لا يُستحسن^(٢).

ولهذا لما ظهر الإسلام غلب أهله على وسط المعمورة، وهم أعدل بني آدم وأكملهم، والنصارى الذين تربّوا تحت ذمّة المسلمين أكمل من غيرهم من النصارى عقولاً وأخلاقاً، وأما النصارى المحاربون للمسلمين الخارجون عن ذمتهم من أهل الجنوب والشمال فهم أنقص عقولاً وأخلاقاً، ولما فيهم من نقص العقول والأخلاق ظهرت فيهم النصرانية دون الإسلام.

والمقصود أن محمداً ﷺ هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به وبما جاء به، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم.

وهو الذي أخبر عن الله ﷻ بكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم، وبأنهم يصلّون جهنّم وساءت مصيراً، وهو الذي أمر بجهادهم، ودعاهم بنفسه ونوابه.

وحينئذٍ، فقولهم في الكتاب^(٣): «لم يأت إلينا، بل إلى الجاهليّة^(٤) من العرب»، سواء أرادوا أن الله بعثه إلى العرب ولم يبعثه إلينا، أو أرادوا أنه ادّعى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا، فإنه قد علّم^(٥) جميع الطوائف أن محمداً دعا

(١) (ت، و): «أهل طرف».

(٢) في «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١٢٧٢ - ١٢٧٩)، و«مقدمة ابن خلدون» (١/١٤٧ - ١٥٢) بحث في المعتدل من الأقاليم والمنحرف، وتأثيرها في ألوان ساكنيها وطباعهم وأخلاقهم، وذلك بحسب معارف عصرهم وما انتهى إليه علمهم.

(٣) رسالة بولس الراهب الأنطاكي (ص: ٤١٤).

(٤) (د، ي، ع): «الجاهلين». والمثبت من (ت، و) يوافق نص رسالة بولس.

(٥) (د، ي، ع): «ثبت وعلم»، وعلى الصواب في (ت)، وضرب على «ثبت و» في (و).

اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وذكر أن الله أرسله إليهم، وأمره^(١) بجهاد من لم يؤمن به منهم.

فإذا قيل مع هذا: إنه قال: «لم أُبعث^(٢) إلا إلى العرب» كان كذباً^(٣) ظاهراً عليه، سواء صدّقه الإنسان أو كذّبه، فإن المقصود هنا أنه نفسه دعا جميع أهل الأرض إلى الإيمان به^(٤)، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأميين.

أما اليهود، فإنهم كانوا جيرانه في الحجاز وبالمدينة^(٥) وما حولها وخيبر، فإن المهاجرين والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيف ولا قتال، بل لما ظهر لهم من براهين نبوته ودلائل صدقه آمنوا به، وقد حصل من الأذى في الله لمن آمن بالله ما هو معروف في السيرة^(٦).

وقد آمن به في حياته كثير من اليهود والنصارى، بعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، وكثير منهم كانوا بغير مكة والمدينة، فلما قدم المدينة عاهد من^(٧) لم يؤمن به من اليهود، ثم نقضوا العهد، فأجلى بعضهم، وقتل بعضهم؛ لمحاربتهم لله ورسوله.

وقد قاتلهم مرّة بعد مرّة:

قاتل بني النضير، وأنزل الله تعالى فيهم سورة الحشر.

(١) (د، ي، ع): «وأمر».

(٢) (د، ي، ع): «فإذا قيل مع هذا إنه لم يبعث». والصواب المثبت من (ت، و).

(٣) (و): «كان كاذبا كذبا». وضرب على «كاذبا» في (ت).

(٤) ليست في (و، ي، د، ع).

(٥) كذا في الأصول. وفي ط. النيل: «بالمدينة» دون الواو، وهو أجود.

(٦) من قوله: «فإن المهاجرين» إلى هنا ثابت في كافة الأصول، ولعله كان لحقاً في أصل المصنف ووضعه النساخ في غير موضعه.

(٧) (ت، د، ي، ع): «لمن». والمثبت من (و) هو الجادة.

وقاتل بني قريظة^(١) عام الأحزاب، وذكرهم الله في سورة الأحزاب.

وقاتل قبلهم بني قينقاع.

وبعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان الذين بايعوه تحت الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمئة، ففتح الله عليهم خيبر، وأقرّ اليهود فيها فلاّحين، وأنزل الله تعالى سورة الفتح يذكّر فيها ذلك.

فكيف يقال: إنه لم يذكّر أنه أُرسل إلا إلى مشركي العرب، وهذه حال^(٢)

اليهود معه؟!

وأما النصاري، فإن أهل نجران التي باليمن كانوا نصاري، فقَدِم عليه وفدُهم ستون راكبًا، وناظرهم في مسجده، وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران، ولَمَّا ظهرت حجّته عليهم، وتبيّن لهم أنه رسول الله إليهم^(٣)، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فلما دعاهم إلى المباهلة طلبوا^(٤) أن يُمهّلهم حتى يَشْتُورُوا^(٥)، فاشتَرَوْا، فقال بعضهم لبعض: تَعَلَّمُوا^(٦) أنه نبيّ، وأنه ما باهل قومٌ نبيًّا إلا نزل بهم العذاب. فاستعفوا من

(١) (ت، ي، و): «قاتل قريظة».

(٢) (د، ي، ع): «حالة».

(٣) ليست في (ك، ع).

(٤) ط. العاصمة: «طالبوا»، وهو خطأ.

(٥) تشاور القوم واشتوروا بمعنى.

(٦) أي: اعلّموا وتحقّقوا. انظر: «إكمال المعلم» (٨ / ٤٧٤). وتوهّمته ط. العاصمة فعلاً

مضارعاً فأضافت نون الرفع «تعلّمون» متابعة لطبعة المدني، وهو في الأصول وط. النيل بغير نون. ولو كان مضارعاً فلا حاجة لإضافتها، فإن حذفها بلا ناصب أو جازم تخفيفاً مسموعٌ عن العرب وشواهد كثيرة.

المباهلة، فصالحوه، وأقرّوا له بالجزية عن يدٍ وهم صاغرون؛ لِمَا خافوا من دعائه عليهم، لعلمهم أنه نبيٌّ.

فدخلوا تحت حكمه، كما يدخل أهل الذمّة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله، وأدّوا إليه الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهم أول من أدّى الجزية من النصاري.

واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم^(١) عمرو بن حزم الأنصاري، وكتب له كتابًا مشهورًا يذكر فيه شرائع الدين^(٢)، فكانوا في ذمّة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه.

وقصّتهم مشهورةٌ متواترة، نقلها أهل السّير، وأهل التفسير^(٣)، وأهل الحديث، وأهل الفقه، وأصل حديثهم معروفٌ في الصّحاح والسّنن، كما سنذكره إن شاء الله تعالى^(٤).

ووفد نجران لِمَا قدموا أنزل الله ﷻ بسبب ما جرى صدر سورة آل عمران.

(١) ليست في (د، ي، ع)، وهي في (ت) واستدركت في طرة (و).

(٢) أخرجه النسائي (٤٨٥٣)، وابن حبان (٦٥٥٩) وغيرهما، وفي سنده كلام، وروي مرسلًا، لكن الأمر فيه كما قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٣٣٨/١٧): «هو كتابٌ مشهور عند أهل السير، معروفٌ ما فيه عند أهل العلم معرفةٌ تستغني شهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة». وقال الإمام أحمد: «أرجو أن يكون صحيحًا»، ونقل عنه شيخ الإسلام قوله: «لا شك أن النبي ﷺ كتبه». مسائل أبي القاسم البغوي (٣٨، ٧٢)، و«مجموع الفتاوى» (٢٦٦/٢١). وحكى الإجماع على تصحيحه في «شرح العمدة» (٢٣/٤). وانظر: «تنقيح التحقيق» (٢٣٠/١)، و«التلخيص الحبير» (٢٦١٣/٥).

(٣) «وأهل التفسير» ساقطة من ط. العاصمة.

(٤) (١/٧٨-٩٢).

وذكر تعالى فرض الحج بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهذا نزل إما سنة تسع وإما سنة عشر، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء، منهم القاضي أبو يعلى وغيره، قالوا: «وجوب الحج ثبت بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾، ورُوي^(١) أنه نزل في سنة عشر، ورُوي أنه نزل في سنة تسع»^(٢)، وهذا قول جمهور العلماء^(٣)، قالوا: إنَّ فرض الحج إنما ثبت بهذه الآية^(٤).

وقال بعضهم: بل ثبت ذلك بقوله تعالى: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]^(٥).

وهذه الآية نزلت سنة ستّ، عام الحديبية، لما صدَّ المشركون رسول الله ﷺ عن البيت، وصالحهم ذلك العام، وباع المسلمون تحت الشجرة، وأنزل الله فيها سورة الفتح، ثم رجع إلى المدينة، وفتح الله عليهم خيبر سنة سبع، وفيها قدم عليه جعفر بن أبي طالب مع وفد الحبشة، ثم أرسل جعفرًا وزيدًا وعبد الله بن رواحة لغزو النصارى لمؤتة، ثم فتح مكة سنة ثمانٍ في رمضان.

ثم في أثناء سنة تسع غزا النصارى إلى تبوك، وفيها حجَّ أبو بكر

(١) (د، ي، ع): «روي». والمثبت من (ت، و) و«التعليقة».

(٢) «التعليقة» للقاضي أبي يعلى (١/١٢٦).

(٣) انظر: «المبسوط» (٤/١٦٤)، و«الذخيرة» (٣/١٨١)، و«زاد المعاد» (٢/١٢٣).

(٤) قال شيخ الإسلام: «وهذا هو الصحيح». انظر: «الإيمان الأوسط» (١٥١)، و«شرح

العمدة» (٤/١١٢-١١٧)، و«تفسير آيات أشكلت» (١/٣٩٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢٦/٢٧، ٢٦٥).

(٥) انظر: «الحاوي» (٤/٢٥)، و«هداية السالك» لابن جماعة (١/٣٢٤).

الصدیق (رضی اللہ عنہ)، وأمر أن لا یحجَّ بعد العام مشرک، ولا یطوف بالبيت عریان، وأردفه بعلي بن أبي طالب (رضی اللہ عنہ) لبند العهود^(١).

وأنزل الله آية السيف المطلقة بجهاد المشركين وجهاد أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه الأشهر عند جمهور العلماء هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ^٢ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢]؛^(٢) فإن المشركين كانوا على نوعين:

نوعاً لهم عهدٌ مطلقٌ غير مؤقت، وهو عقدٌ جائزٌ غير لازم.
ونوعاً لهم عهدٌ مؤقت.

فأمر الله رسوله أن ينبذ إلى المشركين أهل العهد المطلق؛ لأن هذا العهد جائزٌ غير لازم، وأمره أن يسيّرهم أربعة أشهر، ومن كان له عهدٌ مؤقتٌ فهو عهدٌ لازم، فأمره الله أن يوفي له إذا كان مؤقتاً.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الهدنة لا تجوز إلا مؤقتة. وذهب بعضهم إلى أنه يجوز للإمام أن يفسخ الهدنة المؤقتة^(٣) مع قيامهم بالواجب. والصواب

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦) من حديث أبي هريرة (رضی اللہ عنہ).

(٢) ومن ظن أنها الأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب فقد غلط. انظر: «الصفدية» (٢/ ٣٢٠)، و«منهاج السنة» (٨/ ٥١٣)، و«الإيمان الأوسط» (١٤٢)، و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٧٩).

(٣) ساقطة من ط. العاصمة.

هو القول الثالث، وهو أنها تجوز مطلقة ومؤقتة، فأما المطلقة فجائزة غير لازمة
يخير بين إمضاها وبين نقضها، والمؤقتة لازمة^(١).

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ فسيحوا
في الأرض أربعة أشهر وأعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ۝٢ وأذن
من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن
تبستم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا
بعذاب أليم ۝٣ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم
يظهروا عليكم أحدا فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ۝٤ فإذا
أنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا
لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله
غفور رحيم ۝٥ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم
أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ۝٦ كيف يكون للمشركين عهد
عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقموا
لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ۝٧ كيف وإن يظهروا عليكم لا
يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ۝٨
أشترأ بآيات الله ثمنا قليلا فصذوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ۝٩
لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ۝١٠ فإن تابوا وأقاموا
الصلوة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ۝١١ وإن
نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقللوا أيمه الكفر إنهم
لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ۝١٢ ألا تقللوا قوما نكثوا أيمانهم

(١) انظر: «الحاوي» (٣٥٢/١٤)، و«المغني» (١٣/١٥٤، ١٥٥)، و«مجموع الفتاوى»
(٢٩/١٤٠)، و«زاد المعاد» (٣/١٧١، ١٣٥/٥)، و«أحكام أهل الذمة» (٢/٨٧٤).

وَهَكُمُ أَيْخَرَجَ الرَّسُولُ وَهُمْ بَكَدُوكُمْ أُولَٰكَ مَرَّةً أَنْخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ
أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[التوبة: ١ - ١٣].

والمقصود هنا ذكر قدوم وفد نجران النصاري: السَّيِّد، والعاقب، ومن
معهما^(١).

قال أبو الفرج ابن الجوزي^(٢): «ثم دخلت سنة عشر من الهجرة، فمن
الحوادث فيها: أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن
كعب، فروى ابن إسحاق^(٣) قال: بعث رسول الله ﷺ خالدًا في ربيع الآخر أو
جمادى الأولى في سنة عشر إلى [بني] الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن
يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم»، وذكر القصة.

ثم قال: «وفيهما قدم وفد الأزد...، وفيها قدم وفد غسان...، وفيها قدم
وفد زبيد...».

وفيهما قدم وفد عبد القيس. قال ابن إسحاق: قدم على رسول الله ﷺ
الجارود بن عمرو في وفد عبد القيس، وكان نصرانيًا، فأسلموا.

وفيهما قدم وفد كندة فأسلموا، وفيها قدم وفد بني حنيفة...، وفيها قدم
وفد بجيلة».

قال: «وفيهما قدم العاقب والسَّيِّد من نجران، فكتب لهم رسول الله ﷺ
كتاب صلح».

(١) (د، ع، ي، و): «معهم».

(٢) «المنتظم» (٣/٣٧٩ - ٣٨٤، ٤/٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/٢٣٩).

وذكر محمد بن سعد في «الطبقات»^(١) قدومهم في ذكر الوفود^(٢)، فقال: «ذكرُ بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة عشرٍ إلى بني الحارث بن كعب»^(٣)، ذكره بإسناده:

أخبرنا^(٤) محمد بن عمر^(٥)، حدثني إبراهيم بن موسى المخزومي، عن عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه.

ثم ذكر قدوم نصارى نجران من طريق علي بن محمد^(٦)، فقال:

أخبرنا^(٧) علي بن محمد القرشي - وهو المدائني المشهور^(٨) -، عن أبي معشر^(٩)، عن يزيد بن رومان، ومحمد بن كعب.

قال: وأخبرنا علي بن مجاهد^(١٠)، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، وعكرمة بن خالد، وعاصم بن عمر بن قتادة.

(١) (١/٢٩٢).

(٢) (و): «في الوفود».

(٣) ذكر ابن سعد الخبر في «الطبقات» التي بأيدينا في «وفد الحارث بن كعب»، وليس فيه قوله: «ذكر بعث النبي ﷺ خالد...».

(٤) (د، ع): «حدثنا»، واختُصرت في (ي): «ثنا». وفي (و): «أبنا» وهي اختصار «أخبرنا»، وكذلك وقعت في «الطبقات». وأصلحت في (ت) بغير قلم النسخ إلى «أنبأنا».

(٥) الواقدي، ولم أر الخبر في مطبوع مغازيه، وبغير هذا الإسناد فيه (٢/٨٨٣).

(٦) «الطبقات» (١/٣٠٠).

(٧) (و): «أنا»، (ت): «أبنا»، ووقعت تامة في (د، ي، ع) و«الطبقات»، وذكر المعلق على ط. العاصمة أنها اختصار «أنبأنا»، وتلك لا تختصر.

(٨) «القرشي» و«المشهور» ليستا في (و، د، ع، ي).

(٩) (ت): «فقال أخبرنا علي بن محمد عن أبي معشر». وهو سهو.

(١٠) (و، ي، د، ع): «علي بن محمد بن مجاهد»، وضرب على «محمد بن» في (ت)، وعلى الصواب في «الطبقات».

وأخبرنا^(١) يزيد بن عياض^(٢) بن جُعْدُبَة، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم.
وعن غيرهم من أهل العلم، يزيد بعضهم على بعض.

قالوا: وقد فلانُ وفلان^(٣) في رجالٍ من خُثَم إلى رسول الله ﷺ بعدما
هدم جريرُ بن عبد الله ﷺ ذا الخلصة، وقُتِل من قُتِل من خُثَم، فقالوا: آمنا
بالله ورسوله، فاكتب لنا كتابًا. وذكروا القصّة، وقُدوم وفودٍ متعدّدة^(٤).

قالوا: وقدم وفدُ نجران^(٥)، وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فخرج
إليه أربعة عشر من أشرفهم نصاري، وفيهم ثلاثة نفرٍ يتولّون أمورهم:
العاقب: واسمه عبد المسيح، رجلٌ من كِنْدَة، وهو أميرهم وصاحبُ
مشورتهم، والذي يصدّرون عن رأيه.

وأبو الحارث: أُسْقِفُهُم وإمامهم، وصاحبُ مِذْرَاسِهِم^(٦).

والسَّيِّد: وهو صاحبُ رحلتهم.

فدخلوا المسجد وعليهم ثيابُ الجَبَرَة^(٧) وأرديةٌ مكفوفةٌ بالحرير، فقاموا
يصلّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم»، ثم أتوا

(١) الأصول: «وأنا». وفي ط. العاصمة: «أنا» بلا واو، متصلة بما قبلها، وهو خطأ. وقائل
«أخبرنا» هو علي بن محمد المدائني.

(٢) ط. العاصمة: «عايض»، وهو خطأ مخالفٌ للأصول.

(٣) هما: عثث بن زحر وأنس بن مدرك، كما في «الطبقات».

(٤) في (د) زيادة مضروب عليها في ذكر بعض الوفود، وهي لحق في (ت) لم يتبين آخره،
وأثبتت في ط. النيل.

(٥) «وقدم وفد نجران» زيادة توضيحية من المؤلف، وليست في «الطبقات».

(٦) البيت الذي يدرسون فيه. ويطلق على صاحب دراسة كتبهم. «النهاية» (درس).

(٧) ثيابٌ يمانية من قطن أو كتان مخططة. «المصباح المنير» (حبر).

النبي ﷺ، فأعرض عنهم فلم يكلمهم، فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زِيكُم هذا. فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدّوا عليه بزِيّ الرُّهبان، فسَلّموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبّوا، وكثُر الكلام والحِجاج بينهم، وتلا عليهم القرآن، وقال رسول الله ﷺ: «إن أنكرتم ما أقول فهلّم أباهلكم».

فانصرفوا على ذلك، فغدا عبدُ المسيح ورجلان من ذوي رأيهم على رسول الله ﷺ، فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببت نُعطيك^(١) ونُصالحك.

فصالحهم على ألفي حُلّة في رجب، وألفٍ في صفر، أو قيمة كلِّ حُلّة من الأواقي، وعلى عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين رمحًا، وثلاثين بعيّرًا، وثلاثين فرسًا، إن كان باليمن كيد، ولنجران وحاشيتهم جوارُ الله وذمّة محمد رسول الله ﷺ على أنفسهم، وملّتهم، وأرضهم، وأمّوالهم، وغائبهم، وشاهدهم، ويبيعهم، لا يُغَيّرُ أُسْقَفُ من سِقْفاه^(٢)، ولا راهبٌ من رهبانيّته، ولا واقفٌ^(٣) من وقفانيّته.

وأشهد على ذلك شهودًا، منهم: أبو سفيان بن حرب، والأقرع بن حابس، والمغيرة بن شعبة.

فرجعوا إلى بلادهم، فلم يلبث السيّد والعاقب إلا يسيرًا حتى رجعا إلى النبي ﷺ فأسلما، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري.

(١) (و، د، ي، ع): «نعطيك» على الإشباع. والمثبت من (ت) و«الطبقات» هو الجادة.

(٢) السَّقْفِيُّ مصدر، أي لا يُمنع من تسقفه وما يعانيه من أمر دينه. «النهاية» (سقف).

(٣) الواقف: خادم البيعة؛ لأنه وقف نفسه على خدمتها. «النهاية» (وقف).

وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبي ﷺ حتى قبضه الله صلوات
الله عليه ورحمته ورضوانه.

ثم ولي أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، فكتب بالوصاية بهم عند وفاته.

ثم أصابوا ربًا، فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم، وكتب لهم: «هذا
ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران، أنه من سار منهم أنه آمن بأمان الله، لا
يضرهم أحد من المسلمين، ووفى لهم بما كتب لهم رسول الله ﷺ وأبو بكر.

أما بعد، فمن وقَعُوا^(١) به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم^(٢) من
خراب الأرض^(٣)، فما اعتَمَلُوا من ذلك فهو لهم صدقة، وعُقْبَةُ^(٤) لهم مكان^(٥)
أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم^(٦).

(١) «الأصل» لمحمد بن الحسن (٥٥٤ / ٧): «وقفوا»، وفي «الخراج» لأبي يوسف (٧٣):
«مروا». والمثبت من الأصول و«الطبقات» و«الأموال» لأبي عبيد (٥١٨) و«مسند
الفاروق» لابن كثير (٣٣٩ / ٢) وغيرها.

(٢) أي: يمكنهم. وفي «الخراج»: «فليوسعهم».

(٣) أي: الأرض الموات التي لم تُزْرَع. وفي «الأموال» من طريق آخر سيأتي: «خريب
الأرض». قال أبو عبيد: «ما أراه إلا خراب الأرض ولكن الكاتب كتبه: خريب». وفي ط.
العاصمة: «جريب الأرض» متبعة لمطبوعة «الطبقات». والمثبت من الأصول و«مسند
الفاروق». وفي «الخراج» و«الأصل»: «حرث الأرض».

(٤) أي: بدل، كما في «فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج لأبي
يوسف» للرحبي (٤٨٦ / ١)، وانظر: «تاج العروس» (٤٠١ / ٣). وفُسِّرَت في حاشية ط.
العاصمة بأن المراد أنه يأخذها ذريتهم من بعدهم. وهو خطأ.

(٥) في الأصول وط. النيل والعاصمة: «فكان»، وهو تحريف. وفي «الطبقات»: «بمكان».
وكما أثبت في «الخراج» و«الأصل» و«مسند الفاروق».

(٦) «الأصل» لمحمد بن الحسن: «معترض»، وهو خطأ.

أما بعد، فمن حَضَرهم من رجل مسلم فليُنصِرهم على من ظلمهم؛ فإنهم أقوامٌ لهم الذمَّة، وجَزِيَّتُهُم عنهم متروكةٌ أربعةً وعشرين شهرًا بعد أن يَقْدَمُوا، ولا يُكَلَّفُوا إلا من ضَيَعَتَهُمْ^(١) التي اعْتَمَلُوا، غير مظلومين ولا مَعْسُوفٍ^(٢) عليهم.

شَهِدَ عثمانُ بن عفان رضي الله عنه، ومُعَيَّقِيب بن أبي فاطمة.

فوق ناسٌ منهم العراق^(٣)، فنزلوا النَجْرانية التي بناحية الكوفة^(٤).

وما ذكره ابن سعد عن علي بن محمد المدائني عن أشياخه في حديث وفد نجران، فهو يوافق ما ذكره ابن إسحاق؛ فإن قوله: «أربعة عشر من أشرافهم» يوافق قول ابن إسحاق^(٥) عن محمد بن جعفر قال: قَدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدٌ نجران ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر من أشرافهم، في الأربعة عشر ثلاثة نفرٍ إليهم يؤول أمرهم:

العاقبُ: أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحبُ مشورتهم، والذي لا يَصْدُرُون إلا عن رأيه، واسمُه عبد المسيح.

(١) الضيعة: الحرفة والصناعة، والأرض المَغْلَّة، كما في «التاج» (ضيع). وفي «الخراج» و«الأصل»: «من صنعهم البر». وفي «فقه الملوك»: «البز» أي: لا يكلفوا بدفع الجزية إلا من حُلِّلَ البز التي يصنعون. وما في الأصول و«الطبقات» ظاهر.

(٢) كذا في الأصول، والعسف: الظلم والأخذ بقوة وعنف. وفي ط. العاصمة: «معنوف» متابعة للطبقات. وفي «الخراج»: «معتدى»، وفي «الأصل»: «معنوفًا».

(٣) (ع): «في العراق». وفي بعض المصادر: «بالعراق».

(٤) «الطبقات» (١/٣٠٧-٣٠٨).

(٥) «السيرة» لابن هشام (٢/٢٢٢). ومن طريقه ابن جرير في التفسير (٥/١٧٢). وانظر: تفسير ابن المنذر (١/١٠٨)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٦/٣٩٠)، و«الكشف والبيان» للثعلبي (٨/١٦، ١٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/٣٨٣).

والسَّيِّدُ: ثَمَالَهُمْ^(١)، وصاحب رَحْلِهِمْ وَنُجَعَتِهِمْ^(٢)، واسمه الأيَّهَم.

وأبو حارثة بن علقمة أحد^(٣) بني بكر بن وائل: أَسْقَفُهُمْ، وَحَبَّرُهُمْ، وإمامهم، وصاحب مِدْرَاسِهِمْ.

وكان أبو حارثة قد شَرَّفَ فيهم، وَدَرَسَ كَتَبَهُمْ حتَّى حَسُنَ عِلْمُهُ في دينهم، فكانت ملوك الرُّوم من أهل النصرانية قد شَرَّفُوهُ، وَمَوَّلُوهُ، وَأَخْدَمُوهُ، وَبَنُوا لَهُ الكِنَائِسَ، وَبَسَطُوا لَهُ الكِرَامَات؛ لِمَا بَلَغَهُمْ عَنْهُ مِنْ عِلْمِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي دِينِهِمْ، فلما وَجَّهُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ من نجران جلس أبو حارثة عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ مَوْجَهًا، وَإِلَى جَنْبِهِ أَخٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ: كُرْزُ بْنُ عِلْقَمَةَ، فَعَثَرَتْ بَغْلَةُ أَبِي حَارِثَةَ، فَقَالَ كُرْزُ: تَعِيسَ الْأَبْعَدُ، يَرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُو حَارِثَةَ: بَلْ أَنْتَ تَعِيسَتْ، فَقَالَ: لِمَ يَا أَخِي؟ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لِلنَّبِيِّ الَّذِي كُنَّا نَنْتَظِرُ، فَقَالَ لَهُ كُرْزُ: فَمَا مَنَعَكَ مِنْهُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ هَذَا؟! قَالَ: مَا صَنَعَ بَنَاهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، شَرَّفُونَا، وَمَوَّلُونَا، وَأَكْرَمُونَا، وَقَدْ أَبَوَا إِلَّا خِلَافَهُ، فَلَوْ فَعَلْتُ نَزَعُوا مِنَّا كُلَّ مَا تَرَى. فَأَضْمَرَ عَلَيْهَا مِنْهُ أَخُوهُ كُرْزُ بْنُ عِلْقَمَةَ حتَّى أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهُوَ كَانَ يَحَدِّثُ عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ فِيمَا بَلَغَنِي.

قال ابن هشام^(٤): وَبَلَغَنِي أَنَّ رُؤَسَاءَ نَجْرَانَ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ كِتَابًا^(٥) عَنْهُمْ، فَكَلَّمَا مَاتَ رَئِيسٌ مِنْهُمْ فَأَفْضَتْ الرِّيَاسَةُ إِلَى غَيْرِهِ خَتَمَ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ خَاتَمًا مَعَ الْخَوَاتِمِ الَّتِي قَبْلَهُ وَلَمْ يَكْسِرْهَا، فَخَرَجَ الرَّئِيسُ الَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي، فَعَثَرَ، فَقَالَ ابْنُهُ: تَعِيسَ الْأَبْعَدُ، يَرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ:

(١) الثَّمَالُ: الْغِيَاثُ الَّذِي يَقُومُ بِأَمْرِ قَوْمِهِ. «التاج» (ثمل).

(٢) كَذَا رُسِمَتْ فِي الْأَصُولِ دُونَ ضَبْطٍ. وَالنُّجَعَةُ: طَلَبُ الْكَلَأِ. وَفِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ وَعَامَّةِ الْمَصَادِرِ النَّاظِلَةِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ: «وَمَجْتَمِعُهُمْ».

(٣) (ت): «أَخُو»، وَسَتَأْتِي كَذَلِكَ. وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (د، و، ع، ي) وَسِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ.

(٤) «السيرة» (٢/٢٢٣).

(٥) ط. الْعَاصِمَةُ: «كِتَابًا»، وَهُوَ خَطَأٌ مُخَالَفٌ لِلْأَصُولِ وَ«السيرة».

لا تفعل؛ فإنه نبيّ، واسمُه في الوضائع، يعني: الكتب. فلما مات لم تكن لابنه همّة إلا أن شدَّ فكسر الخواتم، فوجد فيها ذكرَ النبيِّ ﷺ، فأسلم فحسُن إسلامه، وحجَّ، وهو الذي يقول^(١):

إليك تغدو قلقًا وضيئها

معترضًا في بطنها جنيئها

مخالفًا دينَ النصاري دينها

قال ابن إسحاق^(٢): وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قدِموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثيابُ الحِبرَاتِ جُبَّ وأرديةٌ، في جَمال رجال بني الحارث بن كعب. قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذٍ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم. وقد حانت صلاتُهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ [يُصلُّون]، فقال: «دعوهم». فصلُّوا إلى المشرق.

قال ابن إسحاق: وكان تسمية الأربعة عشر الذين يؤول إليهم أمرهم: العاقبُ وهو عبد المسيح، والسَّيِّد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأوس، والحارث، وزيد، وقيس، ويزيد، ونُبَيْه، وخويلد، وعمر^(٣)، وخالد، وعبد الله، ويَحْنَس، في ستين راكبًا.

فكلَّم رسول الله ﷺ منهم: أبو حارثة بن علقمة، والعاقبُ عبدُ المسيح،

(١) (ت، و): «وهو يقول».

(٢) «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢٢٣ - ٢٢٥)، وتفسير ابن جرير (٥/ ١٧٢ - ١٧٣).

(٣) ط. العاصمة: «وعمر»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

والأَيَّهَم السَّيِّد، وهم من النصرانية على دين المَلِك، مع اختلافهم^(١) من أمرهم، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولدُ الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانية.

فهم يحتجُّون في قولهم: «هو الله» بأنه كان يحيي الموتى، ويرى الأسقام، ويُخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائراً، وذلك كله بأمر الله، وليجعله آيةً للناس.

ويحتجُّون في قولهم: «إنه ولدُ الله» بأنهم^(٢) يقولون: لم يكن له أبٌ يُعَلِّمُ، وقد تكلم في المهد، وهذا شيءٌ لم يصنعه أحدٌ من ولد آدم.

ويحتجُّون في قولهم: «ثالثُ ثلاثة» بقول الله: فَعَلْنَا^(٣) وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا: فعلتُ وقضيتُ وأمرتُ وخلقْتُ، ولكنه هو وعيسى^(٤) ومريم.

ففي كلِّ ذلك من قولهم قد نزل القرآن.

فلما كلَّمه الحَبْران، قال لهما رسول الله ﷺ: «أَسْلِمَا»، قالَا: قد أسلمنا. قال: «إِنكُمَا لَمْ تُسْلِمَا، فَأَسْلِمَا». قالَا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتُمَا، يَمْنَعُكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ دَعَاكُمَا لِلَّهِ وَلَدًا، وَعِبَادَتُكُمَا لِلصَّلِيبِ، وَأَكْلُكُمَا الْخَنْزِيرَ»، قالَا: فَمَنْ أَبَوْهُ يَا مُحَمَّدٌ؟ فَصَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمَا، فَلَمْ يُجِبْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي أَمْرِهِمْ كُلِّهِ صَدْرًا مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إِلَى بَضْعِ وَثَمَانِينَ آيَةً.

(١) «السيرة» وتفسير ابن جرير: «اختلاف».

(٢) (و، ي): «فإنهم»، وهو خطأ، واختارته ط. العاصمة.

(٣) ط. العاصمة: «فعلنا»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

(٤) ط. العاصمة: «هو عيسى»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد، مثلما ذكره محمد بن جرير الطبري في تفسيره^(١)، قال:

حدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبي جعفر - يعني عبد الله بن أبي جعفر الرازي - عن أبيه، عن الربيع في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ - ٢]، قال: إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ، فخاصموه في عيسى بن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان، لا إله إلا هو، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، فقال لهم النبي ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلا وهو يشبه أباه؟»، قالوا: نعم. قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟»، قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قيِّمٌ على كل شيءٍ يَكْلُوهُ ويَحْفَظُهُ ويرزقه؟»، قالوا: بلى. قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟»، قالوا: لا. قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟»، قالوا: بلى. قال: «فهل يَعْلَمُ عيسى من ذلك شيئاً إلا ما عُلِّمَ؟»، قالوا: لا. قال: «فإن ربنا صَوَّرَ عيسى في الرَّحِمِ كيف شاء»^(٢)، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشربُ الشراب، ولا يُحْدِثُ الْحَدَثَ؟»، قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمُّه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تَضَعُ المرأة ولدها، ثم غُذِيَ كما يتغذى الصَّبِيُّ، ثم كان يَطْعَمُ الطعام ويشربُ الشراب ويُحْدِثُ الْحَدَثَ؟»، قالوا: بلى. قال: «فكيف يكون هذا كما زعمتم؟». قال: فعرفوا، ثم أبوا إلا جحودًا؛ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

وقد ثبت في الصَّحاح حديثٌ وفد نجران:

(١) (١٧٤/٥).

(٢) في ط. الحلبي لتفسير ابن جرير زيادة: «فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلى».

ففي البخاري ومسلم^(١) عن حذيفة^(٢).

وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنا وحسينا، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^(٣).

وفي البخاري عن حذيفة بن اليمان قال: جاء السيد والعاقبُ صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعِنَاهُ، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل؛ فوالله لئن كان نبيًّا فلاعِنَّا لا نُفْلِحَ نحن ولا عَقِبُنَا من بعدنا، قالا: إنما نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، قال: «لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين». قال: فاستشرف لها أصحابُ رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة ابن الجراح»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمينُ هذه الأمة»^(٤).

وفي سنن أبي داود وغيره^(٥)، قال أبو داود: أخبرنا مصرف بن عمرو

(١) صحيح البخاري (٣٧٤٥، ٧٢٥٤)، ومسلم (٢٤٢٠).

(٢) «عن حذيفة» ليس في (ي، د، ع)، وهو في (ت) وألحق في (و). وسيأتي كذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (٩٥).

(٣) صحيح مسلم (٢٤٠٤).

(٤) صحيح البخاري (٤٣٨٠).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٠٤١) ومن طريقه البيهقي (١٩٥ / ٩) بسند لا بأس به، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٥٠٨ / ٩).

وأعله المنذري في مختصر سنن أبي داود (٣٤٣ / ٢) بأن في سماع إسماعيل الشدي من عبدالله بن عباس رضي الله عنه نظرًا. وجوابه أن الشدي قد أدرك سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فلا ينكر أن يدرك ابن عباس وهو متأخر عنه، كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن الأخرم. انظر: «تهذيب الكمال» (١٣٧ / ٣)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ (٣٣٤ / ١).

وأعلَّ بما في الشدي من مقالٍ في «البدر المنير» (١٩٥ / ٩)، وبأسباط بن نصر في «ضعيف سنن أبي داود» (٤٤٥ / ٢). والأشبه أنهما صدوقان حسنا الحديث، وهو اختيار الذهبي في «الكاشف» (٢٤٧ / ١)، و«ديوان الضعفاء» (٣٠٦)، ولم يتفردا بما لا يحتمل، ولخبرهما شواهد ذكر بعضها المصنف وابن حجر في «التلخيص» (٢٩٦٨ / ٦).

اليامي، حدثنا يونس -يعني ابن بُكير-، حدثنا أسباط بن نصر الهمداني، عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي، عن ابن عباس، قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حُلَّة، النصف في صفر، والنصف في رجب، يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح، يَغْزُونَ بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم، إن كان باليمن^(١) كيدًا^(٢) ذات غدر، على أن لا تُهدم لهم بيعة، ولا يُخرج لهم قسٌّ، ولا يُفتنون عن دينهم، ما لم يُحدثوا حدثًا، أو يأكلوا الربا.

قال إسماعيل: فقد أكلوا الربا.

قال أبو داود: إذا نقضوا بعض ما شَرِط عليهم فقد أحدثوا.

وما ذكره أبو داود وأهل السَّير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروفٌ عند أهل العلم.

وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الأموال»^(٣)، ذكره من طريقين:

قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللهُ: حدثنا أبو أيوب الدمشقي، قال: حدثني سعدان بن يحيى، عن عبيد الله^(٤) بن أبي حميد، عن أبي المَلِيح الهذلي: أن رسول الله ﷺ صالح أهل نجران، فكتب لهم كتابًا:

(١) ط. العاصمة: «باليمين»، خطأ مخالف للأصول والمصادر.

(٢) أي حرب.

(٣) (٢٩٦/١ - ٢٩٨).

(٤) (د، ي، ع): «عبد الله» تحريف، وهو أبو الخطاب الهذلي، متروك. وسعدان بن يحيى اللخمي نزيل دمشق، صدوق. وأبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن التميمي، صدوق يخطئ. «التقريب» (٣٧٠، ٢٤٢، ٢٥٣). ولم يعرف الثلاثة محقق ط. العاصمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدٌ النبيُّ ﷺ لأهل نجران، إذ كان له حكمه عليهم: أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرة ورقيق، وأفضل عليهم، وترك ذلك لهم: ألفي حُلَّة، في كل صَفِرِ ألف حُلَّة، وفي كل رجب ألف حُلَّة، كلُّ حُلَّة أوقية، ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليُحَسَب، وما قضوا من ركابٍ أو خيلٍ أو دروعٍ أخذ منهم بالحساب.

وعلى أهل نجران أن يُقْرُوا^(١) رُسلي عشرين ليلةً فما دونها.

وعليهم عارية ثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين درعًا، إذا كان كيدًا باليمن ذو مغدرة، وما هلك ممّا أعاروا رسلي فهو ضامنٌ على رسلي حتى يؤدُّوه^(٢) إليهم.

ولنجران وحاشيتها ذمّة الله وذمّة رسوله على دماءهم، وأموالهم، ومِلَّتْهم، وبيعَهم، ورهبانيتهم^(٣)، وأساقفتهم^(٤)، وشاهدهم، وغائبهم، وكلُّ ما تحت أيديهم من قليلٍ أو كثير.

وعلى أن لا يغيّروا أُسْقُفًا من سِقِّيفاه، ولا واقِها من وقِيَّهاه^(٥)، ولا راهبًا

(١) غيّرت في ط. العاصمة إلى «مقرئ» متبعة لمطبوعة «الأموال». وفي «غريب الحديث» للخطابي (٤٩٨/١): «مثنى».

(٢) (ع): «يردوه».

(٣) (ت): «ورهبانهم»، والمثبت من سائر الأصول و«الأموال».

(٤) ط. العاصمة: «وأساقفهم»، خلاف الأصول و«الأموال».

(٥) كذا في الأصول و«الأموال». وسيأتي تفسيرها. وفي ضبطها خلافٌ قديم. انظر: «تاج

العروس» (وقه)، و«النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» للويس شيخو (٨٧)، و«المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي (٢١٧/١٢، ٢١٨).

من رهبانيته^(١)، وعلى أن لا يُخْشَروا^(٢)، ولا يُعْشَروا^(٣)، ولا يطأ أرضهم جيشٌ، ومن ملك منهم^(٤) حقًا فالنصفُ بينهم بنجران.

على أن لا يأكلوا الربا، فمن أكل الربا من ذي قَبَل^(٥) فذمّتي منهم بريئة. وعليهم الجَهْدُ والنُّصْحُ فيما استقبلوا، غير مظلومين ولا معسوف^(٦) عليهم.

شَهِدَ عثمانُ بن عفان، ومُعَيْقِب.

قال أبو عبيد: الوَاقَةُ وليُّ العهد في لغة بلحارث بن كعب. يقول: إذا مات هذا الأُسْقُفُ قام الآخر مكانه.

قال أبو عبيد: قال أبو أيوب: وحدثني عيسى بن يونس، عن عبيد الله^(٧) بن أبي حميد، عن أبي المَلِيح، عن النبي ﷺ مثل ذلك، وزاد في حديثه قال: فلما توفي رسول الله ﷺ أتوا أبا بكر، فوفى لهم بذلك، وكتب لهم كتابًا نحوًا من كتاب رسول الله ﷺ، فلما وَلِيَ عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أصابوا الرِّبَا في زمانه، فأجلاهم عمر، وكتب لهم: أما بعد، فمن وَقَعُوا به من أمراء الشام أو العراق

(١) ط. العاصمة: «رهبانه» تحريف. وعلى الصواب في (ع، د، ي).

(٢) (و، د، ع): «يخسروا»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة. والمعنى: أنهم لا يندبون إلى المغازي، ولا تضرب عليهم البعوث. وقيل: لا يحشرون إلى عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم، بل يأخذها في أماكنهم. «النهاية» (حشر).

(٣) أي: لا يؤخذ العشر من أموالهم. «النهاية» (عشر).

(٤) «الأموال»: «ومن سأل منه». وعند ابن زنجويه (٢/ ٤٥٠): «ومن سأل منهم»، وهو أجود. والنصف: الانتصاف.

(٥) أي: فيما يستقبل. «التاج» (قبل).

(٦) ط. العاصمة: «معنوف» متابعة لمطبوعة «الأموال»، ومضى الكلام عليها.

(٧) (د، ي، ع): «عبد الله» تحريف، وعلى الصواب في (ت، و). وقد سبق.

فَلْيُوسِعْهُمْ مِنْ خَرَابِ الْأَرْضِ^(١)، وَمَا اعْتَمَلُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَهُمْ لَوْجُهُ اللَّهُ
وَعُقْبَى مِنْ أَرْضِهِمْ.

قال: فأتوا العراق، فاتخذوا النجرانية.

قال أبو عبيد: وهي قرية بالكوفة.

وكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة: أما بعد، فإن العاقب والأسقف وسراة
أهل نجران أتوني بكتاب رسول الله ﷺ، وأروني شرط عمر رضي الله عنه، وقد سألت
عثمان بن حنيف، فأنبأني أنه قد كان بحث على ذلك^(٢)، فوجده ضاراً^(٣)
للدّهاقين، فيردعهم^(٤) عن أرضهم، وإني قد وضعتُ عنهم من جزيتهم مئتي
حلة، لوجه الله وعُقْبَى لَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وإني أوصيك بهم؛ فإنهم قومٌ لهم ذمّة.

قال أبو عبيد: وحدثنا عثمان بن صالح، عن عبد الله بن لهيعة، عن أبي
الأسود، عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ كتب لأهل نجران: من محمد
النبي رسول الله ﷺ. ثم ذكر نحو هذه النسخة، وليس في حديثه قصة أبي بكر
وعمر رضي الله عنهما^(٥)، وفي آخره: شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو،
ومالك بن عوف من بني نصر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة.

(١) الأرض الموات التي لم تُزْرَع. وفي «الأموال»: «خريب الأرض». قال أبو عبيد: «ما أراه
إلا خراب الأرض ولكن الكاتب كتبه خريب». وغيرته ط. العاصمة إلى «جريب
الأرض» متبعة لمطبوعة طبقات ابن سعد كما صنعت في الموضع المتقدم.

(٢) في «الأموال» وسائر المصادر: «بحث عن ذلك».

(٣) (ت، د، ع): «صار» وهو تحريف، واختارته ط. العاصمة دون تنبيه. والمثبت من (و، ي)
و«الأموال» لأبي عبيد و«فتوح البلدان» (٧٣). وفي «الأموال» لابن زنجويه: «فوجده
مضارة وظلماً لتردعهم الدهاقين عن أرضيهم». والدهاقين: رؤساء القرى وزعماء
الفلاحين. «التاج» (دهقن).

(٤) (ت، د، ع): «ليردعهم». «الأموال»: «ليردعهم». «فتوح البلدان»: «ليردعهم».

(٥) «الأموال»: «أبي بكر وعمر وعثمان».

قال أبو عبيد: حدثني سعيد بن عُفَيْر، عن يحيى بن أيوب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، قال: أول من أعطى الجزية أهل نجران، وكانوا نصارى^(١).

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكُتِّبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقد ثبت في الصحيحين^(٢) أن النبي ﷺ قد كتب إلى هرقل مع دحية الكلبي مدّة هُدنته للمشرّكين، وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يُسلم، وقد حضر عند هرقل، وسأله هرقل عن النبي ﷺ، وأبو سفيان أسلم عام الفتح، فدلّ ذلك على أن هذا الكتاب كان قبل الفتح.

ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع^(٣)، فدلّ ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة.

وقدوم وفد نجران قبل آية المباهلة^(٤)، وآية المباهلة قد عُلِمَ يقينًا أنها نزلت في قصّة قدوم وفد نجران، والمفسّرون وأهل السّير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران، وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتّصل.

ونقل أهل المغازي والسّير أن وفد نجران صالحهم على الجزية، وهم أول من أذاها، فعُلِمَ أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية، وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة، فعُلِمَ أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السّيف التي هي آية الجزية.

(١) «الأموال» (٦٩، ٨٧).

(٢) صحيح البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) «سنة تسع» ليست في (د، و، ع، ي).

(٤) «وقدوم وفد نجران قبل آية المباهلة» لحقّ مختوم بالتصحيح في طرة (ت)، وليس في باقي الأصول، وأثبتته ط. النيل.

قال الزهري: أهل نجران أول من أدّى الجزية^(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾
بعدها آياتٌ نزلت قبل ذلك، كقوله: ﴿يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ
وَأَنْتُمْ شَٰهِدُونَ﴾ (٧٠) يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿ [آل عمران: ٧٠ - ٧١].

فيكون هذا ممّا تقدّم نزوله، وتلك ممّا تأخر نزوله، وجُمع بينهما
للمناسبة، كما في نظائره؛ فإن الآيات كانت إذا نزلت يؤمر^(٢) النبي ﷺ أن
يضعها في مواضع تناسبها وإن كان ذلك ممّا تقدّم.

وممّا يبيّن ذلك: أن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ
إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لفظها يعمّ اليهود والنصارى، وكذلك ذكر أهل
العلم أنها دعاءٌ للطائفتين^(٣)، وأن النبي ﷺ دعا بها اليهود^(٤)، فدلّ ذلك على أن
نزولها متقدّم؛ فإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية، ولهذا لم يضرب

(١) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» كما تقدم.

(٢) كذا رسمت بالواو في (د، و، ع، ي). وفي (ت): «يأمر»، وهو محتمل، ويدل عليه قول
عثمان رضي الله عنه في الأثر المشهور: «إن رسول الله ﷺ كان إذا أنزل عليه شيء يدعو بعض من
يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكّر فيها كذا وكذا» أخرجه أحمد (٣٩٩)،
(٤٩٩)، وفي الباب عن أبي بن كعب رضي الله عنه. ويرجّح ما في الأصول سياق الكلام وعدم ذكر
المفعول، ويشهد له ما روي بإسناد شديد الضعف أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ في آية:
«ضعها على رأس ثمانين ومئتين من البقرة» أخرجه الفراء في «معاني القرآن» (١/١٨٣)،
والثعلبي في «الكشف والبيان» (٣/٤٧٨) وغيرهما. وقد يقويه قول شيخ الإسلام: «وأما
ترتيب أي السور فهو منزل منصوص عليه». «مجموع الفتاوى» (١٣/٣٩٦).

(٣) ط. العاصمة: «لطائفتين»، خطأ مخالف للأصول.

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٢/٢٤٥).

الجزية على أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز، ولكن لما بعث معاذًا إلى اليمن، وكان كثير^(١) من أهلها يهودًا، أمره أن يأخذ من كل حالي دينارًا أو عدله معاف^(٢)، وهذا كان متأخرًا بعد غزوة تبوك، وتوفي النبي ﷺ ومعاذًا باليمن.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره^(٣): حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد، حدثنا الضحاك بن عبد الرحمن بن [أبي] حوشب وغيره، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أليون طاغية الروم، قال: فيما أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَتَاهَلْ الْكِتَابُ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

وروى بإسناده عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، قال: بلغني أن النبي ﷺ دعا يهود أهل الكتاب^(٤)، فأبوا عليه، فجاهدهم.

وكذلك سائر الآيات التي فيها خطابٌ للطائفتين كقوله تعالى: ﴿يَتَاهَلْ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا

(١) (و): «كثيرًا» وهو خطأ، وعلى الصواب في (ي، د، ع)، ومحيت الألف في (ت).
(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠١٣)، وابن ماجه (١٨٠٣)، وأبو داود (١٥٧٦)، والترمذي (٦٢٣)، والنسائي (٢٤٩٩) وغيرهم من حديث معاذ ﷺ.
وصححه ابن خزيمة (٢٢٦٨)، وابن حبان (٤٨٨٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢/٢٧٥). وفي وصله وإرساله اختلاف. انظر: «العلل» للدراقطني (٦/٦٦)، و«بيان الوهم والإيهام» (٢/٥٧٤)، و«التلخيص الحبير» (٦/٢٩٦٠).
والحالم: من بلغ الحلم. والمعافر: بروءٌ منسوبة إلى قبيلة المعافر باليمن.
(٣) (٢/٦٦٩).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٦٦٩): «دعا يهود أهل المدينة إلى ذلك».

تَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٧].

ومما ينبغي أن يُعلم أن أهل نجران المذكورة نجران اليمن لا نجران الشام^(١)، وأهل نجران^(٢) كان منهم نصارى أهل ذمّة، وكان منهم مسلمون وهم الأكثرون، والنبِيُّ ﷺ بعث أبا عبيدة لهؤلاء وهؤلاء، واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء، كما أخرجنا في الصحيحين^(٣) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة^(٤) أبو عبيدة بن الجراح».

وعن أنس أيضًا: أن أهل اليمن قدّموا على رسول الله ﷺ، فقالوا: ابعث معنا رجلًا أمينًا يعلمنا السنّة والإسلام، فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح، فقال: «هذا أمين هذه الأمة»^(٥).

وفي الصحيحين^(٦) عن حذيفة بن اليمان، قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ابعث إلينا رجلًا أمينًا، فقال: «لأبعثنَّ

(١) في الشام موضع يسمى «نجران» بحوران من نواحي دمشق فيه دير مشهور للنصارى. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٥٣٩، ٥/ ٢٧٠)، و«توضيح المشتبه» (١/ ٣٨٩).
(٢) المذكورة نجران اليمن لا نجران الشام وأهل «ليس في (و، ي)، ووقع لحقًا في (د)، ولعله سقط لانتقال النظر، وأخشى أن يكون تعليقًا لأحد القراء ثم أقحمه النساخ في المتن.

(٣) صحيح البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٥٣/ ٢٤١٩).

(٤) (د، ع، ي): «وإن أمين هذه الأمة». والمثبت من (و) يوافق رواية الصحيحين.

(٥) أخرجه مسلم (٥٤/ ٢٤١٩).

(٦) صحيح البخاري (٧٢٥٤)، ومسلم (٢٤٢٠).

إليكم رجلاً أميناً حقّ أمين حقّ أمين». قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح.

وللبخاري^(١) عن حذيفة قال: جاء السيّد والعاقبُ صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعِنَاهُ، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل؛ فوالله لئن كان نبياً فلاعِنَّا لا نُفْلِحُ نحن ولا عَقِبنا من بعدنا، قال: إِنَّا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، فقال: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقّ أمين»، فاستشرف لها^(٢) أصحابُ رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

وكذلك استعمل النبي ﷺ عليهم عمرو بن حزم، وكتب له الكتاب المشهور الذي فيه الفرائض والسنن، وقد رواه النسائي بطوله، وروى الناس بعضه مفرقاً^(٣).

ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلا وفد جَيْشَان^(٤)، فدلّ على أن قدومهم كان متأخراً.

ومحمد بن إسحاق ذكر قدومهم في أوائل «السيرة» مع قصة اليهود^(٥)؛ ليجمع بين خبر اليهود والنصارى^(٦).

(١) صحيح البخاري (٤٣٨٠).

(٢) لفظ البخاري: «له» أي: استشرفوا لقوله ﷺ. والمثبت من الأصول يوافق الرواية الأخرى المتقدمة، أي: استشرفوا للإمارة. انظر: «إرشاد الساري» (٤٣٧/٦).

(٣) تقدم تخريجه والكلام عليه (٧٣/١).

(٤) «الطبقات» لابن سعد (٣٠٨/١). وجيشان: مخلاف باليمن.

(٥) سيرة ابن هشام (١٩٧/٢).

(٦) سقط من (و): «مع قصة اليهود والنصارى» لانتقال النظر.

وذكر في سنة عشر فتح نجران، وإرسال النبي ﷺ خالد بن الوليد^(١)، وإرسال خالد ذكروا أنه كان متأخراً قبل وفاته ﷺ بأربعة أشهر، وأنه قدم وفد منهم بالإسلام^(٢)، وهذا إنما كان بعد قدوم وفد النصارى، فإنه قد ذكر ابن سعد أن العاقب والسيد أسلما بعد ذلك^(٣).

والعهد بالجزية إنما كان مع النصارى، وآية الجزية هي قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، وهذه آية السيف مع أهل الكتاب، وقد ذكر فيها قتالهم إذا لم يؤمنوا حتى يعطوا الجزية.

والنبي ﷺ لم يأخذ من أحد الجزية إلا بعد هذه الآية. بل وقالوا^(٤): إن أهل نجران أول من أخذت منهم الجزية، كما ذكر ذلك الزهري وغيره^(٥)؛ فإنه باتفاق أهل العلم لم يضرب النبي ﷺ الجزية^(٦) على أحد قبل نزول هذه الآية، لا من الأميين ولا من أهل الكتاب، ولهذا لم يضربها على يهود قينقاع والنضير وقريظة، ولا ضربها على أهل خيبر؛ فإنها فتحت سنة سبع قبل نزول آية الجزية،

(١) سيرة ابن هشام (٢٣٩/٤).

(٢) ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ بعث خالدًا إلى بني الحارث في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر، فأقام فيهم حتى وفدوا معه على المدينة، ورجع وفدهم إلى قومهم في بقية من شوال أو في صدر ذي القعدة، فلم يمكثوا إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ. سيرة ابن هشام (٢٤١/٤).

(٣) «الطبقات» لابن سعد (٣٠٨/١).

(٤) (ع): «بل قالوا»، وأحسبه من إصلاح الناسخ. والمثبت من (و، د، ي) مألوف من أسلوب شيخ الإسلام، وهو خلاف الأفصح.

(٥) ليست في (ي). وفي (و): «كما ذكر ذلك أهل العلم كالزهري وغيره».

(٦) ساقطة من (و). وقدّر الناسخ موضعها في الطرة بعد تمام الجملة.

وَأَقَرَّهْم فَلَا حِينَ، وَهَادَنَهُمْ هَدَنَةً مُطْلَقَةً قَالَ فِيهَا: «نُقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمْ اللَّهُ»^(١).

فَإِذَا كَانَ أَوَّلُ مَا أَخَذَهَا مِنْ وَفْدِ نَجْرَانَ عُلِمَ أَنَّ قَدُومَهُمْ عَلَيْهِ وَمَنَاظَرَتَهُ لَهُمْ وَمَحَاجَّتَهُ إِيَّاهُمْ وَطَلَبَهُ الْمِبَاهِلَةَ مَعَهُمْ كَانَتْ بَعْدَ آيَةِ السَّيْفِ الَّتِي فِيهَا قَتَلَهُمْ.

وَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ مُحَكِّمٌ لَمْ يَنْسَخْهُ شَيْءٌ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى مِنْ مَجَادَلَةِ الْخَلْقِ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِ: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: آيَاتُ الْمَجَادَلَةِ وَالْمَحَاجَّةِ لِلْكَفَّارِ مَنْسُوخَاتٌ بِآيَةِ السَّيْفِ^(٢)؛ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ الْمَشْرُوعَ يَنَافِي الْمَجَادَلَةَ الْمَشْرُوعَةَ. وَهَذَا غَلَطٌ؛ فَإِنَّ النِّسْخَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ الْحُكْمُ النَّاسِخُ مُنَاقِضًا لِلْحُكْمِ الْمَنْسُوخِ، كَمُنَاقِضَةِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الصَّلَاةِ لِلأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ^(٣)، وَمُنَاقِضَةِ الْأَمْرِ بِصِيَامِ رَمَضَانَ لِلْمُقِيمِ لِلتَّخْيِيرِ بَيْنِ الصَّيَامِ وَبَيْنِ إِطْعَامِ كُلِّ يَوْمٍ مَسْكِينًا، وَمُنَاقِضَةِ نَهْيِهِ عَنْ تَعْدِي الْحُدُودِ الَّتِي فَرَضَهَا لِلْوَرِثَةِ لِلأَمْرِ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، وَمُنَاقِضَةِ قَوْلِهِ لَهُمْ: «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْقِتَالِ» لِقَوْلِهِ: «قَاتِلُوهُمْ» كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٣٠) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انْظُرْ: «النَّبَات» (٦٢٠ - ٦٢١)، وَتَفْسِيرُ مَقَاتِلِ (٣/ ٣٨٥)، وَتَفْسِيرُ ابْنِ جَرِيرِ (١٨/

٤١٩ - ٤٢١)، وَ«الْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ» لِابْنِ عَطِيَّةٍ (٦/ ٢٧١)، وَ«نَوَاسِخُ الْقُرْآنِ» لِابْنِ

الْجَوْزِيِّ (٢/ ٤٩٦)، وَ«جَمَالُ الْقُرْآنِ» لِلْسَّخَاوِيِّ (٤٤٥).

(٣) زَادَتْ ط. النِّيلُ: «بِالشَّامِ». وَرَسَمَتْ مَهْمَلَةً فِي طَرَةِ (و).

خَشِيَّةٌ ﴿[النساء: ٧٧]، فأمره لهم بالقتال ناسخٌ لأمره لهم بكفّ أيديهم عنه^(١).

فأما قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ^ط وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهذا لا يناقضه الأمرُ بجهاد من أمر بجهاده منهم، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة.

فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به، فلا منافاة بينهما، وإذا لم يتنافيا، بل أمكن الجمع، لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلوم أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، وأن استعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق.

ومما يبيّن ذلك وجوه:

أحدها: أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يُجَاهَد بالقتال فهو داخلٌ فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن، وليس هو داخلاً فيمن أمر الله بقتاله.

الثاني: أنه قال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، فالظالم لم يؤمر بجذاله بالتي هي أحسن، فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالبٍ للعلم والدين فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يُجَادِلُونَ بالتي هي أحسن، بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم،

(١) أي: عن القتال. وفي (و): «عنهم» وهو خطأ، واختارته ط. العاصمة ولم تحسن قراءة الأصول.

سواءً كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقاً. ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن، لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين^(١) فيها عناده وظلمه وجهله، جزاءً له بموجب عمله.

الثالث: أنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب، أمر الله^(٢) بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه، ثم يُبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، وهذا في سورة «براءة» التي فيها نقض^(٣) العهود، وفيها آية السيف.

وذكر هذه الآية في ضمن الأمر بنقض العهود؛ ليبين سبحانه أن مثل هذا يجب أمانه حتى تقوم عليه الحجة، لا تجوز محاربته كمحاربة من لم يطلب أن يُبْلِغْ حجة الله عليه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ إن لم يوافقه ما تقص عليه وتخبر به^(٤) فأبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ. قال: وليس هذا بمنسوخ^(٥).

وقال مجاهد: من جاءك واستمع ما تقول^(٦)، واستمع ما أنزل إليك،

(١) (د، ع): «يجادله بطرق أخرى يبين».

(٢) (ي، و): «أمره الله».

(٣) كذا في الأصول هنا وفي السطر الذي بعده. ولعلها محرفة عن «نبذ» كما وردت فيما سيأتي (١٠٨/١)، وهي استعمال المصنف في «الصفدية» (٣١٨/٢)، و«الصارم المسلول» (٦٨٢، ٨٧٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢١/١٩)، وغيرها.

(٤) (ي، ع): «نقص عليه ونخبر به».

(٥) أخرجه ابن جرير (٣٤٨/١١)، وابن أبي حاتم (١٧٥٦/٦).

(٦) «واستمع ما تقول» ساقط من ط. العاصمة.

فهو آمنٌ حتى يأتِكَ^(١).

وقال عطاء في الرجل من أهل الشُّرك يأتي المسلمين بغير عهدٍ، قال:
يُخَيِّرُهُ^(٢)، إما أن يُقَرَّهُ، وإما أن يُبْلِغَهُ مَأْمَنَهُ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَلْجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ قد عُلِمَ أن المراد أنه يسمعه
سمعاَ يتمكّن معه من فهم معناه؛ إذ المقصود لا يقوم بمجرد سَمْعٍ لفظٍ لا
يتمكّن معه من فهم المعنى.

فلو كان غير عربيٍّ وجب^(٤) أن يُترجم له ما يقوم به عليه الحجّة.
ولو كان عربياً وفي القرآن ألفاظٌ غريبةٌ ليست من^(٥) لغته وجب أن يبيّن له
معناها.

ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثيرٌ من الناس، ولم يفقه المعنى، وطلب منّا
أن نفسّره له ونبيّن له معناه، فعلينا ذلك.

وإن سألنا عن سؤالٍ يقدح في القرآن أجبناه عنه، كما كان النبي ﷺ إذا
أورد عليه بعضُ المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالاً يوردونه على
القرآن، فإنه كان يجيبه عنه، كما أجاب ابن الزُّبَيْرِ لَمَّا قاس المسيح على آلهة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٥٥ / ٦). وبنحوه ابن جرير (٣٤٧ / ١١).

(٢) لم تحرر في (و، ي)، وفي مصنف عبد الرزاق و«الاستذكار» (١١٨ / ١٤): «خَيَّرَهُ»،
وليست عند ابن أبي شيبة، وكما أثبت في تفسير ابن أبي حاتم. وفي (ع، د): «تجيره» وهذا
يوافق لفظ الآية. والتقسيم في الكلام يشهد للتخيير. و«يُقَرَّهُ» أي يُقَرَّر بالقرآن. وفي (ع، د)،
(و) وعبد الرزاق: «تقره ... تبلغه».

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٦١ / ٤)، وابن أبي شيبة (٥١٩ / ١٧)، وابن أبي
حاتم (١٧٥٦ / ٦).

(٤) (د، ي، ع): «لوجب».

(٥) ساقطة من ط. العاصمة.

المشركين^(١)، وظنَّ أن العلة في الأصل مجرد^(٢) كونهم معبودين، وأن ذلك يقتضي أن^(٣) كلَّ معبودٍ غير الله فإنه يعذب في الآخرة، فجعل المسيح مثلاً لآلهة المشركين قاسمهم عليه قياس الفرع على الأصل.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾
وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿[الزخرف: ٥٧ - ٥٨].

فبيّن سبحانه الفرق المانع من الإلحاق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وبيّن أن هؤلاء القائسين ما قاسوه إلا جدلاً محضاً لا يوجب علماً؛ لأن الفرق حاصلٌ بين الفرع والأصل، فإن الأصنام إذا جُعِلوا حصباً لجهنم كان ذلك إهانةً وخزياً لعباديتها، من غير تعذيبٍ من لا يستحقُّ التعذيب. بخلاف ما إذا عُدَّ عبادُ الله الصالحون بذنب غيرهم، فإن هذا لا يفعله الله تعالى، لا سيما عند جماهير المسلمين وسائر أهل الملل سلفهم وخلفهم الذين يقولون: إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة، ولا يظلم أحداً فينقصه شيئاً من حسناته، ولا يحمل عليه سيئاتٍ غيره، بل ولا يعذب أحداً إلا بعد إرسال رسولٍ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]،

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣/ ١٥ - ١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٥٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (٣٠٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما من طرقٍ يصحُّ بها. وخَرَّجَه الضياء في «المختارة» (١١/ ٣٤٥)، وحسنه ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٧٣).

(٢) (و): «بمجرد».

(٣) ساقطة من ط. العاصمة.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل: إنه يجوز منه تعالى فعل كل شيء، وأن الظلم هو الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، فهو لاء يقولون: إنما نعلم^(١) ما يفعله وما لا يفعله بدلالة خبر الصادق أو بالعادة، وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله.

وقد أخبر الله تعالى أن عباده الصالحين في الجنة، لا يعذبهم في النار، بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، فضلاً أن يعاقبهم بذنب من عبدتهم^(٢) مع كراهتهم^(٣) لفعلهم ونهيهم عن ذلك. ومن زعم أن لفظ (ما) كانت تتناول المسيح وأخريان العام^(٤)، أو أجاب بأن لفظ (ما) لا يتناول إلا ما لا يعقل، فالقولان ضعيفان كما قد بسط في موضعه^(٥).

وإنما المشركون عارضوا النص الصحيح بقياسٍ فاسد، فبين الله تعالى فساد القياس، وذكر الفرق بين الأصل والفرع^(٦).

(١) مهملة في (ي، و). وفي ط. النيل: «يعلم».

(٢) (و، ع): «بذنب غيرهم». (د): «بذنب من غيرهم». والمثبت من (ي) أجود.

(٣) (ي، د، و): «كراهية». (ع): «كراهته». وما أثبت أشبه بالصواب.

(٤) أي بيان المخصص للعام.

(٥) انظر: «درء التعارض» (٥٦/٧)، و«مجموع الفتاوى» (٥٤٠/٢٠). ولشيخ الإسلام رسالة مفردة في تفسير هذه الآية واعتراض ابن الزبيري وجوابه، ذكرها ابن رشيق في أسماء مؤلفاته (٢٨٩ - الجامع لسيرته).

(٦) انظر: «الصفدية» (١٤١/١)، و«الإخائية» (٢٠٧)، و«شرح الأصبهانية» (٧١٣)، و«مجموع الفتاوى» (٤٠/١٦، ١٥/١٣).

وكذلك لما أورد بعض النصارى على قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] ظناً منه أن هارون هذا هو هارون أخو موسى بن عمران، وأن عمران هذا هو عمران أبو مريم أم المسيح، فسئل النبي ﷺ عن ذلك، أجاب بأن هارون هذا ليس هو ذاك، ولكنهم كانوا يُسمُّون بأسماء الأنبياء والصالحين.

وبعض جهال النصارى يقدح في القرآن بمثل هذا ولا يعلم هذا المُفْرِط في جهله أن آحاد الناس يعلمون أن بين موسى وعيسى مدَّة طويلة جدًّا يمتنع معها أن يكون موسى وهارون خالي المسيح، وأن هذا ممَّا لا يخفى على أقل أتباع محمد ﷺ، فضلاً عن أن يخفى على محمد ﷺ.

وهذا السؤال ممَّا أورده أهل نجران، كما ثبت عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: أَلَسْتُمْ تَقْرَؤُنَ: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]؟ وقد علمتم ما بين موسى وعيسى، فلم أدِرِ ما أجيبهم، فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ؟»^(١).

وهذا السؤال الذي هو سؤال الطاعن في القرآن لمَّا أورده^(٢) أهل نجران الكفار على المغيرة^(٣) رسول رسول الله ﷺ ولم يُجِبْهم عنه، أجاب عنه النبي ﷺ، ولم يقل لهم: ليس لكم عندي إلا السِّيف، ولا قال: قد نقضتم العهد؛ إذ كانوا^(٤) قد عاهدوه، وقد عُرِفَ أن أهل نجران لم يُرْسَلْ إليهم رسولاً إلا والجهاد مأموراً به.

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٥).

(٢) (ع): «أورده»، ولعله من إصلاح الناسخ.

(٣) ليست في (و).

(٤) (ع، د، و) وط. النيل والعاصمة: «إن كانوا»، وهو خطأ.

وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه:

كما أورد عليه عمر عام الحديبية لمّا صالحَ المشركين ولم يدخل مكة، فقال له: ألم تكن تحدّثنا أنّا نأتي البيت ونطوّف به؟ قال: «بلى، أقلتُ لك أنك تأتيه في هذا العام؟» قال: لا، قال: «فإنك آتية ومطوّفٌ به»^(١). وكذلك أجابه أبو بكر ولم يكن سمع جوابَ النبي ﷺ له. ومعلومٌ أنه ليس في ظاهر اللفظ توقيتٌ ذلك بعامٍ، ولكن السائل ظنّ ما لا يدلُّ اللفظ عليه.

وكذلك لمّا قال: «من نُوقِشَ الحسابَ عُدّب»، قالت له عائشة: ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]؟ فقال: «ذلك العَرَضُ، ومن نُوقِشَ الحسابَ عُدّب»^(٢). ومعلومٌ أن الحساب اليسير لا يتناول من نُوقِشَ، وقد زادها بيانًا فأخبر أنه العَرَضُ لا المقابلة المتضمّنة للمناقشة.

وكذلك لمّا قال: إنه «لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة»، قالت له حفصة: ألم يقل الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؟ فأجابه بأنه قال: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]^(٣). فبيّن ﷺ أن هؤلاء هم الذين يدخلون جهنم، وهذا الدخول هو الذي نفاه عن أهل الحديبية، وأما الورود فهو مرورُ الناس على الصُّراط، كما فسّره في الحديث الصحيح حديث جابر بن عبد الله^(٤)، وهذا المرور لا يُطلق عليه اسمُ الدخول الذي يُجزى به العصاة ويُنفى عن المتقين.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (١٩١).

ومثل هذا كثير^(١).

وأما ما في القرآن من ذكر أقوال الكفار وحُجَجهم، وجوابها، فهذا كثيرٌ جدًّا، فإنه يجادلهم تارةً في التوحيد، وتارةً في النبوات، وتارةً في المعاد، وتارةً في الشرائع، بأحسن الحُجَج وأكملها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢ - ٣٣].

وقد أخبر الله ﷺ عن أولي العزم من الرسل بمجادلة الكفار، فقال تعالى عن نوح^(٢): ﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، وقال عن الخليل: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنِي﴾ إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٣].

وأمر الله تعالى محمداً ﷺ بالمجادلة بالتي هي أحسن. وذمَّ سبحانه من جادل بغير علم، أو في الحق بعدما تبين، ومن جادل بالباطل، فقال تعالى: ﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ [الأنفال: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وهذا هو الجدل المذكور في قوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

[غافر: ٤].

(١) انظر: «الصفدية» (١/١٣٩ - ١٤١)، و«درء التعارض» (٥/٢٢٨ - ٢٣١، ٧/٤٦ - ٥٥)، و«جواب الاعتراضات المصرية» (٨١)، و«مجموع الفتاوى» (١٧/٣٩٥).

(٢) ط. النيل: «قوم نوح».

وإذا كان النبي ﷺ يُحَاجُّ الكفار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أمره الله تعالى أن يُجِيرَ المستجيرَ حتى يسمع كلام الله ثم يُبْلِغَهُ مَأْمَنَهُ، والمراد بذلك: تبليغه^(١) رسالات الله، وإقامة الحجّة عليه، وذلك قد لا يتمُّ إلا بتفسيره له الذي تقوم به الحجّة، ويجابُّ به عن المعارضة، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب = عُلِمَ بطلانُ قول من ظنَّ أن الأمر بالجهاد ناسخٌ للأمر^(٢) بالمجادلة مطلقاً.

الوجه الرابع: أن القائل إذا قال: إن آية^(٣) مجادلة الكفار أو غيرها ممّا يدّعي نسخه منسوخةٌ بآية السيف.

قيل له: ما تعني بآية السيف؟ أتعني آيةً بعينها، أم تعني كلّ آية فيها الأمر بالجهاد؟ فإن أراد الأول، كان جوابه من وجهين:

أحدهما: أن الآيات التي فيها ذكرُ الجهاد متعدّدة، فلا يجوز تخصيص بعضها.

وإن قال: أريد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

قيل له: هذه في قتال المشركين، وقد قال بعدها في قتال أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فلو لم تكن آية السيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى من هذه.

(١) ط. العاصمة: «تبليغ»، خلاف الأصول.

(٢) (و): «الأمر».

(٣) ليست في (و، ي).

وإن قال: كلُّ آية فيها ذكرُ الجهاد.

قيل له: الجهاد شُرع على مراتب:

فأول ما أنزل الله تعالى فيه الإذن بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا
وَلَا اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، فقد ذكر غير واحد من العلماء أن هذه
أول آية نزلت في الجهاد^(١).

ثم بعد ذلك نزل وجوبه بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم، بل قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ
إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْ فَمَا
جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٩ - ٩٠].

وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقدًا
جائزًا غير لازم.

ثم أنزل الله في «براءة» الأمر بنبد العهود، وأمرهم بقتال المشركين كافة،

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٣٤٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه ابن حجر في
«الفتح» (٢٨٠/٧). وروي عن عروة من قوله، وهو أصح. انظر: «العلل» لابن أبي حاتم
(٦٦٨/٤).

وأخرجه أحمد (١٨٦٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه ابن حبان (٤٧١٠)، والحاكم
(٦٦/٢)، وخرجه الضياء في «المختارة» (٣٥٩/١٠)، وإسناده على شرط الصحيحين
كما قال ابن القيم في «زاد المعاد» (٨٦/٣).
ويروى عن غير واحد من السلف. انظر: تفسير ابن جرير (٥٧٦/١٦).

وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يُسلموا حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ولم يُبح لهم ترك قتالهم وإن سالموهم وهادنوهم هدنةً مطلقةً مع إمكان جهادهم.

فإن قال: آية السيف التي نسخت المجادلة هي آية الإذن.

قيل: فأية الإذن نزلت في أول مقدّمه المدينة قبل أن يبعث شيئاً من السرايا، وقد جادل بعد هذا الكفار.

وكذلك إن قيل: آيات فرض القتال.

قيل: فقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ نزلت في أول الأمر في سورة البقرة^(١) قبل بدر، ولا ريب^(٢) أن الجهاد كان واجباً يوم أحدٍ والخندق وفتح خيبر ومكة، وقد ذكر الله آيات فرض الجهاد في هؤلاء المغازي كما ذكر ذلك في سورة آل عمران والأحزاب.

وإن قيل: بل الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم.

قيل: هذا باطل؛ فإن الجدال إن كان منافياً للجهاد فهو منافٍ لإباحته وإيجابه ولو للمُسالم، وإن لم يناف الجهاد لم يناف إيجاب الجهاد للمُسالمين، كما لم يناف إيجاب جهاد غيرهم؛ فإن المُسالم قد لا يجادل ولا يجالد، وقد يجادل ولا يجالد، كما أن غيره قد يجالد ويجادل، وقد يُفعل أحدهما. فإن كان إيجابه لجهاد المحارب المبتدئ بالقتال لا ينافي مجادلته، فلأن يكون جهاد من لا يبدأ القتال لا ينافي مجادلته أولى وأحرى، فإن من كان أبعد عن القتال كانت مجادلته أقلّ منافاةً للقتال ممن يكون أعظم قتالاً.

(١) «في سورة البقرة» ساقط من ط. العاصمة.

(٢) ط. النيل: «وقيل لا ريب».

يبيّن هذا:

الوجه الخامس: وهو أن يقال: المنسوخ هو الاقتصار على الجدل، فكان النبي ﷺ في أول الأمر مأمورًا أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده، فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويجاهدهم بالقرآن جهادًا كبيرًا، قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١) فلا تُطِيع الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿[الفرقان: ٥١ - ٥٢].

وكان مأمورًا بالكفّ عن قتالهم؛ لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك، ثم لما هاجر إلى المدينة وصار له بها أعوانٌ أُذِنَ له في الجهاد، ثم لما قُوتُوا كُتِبَ عليهم القتال ولم يُكْتَبَ عليهم قتال من سألهم؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار. فلما فتح الله مكة وانقطع قتال قريش ملوك العرب^(١)، ووفدت إليه وفودُ العرب بالإسلام، أمره الله تعالى بقتال الكفار كلهم إلا من كان له عهدٌ مؤقَّت، وأمره^(٢) بنبذ العهود المطلقة، فكان الذي رفعه ونسخه ترك القتال.

وأما مجاهدة الكفار باللسان، فما زال مشروعًا من أول الأمر إلى آخره، فإنه إذا شُرِعَ جهادُهم باليد فباللسان أولى، وقد قال النبي ﷺ: «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم»^(٣).

(١) كذا في الأصول.

(٢) (د): «وأمرهم».

(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٤٦)، وأبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه بسند صحيح، وصححه ابن حبان (٤٧٠٨)، والحاكم (٨١/٢)، وقال ابن عبد الهادي في «المحرر» (٧٧٦): «إسناده على رسم مسلم».

وكان ينصب لحسان منبراً في مسجده^(١) يجاهد فيه المشركين بلسانه
جهاد هَجْوٍ، وهذا كان بعد نزول آيات القتال، وأين منفعة الهَجْوِ من منفعة إقامة
الدلائل والبراهين على صحّة الإسلام، وإبطال حجج الكفار من المشركين
وأهل الكتاب؟!!

الوجه السادس: أنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة، ولو أن
الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال. فبيان آيات الإسلام
وبراهينه واجبٌ مطلقاً وجوباً أصلياً، وأما الجهاد فم شروعٌ للضرورة، فكيف
يكون هذا مانعاً من ذلك؟!!

فإن قيل: الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته، فلم تبق حاجةٌ إلى إظهار
آياته، وإنما يُحتاج إلى السيف.

قيل: معلومٌ أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان، وظهور
سيف وسنان، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(٢) [التوبة: ٣٣].

وقد فسّر العلماء ظهوره بهذا وهذا^(٣)، ولفظ الظهور يتناولهما؛ فإن ظهور
الهدى بالعلم والبيان، وظهور الدين باليد والعمل^(٤)، والله تعالى أرسل
رسوله^(٥) بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله.

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤٣٧)، وأبو داود (٥٠١٥)، والترمذي (٢٨٤٦) من حديث
عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وعلقه البخاري، كما في «الجمع بين
الصحيحين» للحميدي (١٣١/٤)، و«تحفة الأشراف» (١٠/١٢).

(٢) أكملت ط. العاصمة الآية، خلافاً للأصول.

(٣) انظر: «البيسط» للواحدى (٣٩٠-٣٩٢).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/١٢، ٢٨/٣٨)، وما سيأتي (١/١٨٦).

(٥) (د، ع): «والله أرسله».

ومعلومٌ أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال؛ فإن النبي ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فأمنت به المهاجرون والأنصار طوعًا واختيارًا بغير سيف؛ لِمَا بان لهم من الآيات البينات والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسيف.

فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداءً ودفعًا، فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداءً ودفعًا لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى؛ فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك، ومنفعته قبل منفعته، ومعلومٌ أنه يحتاج كل وقتٍ إلى السيف، فذلك هو محتاجٌ إلى العلم والبيان. وإظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف، وهو ظهورٌ مجملٌ علا به على كل دين، مع أن كثيرًا من الكفار لم يقهره سيفه^(١)، فذلك كثيرٌ من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه، بل قد يقدحون فيه ويقيمون الحجج على بطلانه، لا سيما والمقهور بالسيف فيهم منافقون كثيرون، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان. يؤكّد هذا:

الوجه السابع: وهو أن القتال لا يكون إلا لظالم؛ فإن من قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالمًا معتديًا، ومن قامت عليه الحجّة، فشقّ الرسول من بعد ما تبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين، لم يكن إلا ظالمًا.

وأما المجادلة فقد تكون لظالم، إمّا طاعنٍ في الدين بالظلم، وإمّا من قامت عليه الحجّة الظاهرة فامتنع من قبولها.

وقد تكون لمسترشِدٍ طالب حقٍّ لم يبلغه، وإمّا من بلغه بعض أعلام نبوة محمد ﷺ ودلائل نبوته، ولكن عورِض ذلك عنده بشبهات تنافي ذلك، فاحتاج

(١) (د، ع): «بسيفه».

إلى جواب تلك المعارضات، وإمّا طالب لمعرفة دلائل النبوة على الوجه الذي يَعْلَم به ذلك.

فإذا كان القتال الذي لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعاً، فالمجادلة التي تكون لدفع ظلمه ولا انتفاعه وانتفاع غيره مشروعةً بطريق الأولى.

قال مجاهد: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ قال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من قاتلك ولم يُعْطِكَ الجزية^(١).

وفي لفظ آخر عنه قال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أهل الحرب، من لا عهد له، المجادلة لهم بالسيف^(٢).

وفي رواية عنه قال: لا تقاتل إلا من قاتلك ولم يُعْطِكَ الجزية^(٣).

وفي رواية عنه قال: من أدّى منهم الجزية فلا تقولوا له إلا خيراً^(٤).

وعن مجاهد: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فإن قالوا شراً فقولوا خيراً^(٥).

فهذا مجاهدٌ لا يجعلها منسوخة، وهو^(٦) قول أكثر المفسرين^(٧).

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٨/١٨)، وابن أبي حاتم (٣٠٦٩/٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠٦٩/٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠٦٩/٩).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (٥٣٦/٢). وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»

(٥٥٨/١١) إلى الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير (٤١٨/١٨)، وابن أبي حاتم (٣٠٦٩/٩).

(٦) ط. العاصمة: «وهي»، وهو خطأ.

(٧) انظر: تفسير ابن جرير (٤٢٠/١٨)، والقرطبي (٣٥٠/١٣)، و«الناسخ والمنسوخ» لأبي

جعفر النحاس (٥٧٧/٢)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٥٣٦/٢).

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ليست منسوخة^(١).

ولكن عن قتادة قال: نسختها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ولا مجادلة أشد من السيف^(٢).

والأول أصح؛ لأن هؤلاء من الذين ظلموا، فلا نسخ.

ومما يُعْجَبُ منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناءً على ظهور دلائل النبوة تجده^(٣) هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يَعتَمِدُ في أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم ويزعمون أنهم قرّروا دلائل النبوة = قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالاً، وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جواباً في المسائل الظنيّة، بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين^(٤)، وهم كما مثلهم الغزالي وغيره بمن يضرب شجرة ضرباً يزلزلها به وهو يزعم أنه يريد أن يشبّتها^(٥).

وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب في الإيمان بالنبوة اضطراباً ليس هذا موضع بسطه، وهم مع ذلك يدّعون أنه قد ظهر عند أهل الكتاب ما لم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظار، وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التي هي غاية مطالب مشايخهم، وهم لم يعطوها حقّها إما عجزاً وإما تفريطاً.

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٩/١٨)، وابن أبي حاتم (٣٠٦٨/٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٢٥٩)، وابن أبي حاتم (٣٠٦٨/٩).

(٣) مهملة في (ي). (و): «نجده».

(٤) كما فعل الرازي في «نهاية العقول» (٣/٣٥٠-٥١٦).

(٥) انظر: «إحياء علوم الدين» (١/٩٤).

الوجه الثامن: أن كثيرًا من أهل الكتاب يزعم أن محمدًا ﷺ وأُمَّته إنما أقاموا دينهم بالسَّيف لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة، فقليل لهم: ليس لكم جوابٌ إلا السَّيف، كان هذا ممَّا يقرّر ظنَّهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجُّون به عند أنفسهم على فساد دين^(١) الإسلام، وأنه ليس دين رسولٍ من عند الله، وإنما هو دينٌ ملِكٍ أقامه بالسَّيف.

الوجه التاسع: أنه من المعلوم أن السَّيف - لا سيَّما سيفُ المسلمين وأهل الكتاب - هو تابعٌ للعلم والحجَّة، بل وسيفُ المشركين هو تابعٌ لآرائهم واعتقاداتهم؛ فالسَّيف^(٢) من جنس العمل، والعملُ أبدًا تابعٌ للعلم والرأي.

وحينئذ، فبيانُ دين الإسلام بالعلم، وبيانُ أن ما خالفه ضلالٌ وجهلٌ، هو تثبيتٌ لأصل دين الإسلام، واجتثاث^(٣) لأصل غيره من الأديان التي يقاتل عليها أهلها، ومتى ظهر صحَّته وفساد غيره كان الناسُ أحدَ رجلين:

إمَّا رجلٌ تبَيَّن له الحقُّ، فاتَّبعه، فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل.

وإمَّا رجلٌ لم يتَّبعه، فهذا قامت عليه الحجَّة؛ إمَّا لكونه لم ينظر في أعلام الإسلام، أو نظر وعَلِم، فاتَّبع هواه أو قصَّر.

وإذا قامت عليه الحجَّة كان أرضى الله ولرسوله، وأنصرَ لسيف الإسلام وأذلَّ لسيف الكفار. وإذا قُدِّر أن فيهم من يعجز عن فهم الحجَّة، فهذا

(١) ليست في (ي، و).

(٢) (و، ي): «والسيف».

(٣) ط. النيل والعاصمة: «واجتناب»، وهو خطأ مخالف للأصول.

إذا لم يكن معذورًا مع عدم قيامها فهو مع قيامها أولى أن لا يُعذر، وإن كان معذورًا مع قيامها فهو مع عدمها أعذر.

فعلى التقديرين قيامُ الحجة أنصر وأعذر، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَيْتَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَالْمُلقِيَتِ ذِكْرًا ۝ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ [المرسلات: ٥]، وقال النبي ﷺ: «ما أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فصل

وكان قبل قصّة نجران قد آمن بالنبي ﷺ^(١) كثيرٌ من اليهود والنصارى، رؤساؤهم وغير رؤسائهم^(٢)، لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ.

كما آمن به النجاشيُّ ملكُ الحبشة، وكان نصرانيًّا هو وقومه، وكان إيمانه به في أول أمر النبي ﷺ لَمَّا كَانَ أَصْحَابُهُ مُسْتَضَعْفِينَ بِمَكَّةَ، وَكَانَ الْكَفَّارُ يَظْلِمُونَهُمْ وَيُؤْذِنُهُمْ وَيَعَاقِبُونَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَاجَرَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ، مِثْلُ: عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَجَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَغَيْرَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِلَيْهِ.

وكان ملكًا عادلاً، فأرسل الكفار خلفهم رسلاً إلى أرض الحبشة أرض النجاشي^(٣) بهدايا؛ ليردّهم إليهم، فامتنع من عدله أن يسلمهم إليهم حتى يسمع كلامهم، فلَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُمْ وَمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَأَوَاهُمْ.

ولَمَّا سَمِعَ الْقُرْآنَ قَالَ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيُخْرِجَ مِنْ مَشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَمَّا سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِمْ فِي الْمَسِيحِ ﷺ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا رَجُلٌ^(٤)، فَقَالَ النجاشي لجعفر بن أبي طالب: والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلتَ هذا العود، فَخَرَّتْ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ، وَإِنْ نَخَرْتُمْ.

(١) (و، ي): «آمن به».

(٢) (و، ي): «روسهم وغير روسهم».

(٣) «إلى أرض الحبشة أرض النجاشي» ليست في (و). وفي (ي) موضعها: «إليه».

(٤) (و): «فحل».

وبعث ابنه وطائفة من أصحابه إلى النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب،
وقدم جعفر على النبي ﷺ عام خيبر.

وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ، كأحمد بن حنبل في
«المسند»، وابن سعد في «الطبقات»، وأبي نعيم في «الحلية»، وغيرهم^(١)،
وذكرها أهل التفسير والحديث والفقه، وهي متواترة عند العلماء.

قال أحمد^(٢): حدثني يعقوب بن إبراهيم بن سعد^(٣)، عن أبيه، قال:
حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب
الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم
سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ
الْحَبْشَةِ جَاوَزْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ، النَجَاشِيِّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ، لَا نُؤْذِي،
وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ.

فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدَيْنِ،
وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ أَعْجَبَ مَا يَأْتِيهِ
مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ^(٤)، فجمعوا له أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرَكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقًا إِلَّا
أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ بْنَ الْمَغِيرَةِ الْمَخْزُومِيَّ،
وَعَمْرُو بْنَ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلِ السَّهْمِيِّ، وَأَمْرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَى
كُلِّ بَطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تَكْلُمُوا النَجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا إِلَى النَجَاشِيَّ هَدَايَاهُ،
ثُمَّ سَلُّوهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يَكْلُمَهُمْ.

(١) سيرة ابن إسحاق (٢٨٢)، و«الطبقات» (١٧٢ / ١)، و«الحلية» (١ / ١١٥).

(٢) «المسند» (١٧٤٠، ٢٢٤٩٨)، وإسناده حسن.

(٣) مشتبهة في (و، ي). وعلى الصواب في (د، ع). وفي ط. النيل: «سعيد»، وهو خطأ، وأثبتته

ط. العاصمة وخطأت الصواب مع رجوع محققها إلى ترجمة يعقوب!

(٤) جمع أديم، وهو الجلد المدبوغ. «المصباح» (أدم).

قالت: فخرجنا، فقدمنا على النجاشي ونحن عنده بخير دارٍ عند خير جارٍ، فلم يبقَ من بطارقه بطريقٌ إلا دفعنا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، ثم قالوا لكلٍ بطريقٍ منهم: إنه قد صَبَا^(١) إلى بلد الملك منّا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم^(٢) أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم ليردّهم^(٣) إليهم، [فإذا كلّمنا الملك فيهم] فأشيروا عليه أن يُسَلِّمَهُم إلينا ولا يكلمهم؛ فإن قومهم أعلى بهم عيناً وأعلمُ بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قَرَّبَا هداياهم إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلّماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد صَبَا إلى بلدك منّا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدينٍ مبتدعٍ^(٤) لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردّهم إليهم^(٥)، فهم أعلا بهم عيناً وأعلمُ بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمعَ النجاشي كلامنا.

فقالت بطارقه حوله: صدّقوا أيها الملك، قومهم أعلا بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلّمهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم.

(١) (د، ع): «ضوى»، وكلاهما بمعنى مالٍ. «النهاية» (صبا، ضوا).

(٢) من هنا إلى «أشراف قومهم» في الموضع الآتي ساقط من (و، ي) لانتقال النظر.

(٣) (د، ع): «بدين ابتدعوه».

(٤) (ع): «ليردوهم».

(٥) (ع): «عليهم».

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها ائِمُّ الله^(١) إذا لا أُسَلِّمُهُم إليهما، ولا أَكَادُ قَوْمًا جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعَوْهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أُسَلِّمْتُهُم إليهما ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعْتُهم منهما وأحسنْتُ جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما عَلِمْنَا، وما جاء^(٢) به نبينا ﷺ، كائنٌ في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوه^(٣) وقد دعى النجاشي أساقفته ومعهم مصاحفهم حوله، فسألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك، كنَّا قومًا أهلَ جاهليَّة، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونُسيءُ الجوار، ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيف، فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منَّا نعرفُ نسبَه وصدقَه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ونخلعَ ما كنَّا نحن نعبدُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحُسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(١) «المسند»: «لا هَيْمُ الله» صيغة قسم، و«ها» للتنبيه. انظر: «فتح الباري» (٨/ ٣٧). وفي ط.

العاصمة: «لا ها الله ائِم الله»، خلاف الأصول.

(٢) «المسند»: «أمرنا».

(٣) زادت (د، ع، ي): «زاد أبو نعيم». وليست في (و، ي) و«المسند».

قالت: فعدّد عليه أمور الإسلام.

قال: فصدّقناه، وآمنّا به، واتّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعدّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ. فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم^(١): ﴿كَهَيَّعَ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرْيَاءَ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالٍ يَعْشَوْبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَزَكِرْيَاءُ إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَبْحَثُ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَتُهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا

(١) «المسند»: «من كهيعص»، دون سياق الآيات.

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَادَّابَهَا مَنْ تَحْتَهَا إِلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعُ النَّخْلَةِ تُسَلِّطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ [مريم: ١ - ٤٠].

قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم قال لعبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص: انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبدًا، ولا أكاد.

قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً أعيبيهم عنده^(١)، ثم أستأصل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أبقى^(٢) الرجلين فينا -: لا تفعل؛ فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ.

قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه.

قالت: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: ما عدى عيسى بن مريم ما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سُيُومٌ بأرضي - والسُيُوم: الآمنون -

(١) «المسند»: «لأنبئنه غداً عيبيهم عنده».

(٢) مهملة في (ي، و). والمثبت من (ع، د)، أي: أكثرهما إبقاءً على قومه. ويروى بالتاء «أبقى»، وكذلك هو في مطبوع «المسند» وأكثر المصادر. انظر: «النهاية» (بقي).

من سَبَّكُمْ غُرْمٌ، ثم من سَبَّكُمْ غُرْمٌ، ثم من سَبَّكُمْ غُرْمٌ، فما أحبُّ أن لي دَبْرًا ذهبًا وأني آذيتُ رجلًا منكم -والدَّبْر بلسان الحبشة: الجبل-. رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرِّشوة حين ردَّ عليَّ ملكي فأخذ الرِّشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مَقْبُوحَيْن، مردودٌ عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جار.

قالت: فوالله إنَّا على ذلك إذ نَزَلَ به. يعني: من يَنازِعُه في ملكه. قالت: فوالله ما علمنا حزنًا قطُّ كان أشدَّ من حزنٍ حَزَنَّاه عند ذلك، تخوَّفنا^(١) أن يظهر ذلك على النجاشي، فيأتي رجلٌ لا يعرفُ من حقِّنا ما كان النجاشيُّ يعرفُ منه.

وروى عبد الله بن عامر بن الزبير، عن أبيه، قال: لما نزل بالنجاشيِّ عدوُّه من أرضه جاء المهاجرون، فقالوا: نحن^(٢) نخرج إليهم، فنقاتل معك، وترى جزاءنا، ونجزيك بما صنعتَ بنا، فقال: ذو ينصره الله خيرٌ من الذي ينصره الناس^(٣)، يقول: الذي ينصره الله خيرٌ من الذي ينصره الناس، فأبى ذلك عليهم^(٤).

رجعنا إلى حديث أم سلمة :

(١) «المسند»: «تخوَّفًا».

(٢) (و): «إنا نحن».

(٣) «ذو» بمعنى «الذي» لغة طيء. وتحرفت في «المستدرک» إلى «دواء بنصرة الله خير من دواء بنصرة الناس». وفي «الرقعة»: «من ينصره الله خير من الذي ينصره الناس».

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٤١ / ٤)، وابن قدامة في «الرقعة» (٢٤٧)، وصححه الحاكم، وفي سنده لين.

قالت: وسار النجاشي، وبينهما عَرْض النِّيل. قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وَقْعَة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا. قالت: وكان من أحدث القوم سنًا، قالت: فنفخنا له قربةً، فجعلها في صدره، ثم سَبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النِّيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوّه والتّمكين له في بلاده.

قالت: فوالله إنّنا لعلّ ذلك متوقّعين لما هو كائن، إذ طلع الزبيرُ يسعى ويلوّح بثوبه، ويقول: ألا أبشروا، قد ظهر النجاشي، وقد أهلك الله عدوّه. فوالله ما علمتُ فرحنا فرحةً مثلها قطُّ.

قالت: فرجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوّه، ومكّن له في بلاده، واستَوْسَقَ عليه أمرُ الحبشة^(١)، فكُنّا عنده في خير منزلٍ حتى قدمنا على رسول الله ﷺ.

وقد روى جُمَل هذه القصة أبو داود في سننه^(٢) من حديث أبي موسى.

وفي الصّحيحين^(٣) من حديث ابن موسى، عن^(٤) أبي موسى، قال: بلَغْنَا مَخْرَجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا

(١) أي: اجتمعوا على طاعته. «النهاية» (وسق). وفي (و، ع): «واستوثق».

(٢) (٣٢٠٥)، وابن سعد (٩٨/٤)، وابن أبي شيبة (٣٧٧٩٥)، وعبد بن حميد (٥٥٠)، وغيرهم. وأعله البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/٢٩٩)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/٥٨٢). وانظر: «السير» (٢/٤٠٠)، و«البداية والنهاية» (٤/١٧٤)، و«الإصابة» (٦/٣٤٠)، و«فتح الباري» (٧/١٨٩).

(٣) صحيح البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣) والسياق له.

(٤) «ابن موسى عن» ساقط من (و) ولم تثبت ط. العاصمة، وتحرف في (ي، ع) إلى «أبي موسى عن»، وعلى الصواب في (د). وابن موسى هو أبو بردة.

أصغرهما في اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فآلقنا سفيتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. قال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا - يعني بالإقامة -، فأقيموا معنا. قال: فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً.

قال: فوافقنا رسول الله ﷺ^(١) حين فتح خيبر، فأسهم لنا منها، وما قسم لأحدٍ غائبٍ عن فتح خيبر غيرنا إلا لمن شهد معنا أصحاب سفيتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم.

قال: وكان ناس^(٢) من الناس يقولون لنا - يعني أهل السفينة -: سبقناكم^(٣) بالهجرة.

قال: ودخلت أسماء بنت عميس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، فقال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، نحن أحق برسول الله ﷺ، فغضبت وقالت: يا عمر، كلاً والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعط جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله ﷻ وفي رسول الله ﷺ، وإيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذي ونخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك.

(١) (د، ع): «حتى قدمنا جميعاً على رسول الله ﷺ».

(٢) الأصول: «فلما رأى ناس»، وكذلك وقع في مطبوعة «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٣٠)، وفي (٣٢/ ٣٢) على الصواب. والمثبت رواية الصحيح وعامة المصادر.

(٣) الأصول: «سبقناهم». وهو خطأ.

فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، إن عمر قال كذا وكذا، قال رسول الله ﷺ: «فماذا قلت له؟» قالت: قلت كذا وكذا، قال: «ليس بأحقّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني^(١) أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم ممّا قال رسول الله ﷺ.

قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيتُ أبا موسى وإنه ليستعيدُ هذا الحديث مني. أخرجاه في الصحيحين البخاري ومسلم^(٢).

وأخرجنا في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نعى لهم النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، قال: «استغفروا لأخيك»^(٣).

وعنه رضي الله عنه قال: نعى النبي ﷺ النجاشي يوم توفي، وقال: «استغفروا لأخيك»، ثم خرج بالناس إلى المصلّى، فصفّوا وراءه، وصلى عليه، وكبّر أربع تكبيرات. أخرجاه^(٤).

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ صلى على أضحمة النجاشي، فكبّر عليه أربعاً. أخرجاه في الصحيحين^(٥).

(١) ط. العاصمة: «يأتونني»، خلاف الأصول ورواية الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣) والسياق له.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٢٧)، ومسلم (٩٥١).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٣٣)، ومسلم (٩٥١).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٣٤)، ومسلم (٩٥٢).

فصل

وكان أول ما أنزل الله تعالى عليه ﷺ الوحي، عَرَضَتْ خديجةُ امرأته أمره على عالمٍ كبيرٍ من علماء النصارى يقال له: ورقةُ بن نوفل، وكان من العرب المنتصرة، فقال: هذا هو الناموسُ الذي كان يأتي موسى بن عمران، يا ليتني فيها جذعًا حين يُخْرِجُكَ قومُك. يعني: ليتني أكون شابًا؛ فإنه كان شيخًا كبيرًا قد كَفَّ بصره، فقال له النبي ﷺ: «أَوْمُخْرِجِيَّ هُم؟!» قال: نعم، لم يأت أحدٌ بمثل ما آتيت به إلا عُودِي، وإن يُدِرْكُنِي يَوْمُك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا. رواه أصحاب الصحيح^(١).

وقَدِمَ إليه بمكة طائفةٌ من أهل الكتاب من النصارى، فأمنوا به، فأذاهم المشركون، فصبروا واحتملوا أذاهم، فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ قَبْلِهِ هُم بِهِ يَوْمُونَ ٥٢ وَإِذَا يُنَادَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ٥٣ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥]^(٢).

وروى البيهقي في كتاب «دلائل النبوة وأعلام الرسالة»^(٣) عن أبي عبد الله الحاكم^(٤)، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار،

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) زادت ط. النيل: «وقصتهم مشهورة في كتب التفسير وغيرها».

(٣) (٣٠٦/٢).

(٤) (و): «ثنا الحاكم». وفي ط. النيل وما تلاها: «فقال أنبأنا أبو عبد الله الحافظ»، وكذلك مطبوعة «الدلائل» إلا أن فيها: «أخبرنا» موضع «أنبأنا».

حدثنا^(١) يونس، عن ابن إسحاق^(٢)، قال: ثم قَدِمَ على رسول الله ﷺ عشرون رجلاً وهو بمكة أو قريباً من ذلك من النصارى حين ظهر خبره في الحبشة، فوجدوه في المجلس، فكلموه وسألوه^(٣)، ورجالٌ من قريش في أندية حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ^(٤) إلى الله^(٥)، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدَّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصفُ لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفرٍ من قريش، فقالوا: خيِّبكم الله من ركبٍ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون^(٦) لهم، فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصدَّقتموه بما قال لكم، ما نعلم^(٧) ركباً أحق منكم. أو كما قال لهم. فقالوا: سلامٌ عليكم، لا نجَاهِلُكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألو لأنفسنا إلا خيراً. ويقال - والله أعلم -: إن^(٨) فيهم نزلت هؤلاء^(٩) الآيات: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكَ الْكُفْرِ أَفْوَاجًا﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) كذا وقعت صيغة السماع في الأصول و«الدلائل» في المواضع الثلاثة. وفي ط. النيل وما بعدها: «أنبأنا».

(٢) في «السيرة» (٢٨٧).

(٣) ط. العاصمة: «وسألوه»، خلاف الأصول و«السيرة» و«الدلائل».

(٤) من قوله: «عما أرادوا» إلى هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٥) «إلى الله» ليست في (د، ي، ع).

(٦) (د، ي، ع): «لترتادوا».

(٧) (د، ع): «لا نعلم».

(٨) «والله أعلم إن» ليست في (د، ي، ع).

(٩) (د، ي، ع) وسيرة ابن إسحاق: «هذه».

[فصل]

ولمّا كان بعد عام الحديبية ومهادنة قريش أرسل ﷺ رسله إلى جميع الطوائف^(١)، فأرسل إلى النصارى نصارى الشام ومصر، فأرسل إلى هرقل ملك الروم.

وقد قيل: إن هرقل هذا هو الذي زادت النصارى له في صومهم عشرة أيام لمّا اقتلت الروم والفرس، وقتل اليهود بعد أن كان قد أمّنهم، فطلبت منه النصارى قتلهم، وضمّنوا له أن يكفّروا خطيئته بما زادوه في الصوم^(٢).

وكانت الفرس مجوسًا، والروم نصارى، وكانت المجوسُ الفرس غلبت النصارى أولًا، وكان هذا في أوائل مبعث النبي ﷺ وهو بمكة وأتباعه قليل، ففرح المشركون بانتصار الفرس؛ لأنهم أقرب إليهم من أهل الكتاب، واستاء^(٣) المسلمون لذلك، فدخل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ، وأخبره بانتصار الفرس على الروم، فأنزل الله تعالى: ﴿الْم ۝ غَلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي آدَنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ۝﴾ [الروم: ١ - ٥]^(٤).

(١) انظر: «الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصره» لعز الدين إبراهيم (٢٤٩/٦ - ٢٨٤، بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية بالدوحة).

(٢) قيل: إنهم زادوا في صيامهم جمعة. انظر: «تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل» لأبي البقاء الهاشمي (٥٩٦/٢)، و«إغاثة اللفهان» (١٠٦٦/٢)، و«الخطط» للمقريزي (٤٠٦/٤). وذكر ابن كثير في تفسيره (٤٨/٣) أن قسطنطين من ملوك اليونان زاد في صيام النصارى عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه.

(٣) لم تحرر في (و، ي). (د، ع): «واستاء». ط. النيل: «وساء المسلمين ذلك».

(٤) سياقي سياقه وذكر أسانيده ورواياته.

وكان هذا ممّا أخبر به النبي ﷺ قبل^(١) أن يكون، فكان كما أخبر، ولمّا ذكر ذلك^(٢) أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه كذبوه، فراهنهم أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه، كما ذكر هذا المفسّرون والمحدّثون.

قال سُنيّد^(٣) في تفسيره - وهو شيخ البخاري - : حدثنا حجاج، عن ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مُكرّم الأسلمي أنه قال: لمّا أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ خرج أبو بكر وهو يقرأها بمكّة رافعاً بها صوته: ﴿أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ ^(١) فِي آذَنِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ^(٢) فِي بَضْعِ سَنِينَ، فقال له رؤوس أهل مكة: ما هذا يا ابن أبي قحافة؟ لعله^(٤) ممّا يأتي به صاحبك، قال: لا والله، ولكنه كلام الله وقوله^(٥) ﷺ، قالوا: فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس في بضع سنين، فراهنهم أبو بكر، ففتح الله للروم على فارس في بضع سنين^(٦) دون التسع، فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين.

قال ابن مُكرّم: وإنما كانت قريش تستفتح يومئذ بالفُرس لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث وأهل أصنام، وإنما كان^(٧) المؤمنون يستفتحون يومئذ

(١) (د، ع): «من قبل».

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) (ع): «سفيان». (د): «سفين». وهو خطأ.

(٤) (د، ع): «لعل هذا».

(٥) (د، ع): «وقول الله».

(٦) «في بضع سنين» ليست في (و، ي)، والكلمتان بعدها ليستا في (د، ع).

(٧) (و، ي): «كانوا».

بِالرُّومِ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ نَبْوَةٍ وَتَصْدِيقٍ بِالْبَعْثِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ
يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ نِصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

وهذا الحديث رواه الترمذي في جامعه (٢)، فقال: حدثنا محمد بن
إسماعيل (٣)، حدثنا إسماعيل بن أبي أُويس، قال: حدثني ابن أبي الزناد، عن
أبي الزناد، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت:
﴿الْم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾
فِي بَضْعِ سَنِينَ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للرُّوم، وكان
المسلمون يحبُّون ظهور الرُّوم عليهم؛ لأنهم وإيَّاهم أهل كتاب، وذلك قوله
تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ نِصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وكانت قريش تحبُّ ظهور فارس؛ لأنهم وإيَّاهم ليسوا بأهل
كتاب ولا إيمانٍ ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)
يصيحُ في نواحي مكة: ﴿الْم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ فِي بَضْعِ سَنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، قال

(١) إسناده حسن. ورواه من طريق حجاج عن ابن أبي الزناد مختصراً ابن قانع في «معجم
الصحابة» (١٠٦/٢) بسند تالف.

(٢) (٣١٩٤). وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١١٦، ١٢١٠)، وابن خزيمة في «التوحيد»
(١/٤٠٤)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٧/٤٤٢)، وغيرهم من طرق عن ابن
أبي الزناد به مختصراً ومطولاً، وصحح إسناده البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/
٥٨٥)، وهو مقتضى تخريج ابن خزيمة له دون تعليل، وقال ابن حجر في «الإصابة»
(١١/١٤٥): «رجال السند ثقات». وفي ابن أبي الزناد كلام، لكن تصحيح الترمذي
وغيره حديثه هذا يدل على أنه ليس فيه ما ينكر، وقد حدث به في المدينة، وذلك من أصح
حديثه. انظر: آثار العلامة المعلمي (١١/٥٣-٥٧).

(٣) الإمام البخاري، وهو في «التاريخ الكبير» (٨/١٣٩).

ناسٌ من قريش^(١) لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستَغلبُ فارسَ في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ فارتهن أبو بكر والمشركون، فظهرت الروم على فارس في بضع سنين، وأسلم عند ذلك ناسٌ كثيرٌ من المشركين.

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد». يعني غريباً من هذا الوجه^(٢)، وإلا فهو مشهورٌ متواترٌ عند^(٣) أهل التفسير والمغازي والحديث والفقهاء^(٤)، والقصة متواترةٌ عند الناس^(٥).

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيره^(٦): عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس أنه قال: كان المسلمون يحبُّون أن تغلبَ الرومُ على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبُّون أن تغلبَ أهلُ فارس؛ لأنهم أهل أوثان.

قال: فذكروا ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر^(٧) للنبي ﷺ، فأنزل الله:

﴿الْمَغْلَبَةُ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلَبُونَ ۝﴾

(١) «من قريش» ليست في (د، ع).

(٢) وكذا قال الدارقطني في «الغرائب والأفراد» (١ / ٤١ - أطرافه): غريب من حديث عروة عن نيار، تفرد به أبو الزناد عنه، ولم يروه عنه غير ابنه عبد الرحمن.

(٣) ط. العاصمة: «عن»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) (د، ع): «عند أهل التفسير والفقهاء والمغازي والحديث».

(٥) قال ابن كثير في تفسيره (٦ / ٢٩٩): «روي نحو هذا مرسلاً عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة والسدي والزهري وغيرهم».

(٦) (١٨ / ٤٤٧) من طريق محمد بن أسعد التغلبي عن أبي إسحاق الفزاري عن سفيان، والتغلبي ضعيف، لكنه توبع على أصل الحديث، كما سيأتي.

(٧) (د، ع): «فذكر ذلك».

فِي بَضْعِ سِنِينَ^١ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
 فذكره أبو بكرٍ للمشرّكين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن غلبوا كان لك
 كذا وكذا، وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا، فجعلوا بينهم أجلاً خمس سنين، فذكر
 ذلك أبو بكرٍ للنبي ﷺ، فقال له: «هَلَّا احْتَطَّتْ، أَفَلَا جَعَلْتَهُ دُونَ الْعَشْرِ؟»^(١).

قال سعيد بن جبیر: والبضْعُ ما دون العشر.

قال: فغلبت الروم^(٢)، ثم غلبت، فذلك قوله: ﴿الْمَ ۝١ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾
 الآية.

وهذا أيضاً أخرجه الترمذي^(٣) عن الحسين بن حريث، حدثنا معاوية بن
 عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن
 سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب، إنما
 نعرفه من حديث سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة.

ورواه أيضاً^(٤) من حديث الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن
 ابن عباس، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.

(١) لفق المصنف بين متن هذه الرواية ورواية الزهري الآية.

(٢) ليست في (د، ع).

(٣) (٣١٩٣)، وأحمد (٢٤٩٥)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٤٥)، والنسائي في
 «الكبرى» (١١٣٢٥) وغيرهم. وإسناده على شرط الصحيح كما قال ابن القيم في
 «الفروسيّة» (١٤٥)، وصححه الحاكم (٤١٠/٢) على شرط الشيخين ولم يتعقبه
 الذهبي، وخرجه الضياء في «المختارة» (١٠/١٤٤).

(٤) (٣١٩١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٧/٤٤١) وغيرهما من طريق عبد الله بن
 عبد الرحمن الجمحي عن الزهري به. قال الدارقطني في «العلل» (١/٢١٢): «وغيره
 يرويه عن الزهري مرسلاً، وعبد الله الجمحي ليس بالقوي، والمرسل أشبه بالصواب». وخفي ذلك على الحافظ الضياء فخرجه في «المختارة» (١١/١٥٨).

ورواه أيضًا^(١) من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر. وذهب آخرون إلى أنه يوم الحديبية، وهذا هو الصحيح^(٢).

وهرقل كان قد مشى شكرًا لله من حمص إلى بيت المقدس، شكرًا لله^(٣) لما نصره على الفرس، فوافاه كتابُ النبي ﷺ يدعوهُ إلى الإسلام عقيب^(٤) نصرِ الله للروم على فارس، ففرح النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين.

قال علماء السير: فلما انتصرت الروم، وخرج هرقل ملك الروم من منزله من حمص ماشيًا على قدميه إلى بيت المقدس، متشكرًا^(٥) لله ﷻ حين ردَّ عليه ما ردَّ^(٦)؛ ليصلِّي فيه، فلما انتهى إلى بيت المقدس وصلَّى فيه قدم عليه حينئذ كتابُ رسول الله ﷺ مع دحية الكلبي يدعوهُ إلى الإسلام.

قال ابن إسحاق^(٧): حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن عباس، قال: حدثني أبو سفيان، قال: كنا قومًا تجارًا،

(١) (٢٩٣٥، ٣١٩١)، وابن جرير (٤٥٧/١٨)، وعطية العوفي ضعيف.

(٢) انظر: «النكت والعيون» (٢٩٨/٤)، و«البيسط» (١٤/١٨)، و«الفروسية» لابن القيم (١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٣٠٤/٦).

(٣) كذا تكررت جملة الشكر في الأصول. وحُذفت من ط. النيل والعاصمة.

(٤) (و): «عقيب».

(٥) (ع، د): «مستشكرًا».

(٦) (ي): «ورد عليه ما ورد».

(٧) أخرجه من طريقه ابن جرير في «تاريخ الرسل والملوك» (٦٤٦/٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٨١/٤).

وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حَصَرَتْنَا حتَّى قَدْ (١) هَلَكْتَ أَمْوَالُنَا، فَلَمَّا كَانَتِ الْهَدَنَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - يَعْنِي الَّتِي عُقِدَتْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ -، فَلَمَّا عُقِدَتِ الْهَدَنَةُ أَمِنَّا، فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قَرِيشٍ تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ وَجْهَ مَتَّجِرْنَا، فَقَدِمْتُهَا حِينَ ظَهَرَ هِرَقْلُ عَلَى مَنْ كَانَ عَارِضَهُ مِنْ فَارَسٍ، فَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا، وَانْتَزَعَ لَهُ صُلَيْبُهُ الْأَعْظَمَ، وَقَدْ كَانُوا سَلَبُوهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَبَلَغَهُ أَنَّ صُلَيْبَهُ قَدْ اسْتُنْقِذَ (٢) لَهُ، وَكَانَتْ حِمَاصُ مَنْزِلِهِ، فَخَرَجَ مِنْهَا عَلَى قَدَمَيْهِ مَتَشَكِّرًا لِلَّهِ ﷻ حِينَ رَدَّ عَلَيْهِ مَا رَدَّ؛ لِيَصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَبُسِطَ لَهُ الطَّرِيقُ بِالْبُسْطِ وَتُلْقَى عَلَيْهَا الرِّيحَاتُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى إِيلِيَاءٍ وَقَضَى فِيهَا صَلَاتَهُ وَمَعَهُ بَطَارِقَتُهُ وَأَسَاقِفَتُهُ الرُّومِ، قَالَ: وَقَدِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَ دِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدْيَ. أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمَ يُوْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنْ عَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ» يَعْنِي: الْأَكَّارِينَ (٣).

قال ابن إسحاق (٤): وقال ابن شهاب: حدثني أُسْقُفُ النَّصَارَى فِي زَمَانِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، زَعَمَ لِي أَنَّهُ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرِ هِرَقْلَ، وَعَقَلَهُ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَ دِحْيَةَ أَخَذَهُ فَجَعَلَهُ عَلَى خَاصِرَتِهِ (٥)، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى رَجُلٍ بَرْوَمِيَّةٍ كَانَ يَقْرَأُ مِنَ الْعِبْرَانِيَةِ مَا يَقْرَأُ، يَذْكُرُ

(١) (و، ع): «حتَّى هَلَكْتَ».

(٢) (د، ع): «استُنْقِذَ».

(٣) وَهُمْ الْفَلَاحُونَ وَالزُّرَّاعُ. «النهاية» (أرس، أكر). وَلَمْ يَرِدِ التَّفْسِيرُ فِي (ي، د، ع). وَرَوَايَةُ ابْنِ إِسْحَاقَ: «إِنْ إِثْمُ الْأَكَّارِينَ عَلَيْكَ». أَمَّا ذِكْرُ «الْأَرِيسِيِّينَ» فَفِي رَوَايَةِ الصَّحِيحِ الْآتِيَةِ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِهِ. انْظُرْ: «فتح الباري» (١/٣٩).

(٤) تَمَّةُ خَبَرِهِ السَّابِقِ.

(٥) فِي مَصَادِرِ الْخَبَرِ: «فَجَعَلَهُ بَيْنَ فَخْذَيْهِ وَخَاصِرَتِهِ».

له أمره، ويصف له شأنه، ويخبره ما جاء منه. قال: فكتب إليه صاحب رومية أنه النبي الذي نتظره لا شك فيه، فأتبعه وصدقه. فأمر هرقل ببطارقة الروم، فجمعوا له في دسكرة ملكه^(١)، وأمر بها فأُشْرِجَتْ^(٢) عليهم أبوابها، ثم اطلع عليهم من عليّة، وخافهم على نفسه، وقال: يا معشر الروم إني قد جمعتكم لخبير^(٣)، إنه قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله للرجل الذي كنّا نتظر ونجد في كتبنا، فهلّم فلتتبعه ولنصدقه^(٤)، فتسلم لنا ديانا وآخرتنا، فنخروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها، فوجدوها قد أُغْلِقَتْ دونهم، فقال: كُروهم عليّ، وخافهم على نفسه، فكُروا عليه، وقال: يا معشر الروم، إنما قلت لكم هذه المقالة التي قلت لكم لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي حَدَثَ، فقد رأيت منكم الذي أُسْرُبُه، فوقعوا سجودًا، وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم، فانطلقوا.

وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق، وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن، حفظ ما لا يحفظه غيره.

قال ابن إسحاق: وأخذ هرقل كتاب رسول الله ﷺ، فجعله في قصبية من ذهب، وأمسكها عنده، تعظيمًا له^(٥).

(١) الدسكرة: بناء على هيئة القصر. «النهاية» (دسكر).

(٢) أي: أغلقت. لعلها من «أُشْرِجَتْ العيبة إذا شددتها بالشرج، وهي العرى». «النهاية» (شرح). وهي مهملة في (ي)، وفي (د، ع): «فاسترخت»، وفي مطبوع معجم الطبراني: «فأُشْرِجَتْ». والمثبت من (و) يوافق ما في تاريخ ابن جرير والدلائل.

(٣) ط. النيل والعاصمة: «الخير»، خلاف الأصول ومصادر الخبر.

(٤) (د، ع): «ونصدقه». وفي ط. العاصمة: «لنصدقه»، وهو خطأ.

(٥) لم أقف عليه من قول ابن إسحاق. وقال السهيلي في «الروض» (٧/ ٣٦٥): «روي أن هرقل وضع كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب إليه في قصبية... فذكره».

وهذه القصّة مشهورةٌ ذكرها أصحاب الصّحاح.

ففي البخاريّ ومسلم^(١) -والسياق للبخاريّ- عن الزهري، قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس أخبره، أن أبا سفيان بن حرب أخبره، أن هرقل أرسل إليه في ركبٍ من قريش، وكانوا تجّارًا بالشّام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ^(٢) فيها أبا سفيان بن حرب وكفّار قريش، فأتوه وهو بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الرّوم، ثم دعاهم بالترجمان، فقال: أيكم أقربُ نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كذّبتني فكذبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ الكذب لكذبتُ عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول أحدٌ منكم قطُّ قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشرافُ النّاس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. فقال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدُّ منهم أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدّةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها. قال: ولم يمكنني كلمةٌ أُدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إيّاه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجالٌ، ينال مناّ وننال منه. قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصّلاة والصّدق

(١) صحيح البخاري (٧، ٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) أي: أطال. «النهاية» (مدد). وفي (ي): «هادن»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة دون تنبيه. وضرب عليها ناسخ (و) وكتب الصواب.

والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تُبعث في أنساب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان في آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطاً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن^(١) أنه منكم، فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية الكلبي إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من أتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين^(٢)»، و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

(١) (د، ع): «أظنه»، وهي رواية مسلم. والمثبت من (ي، و) رواية البخاري.

(٢) كذا في الأصول، وهي من روايات البخاري. وفي مسلم: «اليريسيين».

نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا
فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة؛ إنه ليخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

وكان ابن الناطور^(١) صاحب إيلياء أسقفًا على نصارى أهل الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يومًا خبيث النفس، فقال له بعض بطارقه: قد استنكرنا هيئتك. قال ابن الناطور: وكان هرقل حَزَاءً^(٢) ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم أن ملك الختان قد ظهر، فمن يختن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب^(٣) إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبينا هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدّثوه أنه مختن، وسأله عن العرب قال: هم يختنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان هرقل نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص^(٤) حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق

(١) هو أسقف النصاري الذي حدّث الزهري، وكان في زمن عبد الملك بن مروان، كما مرّ في رواية ابن إسحاق.

(٢) أي: كاهنًا. والحزاء: الذي يحزو الأشياء ويقدرها بظنه. وقيل للذي ينظر في النجوم: حَزَاءً؛ لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه. «النهاية» (حزأ).

(٣) (د، ع): «وابعث». والمثبت من (ي، و) رواية البخاري.

(٤) أي: لم يفارقها. وسقطت «فلم يرم حمص» من ط. العاصمة.

رَأَى هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعِظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةِ
لَهُ بِحِمَصٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فُغِّلَتْ، ثُمَّ أَطْلَعَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ
لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبِتَ مَلِكُكُمْ فَتَتَابِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ
حُمْرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ وَيَسَّ
مِنَ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أُخْتَبِرُ بِهَا
شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَلَيْهِ، فَكَانَ هَذَا آخِرَ شَأْنِ
هِرَقْلَ.

قلت: وكان هِرَقْلُ من أَجَلِّ ملوك النَّصَارَى في ذلك الوقت، وقد أَخْبَرَ غير
واحدٍ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ إِلَى الْآنَ بَاقٍ عِنْدَ ذُرِّيَةِ هِرَقْلَ فِي أَرْفَعِ صُؤَانٍ وَأَعَزِّ مَكَانٍ،
يَتَوَارَثُونَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَأَخْبَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ بَاقٍ إِلَى الْآنَ ^(١) عِنْدَ
الْفُنْشِ ^(٢) صَاحِبِ قَشْتَالَةِ وَبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، يَفْتَخِرُونَ بِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَشْهُورٌ
مَعْرُوفٌ ^(٣).

قال شارح «السيرة» -وهو أبو القاسم السهيلي-: وَضَعَ هِرَقْلُ كِتَابَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قِصْبَةٍ مِنْ ذَهَبٍ تَعْظِيمًا لَهُ. وَأَنَّهُمْ يَتَوَارَثُونَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ فِي
أَرْفَعِ صُؤَانٍ وَأَعَزِّ مَكَانٍ، حَتَّى كَانَ عِنْدَ أَذْفُونِشِ الَّذِي تَغَلَّبَ عَلَى طَلَيْطَلَةَ،

(١) (ي): «إِلَى الْآنَ بَاقٍ». (د، ع): «بَاقٍ الْآنَ».

(٢) الْأَذْفُونِشُ أَوْ الْأَفُونِسُو السَّادِسُ، مِنْ ذُرِّيَةِ هِرَقْلَ، صَلِيبِيٍّ مُحَارِبٍ لِلْإِسْلَامِ، كَانَ لَهُ دَوْرٌ
كَبِيرٌ فِي إِذْكَاءِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ مَلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَوْلَى عَلَى طَلَيْطَلَةَ عَاصِمَةِ قَشْتَالَةِ
Castilla شَمَالِ غَرْبِ أَسْبَانِيَا سَنَةِ ٤٧٨، ثُمَّ هَزَمَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي مَعْرَكَةِ الزَّلَاقَةِ الْمَشْهُورَةِ
سَنَةِ ٤٧٩. انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ١٧٠، ٣٢٠).

(٣) ذَكَرَهُ الْيَسَعَ بْنُ عِيسَى بْنِ حَزْمٍ، وَالسَّهِيلِيُّ، وَابْنُ فَضْلِ اللَّهِ الْعَمْرِيُّ، وَغَيْرُهُمْ. انظر:
«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٠/ ٤٧٦)، و«التعريف بالمصطلح الشريف» لابن فضل الله
(٩١)، و«المصباح المضي» لابن حديد (٢/ ٩٦)، و«صبح الأعشى» (٨/ ٣٥)، و«فتح
الباري» (١/ ٤٤).

ثم كان عند ابن بنته المعروف بالسُّلَيْطِين^(١).

قال السُّهيلي: وحدثني بعض أصحابنا من أجناد المسلمين كان يُعرف بابن سعيد أنه رآه عندهم. قال: فأردتُ تقبيله وأخذه بيدي، فمنعوني من ذلك صيانةً له وضناً عليّ به^(٢).

وقال الشيخ أبو عبد الله^(٣) محمّد بن أحمد بن إسماعيل الأنصاري الجزري^(٤) المغربي: وصل هذا الكتاب إلى إشبيلية عام ثمانية وستمئة واربعة وأربعين^(٥) على إمام [المسلمين] الناصر^(٦) أمير المؤمنين من الببّوج^(٧) ملك ليون^(٨)، مفتخرًا به ومتشرفًا بوراثته، وهو اليوم بيد ولده فرناندو^(٩) وارثه ووارث أمّه بنت أذفونش^(٩) صاحب قشتالة، وبلاد الأندلس اليوم بيده، كقرطبة، وإشبيلية، وجيّا، وما أخذ أخذها.

قلت: وقد حدثني أيضًا من رأى هذا الكتاب عندهم إلى الآن^(١٠).

(١) أي الملك الصغير؛ لأنه تولى ملك ليون وقشتالة ولمّا تجاوز الحادية والعشرين. انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٣/ ١٢٨).

(٢) «الروض الأنف» (٧/ ٣٦٥).

(٣) كتب النَّاسخ: «محمّد» ثم ضرب عليه، ولم أعرف ترجمته.

(٤) كذا في الأصل، ولعله «الخزرجي».

(٥) محمّد بن الإمام المنصور (ت: ٦١٠). «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/ ٢٤٩).

(٦) لقب فرناندو الثاني، بالقشتالية El-Baboso، ومعناه: كثير اللّعب، الأبله. انظر:

«المعجب» للمراكشي (٢٣٥)، و«دولة الإسلام في الأندلس» (٣/ ٣٩٤).

(٧) من مدن قشتالة Castilla شمال غرب أسبانيا. انظر: «الروض المعطار» (٥١٤).

(٨) (ت): «فراغه». تحريف. وهو فرناندو الثالث ملك قشتالة.

(٩) (ت): «بنت أذفونش في ملك أذفونش». ولعله من سهو النَّاسخ.

(١٠) من أول النقل عن السُّهيلي إلى هنا وقع لحقًا في طرة الأصل (ت) مختومًا بعلامة

التصحيح، وليس في الأصول الأخرى. ولم تثبت ط. النيل والعاصمة. ولعله مما ألحقه

شيخ الإسلام بأخرة. وقد صرح بالنقل عن شرح «السيرة» للسُّهيلي في موضع آخر.

انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٢٤).

وقد روى سُنيْد^(١) - وهو شيخ البخاري - في تفسيره، قال: حدثنا هُشَيْم^(٢)، قال: أخبرنا حُصَيْن، عن عبد الله بن شدّاد بن الهاد، قال: لَمَّا كَتَبَ رسول الله ﷺ إلى هِرَقل، فقرأ كتابه، وجمع الرُّوم، فأبوا عليه، قال: فلمَّا كان يوم الأحد لم يحضر أُسْقُفُهُم الكبير^(٣)، وتَمَارِض، فأرسل إليه، فأبى، ثم أرسل إليه، فأبى، ثلاث مرَّات، فركب إليه، فقال له: أليس قد عرفتَ أنه رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: أليس قد رأيتَ ما ركبوا مني؟ فأنت أطوعُ فيهم مني، فتعال فادعهم، قال: وتأذن لي في ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب هو ذا أجيء، قال: فجاء بسواده إلى كنيستهم العظمى، فلمَّا رأوه خرُّوا له سجَّداً الملكُ وغيره، فقام في المذبح فقال: يا أبناء الموتى، هذا النبيُّ الذي بشرَّ به عيسى، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله، فنَخَرُوا، ووثبوا إليه، فعَضُّوه بأفواههم حتى قتلوه، قال: وجعلوا يُخرجون أضلاعه بالكلبتين^(٤) حتى مات^(٥).

(١) مهملة في (ي، د). وتحرف في (ع) إلى «مسدد».

(٢) الأصول: «هشام»، وهو خطأ. هشيم بن بشير الواسطي، وحصين بن عبد الرحمن السلمي.

(٣) اسمه: ضَغَاطِر. وهو الرجل الذي كان برومية وكتب إليه هرقل. انظر: «فتح الباري» (٤٣/١)، و«الإصابة» (٣٦٩/٥).

(٤) أداة يأخذ بها الحدَّاد الحديد المحمَّى، وأداة تقلع بها الأسنان. وهي عربية قديمة، وليست مولدة كما توهم الزُّبيدي في «لحن العوام» (١٨٨). انظر: «تهذيب اللغة» (٤٠٧/٩)، و«المدخل إلى تقويم اللسان» لابن هشام (٤٧).

(٥) وأخرجه من طريق حصين عن عبد الله بن شدّاد بن الهاد سعيد بن منصور في «السنن» (٢٢٣/٢)، وهو مرسلٌ جيد. ورواه عن عبد الله بن شدّاد عن دحية الكلبي رضي الله عنه البزار (٢٣٧٤ - كشف الأستار)، والطبراني في «الكبير» (٢٢٥/٤)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٤٠) بسند ضعيف كما قال ابن حجر في «الفتح» (٣٧/١)، وانظر: «مجمع الزوائد» (٢٣٧/٨، ٣٠٩/٥).

وللخبر شاهد من حديث ابن إسحاق مرسلًا عند الطبري في «التاريخ» (٦٥٠/٢)، وأبي نعيم في «دلائل النبوة» (٥٣).

فصل

وأرسل النبي ﷺ رسولاً أيضاً إلى ملك مصر المَقَوْس ملك النصارى في ذلك الوقت بالإسكندرية، وكان رسوله إليه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

قال حاطب: قدمتُ على المَقَوْس - واسمه جُرَيْج^(١) بن مينا - بكتاب رسول الله ﷺ، فقلت له: إنه كان قبلك رجلٌ يزعمُ أنه الربُّ الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبرَ بغيرك ولا يُعتبر بك. قال: هات. قلت: إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خيرٌ منه، وهو الإسلام الكافي بعد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس إلى الله، فكان أشدُّهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكلُّ من أدرك نبياً فهو من أمته، فالحقُّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممَّن أدرك^(٢) هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به.

ثم ناوله كتاب رسول الله ﷺ، فلمَّا قرأه قال: خيراً، قد نظرتُ في هذا فوجدته لا يأمر بمزهودٍ فيه ولا ينهى عن مرغوبٍ فيه، ولم أجده بالسَّاحر الضالَّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة. ثم جعل الكتاب في حُقِّ عاج، وختم عليه، ودفعه إلى خازنه، وكتب جوابه إلى رسول الله ﷺ: قد علمتُ أن نبياً^(٣) قد بقي، وقد أكرمتُ رسولك.

وأهدى للنبي ﷺ جاريتين، وبغلة تسمى: الدُّلُّل، فقبل النبي ﷺ هديته، واصطفى الجارية الواحدة - واسمها: مَارية القبطية - لنفسه، فولدت منه

(١) (ت، د، ي، و): «جريح». وأثبتته ط. العاصمة، وهو خطأ.

(٢) (ي، و): «أدركت».

(٣) (د، ع): «نبينا»، وهو خطأ.

إبراهيم، وأعطى الأخرى لحسان بن ثابت، فولدت منه عبد الرحمن، وعاشت البغلة إلى زمن معاوية.

فقال النبي ﷺ: «ضَنَّ الخبيثُ بمُلْكِهِ، ولا بقاء لمُلْكِهِ»^(١).

قال محمد بن سعد^(٢): حدثنا محمد بن عمر^(٣)، قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّةِ في ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة، بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى الْمُقَوْسِ الْقِبْطِيِّ صاحب الإسكندرية، وكتب إليه معه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، فلمَّا قرأ الكتاب قال له خيرًا، وأخذ الكتاب، وكان مختومًا، فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى خازنه^(٤)، وكتب إلى النبي ﷺ جواب كتابه، ولم يُسَلِّمْ، وأهدى إلى النبي ﷺ ما تقدَّم ذكره^(٥).

(١) انظر: «الروض الأنف» (٥١٧/٧)، و«عيون الأثر» (٣٣٢/٢).

وأخرجه ابن سعد (٢٢٢/١، ٢٢٤) بنحو سياقه مختصرًا عن الواقدي من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

وأصل الخبر مروى من وجوه مرسلة وموصولة يثبت بها. انظر: المنتخب من كتاب «أزواج النبي ﷺ» للزبير بن بكار (٥٥)، و«فتوح مصر» لابن عبد الحكم (٦٥)، و«شرح مشكل الآثار» (٤٠٢/٦)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣٩٥/٤). وقال ابن حجر في «الإصابة» (٥٦٧/١٠): «إهداء المقوقس إلى رسول الله ﷺ وقبوله هديته مشهورٌ عند أهل السَّير والفتوح».

(٢) في «الطبقات» (١١١/١)، والحرث بن أبي أسامة في مسنده ومن طريقه ابن الجوزي في «المنتظم» (٢٧٥/٣).

(٣) الواقدي.

(٤) (ي): «جاريته»، وتحرف كذلك في بعض المصادر.

(٥) مرسل، جعفر بن عبد الله بن الحكم الأنصاري (والد عبد الحميد) تابعي ثقة، وله شواهد كثيرة سلفت الإشارة إليها.

فكُلُّ مِنَ الْمَلِكِينَ^(١) عَظَّمَ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وتواضع له ولكتابه، واعترف بأنه الرسول المنتظر الذي بَشَّرَتْ به الأنبياء عليهم السَّلام.

وقد كان الْمُقَوْقِسُ يعرف أنه حَقٌّ بما يسمعُ من صفاته من أهل الكتاب، ولكنَّ ضَنْنَ بِمُلْكِهِ ولم يؤمن، وكان قد خرج إليه المغيرة قبل إسلام المغيرة فحدَّثه بذلك.

قال مُحَمَّد بن عمر الواقدي^(٢): حدَّثني مُحَمَّد بن سعد الثقفي، وعبد الرحمن بن عبد العزيز، وعبد الملك بن عيسى، وعبد الله بن عبد الرحمن ومُحَمَّد بن يعقوب بن عتبة عن أبيه، وغيرهم، كُلُّ قد حدَّثني من هذا الحديث بطائفة^(٣)، قال: قال المغيرة بن شعبة في خروجه إلى الْمُقَوْقِس مع بني مالك، وأنهم لَمَّا دخلوا على الْمُقَوْقِس، قال: كيف خلصتم إليَّ من طائفتكم ومُحَمَّد وأصحابه بيني وبينكم؟ قالوا: لَصِقْنَا بِالْبَحْرِ، وقد خفناه على ذلك. قال: فكيف صنعتُم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه مِنَّا رجلٌ واحد. قال: ولم ذاك؟ قالوا: جاءنا بدينٍ مُجَدِّدٍ^(٤) لا تدينُ به الآباء ولا يدينُ به المَلِك، ونحن على ما كان عليه آبائنا. قال: فكيف صنع قومُه؟ قالوا: تبعه أحداثهم، وقد لاقاه من خالفه^(٥) من قومِه وغيرهم من العرب في مواطن مرَّةً تكون عليهم الدائرة ومرَّةً تكون له. قال: ألا تخبروني إلى ما ذا يدعو إليه؟ قالوا: يدعوننا إلى أن نعبد الله

(١) هرقل، والمقوقس.

(٢) ومن طريقه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤٥)، وهو مرسل، لم يدرك شيوخ الواقدي وهم من أتباع التابعين المغيرة رضي الله عنه.

(٣) (ت، و): «بطائفة منه».

(٤) جديد. وفي مطبوعة «دلائل النبوة»: «محدث». والمثبت من الأصول، وكذلك هو في «إمتاع الأسماع» (٣/٣٦٢)، و«المصباح المضي» (٢/١٢٠).

(٥) ط. العاصمة: «خلفه»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

وحده لا شريك له، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا^(١)، ويدعو إلى الصلاة والزكاة. قال: وما الصلاة والزكاة؟ ألها وقتٌ يُعرفُ وعددٌ تنتهي إليه؟ قالوا: يصلُّون في اليوم واللييلة خمسَ صلواتٍ كُلُّها لمواقيتٍ وعددٍ قد سمَّوه له، ويؤدُّون من كلِّ ما بلغ^(٢) عشرين مثقالاً نصفَ مثقالٍ، وأخبروه بصدقة الأموال كُلِّها. قال: أفرأيتم إذا أخذها أين يضعُها؟ قالوا: يرُدُّها على فقرائهم، ويأمر بصلة الرَّحم ووفاء العهد، وتحريم الزَّنا والخمر، ولا يأكل ممَّا ذبح لغير الله، فقال المُقَوِّس: هذا نبيُّ مرسلٌ إلى النَّاسِ، ولو أصاب القِبْطَ والرُّومَ اتَّبَعُوهُ، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم، وهذا الذي تصِفون منه بُعِثَ به الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى الخُفِّ والحافر ومنقطع البحور، ويوشك قومه أن يدافعوه بالراح^(٣).

قالوا: فلو دخل النَّاس كلهم معه ما دخلنا.

قال المغيرة: فأنغض المُقَوِّس رأسه، وقال: أنتم في اللَّعب، ثم قال: كيف نسبُه في قومه؟ قلنا: هو أوسطهم نسباً. قال: كذلك -والمسيح- الأنبياء تُبعثُ في نسب قومها. ثم قال: فكيف صدقُ^(٤) حديثه؟ قال: قلنا: ما يسمَّى إلا الأمين من صدقه. قال: انظروا في أمركم، أترونها يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله؟! قال: فمن تبعه؟ قلنا: الأحداث. قال: هم -والمسيح- أتباع الأنبياء قبله. قال: فما فعلت يهودُ يثرب، فهم أهل التَّوراة؟ قلنا: خالفوه، فأوقع بهم فقتلهم

(١) (و، ي): «الآباء».

(٢) (و): «مال بلغ»، وكذلك في مطبوعة «دلائل النبوة». والمثبت من سائر الأصول والمصادر أجود.

(٣) جمع راحة، وهي الكف. وفي مطبوعة الدلائل: «بالرماح»، وهو تحريف.

(٤) ليست في (و، ع، ي، د). وهي في (ت) والمصادر.

وسباهم وتفرّقوا في كلّ وجه^(١). قال: هم قومٌ حَسَدَةٌ^(٢) حسدوه، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف.

قال المغيرة: فقمنا من عنده، وقد سمعنا كلامًا ذلّلنا لمحمّد ﷺ وخضعنا له، وقلنا: ملوك العجم يصدّقونه ويخافونه في بُعد أرحامهم منه، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه وقد جاءنا داعيًا إلى منازلنا!

قال المغيرة: فرجعتُ إلى منزلنا، فأقمتُ بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها، وسألتُ أساقفتها من قبْطِها ورؤومها عمّا يجدون^(٣) من صفة محمّد ﷺ، وكان أسقفٌ من القبط هو رأسُ كنيسة يُوَحَنَس^(٤) كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم لم أر قطُّ أشدَّ اجتهادًا منه، فأتيته فقلت: هل بقي أحدٌ من الأنبياء؟ قال: نعم، هو آخر الأنبياء، ليس بينه وبين عيسى بن مريم أحد، وهو نبيُّ مرسل، وقد أمرنا عيسى بالتّباعه، وهو النبيُّ الأمّيُّ العربيُّ اسمه أحمد، ليس بالطويل ولا بالقصير، في عينه حمرة، وليس بالأبيض ولا بالأدم، يُعْفِي شعره، ويلبس ما غُلِظَ من الثياب، ويجتزئ بما لقي من الطعام، سيفه على عاتقه، ولا يبالي بمن لاقي^(٥)، يباشر القتال بنفسه، ومعه أصحابه يقدونه بأنفسهم، هم

(١) (ت): «ناحية». (ع، د): «وجهة». والمثبت من (ي، و) والمصادر.

(٢) (ع، ي، د): «حُسد»، وهو صحيح، وبالوجهين في المصادر.

(٣) (ع): «يجدون».

(٤) غيّرت في ط. العاصمة إلى «يوحنا» خلاف الأصول، ولم يصب المعلق عليها في تحديدها. وفي طرة (ت) إشارة إلى أن في نسخة: «أبو حنس». ورسمت في بعض المصادر التي نقلت الخبر: «أبي يحسر» «أبي غنى» «أبي غثيم»، واستشكلها بعضهم فأسقطها. ويُوَحَنَس هو يُحَنَس أشبعت ضمة الياء. وكنيسة «أبي يُحَنَس» كنيسة قديمة ذات شأن في الإسكندرية أوصى المقوقس أن يدفن فيها. انظر: «فتوح مصر» لابن عبد الحكم (٩٥)، و«حياة الحيوان» (٣/ ٧٣٠)، و«تاريخ الكنائس والأديرة» لأبي المكارم (١/ ١٣٨).

(٥) (ي، و): «من لاقي».

له أشدُّ حبًّا من أولادهم وآبائهم، يخرج من أرضٍ حَرَمٍ، ويأتي إلى حَرَمٍ، يهاجر إلى أرضٍ سَبَاخٍ ونخلٍ، يدين بدين إبراهيم عليه السلام.

قال المغيرة: فقلتُ له: زدني في صفته ^(١)، قال: يأتزر على وسطه، ويغسل أطرافه، ويخصُّ بما لا تخصُّ به الأنبياء قبله؛ كان ^(٢) النبيُّ يُبعثُ إلى قومه ويُبعثُ هو إلى النَّاسِ كافَّةً، وجُعِلَتْ له الأرضُ مسجدًا وطهورًا، أينما أدركته الصَّلَاةُ تيمَّم وصَلَّى، ومن كان قبله ^(٣) مشدَّدًا عليهم لا يصلُّون إلا في الكنائس والبيع.

قال المغيرة بن شعبة: فوعيتُ ذلك كله من قوله وقول غيره وما سمعتُ من ذلك.

فذكر الواقدي حديثًا طويلًا في رجوعه وإسلامه، وما أخبر به من صفات النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ذلك ممَّا ^(٤) يُعْجِبُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحبُّ أن يسمعه أصحابه. قال المغيرة: فكنت أحدثهم بذلك.

وهذا أمرٌ معروفٌ عند علماء أهل الكتاب وعظمائهم.

وقد أخرج أبو حاتمٍ في صحيحه ^(٥) عن عمرو بن العاص أنه قال: خرج

(١) (د، ع): «من صفته».

(٢) (ع، ت، د): «وكان».

(٣) (ع، د): «قبله كان».

(٤) ليست في (ي، و).

(٥) «التقاسيم والأنواع» (٧٢٣٣)، و«الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» (٦٥٤٦) من طريق أبي يعلى (٧٣٥٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥٩/٤٦)، ولا بأس بإسناده. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢١٨/٦): «فيه محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات». وقال في موضع آخر (٢٣٨/٨): «رجال رجال الصَّحيح غير عمرو بن علقمة، وهو ثقة».

جيش من المسلمين أنا أميرهم حتى نزلنا الإسكندرية، فقال عظيم من عظمائهم: أخرجوا إليّ رجلاً يكلمني وأكلمه، فقلت: لا يخرج إليه غيري، قال: فخرجتُ إليه ومعني ترجماني ومعه ترجمانه، فقال: ما أنتم؟ فقلت: نحن العرب، ونحن أهل الشوك^(١)، ونحن أهل بيت الله الحرام، كنّا أضيق الناس أرضاً، وأجهدهم عيشاً، نأكل الميتة والدم، ويُغير بعضنا على بعض، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذٍ، ولا بأكثرنا مالاً، فقال: أنا رسول الله إليكم، فأمرنا بما لا نعرف، ونهانا عما كنّا عليه وكان عليه آباؤنا، فكذبناه ورددنا عليه مقالته، حتى خرج إليه قومٌ غيرنا [فقالوا: نحن نصدّقك، ونؤمن بك، ونتّبعك، ونقاتل من قاتلك، فخرج إليهم، وخرجنا إليه، فقاتلناه]^(٢)، فقتلنا^(٣) وظهر علينا وغلبنا، وتناول من يليه من العرب فقاتلهم حتى ظهر عليهم، ولو يعلم من ورائي من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحدٌ إلا جاءكم حتى يشارككم فيما أنتم فيه من العيش. فضحك، ثم قال: إن رسولكم قد صدق، قد جاءتنا رسلنا بمثل الذي جاء به رسولكم، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحدٌ إلا غلبتموه، ولم يُشارِكم^(٤) أحدٌ إلا ظهرتم عليه، وإن فعلتم مثل الذي فعلنا وتركتم أمر نبيكم لم تكونوا أكثر عدداً منا ولا أشدّ منّا قوّة.

(١) في مصادر الرواية: «أهل الشوك والقرظ»، يشير إلى قسوة أرضهم.

(٢) ما بين المعقوفين ليس في الأصول، واستدركته من المصادر ليستقيم السياق.

(٣) غيّرت في ط. العاصمة إلى «فقاتلنا» خلاف الأصول والمصادر.

(٤) يخاصمكم وينازعكم، من «الشرّ». وتحرفت في ط. العاصمة إلى «يشارككم» خلاف الأصول، وتحرفت كذلك في مطبوعة «التقاسيم والأنواع» و«الإحسان»، وعلى نحو آخر في «تاريخ دمشق»: «يسارقكم»، وعلى الصواب في «موارد الظمآن» (٥/٣٦١)، ومسند أبي يعلى (٧٣٥٣)، و«المقصد العلي» (٣/١٤٣).

فصل

ثم بعد الإرسال إلى الملوك أخذ ﷺ في غزو النصارى، فأرسل أولاً زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة في جيش، فقاتلوا النصارى بمؤتة من أرض الكرك^(١)، وقال لأصحابه: «أميركم زيد، فإن قُتل فجعفر، فإن قُتل فعبد الله بن رواحة»^(٢)، فقتل الثلاثة، وأخبر النبي ﷺ بقتل الثلاثة في اليوم الذي قُتلوا فيه، وأخبر أنه أخذ الراية خالد بن الوليد، ففتح الله على يديه^(٣).

ثم إنه بعد هذا غزا النصارى بنفسه، وأمر جميع المسلمين أن يخرجوا معه في الغزاة، ولم يأذن في التخلّف عنه لأحد، وغزا في عشرات ألوف غزوة تبوك، فقدم تبوك وأقام بها عشرين ليلة^(٤)؛ ليغزو النصارى عربهم ورؤمهم وغيرهم، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم، فسمعوا به، وأحجموا عن قتاله، ولم يقدّموا عليه.

وأُنزل الله تعالى في ذلك أكثر سورة «براءة»، وذمّ تعالى الذين تخلّفوا عن جهاد النصارى ذمّاً عظيماً، والذين لم يروا جهادهم طاعةً جعلهم منافقين كافرين، لا يغفر الله لهم إذا لم يتوبوا، وقال لنبيه ﷺ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَى أَبَدًا وَلَا تُقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].

فإذا كان هذا حكمُ الله ورسوله فيمن تخلّف عن جهادهم إذ لم يره طاعةً ولا رآه واجباً، فكيف حكمه فيهم أنفسهم؟! حتى قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ

(١) مدينة شرقي الأردن، تشرف جبالها على البحر الميت، وتقع مؤتة وهي بلدة صغيرة على بعد ١١ كيلاً جنوبها. انظر: «المعالم الأثيرة» لمحمد حسن شراب (٢٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦١) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمعناه.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٦) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (١٤١٣٩)، وصححه ابن حبان (٢٧٤٩).

ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۝ [التوبة: ٢٤].

ثم عند موته ﷺ أمر^(١) بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

ففي «صحيح مسلم»^(٢) أن عمر بن الخطاب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لأُخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً».

وروى الإمام أحمد وأبو عبيد عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قال: «أخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارى أهل نجران من جزيرة العرب»^(٣).

وقام خلفاؤه رضي الله عنهم بعده بدينه ﷺ، فأرسل أبو بكر الصديق الجيوش لغزو النصارى بالشام، وجرت بين المسلمين وبينهم عدة غزوات، ومات أبو بكر وهم محاصرو دمشق.

ثم ولي عمر بن الخطاب، ففتح عامة الشام ومصر والعراق وبعض خراسان في خلافته، وقدم إلى الشام في خلافته، وسلم إليه النصارى بيت

(١) (ت، و): «أمرنا».

(٢) (١٧٦٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩١)، والطيالسي (٢٢٦)، والحميدي (٨٥)، وأبو عبيد معلقاً في «الأموال» (٢٩٩)، وغيرهم بسند جيد، وخَرَّجَه الضياء في «المختارة» (٣١٩/٣). وانظر: «علل الدارقطني» (٤٣٩/٤)، و«شرح مشكل الآثار» (١٨٦/٧)، و«تعجيل المنفعة» (٢٩١/١).

ولفظه في عامة المصادر: «يهود أهل الحجاز وأهل نجران»، ولعل زيادة «نصارى» لدفع الهم. ومن قوله: «وروى الإمام أحمد» إلى هنا وقع لحقاً في طرة (ت)، وليس في سائر الأصول.

المقدس لِمَا رَأَوْه من صفته عندهم.

قال أبو عبد الله محمد بن عائذ^(١) في كتاب «الفتوح»، قال: قال عطاء الخراساني: لما نزل المسلمون بيت المقدس، قال لهم رؤسائهم: إِنَّا قد أَجْمَعْنَا لمصالحكم، وقد عرفتم منزلة^(٢) بيت المقدس، وإنه المسجد الذي أُسْرِيَ بَنِيكُمْ إليه، ونحن نحبُّ أن يفتحها ملككم - وكان الخليفة عمر بن الخطاب -، فبعث المسلمون وفدًا، وبعث الروم أيضًا وفدًا مع المسلمين، حتى أتوا المدينة، فجعلوا يسألون عن أمير المؤمنين، فقال الروم لترجمانهم: عَمَّن يسألون؟ قالوا: عن أمير المؤمنين، فاشتدَّ عجبهم، وقالوا: هذا الذي غلب فارسَ والروم، وأخذ كنوز كسرى وقيصر، وليس له مكانٌ يُعْرَفُ به! بهذا غلب الأمم، فوجدوه قد ألقى نفسه حين أصابه الحرُّ نائمًا، فازدادوا تعجبًا، فلمَّا قرأ كتاب أبي عبيدة أقبل حتى نزل بيت المقدس وفيها اثنا عشر ألفًا من الروم وخمسون ألفًا من أهل الأرض، فصالحهم، وكان من جملة المصالحة أن لا يَدْخُلَ عليهم من اليهود أحد، ثم دخل المسجد فوجد زبالَةً عظيمةً على الصخرة، فأمر بكنس الزبالة وتنظيف المسجد، وأمر ببنائه، وجعل مصلاه في مقدّمه، ثم رجع إلى المدينة.

وقصّته مشهورةٌ في كتاب الفتوحات^(٣).

(١) أبو عبد الله القرشي الدمشقي الكاتب، المؤرخ الصادق صاحب المغازي، توفي سنة ٢٣٤. «سير أعلام النبلاء» (١١ / ١٠٤). وكتبه في المغازي والفتوح والصّوائف لم يعثر عليها بعد، والنقل عنها مستفيض.

(٢) ط. العاصمة: «منزل»، خلاف الأصول.

(٣) لا أدري أراد كتاب الفتوح لابن عائذ أم كتب الفتوحات؟ وانظر: «فتوح الشام» المنسوب للواقدي (١ / ٢٢٥)، و«فتوح البلدان» للبلاذري (١٨٩)، وتاريخ الطبري (٣ / ٦٠٨)، و«البداية والنهاية» (٩ / ٦٥٥).

ثم قدم مرةً ثانيةً إلى أرض الشام لمّا تمّ فتحه، فشارط بوضع الخراج وفرض الأموال، وشارط أهل الذمة على شروط^(١)، فائتم بها المسلمون بعده، وقد ذكرها أهل السير وغيرهم.

فروى سفيان الثوري، عن مسروق، عن عبد الرحمن بن غنم، قال: كتبتُ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى الشام، وشرط عليهم فيه: أن لا يُحدثوا في مدينتهم ولا ما حولها ديرًا ولا كنيسةً ولا قَلَايَةً^(٢) ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحدٌ من المسلمين ثلاث ليالٍ يطعمونهم، ولا يؤووا جاسوسًا، ولا يكتموا غشًا للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يُظهرُوا شركًا، ولا يمنعوا ذوي قرابتهم من الإسلام إن أرادوه، وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين بشيءٍ من لباسهم في قلنسوةٍ ولا عمامةٍ ولا نعلين ولا فرقٍ شعر، ولا يتسموا بأسماء المسلمين، ولا يكتنوا بكُناهم، ولا يركبوا سرجًا، ولا يتقلدوا سيفًا، ولا يتخذوا شيئًا من سلاح، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية، ولا يبيعوا الخمر، وأن يجزؤا مقادير رؤوسهم، وأن يلزموا زيَّهم حيث ما كانوا، وأن يشدُّوا الزنانير، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربًا خفيًا^(٣)، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيءٍ من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين^(٤)، ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم، ولا يظهرُوا النيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، فإن خالفوا في شيءٍ ممَّا شرطوه فلا ذمَّة لهم، وقد حلَّ للمسلمين

(١) ط. العاصمة: «شروط المسلمين»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٢) وهي الصومعة، من بيوت عبادتهم. «النهاية» (قلا).

(٣) ط. العاصمة: «خفيًا» خلاف الأصول.

(٤) من أعياد النصارى. «المعجم الوسيط» (شعن).

منهم ما يحلُّ من أهل المعاندة والشقاق. أخرجه أبو داود في سننه^(١).

وقال أبو عبيد في كتاب «الأموال»^(٢): حدثنا النضر بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا يَرْفَأُ، اكتب^(٣) إلى أهل الأمصار في أهل الكتاب: أن يجرؤوا نواصيهم، وأن يربطوا الكُستيجات^(٤) في أوساطهم؛ ليُعَرَفَ زِيَّ أهل الكتاب.

وحدثنا أبو المنذر ومصعبُ بن المقدام كلاهما عن سفيان، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن أسلم، قال: كتب عمر إلى أمراء الأجناد أن يَخْتِمُوا

(١) لم أجده في سنن أبي داود ولا رأيت من عزاه إليه. وأخرجه من طريق مسروق عن عبد الرحمن بن غنم ابن زبر في جزئه الذي أفردته للشروط العمرية (١٠)، وابن الأعرابي في «المعجم» (٣٦٥)، والبيهقي في «السنن الكبير» (١٨٧٥١) وغيرهم، وفي سنده ضعف. انظر: «مذهب سنن البيهقي» للذهبي (٣٧٦٧/٧)، وفتاوى السبكي (٣٩٨/٢)، و«البدر المنير» (٢١٤/٩)، و«التلخيص الحبير» (٢٩٧٧/٦). لكنه روي من وجوه أخرى وطرق يشدُّ بعضها بعضاً كما قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٣٣٨/٢). والأمر كما قال ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (١١٦٤/٣): «وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها؛ فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٣٦٥/١): «وهذه الشروط أشهر شيء في كتب الفقه والعلم، وهي مجمعٌ عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين وأصحابهم وسائر الأئمة». وانظر: «الصارم المسلول» (٣٩٣/٢)، (٤٩٨)، و«مجموع الفتاوى» (٦٥٢/٢٨)، و«إرشاد الفقيه» لابن كثير (٣٤١/٢)، و«السيف المسلول» للسبكي (٢٨٢).

(٢) (١٤٥). وإسناده ضعيف، النضر بن إسماعيل وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيفان، ويشهد له ما بعده.

(٣) (د، ع): «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر فاكتب». وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة. والمثبت من (ت، و، ي) هو الصواب الموافق لرواية أبي عبيد. ويرفأ هو مولى عمر وحاجبه.

(٤) جمع كستيج، وهو خيط غليظ يشدُّه الذمي فوق ثيابه دون الزنار. «التاج».

رقاب أهل الذمة^(١).

قال أبو عبيد^(٢): حدثنا عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن أسلم: أن عمر أمر في أهل الذمة أن تُجَزَّ^(٣) نواصيهم، وأن يركبوا على الأُكُفِ^(٤)، وأن يركبوا عرضاً لا يركبوا كما يركب المسلمون، وأن يوثقوا المناطق. قال أبو عبيد: يعني الزناير.

وكما كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذمة هذه الشروط والتزموها، أوصى بهم نوابه ومن يأتي بعده من الخلفاء وغيرهم، وهذا هو العدل الذي أمر الله به ورسوله.

ففي «صحيح البخاري»^(٥) عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته عند وفاته: «وأوصي الخليفة من بعدي بدمّة الله ودمّة رسوله ﷺ، أن يُوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، ولا يكلّفوا إلا طاقتهم».

وهذا امتثال لقول النبي ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه من حقه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه»^(٦)

(١) «الأموال» (١٤٣). وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٣٠٤)، وصححه ابن كثير في «إرشاد الفقيه» (٣٣٩/٢).

(٢) «الأموال» (١٤٤).

(٣) (ت، و): «يجزوا».

(٤) جمع وكاف، وهي برذعة الحمار. وذلك أنهم ممنوعون من ركوب الشرج؛ لأنها من آلات الخيل، وهي عز لأهلها، وقد مُنعوا من التشبه بالمسلمين فيما يكون فيه معنى العز. انظر: «شرح السير» للسرخسي (١٣٧)، و«أحكام أهل الذمة» (٣/١٣٠١).

(٥) (٣٠٥٢).

(٦) في طرة (د) هنا تعليق منقول عن نسخة السفاريني، قال: «لطيفة: جرى بيني وبين بعض أحبار أهل الذمة مناظرة، فقال لي الحبر: نحن عند نبيكم بمنزلة عزيمة أرقى منكم؛ لأنكم أنتم تحاجون عن أنفسكم، ونبيكم يحاجج عنا! فأجبت فوراً: أما محاججتنا عن =

يوم القيامة» رواه أبو داود^(١).

فكان هذا في النصاري الذين أدّوا إليه الجزية.

وعمر بن الخطاب لما فتح الشام وأدّوا إليه الجزية عن يدٍ وهم صاغرون أسلم منهم خلق كثير لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ؛ فإن العامة والفلاحين^(٢) وغيرهم كان عامتهم نصاري، ولم يكن في المسلمين من يعمل فلاحاً، ولم يكن للمسلمين في دمشق مسجد يصلّون فيه إلا مسجد واحد؛ لقتلهم، ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعاً لا كرهاً؛ فإن إكراه أهل الذمة على الإسلام غير جائز، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) والله ولي الذين آمنوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢٥٦ - ٢٥٧﴾.

= أنفسنا لأننا حضور في عرصات القيامة، وأما محاجة نبينا ﷺ عنكم فلا أنكم في طماطيم جهنم، فلا يُفَرِّج عنكم لتحضروا وتحتجّوا لأنفسكم، وإنما حاجج نبينا ﷺ على ذمته التي شرعها الله تعالى في كتابه وطفحت بها سنته ﷺ. محمد السفاريني الحنبلي.

(١) من حديث صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ. قال الحافظ العراقي: «وهذا إسناد جيد وإن كان فيه من لم يُسمَّ؛ فإنهم عدة من أبناء الصحابة يبلغون حد التواتر الذي لا يشترط فيه العدالة». ووافقه ابن حجر، وحسنه في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٨٤)، وتبعه السخاوي في «الأجوبة المرضية» (١/ ١٦)، (٢/ ٤٣٦). وهذا أجود من إعلال المنذري له في «مختصر سنن أبي داود» (٢/ ٣٤٦) بأن فيه مجهولين.

(٢) (د): «العامة الفلاحين». (ع): «العلامة الفلاحين».

قال أبو عبيد في كتاب «الأموال»^(١): عن ابن الزبير، قال: كتب النبي ﷺ إلى أهل اليمن: «أنه من أسلم من يهوديٍّ أو نصرانيٍّ فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديةٍ أو نصرانيةٍ فإنه لا يُفتنُ عنها، وعليه الجزية».

(١) (١٥٤)، وهو مرسلٌ حسن، وابن الزبير هو عروة. ويشهد له مرسل الحسن عند ابن زنجويه في «الأموال» (١٢٥ / ١) بسند جيد. قال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٢٩٦٣ / ٦): «وهذان مرسلان يقوي أحدهما الآخر». ورواه محمد بن إسحاق موصولاً بسند فيه مجاهيل لا يدرى من هم، أخرجه أبو نعيم في «معرفه الصحابة» (٣٠٩٠)، وانظر: «لسان الميزان» (٣٠٩ / ١). وأقوى من ذلك وروده في كتاب عمرو بن حزم المشهور، أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤١٤ / ٥).

فصل

وقاتل عمرُ بن الخطاب الفُرسَ المجوسَ، وفتحَ أرضهم، وظَهرَ تصديقُ خبرِ رسول الله ﷺ حيث قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصرَ بعده، والذي نفسي بيده لتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله ﷻ» أخرجاه في الصَّحيحين^(١).

وهذا بعد أن بعث رسول الله ﷺ رسوله إلى المجوس، وكتب كتابًا إلى كسرى ملك الفُرس، كما كتب إلى ملوك النصارى، كما تقدّم عن قيصر والمُقوقس، ولكن ملوك النصارى تأدّبوا معه وخضعوا له^(٢)، فبقي ملكهم. وأما ملكُ الفُرس فمزّق كتابه، فدعا عليهم، فقال: «اللهم مزّق ملكهم كلّ ممزّق»^(٣)، فلم يبق لهم مُلك.

قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى، فدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلمّا قرأه -يعني كسرى- خرّقه^(٤)، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزّقوا كلّ ممزّق^(٥).

وقال ابن إسحاق: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر، فأما كسرى

(١) صحيح البخاري (٣١٢٠، ٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٨، ٢٩١٩) من حديث أبي هريرة وجابر بن سمرة رضي الله عنهما.

(٢) ليست في (د، ي، ع).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/٢٢٣) من طريق الواقدي في سياقٍ طويل.

(٤) كذا في الأصول وصحيح البخاري. وغير في ط. العاصمة إلى «مزقه» متبعة لمطبوعة المدني ولأنه وقع كذلك في بعض روايات الحديث!

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٣٩)، وقوله: «فدعا عليهم...» وقع في جميع طرق الحديث من مرسل سعيد ابن المسيب، ويحتمل أن يكون سمعه من عبد الله بن حذافة صاحب القصة، كما ذكر ابن حجر في «الفتح» (٨/١٢٧).

فلَمَّا قرأ الكتاب مَزَّقَه، وأما قيصر فلَمَّا قرأ الكتاب طواه ووضعهُ عنده، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أَمَّا هَؤُلَاءِ -يعني كسرى- فيمزقون، وأما هَؤُلَاءِ فستكون لهم بقيّة»^(١).

قال ابن إسحاق^(٢): بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حُذَافَة بن قيس السَّهمي إلى كسرى بن هُرْمُز ملك الفُرس^(٣)، وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، آمِنُ بالله ورسوله، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمّدا عبده ورسوله، فإني أدعوك بدعاية الله، فإني رسول الله إلى النَّاس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين، فأسلم تسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس^(٤) عليك»، فلَمَّا قرأ كتاب رسول الله ﷺ شقَّقه، وقال: يكتب إليّ بهذا الكتاب وهو عبدي؟!!

قلت: وسبب قول كسرى هذا واستعلائه أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن، ومَلِكُهُم سار إلى مكّة بالفيل؛ ليخرّب البيت، وكانوا نصارى، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيرًا أبابيل -وهي جماعات في تفرقة- تحمل حجارة من طين، فألقته على الحبشة النّصارى فأهلكتهم^(٥)، وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت.

(١) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (٥٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٩٤/٤)، وهو مرسل حسن، وابن إسحاق هو عمير بن إسحاق القرشي من أوساط التابعين.

(٢) محمد بن إسحاق في «السيرة». أخرجه من طريقه ابن جرير في «التاريخ» (٦٥٤/٢)، وابن الجوزي في «المنتظم» (٢٨٣/٣) وغيرهما.

(٣) (ع، د): «فارس».

(٤) (ت): «المجوسية».

(٥) (ي، د، ع): «فأهلكهم الله».

وَعَلِمَ الْعُقَلَاءُ أَنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ نَصْرًا مِنْ اللَّهِ لِمَشْرُكِي الْعَرَبِ؛ فَإِنْ دِينَ
النَّصَارَى خَيْرٌ مِنْ دِينِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ نَصْرًا لِلْبَيْتِ وَلِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي تَعْظُمُهُ،
وَلِلنَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ مِنَ الْبَيْتِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَامَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ:
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ (٢) وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۚ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ۚ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

ثم إن سيف بن ذي يزن ذهب إلى كسرى، وطلب منه جيشًا يغزو به
الحبشة، فأرسل معه عسكريًا من الفرس والمجوس، فأخرجوا الحبشة من
اليمن، وصارت اليمن بيد العرب، وبها نائب كسرى، وسيف بن ذي يزن هذا
ممن بشر بالنبي ﷺ قبل ظهوره، وأخبر بذلك جدّه عبد المطلب^(١) لما وفد
عليه^(٢).

فلما كانت اليمن مطيعة لكسرى، لهذا أرسل إلى نائبه على اليمن^(٣) أن
يأتيه بالنبي ﷺ؛ لأن عسكر اليمن في العادة يقهر أهل مكة والمدينة.

قال ابن إسحاق^(٤): فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «مَزَّقَ اللَّهُ مَلَكَهُ» حين
بلغه أنه شقق كتابه.

ثم كتب كسرى إلى باذان - وهو على اليمن - أن ابعث إلى هذا الرجل
الذي بالحجاز من عندك رجلين جَلْدَيْنِ، فليأتياي به، قال: فبعث باذان

(١) (و): «عمه أبا طالب». وضرب عليها في (ت) وكتب الصواب.

(٢) انظر: «دلائل النبوة» لأبي نعيم (٩٥)، والبيهقي (٩/٢).

(٣) (ت): «إلى اليمن». (ع، د): «باليمن».

(٤) تنمة خبره المتقدم تخريجه.

قَهْرْمَانَهُ^(١) وهو بَانُويَه^(٢) - وقال غيره: فيروز الدَّيْلَمِي - وكان حاسبًا كاتبًا، وبعث معه برجل من الفُرس، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبَانُويَه: ويلك، انظر ما الرَّجُلُ، وكلمه، واثنتي بخبره.

قال: فخرجا حتى قدما إلى الطائف، فسألا عن النبي ﷺ، فقالوا: هو بالمدينة، واستبشروا - يعني الكفار - وقالوا: قد نَصَبَ له كسرى، كُفِيتُم الرجل، فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فكلمه بَانُويَه، فقال: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك، فانطلق معي، فإن فعلت كتب معك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به، وإن أبيت فهو من قد علمت وهو مُهْلِكُكَ ومُهْلِكُ قَوْمِكَ ومُخَرَّبُ بلادك.

وكانا قد دخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما، وأبقيا شواربهما، فكره النظر إليهما رسول الله ﷺ، وقال لهما: «ويلكما، من أمركما بهذا؟!»، قالوا: أمرنا بهذا ربنا - يعنيان كسرى -، فقال لهما رسول الله ﷺ: «لكن ربي ﷻ أمرني بإعفاء لحيتي وبقص شاربي^(٣)»، ثم قال لهما: «ارجعا حتى تأتاني الغد».

قال: وجاء الخبر من السماء أن الله ﷻ سلط على كسرى ابنه^(٤) شيرويه فقتله، في شهر كذا، في ليلة كذا، في ساعة كذا، فلما أتيا رسول الله ﷺ قال لهما:

(١) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه. «المعجم الوسيط».
(٢) كذا رسم في الأصول في المواضع الثلاثة. وفي ط. العاصمة: «بابويه». وكلاهما من أسماء الفرس، انظر: «الإكمال» لابن نقطة (١/ ٢١١). وبكليهما وقع في المصادر، انظر: «تفسير ابن المنذر» (١/ ٢٣٩)، و«الإصابة» (١/ ٦٢١).

(٣) (د، ع): «شواربي».

(٤) (ت): «ولده».

«إن ربي قتل ربكما ليلة كذا، في شهر كذا، بعدما مضى من الليل كذا، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله»، فقالا له: هل تدري ما تقول؟! إنا قد نَقِمنا منك ما هو أيسرُ من هذا، فنكتبُ بهذا عنك ونخبر الملك به؟ قال: «نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبُلغ ما بلغ ملكُ كسرى، وينتهي إلى منتهى الخفِّ والحافر، وقولا له: إنك إن أسلمتَ أعطيتك ما تحت يديك^(١)، وملكتك على قومك^(٢) من الأبناء»، وأعطى رفيقه مِنطَقَةً من ذهبٍ وفَضَّةٍ كان أهداها له بعض الملوك.

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، وأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول، ولنتظرن^(٣) ما قد قال، فلئن كان ما قد قال حقاً ما بقي فيه كلامٌ إنه لنبيٌّ مرسل، وإن لم يكن فسرى فيه رأينا، فلم يلبث باذان أن قَدِم عليه كتابُ شيرويه: أما بعد، فإني قد قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس؛ لِمَا كان قد استحلَّ من قتل أشرافهم وتَجْمِيرِهِمْ^(٤) في بعوثهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممَّن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب إليك فيه فلا تَهْجُهُ حتى يأتيك أمري فيه. فلمَّا انتهى الكتابُ^(٥) -كتابُ شيرويه- إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول الله، وأسلمَ لله، وأسلمت أبناء فارس من كان منهم باليمن.

(١) (و، ي): «قدمك».

(٢) (و، ي): «قريتك».

(٣) لم تحرر في (ت، ي). وفي بعض المصادر: «ولنتظرن». والمثبت من (د، و، ع).

(٤) الأصول: «وتجهيزهم» وهو تحريف. وعلى الصواب في مصادر الخبر. وتجميرُ الجيش:

جمعهم في الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم. «النهاية» (جمر).

(٥) ليس في (ي، د، ع، و).

فكانت حمير تقول لخر خسر^(١): ذو المعجزة، للمنطقة التي أعطاه إياها رسول الله ﷺ، والمنطقة بلسان حمير: المعجزة^(٢)، فبنوه اليوم يُنسبون إليها: خر خسر ذو المعجزة.

وقد قال بانويه لباذان: ما كلّمتُ رجلاً قطُّ أهيبَ عندي منه، فقال له باذان: هل معه شرط؟ قال: لا^(٣).

وقال أبو معشر: حدّثني المقبري قال: جاء فيروز الديلمي إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن كسرى كتب إلى باذان: بلغني أن في أرضك رجلاً تنبأ^(٤)، فاربطه وابعث به إليّ، فقال له رسول الله ﷺ: «إن ربي غضب على ربك فقتله، فدّمه بنحره سُخْنٌ^(٥) الساعة»، فخرج من عنده، فسمع الخبر، فأسلم وحسن إسلامه^(٦).

وكان رجلاً صالحاً له في الإسلام آثارٌ جميلة، منها: قتل الأسود العنسيّ الكذاب الذي ادّعى النبوة على عهد النبي ﷺ.

وكان الأسود جبّاراً استدعى بأبي مسلم الخولاني، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ فقال أبو مسلم: ما أسمع. فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فردّد ذلك عليه مراراً، فأمر بنارٍ عظيمة، فأضرمّت، ثم أمر بالقاء أبي مسلم فيها، فلم تضرّه، فأخمدها الله تعالى حين ألقي فيها، ف قيل له: أخرج هذا عنك من أرضك^(٧)؛ لئلا يُفسد عليك أتباعك، فأخرجّه.

(١) رفيق بانويه المبعوث معه. ولم أقف على ضبطه.

(٢) لأنها تلي عَجَزَ المتنطق بها. والمنطقة: ما يُشدُّ به الوسط. «تاج العروس» (عجز، نطق).

(٣) آخر رواية ابن إسحاق. ومن قوله: «فكانت حمير» إلى هنا وقع لحقاً في طرة (ت) مختوماً بالتصحيح، وليس في سائر الأصول، وهو ثابتٌ في مصادر الخبر.

(٤) (ع، د): «نبا». (ت): «تنبأ تنبأ».

(٥) «المنتظم»: «ودمه يشخن». (ع، د): «قدمه سخن»، وكررت مرتين في (ي) مهملة، (و):

«سخن سخن»، والمثبت من (ت) وط. النيل.

(٦) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (٣/ ٢٨٤).

(٧) (د، ع): «أخرج هذا من عندك».

فَقَدِمَ أَبُو مُسْلِمَ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٌ، فَأَنَاحَ رَاحِلَتَهُ بَبَابَ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَامَ يُصَلِّي (١) إِلَى سَارِيَةٍ، فَبَصُرَ بِهِ عُمَرُ، فَقَامَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مِمَّنَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ. قَالَ: مَا فَعَلَ الَّذِي حَرَّقَهُ الْكَذَّابُ؟ قَالَ: ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَوْبٍ. قَالَ: نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ أَنْتَ هُوَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فَاعْتَنَقَهُ، ثُمَّ بَكَى، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ حَتَّى أَجْلَسَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِتَّنِي حَتَّى أَرَانِي فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ فَعَلٍ بِهِ كَمَا فَعَلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ (٢).

ثُمَّ خَرَجَ فَيَرُوزُ الدَّيْلَمِيَّ عَلَى الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ فَقَتَلَهُ، وَجَاءَ الْخَبَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِهِ وَهُوَ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ، فَخَرَجَ فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ (٣)، وَقَالَ: «قُتِلَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ اللَّيْلَةَ، قَتَلَهُ (٤) رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ قَوْمٍ صَالِحِينَ» (٥).

وَقَصَّتْهُ مَشْهُورَةٌ، وَكَذَلِكَ قِصَّةُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَنَحْوُهُمَا مِنَ الْمُتَنَبِّئِينَ الْكَذَّابِينَ.

(١) (ع، ي، د): «يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ».

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْإِسْتِيعَابِ» (٤/١٧٥٨)، وَأَبُو الْقَاسِمِ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي «سِيرِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ» (٢/٨٧٣)، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (٢٧/٢٠٠) وَغَيْرُهُمْ عَنْ شَرْحِبِيلِ بْنِ مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ، وَهُوَ تَابِعِيٌّ شَامِيٌّ صَدُوقٌ، لَكِنَّهُ لَمْ يَدْرِكْ زَمَنَ الْقِصَّةِ، وَأَوْرَدَهَا الذَّهَبِيُّ فِي تَرْجُمَتِهِ مِنْ «الْمِيزَانِ» (٢/٢٦٧) كَالْمُسْتَنَكِرِ لَهَا، وَأَشَارَ فِي «السَّيْرِ» (٩/٤) إِلَى إِسْرَالِهَا، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «مُسْنَدِ الْفَارُوقِ» (٣/١٣٦): «هَذَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ انْقِطَاعٌ إِلَّا أَنَّهُ مَشْهُورٌ».

(٣) لَيْسَتْ فِي (و، د، ي، ع).

(٤) سَاقِطَةٌ مِنْ ط. الْعَاصِمَةِ.

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي التَّارِيخِ (٣/٢٣٦)، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْإِسْتِيعَابِ» (٣/١٢٦٦) وَغَيْرُهُمَا مِنْ طَرِيقِ سَيْفِ بْنِ عُمَرَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَأَصْلُ خَبَرِ قَتْلِ فَيَرُوزَ لِلْأَسْوَدِ مَشْهُورٌ مُحْفُوظٌ مِنْ وَجْهِهِ أُخْرَى. انْظُرْ: «الْمَغْنِي عَنْ حَمَلِ الْأَسْفَارِ» (٢/٨٧٢)، وَ«فَتْحُ الْبَارِي» (٨/٩٢، ٩٣).

فصل

ولمّا فتح خلفاء النبي ﷺ عمرُ وعثمانُ العراقَ وخراسانَ ضربوا الجزية على المجوس، كما ضربوها على النصارى بعد أن دعوهم إلى الإسلام، كما دعاهم رسول الله ﷺ، وكما ضرب النبي ﷺ الجزية على اليهود والنصارى والمجوس بعد أن دعاهم إلى الله ﷻ.

فإنه ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي صاحب هَجَر - وهي قرية بالبحرين^(١) - بكتابه ﷺ يدعو به إلى الإسلام، قال العلاء: فلمّا دخلتُ عليه قلتُ: يا منذر، إنك عظيمُ العقل في الدنيا، فلا تَصْغُرَنَّ عن الآخرة، إن هذه المجوسية شرُّ دين، ليس فيها تَكْرَمُ العرب، ولا علمُ أهل الكتاب، ينكحون ما يُسْتَحْيَا من نكاحه، ويأكلون ما يُتَكْرَّمُ عن أكله، ويعبدون في الدنيا نارًا تأكلهم يوم القيامة، ولستَ بعديم عقل ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يَكْذِبُ أن تصدّقه، ولمن لا يخون أن تأمنه، ولمن لا يُخْلِفُ أن تثق به، فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبي ﷺ الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليتَه زاد في عفوه أو نقص من عقابه، إن كلّ ذلك منه على أمانة أهل العقل وفكر أهل البصر. فقال المنذر: قد نظرتُ في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرتُ في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا، فما يمنعني من قبول دين فيه أمانة الحياة وراحة الممات، ولقد عَجِبْتُ أَمْسَ مَمَّنْ يقبله، وعَجِبْتُ اليوم مَمَّنْ يردّه، وإن من إعظام من جاء به أن يعظّم رسوله، وسأنظر^(٢).

ثم أسلم المنذر، وكتب إلى النبي ﷺ بالإسلام والتصديق.

(١) هي محافظة الأحساء في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية.

(٢) ذكره السهيلي في «الروض الأنف» (٥١٩/٧)، ثم الكلاعي في «الاكتفاء» (١٦/٢)، ولم أقف عليه مسندًا، وفيه صنعة لا تشبه كلام الصدر الأول.

وقال عمرو بن عوف: بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة إلى البحرين، فأتى بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الصُّبح مع النبي ﷺ، فلَمَّا صَلَّى بهم الفجر انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «أظنُّكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأملوا ما يسرُّكم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسِطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم» أخرجاه في الصَّحيحين^(١).

وأخرج البخاري^(٢) عن بَجَّالة بن عبدة أنه قال: أتانا كتابُ عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: «فرَّقوا بين كلِّ ذي محرمٍ من المجوس»، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجَرَ.

وقال ابن شهاب: أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس هَجَرَ، وأخذ عمر بن الخطاب الجزية من مجوس فارس، وأخذها عثمان بن عفان من البربر^(٣).

(١) صحيح البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) (٣١٥٦، ٣١٥٧).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٦٧)، وأبو عبيد في «الأموال» (٧٩). وروي عن الزهري عن السائب بن يزيد موصولاً، أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤٩/٧). قال البخاري: «والصحيح عن مالك عن الزهري عن النبي ﷺ مرسل»، وقال الدارقطني: «رواه الناس عن مالك عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلًا ليس فيه السائب، وهو المحفوظ». انظر: «العلل الكبير» للترمذي (٢٦٢)، و«نصب الراية» (٤٤٨/٣).

قال ابن شهاب: أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما بلغنا وكانوا نصارى، وقبِل رسول الله ﷺ الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوسًا، ثم أدى أهل أيلة وأهل أذرح إلى رسول الله ﷺ الجزية في غزوة تبوك، وبعث خالد بن الوليد إلى أهل دومة الجندل^(١) فأَسَرُوا رُئسَهُم أَكِيدِرَ، فبايعوه على الجزية^(٢).

قال أبو عبيد: الجزية مأخوذة من أهل الكتاب بالتنزيل، ومن المجوس والبربر وغيرهم بالسُّنَّة^(٣).

وروي عن الزهري عن سعيد بن المسيب، أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٦٦/٥)، قال البيهقي في «السنن الكبير» (٢٧/١٩): «وابن شهاب إنما أخذ حديثه هذا عن ابن المسيب، وابن المسيب حسنُ المرسل».

- (١) أيلة: مدينة العقبة جنوب الأردن. وأذرح: قرية شرقي الأردن تبعد عن مدينة معان ٢٥ كيلًا. ودومة الجندل: مدينة بمنطقة الجوف شمال المملكة العربية السعودية. انظر: «المعالم الأثرية» (٤٠، ٢٤، ١١٧).
- (٢) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (٨٧).
- (٣) «الأموال» (٨٤/١).

فصل

وأخرج مسلمٌ عن أنس أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وإلى كل جبارٍ يدعوهم إلى الله ﷻ^(١)، وليس بالنجاشي الذي نعاه لأصحابه في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى، فصفّ وصلّى عليه، بل نجاشي آخر تملك بعده.

وأخرج مسلمٌ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»^(٢).

وقال ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان، وجميع الإنس والجنّ، ما لا يُحصى إلا بكُلْفَةٍ، وهذا كلّهُ معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه بُعِثَ إِلَّا إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً، وهذه دعوته ورسالته وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين، وهذه سيرته ﷺ فيهم؟!!

(١) صحيح مسلم (١٧٧٤).

(٢) صحيح مسلم (٥٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

وأيضًا، فالكتاب المتواتر عنه -وهو القرآن- يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به في مواضع كثيرة جدًا، بل يذكر الله ﷻ فيه كُفْرَ من كَفَرَ من اليهود والنصارى، ويأمر فيه بقتالهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله في هذه السورة أيضًا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۚ﴾ [٧٢] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ﴾ [٧٣] ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ﴾ [٧٤] ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انْظُرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۚ﴾ [٧٥] ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ﴾ [٧٦] ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ۚ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿النساء: ١٧١ - ١٧٣﴾.

وقال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣٢].

فصل

فهذه الدلائل وأضعافها ممّا تبين أنه نفسه ﷺ أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب، وأنه دعاهم وجاهدتهم وأمر بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا ممّا فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها، كما فعلت النصارى بعد المسيح ﷺ؛ فإن المسلمين لا يجوزون لأحدٍ بعد محمد ﷺ أن يغيّر^(١) شيئاً من شريعته، فلا يُحلّل ما حرّم، ولا يُحرّم ما حلّل، ولا يُوجب ما أسقط، ولا يُسقط ما أوجب، بل الحلال عندهم ما حلّله الله ورسوله، والحرام ما حرّمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله، بخلاف النصارى الذين ابتدعوا بعد المسيح بدعاً لم يشرّعها المسيح ﷺ، ولا نطق بها شيء من الأناجيل ولا كتب الأنبياء المتقدمة، وزعموا أن ما شرعه أكابرهم من الدين فإن المسيح يُمضيه لهم.

وهذا موضعٌ تنازع فيه الملل الثلاث: المسلمون، واليهود، والنصارى، كما تنازعوا في المسيح ﷺ وغير ذلك.

فاليهود لا يجوزون لله ﷻ أن ينسخ شيئاً شرّعه.

والنصارى يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله بآرائهم.

وأما المسلمون فعندهم أن الله له الخلق والأمر، لا شرع إلا ما شرّعه الله على السنة رسوله، وله أن ينسخ ما شاء، كما نسخ بالمسيح ما كان شرّعه للأنبياء قبله.

فالنصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح، كما وضع لهم الثلاثمئة وثمانية عشر الذين كانوا في زمن قُسطنطين المَلِك «الأمانة» التي

(١) (ي): «يغيروا».

اتَّفَقُوا عليها، ولعنوا من خالفها من الأريوسية^(١) وغيرهم، وفيها أمورٌ لم ينزل الله بها كتاباً، بل تخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقل الصريح.

فقالوا فيها: «نؤمن بإله واحد، أب^(٢)، ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله، الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوي الأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسّد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنّس، وصُلب على عهد يلاطس البُنطِي وتألّم وقُبر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب. وأيضاً، فسيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لمُلْكِهِ. و[نؤمن] بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له، ونمجّد الناطق في الأنبياء، وبكنيسة واحدة جامعة مقدّسة رسولية، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، ونترجّى قيامة الموتى، وحياة الدهر العتيد كونه^(٣)، آمين^(٤)».

(١) أصحاب أريوس، فرقة من فرق النصارى يعتقدون أن المسيح عبدٌ مرسل مخلوق، ليس بإله ولا رب. وقد اتفق النصارى بنيقية على لعن أريوس والتبري منه. انظر: «تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (٢/ ٦٠٤)، وفهرسي الأعلام والطوائف.

(٢) كذا في الأصول وبعض المصادر. وفي عامتها: «الأب». وقال أنستاس الكرملي في مجلة «لغة العرب» (٨/ ١٥٠) منتقداً من أورد لفظة «أب» دون لام التعريف: «الأب هنا علم للأقنوم الأول، وأداة التعريف هنا للتغليب عليه، ولا يجوز حذفها هنا؛ لئلا يظن أنه اسم جنس يشمل عدة آباء».

(٣) ط. العاصمة: «وحياة الدهر الآتي» خلاف الأصول.

(٤) ويسمونها «دستور الإيمان» و«القانون النيقاوي» نسبة إلى نيقية. وانظر: «الفصل» (١/ ٥٢)، و«الملل والنحل» (٢/ ٢٨)، و«تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (٢/ ٥٠٠)، وما سيأتي (٢/ ٢٥، ٢٨، ٧٦، ١٣٩، ١٤٤). وفي كثير من ألفاظها اختلاف في المصادر العربية الإسلامية والنصرانية؛ لتفاوت ترجماتها، وأشار ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٥٣٣) إلى ركاكتها.

ووضعوا لهم من القوانين والنَّاموس ما لم يوجد في كتب الأنبياء ولا تدلُّ عليه، بل يوجد بعضه في كتب الأنبياء وزاد أكابرهم أشياء من عندهم لا توجد في كتب الأنبياء، وغيرُوا كثيرًا ممَّا شرعه الأنبياء.

فما عند النَّصارى من القوانين والنَّواميس التي هي شرائع دينهم، فبعضه منقولٌ عن الأنبياء^(١)، وبعضه عن الحواريين، وكثيرٌ منه من ابتداع أكابرهم مع مخالفته لشرع الأنبياء، فدينهم من جنس دين اليهود، قد لَبَسُوا الحقَّ بالباطل.

وكان المسيح ﷺ بُعث بدين الله الذي بُعث به الأنبياء قبله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة كلِّ ما سواه، وأحلَّ لهم بعض ما حرَّمه الله في التوراة، فنسخ بعض شرع التوراة.

وكان الرُّوم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكل العُلويَّة والأصنام الأرضيَّة، فبعث المسيح ﷺ رسله يدعونهم إلى دين الله تعالى، فذهب بعضهم في حياته في الأرض، وبعضهم بعد رفعه إلى السَّماء، فدعواهم إلى دين الله تعالى، فدخل من دخل في دين الله، وأقاموا على ذلك مدَّة، ثم زَيَّن الشيطان^(٢) لمن زَيَّن له أن يغيِّر دين المسيح، فابتدعوا دينًا مركَّبًا من دين الله ورسله دين المسيح ﷺ ومن دين المشركين.

وكان المشركون يعبدون الأصنام المجسَّدة التي لها ظلٌّ، وهذا كان دين الرُّوم واليونان، وهو دين الفلاسفة أهل مَقْدُونِيَّة وأثينية، كأرسطو وأمثاله من الفلاسفة المشائين وغيرهم.

(١) «بعضه منقول عن الأنبياء» ساقط من ط. العاصمة.

(٢) (ي): «الشياطين».

وكان أرسطو قبل المسيح بنحو ثلاثمئة سنة، وهو وزير الإسكندر بن فيلبس اليوناني المقدوني الذي^(١) يؤرّخ له التاريخُ الرُّومِيُّ من اليهود والنصارى، وهذا كان مشركًا يعبد هو وقومه الأصنام، ولم يكن يسمّى «ذا القرنين»، ولا هو ذا القرنين المذكور في القرآن، ولا وصل هذا المقدونيُّ إلى أرض التُّرك ولا بنى السَّدَّ، وإنما وصل إلى بلاد الفُرس، ومن ظنَّ أن أرسطو كان وزير ذي القرنين المذكور في القرآن فقد غلط غلطًا يبيّن أنه ليس بعارفٍ بأديان هؤلاء القوم ولا بأزمانهم^(٢).

فلما ظهر دينُ المسيح ﷺ بعد أرسطو بنحو ثلاثمئة سنة في بلاد الرُّوم واليونان كانوا على التوحيد، إلى أن ظهرت فيهم البدع، فصوّروا الصُّور المرقومة في الحيطان، جعلوا هذه الصُّور عوضًا عن تلك الصور. وكان أولئك يسجدون للشمس والقمر والكواكب، فصار هؤلاء يسجدون إليها إلى جهة الشرق التي تظهر منها الشَّمس والقمر والكواكب، وجعلوا السُّجود إليها بدلًا عن السُّجود لها.

ولهذا جاء خاتم الرُّسل صلوات الله عليه وسلامه الذي ختم الله به الرسالة، وأظهر به من كمال التَّوحيد ما لم يكن يظهر بمن قبله^(٣)، فأمر ﷺ أن لا يتحرّى أحدٌ بصلاته طلوعَ الشَّمس ولا غروبها^(٤)؛ لأن المشركين يسجدون

(١) (ع، ي، د): «التي».

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٣١٧/١، ٤١٠)، و«النبوات» (١٩٧)، و«الرد على المنطقيين» (٢٨، ١٨٢، ١٨٦، ٢٨٣، ٣٩٢)، و«درء التعارض» (٦٨/٥)، و«الانتصار لأهل الأثر» (٢٢٧)، و«الرد على البكري» (١٥٦، ٥٧٨)، و«الرد على الشاذلي» (١٣٥)، و«مجموع الفتاوى» (١١/١٧١، ٥٧١، ٣٣٢/١٧)، و«جامع المسائل» (٢٨٦/٥).

(٣) (ي): «ما لم يظهر من قبله».

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٣) ومسلم (٨٢٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

لها تلك السّاعة، فإذا صلى الموحّدون لله ﷻ في تلك السّاعة صار في ذلك نوعٌ مشابهةٍ لهم، فيَتَّخَذُ ذريعةً إلى السُّجود لها، وكان من أعظم أسباب عبادة الأصنام تصوير الصُّور وتعظيم القبور.

ففي صحيح مسلم وغيره^(١) عن أبي الهيثّاج الأسديّ، قال: قال لي عليّ بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ فأمرني أن لا أدع قبراً مُشْرِفاً إلا سوّيته، ولا تمثالاً إلا طمسته.

وفي الصّحيحين^(٢) أنه ﷺ قال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنّصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذّر ما فعلوا.

وفي الصّحيحين^(٣) أنه قال قبل موته بخمس ليالٍ: «إن من كان قبلكم كانوا يتّخذون القبور مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد، وإني أنهاكم عن ذلك».

ولمّا ذكروا له كنيسة^(٤) بأرض الحبشة وذكروا من حُسْنِها وتساویرِ فيها، فقال: «إن أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجلُ الصّالحُ بنوا على قبره مسجداً وصوروا تلك التّساویر، أولئك شرارُ الخلق عند الله يوم القيامة»^(٥).

ونهى أن يستقبل الرجلُ القبرَ في الصّلاة؛ حتّى لا يتشبه بالمشرکین الذين

(١) صحيح مسلم (٩٦٩)، ومسند أحمد (٧٤١)، وسنن أبي داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٣٥) ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) صحيح مسلم (٥٣٢)، وهو من أفراد، كما في «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (٣٩١/١).

(٤) (ت): «ذكروا الكنيسة».

(٥) أخرجه البخاري (٤٢٧) ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

يسجدون للقبور، ففي الصحيح^(١) أنه قال: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلُّوا إليها».

إلى أمثال ذلك ممَّا فيه تجريدُ التوحيد لله رب العالمين الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله.

فأين هذا ممَّن يصوِّر صور المخلوقين في الكنائس ويعظِّمها ويستشفعُ بمن صُوِّرت على صورته؟! وهل كان أصلُ عبادة الأصنام في بني آدم من عهد نوح عليه السلام إلا هذا؟!!

والصَّلَاة^(٢) إلى الشَّمس والقمر والكواكب والسجودُ إليها ذريعةٌ إلى السُّجود لها، ولم يأمر أحدٌ من الأنبياء باتخاذ الصُّور والاستشفاع بأصحابها، ولا بالسُّجود إلى الشَّمس والقمر والكواكب، وإن كان يُذكرُ عن بعض الأنبياء تصويرُ صورةٍ لمصلحة، فإن هذا من الأمور التي قد تتنوع فيها الشرائع، بخلاف السُّجود لها والاستشفاع بأصحابها، فإن هذا لم يشرعه نبيٌّ من الأنبياء، ولا أمر قطُّ أحدٌ من الأنبياء أن يُدعى غيرُ الله وَعَلَيْهِ السَّلَام لا عند قبره ولا في مَغيبه، ولا يُستشفع^(٣) به في مَغيبه بعد موته، بخلاف الاستشفاع بالنبيِّ وَعَلَيْهِ السَّلَام في حياته ويوم القيامة، وبالتوسُّل بدعائه^(٤) والإيمان به، فهذا من شرع الأنبياء عليهم السَّلام.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

(١) صحيح مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

(٢) (د، ي، ع): «ويصلِّي».

(٣) (ت): «يتشفع». وفي ط. العاصمة: «يشفع»، وهو خطأ.

(٤) (ت): «وبالتوسل به بدعائه».

رَسُولٍ إِلَّا يُوحَى^(١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿ [الزمر: ١ - ٤].

وذلك أن المشركين من جميع الأمم لم يكن أحدٌ منهم يقول: إن للمخلوقات خالقين منفصلين متماثلين في الصفات، فإن هذا لم يقله طائفةٌ معروفةٌ من بني آدم^(٢)، ولكنَّ الثنوية من المجوس ونحوهم يقولون: إن العالم صادرٌ عن أصلين: النور والظلمة، والنور عندهم هو إله الخير المحمود، والظلمة هي الإله الشرير المذموم.

وبعضهم يقول: إن الظلمة هي الشيطان، وهذا ليجعلوا ما في العالم من الشرِّ صادرًا عن الظلمة.

(١) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو، قراءة المصنف وأهل الشام لعهد.

(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ٤٣٥)، و«شرح الأصبهانية» (١١٦، ١٣٤)، و«درء التعارض» (٥/ ٣٨)، و«مجموع الفتاوى» (٣/ ٩٦، ١١/ ٥١).

ومنهم من قال: إن الظُّلْمَةَ قديمةٌ أزلِيَّةٌ، مع أنها مذمومةٌ عندهم، ليست مماثلةٌ للنور.

ومنهم من قال: بل هي حادثة، وأن النُّور فُكِّرَ فكرةً رديئةً، فحدثت الظُّلْمَةُ عن تلك الفكرة الرديئة.

فقال لهم أهل التوحيد: أنتم بزعمكم كرهتم أن تضيفوا إلى الربِّ ﷻ خلقَ ما في العالم من الشرِّ، وجعلتموه خالقًا لأصل الشرِّ! وهؤلاء مع إثباتهم اثنين، وتسمية الناس لهم بالثنويَّة، فهم لا يقولون: إن الشرَّ^(١) مماثل للخير.

وكذلك الدهريَّة دهريةٌ الفلاسفة وغيرهم:

منهم من ينكر الصَّانع للعالم، كالقول الذي أظهره فرعون لعنه الله.

ومنهم من يُقَرُّ بعلةٍ يتحرَّك الفلكُ للتشبه بها، كأرسطو وأتباعه.

ومنهم من يقول بالموجب بالذَّات المستلزم للفلك، كابن سينا، والشُّهْرُوردي المقتول بحلب، وأمثالهما من متفلسفة الملل.

وأما مشركو العرب وأمثالهم فكانوا مقرِّين بالصَّانع، وبأنه خلق السماوات والأرض، فكانت عقيدة مشركي العرب خيرًا من عقيدة هؤلاء الفلاسفة الدهرية؛ إذ كانوا مُقرِّين بأن هذه السماوات مخلوقةٌ لله حادثةٌ بعد أن لم تكن، وهذا مذهبُ جماهير أهل الأرض من^(٢) أهل الملل الثلاثة: المسلمون واليهود والنصارى، ومن المجوس والمشركيين. وهؤلاء الدهرية

(١) (ع، ي، د): «الشرير».

(٢) ط. العاصمة: «ومن» خلاف الأصول.

من الفلاسفة وغيرهم يزعمون أن السماوات أزليّة قديمة لم تنزل.

وكانوا^(١) مشركو العرب يُقَرُّون بأن الله قادرٌ يفعل بمشيئته، ويجبُ دعاء الدّاعي إذا دعاه، وهؤلاء المتفلسفة الدّهريّة عندهم أن الله لا يفعل شيئاً بمشيئته، ولا يجب دعاء الدّاعي، بل ولا يعلم الجزئيات، فلا يعرف^(٢) هذا الدّاعي من هذا الدّاعي، ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمّد وغيرهم بأعيانهم من رسله، بل منهم من ينكر علمه مطلقاً، كأرسطو وأتباعه، ومنهم من يقول: إنما يعلم الكلّيات، كابن سينا وأمثاله.

ومعلومٌ أن كلّ موجودٍ في الخارج فهو جزءٌ معيّن، فإن لم يَعْلَمْ إلا الكلّيات لم يَعْلَمْ شيئاً من الموجودات المعيّنة، لا الأفلاك ولا الأملاك ولا غير ذلك من الموجودات بأعيانها.

والدعاء عندهم هو تصرف النفس القويّة في هيولى العالم^(٣)، كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله، وزعموا أن اللوح المحفوظ هو النفس الفلكيّة، وأن حوادث الأرض كلّها إنما تحدث عن حركة الفلك، كما قد بُسِط الردُّ عليهم في غير هذا الموضع^(٤).

والمقصود هنا أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهاً آخر مساوياً له في الصّفات والأفعال، بل ولا كانوا يقولون: إن الكواكب والشمس والقمر خلّقت العالم، ولا أن الأصنام تخلق شيئاً من العالم.

(١) كذا في الأصول، على لغة «يتعاقبون فيكم ملائكة»، ولها نظائر في كتب المصنف.

(٢) (ت): «ولا يعرف».

(٣) الهيولى لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة. «المعجم الفلسفي» (٧٤١).

(٤) انظر: «بغية المرتاد» (٣٢٦)، و«درء التعارض» (١٠ / ١٨٩)، و«الرد على المنطقيين» (٤٧٤)، و«الرد على الشاذلي» (٣٨).

ومن ظنَّ أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر ربُّ العالمين، أو أن الخليل ﷺ لمَّا قال: «هذا ربِّي» أراد به ربَّ العالمين، فقد غلط غلطاً بيّناً، بل قوم إبراهيم كانوا مُقرِّين بالصَّانع، وكانوا يشركون بعبادته، كأمثالهم من المشركين.

قال تعالى عن الخليل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكِفِينَ ۖ قَال هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ قَالُوا لَا يَسْمَعُونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَال أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ قَالُوا إِنَّا نَحْنُ وَإِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۖ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۖ وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۖ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۖ قَالُوا لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۖ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ آتِنَا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ۖ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۖ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۖ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۖ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرِمُونَ ۖ فَمَالَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۖ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۖ [الشعراء: ٦٩ - ١٠١].

فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدوُّ لكلِّ ما يعبدونه إلا لربِّ العالمين، وأخبر أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ إِذْ نُسَوِّكُمْ﴾ يعني: آلهتهم^(١) ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]، كما قال تعالى في الموضع

(١) «يعني آلهتهم» من ط. النيل.

الآخر: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

ولهذا^(١) قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَفَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]، ولم يقل: من المعطلين؛ فإن قومه كانوا يشركون، ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين، فلم يكونوا جاحدين للصانع، بل عدلوا به، وجعلوا له أندادًا في العبادة والمحبة والدعاء.

وهذا كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال: ﴿لَا تَجْعَلْ^(٢) مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢].

وقال تعالى فيما حكاه عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤].

قال ابن عباس وغيره من العلماء: هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم عبدوها^(٣).

(١) من ط. النيل.

(٢) في الأصول: «لا تدع»، وهو سبق قلم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنه، وروي معناه عن غير واحد من السلف. انظر: «الدر المنثور» (٧١٢/١٤). وليس فيه أنهم عكفوا على قبورهم.

وهكذا عند النصارى عن المسيح ﷺ في كتاب «سِرِّ بَطْرُس» الذي يسمّى بشمعون وسمعان^(١) والصّفا وبطرس^(٢)، والأربعة لمسمّى واحد، عندهم عنه كتابٌ عن المسيح، فيه أسرار العلوم، وهذا فيه^(٣) عن المسيح.

فالذي تفعله النصارى أصل عبادة الأوثان، وهكذا قال عالمهم الكبير الذي يسمونه «فم الذهب»^(٤) - وهو من أكبر علمائهم - لمّا ذكر تولّد الذنوب الكبار عن الصّغار، قال: وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لمّا أكرم الناس أشخاصًا يعظم بعضهم بعضًا فوق المقدار الذي ينبغي، الأحياء منهم والأموات.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧].

قال طائفة من العلماء: كان أقوامٌ يدعون الملائكة والأنبياء، كالعزير والمسيح وغيرهما^(٥)، فبين الله ﷻ أن هؤلاء عباده كما أنتم عباده، يرجون

(١) (د، ع، ي): «وشمعان».

(٢) وهو أفضل الحواريين علمًا وزهدًا وأدبًا، كما يقول الشهرستاني في «الملل والنحل» (٢٦/٢)، وخليفة يسوع والمرأس على سائر التلاميذ الاثني عشر والسبعين، كما يقول المسعودي في «التنبيه والإشراف» (١٠٩).

(٣) ط. النيل: «وهذا فيه عندهم».

(٤) ولد في أنطاكية، واختير أسقفًا للقسطنطينية، اسمه يوحنا، ولقب بفم الذهب لفصاحته وبلاغة عبارته، له مقالات ورسائل وتفسير للإنجيل. توفي سنة ٤٠٧ م. انظر: «تاريخ مختصر الدول» لابن العبري (٨٤)، و«كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى» لأسد رستم (١/٢٥٩ - ٢٨٦)، و«تاريخ الأمة القبطية» (٢/٨٦).

(٥) انظر: «الدر المنثور» (٩/٣٨٤).

رحمته كما ترجون رحمته، ويخافون عذابه كما تخافون عذابه، ويتقربون إليه كما تتقربون إليه.

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠].

فبين تعالى أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافرٌ مع اعتقاده أنهم مخلوقون، فإنه لم يقل أحدٌ قط: إن جميع الملائكة والأنبياء مشاركون لله سبحانه في خلق العالم.

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: تسألهم: من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم يعبدون غيره^(١).

وقد قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥] في غير موضع، فأخبر تعالى عن المشركين أنهم كانوا يُقرُّون بأن خالق العالم واحد، مع اتخاذهم آلهةً يعبدونهم من دونه سبحانه، يتخذونهم شفعاءً إليه، أو يتقربون بهم إليه.

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/٣٧٣، ٣٧٤).

فصل

وكذلك تعظيمهم للصليب، واستحلالهم لحم الخنزير، وتعبدهم بالزهبانية، وامتناعهم من الختان، وتركهم طهارة الحدث والخبث، فلا يوجبون غُسلَ جنابةٍ ولا وضوءًا، ولا يوجبون اجتناب شيءٍ من الخبائث في صلاتهم، لا عَذْرَةَ ولا بولًا ولا غير ذلك من الخبائث، إلى غير ذلك = كلُّها شرائعُ أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح ﷺ، ودان بها أئمتهم وجمهورهم، ولعنوا من خالفهم فيها، حتى صار المتمسك فيهم بدين المسيح المحض مغلوبًا مقموعًا قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ، وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصًا عن المسيح ﷺ.

وأما المسلمون، فكلُّ ما أجمعوا عليه إجماعًا ظاهرًا تعرفه العامة والخاصة فهو منقولٌ عن نبيِّهم ﷺ، لم يُحدث ذلك أحدٌ بعده^(١) لا باجتهاده ولا بغير اجتهاده، بل ما قطعنا بإجماع أمة محمد ﷺ فإنه يوجد مأخوذًا عن نبيِّهم.

وأما ما يُظنُّ فيه إجماعهم ولا يُقطعُ به، فمنه ما يكون ذلك^(٢) الظنُّ خطأً، ويكون بينهم فيه نزاع، ثم قد يكون^(٣) نصُّ الرسول ﷺ مع هذا القول، وقد يكون مع هذا القول. ومنه ما يكون ظنُّ الإجماع عليه صوابًا، ويكون فيه عن النبي ﷺ أثرٌ خفيت معرفته أو دلالته على بعض الناس.

وذلك أن الله ﷻ أكمل الدينَ بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وبينه وبلغه البلاغ المبين، فلا تحتاج أمته إلى أحدٍ بعده يغيِّر شيئًا من دينه، وإنما تحتاج إلى معرفة دينه الذي بُعثَ به فقط، وأمته لا تجتمع على ضلالة، بل لا يزال في أمته

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) من ط. النيل.

(٣) في طرة (ع، د) إشارة إلى أن في نسخة: «بل قد يكون».

طائفة قائمة بالحق حتى تقوم الساعة، فإن الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فأظهره بالحجة والبيان، وأظهره باليد والسنان، ولا يزال في أمته أمة ظاهرة بهذا وهذا حتى تقوم الساعة.

والمقصود هنا أن ما أجمعت عليه الأمة إجماعاً ظاهراً تعرفه العامة والخاصة فهو منقول عن نبيهم ﷺ.

ونحن لا نشهد بالعصمة إلا لمجموع الأمة، وأما كثير من طوائف الأمة ففيهم بدع مخالفة للرسول، وبعضها من جنس بدع اليهود والنصارى، وفيهم فجورٌ ومعاصي، لكن رسول الله ﷺ بريء من ذلك، كما قال تعالى له: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

وذلك مثل إجماعهم على أن محمداً ﷺ أرسل إلى جميع الأمم أهل الكتاب وغير أهل الكتاب، فإن هذا تلقوه عن نبيهم ﷺ، وهو منقول عندهم نقلاً متواتراً يعلمونه بالضرورة.

وكذلك إجماعهم على استقبال الكعبة البيت الحرام في صلاتهم، فإن هذا الإجماع منهم على ذلك مستند إلى النقل المتواتر عن نبيهم، وهو مذكور في كتابهم. وكذلك الإجماع على وجوب الصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق الذي بناه إبراهيم خليل الرحمن، ودعا الناس إلى حجّه، وحجّته الأنبياء، حتى حجّه موسى بن عمران ويونس بن متى وغيرهما، وإجماعهم على وجوب الاغتسال من الجنابة، وتحريم الخبائث، وإيجاب

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الطهارة للصلاة = فإن هذا كله ممّا تلقّوه^(١) عن نبيّهم، وهو منقولٌ عنه ﷺ نقلًا متواترًا، وهو مذكورٌ في القرآن.

وأما النصارى، فليست الصلوات التي يصلّونها منقولةً عن المسيح ﷺ، ولا الصّوم الذي يصومونه منقولًا عن المسيح، بل جعل أولهم الصّوم أربعين يومًا، ثم زادوا فيه عشرة أيام ونقلوه إلى الرّبيع، وليس هذا منقولًا عندهم عن المسيح ﷺ.

وكذلك حجّهم لقُمامة^(٢)، وبيت لحم، وكنيسة صيّدنايا^(٣)، ليس شيءٌ من ذلك منقولًا عن المسيح ﷺ.

بل وكذلك عامّة أعيادهم، مثل: عيد القلّندس^(٤)، وعيد الميلاد، وعيد الغطاس^(٥) - وهو القداس -، وعيد الخميس^(٦)، وعيد الصّليب الذي

(١) (ت): «نقلوه»، وأصلحت في طرة الأصل.

(٢) (د، ي، ع): «للقمامة». وهي أعظم كنيسة للنصارى ببيت المقدس، في وسط البلد، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها، والصحيح أن اسمها قمامة؛ لأنها كانت مزبلة أهل البلد. انظر: «معجم البلدان» (٣٩٦/٤). وسيذكر المصنف (١٥٦/٢) أنه ليس لها ذكرٌ في كتب الأنبياء، وإنما ظهرت في زمن قسطنطين الملك.

(٣) وهي أعظم مزاراتهم بعد القمامة وبيت لحم حيث وُلِدَ المسيح ﷺ، وتقع شمال غرب دمشق، وسيأتي خبر حيلتهم فيها (٤٩٢/١).

(٤) وهو رأس السنة وتمام الأسبوع من ولادة مريم، واللفظة لاتينية Kalendae. انظر: «مروج الذهب» (٤٠٦/٣)، و«النصرانية وآدابها» للويس شيخو (٩٦).

(٥) زعموا أن يحيى عمّد عيسى عليهما السلام فيه في نهر الأردن، فالنصارى يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم. انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١١/٢)، و«صبح الأعشى» (٤٥٥/٢). ولم يصب المعلق على ط. العاصمة في التعريف به.

(٦) ويسمى عيد العنصرة، ويحتفلون به بعد خمسين يومًا من عيد الفصح، ويقولون: إن روح القدس حلّت بالتلاميذ وتفرقت عليهم السنة النَّاس فتكلموا بجميعها. انظر: «نهاية الأرب» (١٩١/١)، و«صبح الأعشى» (٤٥٥/٢).

جعلوه في وقت ظهور الصليب لمّا أظهرته هيلانة الحرّانيّة الفندقيّة أمّ قُسطنطين بعد مئتين من السنين^(١)، وعيد الخميس والجمعة والسّبت التي في آخر صومهم، وغير ذلك من أعيادهم التي رتبوها على أحوال المسيح، والأعياد التي ابتدعوها لكبرائهم = فإن ذلك كلّ من بدعهم التي ابتدعوها بلا كتاب نزل من الله تعالى.

بل هم يبنون الكنائس على اسم بعض من يعظّمونه، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ: أنهم «إذا مات فيهم الرجل الصّالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوّروا فيه تلك التّصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»^(٢).

وهذا بخلاف المساجد التي تبنى لله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، والنصارى كأشباههم من المشركين يخشون غير الله، ويدعون غير الله.

(١) ط. النيل: «بعد المسيح ﷺ بمائتين من السنين». وما في الأصول أولى؛ وسيأتي أن هيلانة أظهرت الصليب المزعوم وصنعت لوقت ظهوره عيدًا، وذلك زمن الملك قسطنطين بعد المسيح والحواريين بأكثر من ثلاثمئة سنة. وانظر: «تثبيت دلائل النبوة» للقاضي عبد الجبار (٩٣/١)، و«البداية والنهاية» (٦٦١/٩).

(٢) تقدم تخريجه (١٧٦/١).

فصل

والمقصود هنا أن الذي يَدِينُ به المسلمون من أن مُحَمَّدًا ﷺ بُعِثَ رَسُولًا إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، أَهْلُ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُسْتَحَقٌّ لِعَذَابِ اللَّهِ مُسْتَحَقٌّ لِلْجِهَادِ، وَهُوَ مِمَّا أَجْمَعَ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِذَلِكَ، وَذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَبَيَّنَّ الرَّسُولُ أَيْضًا فِي الْحِكْمَةِ الْمُنْزَلَةِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الْكِتَابِ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَلَمْ يَبْتَدِعِ الْمُسْلِمُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، كَمَا ابْتَدَعَتِ النَّصَارَى كَثِيرًا مِنْ دِينِهِمْ، بَلْ أَكْثَرَ دِينِهِمْ، وَبَدَّلُوا دِينَ الْمَسِيحِ وَغَيْرُوهُ.

ولهذا كَانَ كُفْرُ النَّصَارَى لَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِثْلَ كُفْرِ الْيَهُودِ لَمَّا بُعِثَ الْمَسِيحُ ﷺ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ بَدَّلُوا شَرَعَ التَّوْرَةِ قَبْلَ مَجِيءِ الْمَسِيحِ، فَكَفَرُوا بِذَلِكَ، وَلَمَّا بُعِثَ الْمَسِيحُ إِلَيْهِمْ كَذَّبُوهُ، فَصَارُوا كُفَّارًا بِتَبْدِيلِ مَعَانِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَأَحْكَامِهِ، وَبِتَكْذِيبِ الْكِتَابِ الثَّانِي.

وكذلك النَّصَارَى كَانُوا بَدَّلُوا دِينَ الْمَسِيحِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَابْتَدَعُوا مِنَ الثَّلَاثِ وَالْإِتِّحَادِ وَتَغْيِيرِ شَرَائِعِ الْإِنْجِيلِ أَشْيَاءَ لَمْ يُبْعَثْ بِهَا الْمَسِيحُ ﷺ، بَلْ تَخَالَفَ مَا بُعِثَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا فِي ذَلِكَ فِرْقًا مُتَعَدِّدَةً، وَكَفَرُوا فِيهَا بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَذَّبُوهُ، فَصَارُوا كُفَّارًا بِتَبْدِيلِ مَعَانِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَأَحْكَامِهِ، وَبِتَكْذِيبِ الْكِتَابِ الثَّانِي، كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ: إِنْ دِينُهُمْ مَبْدُلٌ مَنْسُوخٌ.

وَإِنْ كَانَ قَلِيلٌ مِنَ النَّصَارَى كَانُوا عِنْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَتَمَسِّكِينَ بِدِينِ الْمَسِيحِ كَمَا كَانَ الَّذِينَ لَمْ يَبَدِّلُوا دِينَ الْمَسِيحِ كُلَّهُ عَلَى الْحَقِّ، فَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ كَانَ مُتَبَعًا لَشَرَعَ التَّوْرَةِ عِنْدَ مَبْعَثِ الْمَسِيحِ كَانَ مَتَمَسِّكًا بِالْحَقِّ كَسَائِرِ مَنْ اتَّبَعَ

موسى، فلمَّا بُعِثَ المسيحُ صار كُلُّ من لم يؤمن به كافرًا، وكذلك لمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ صار كُلُّ من لم يؤمن به كافرًا.

والمقصود في هذا المقام بيان ما بُعِثَ به مُحَمَّدٌ ﷺ من عموم رسالته، وأنه هو نفسه الذي أَخْبَرَ أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم، وأنه نفسه ﷺ دعا أهل الكتاب، وجاهدهم، وأمر بجهادهم.

فمن قال بعد هذا من أهل الكتاب اليهود والنصارى: إنه لم يُبْعَثْ إلينا، بمعنى أنه لم يقل: إنه مبعوثٌ إلينا، كان مكابرًا جاحدًا للضرورة، مفتريًا على الرسول فريةً ظاهرةً تعرفها الخاصّة والعامة، وكان جحده لهذا^(١) كما لو جحد أنه جاء بالقرآن، أو شرع الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام.

وجحدُ مُحَمَّدٍ ﷺ وما تواتر عنه أعظمُ من جحد أتباع الحواريين للمسيح ﷺ، وإرساله لهم إلى الأمم، ومجيئه بالإنجيل، ومجيء موسى ﷺ بالتوراة، وجحد أنه كان يَسْبِت؛ فإن النقل عن مُحَمَّدٍ ﷺ مدته^(٢) قريبة، والناقلون عنه أضعاف أضعاف من نقل دين المسيح عنه، وأضعاف أضعاف من اتّصل به نقل دين موسى ﷺ؛ فإن أمة مُحَمَّدٍ ﷺ ما زالوا كثيرين منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، وما زال فيهم من هو ظاهرٌ بالدين منصورٌ على الأعداء، بخلاف بني إسرائيل فإنهم زال ملكُهم في أثناء الأمر^(٣) لمَّا خرب بيت المقدس الخراب الأول بعد داود ﷺ،

(١) ط. النيل: «جحد لها».

(٢) (د، ي، ع): «مدة».

(٣) ط. النيل: «المدة».

ونقص عدد من نقل دينهم، حتى قد قيل: إنه لم يبق من يحفظ التوراة إلا واحد^(١).

والمسيح ﷺ لم ينقل دينه عنه إلا عدد قليل، لكن النصارى يزعمون أنهم رسل الله معصومون، مثل: إبراهيم وموسى، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله تعالى إذا وصلنا إليه^(٢)، إذ المقصود هنا بيان [أن] من زعم أن محمدًا ﷺ كان يقول: «إنه لم يُبعث إلا إلى مشركي العرب» فإنه في غاية الجهل والضلال، أو غاية المكابرة والمعاندة؛ فإن هذا أعظم جهلاً وعناداً ممن ينكر أنه كان يأمر بالطهارة والغسل من الجنابة، ويحرّم الخمر والخنزير، وأعظم جهلاً وعناداً ممن ينكر ما تواتر من أمر المسيح وموسى عليهما السلام، وقد ظهر بهذا بطلان قولهم: «علّمنا أنه لم يأت إلينا، بل إلى جاهليّة العرب»^(٣).

(١) وهو عزيز. انظر: تفسير البيضاوي (٣/٧٨)، وتفسير ابن كثير (٥/٤٨).

(٢) (١/٣٠٢، ٣١١، ٤٢٥ - ٤٣٣).

(٣) رسالة بولس الأنطاكي المتقدمة (١/٤٠).

فصل

فإذا عُرِفَ هذا، فاحتجاج هؤلاء بالآيات التي ظنُّوا دلالتها على أن نبوته خاصّةٌ بالعرب تدلُّ على أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحدٍ على مقصوده ومراده، وأنهم ممّن قيل فيه: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فليسوا أهلاً أن يحتجُّوا بالتوراة والإنجيل والزبور على مراد الأنبياء، وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء على مراد الأنبياء عليهم السّلام، بل ولا يحتجُّون بكلام الأطباء والفلاسفة والنُّحاة وعلم أهل الحساب والهيئة على مقاصدهم.

فإنّ النَّاسَ كلَّهم متّفقون على أن لغة العرب من أفصح لغات آدميين وأصحّها^(١)، ومتّفقون على أن القرآن في أعلى درجات البيان والبلاغة والفصاحة، وفي القرآن من الدلالات الكثيرة على مقصود الرسول ﷺ التي يذكّر فيها أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم ما لا يُحصى إلا بكُلْفَةٍ، ثم مع ذلك من النُّقول المتواترة عن سيرته ﷺ في دعائه لأهل الكتاب، وأمره لهم بالإيمان به، وجهاده لهم إذا كفروا به، ما لا يخفى على من له أدنى خبرة بسيرته ﷺ، وهذا أمرٌ قد امتلأ العالمُ به، وسمعه القاصي والداني.

فإذا كان النَّاسُ المؤمنُ به وغير المؤمن به يعلمون أنه كان يقول: «إنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم»، وأن ظهور مقصوده بذلك ممّا تعلمه بالاضطرار الخاصّة والعامة، ثم شرعوا يظنُّون أنه كان يقول: «إني لم أبعث إلا إلى العرب»، واستمرَّ على ذلك حتى مات، دلَّ على فساد نظرهم وعقلهم،

(١) (ي، د، ع): «وأفصحها»، والمثبت من ط. النيل.

أو على عنادهم ومكابرتهم.

وكان الواجب إذ لم يكن لهم^(١) معرفة بمعاني^(٢) هذه الآيات التي استدلوأ بها على خصوص رسالته أن يعتقدوا أحد أمرين: إما أن لها معاني توافق ما كان يقوله، أو أنها من المنسوخ.

فقد عَلمت العامة والخاصة أن محمدًا ﷺ كان يصلي بعد هجرته إلى بيت المقدس نحو سنة ونصف، ثم أمر بالصلاة إلى الكعبة البيت الحرام، والنصارى يوافقونا^(٣) على أن شرائع الأنبياء فيها ناسخ ومنسوخ، مع أن ما ذكروه من الآيات ليس منسوخًا.

ولكن المقصود أن المعلوم من حال الرسول ﷺ علمًا ضروريًا يقينًا متواترًا لا يجوز دفعه؛ فإن العلم بأنه كان يقول: «إنه رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق» معلوم لكل من عرف أخباره ﷺ سواء صدقه أو كذبه، والعلم بأنه كان يقول: «إنه رسول الله إلى جميع الناس» ممكن قبل أن يُعلم أنه نبي أو ليس بنبي، كما أن العلم بنبوته وصدقه ممكن قبل أن يُعلم عموم رسالته، فليس العلم بأحدهما موقوفًا على الآخر، ولهذا كان كثير ممن يكذبه يعلم أنه كان يقول: «إنه رسول الله إلى جميع الخلق»، وطائفة ممن تُقر بنبوته وصدقه لا تُقر بأنه رسول إلى جميع الخلق.

والمقصود هنا الكلام مع هؤلاء بأن العلم بعموم دعوته لجميع الخلق - أهل الكتاب وغيرهم - هو متواتر معلوم بالاضطرار، كالعلم بنفس مبعثه ودعائه الخلق إلى الإيمان به وطاعته، وكالعلم بهجرته من مكة إلى المدينة،

(١) ط. العاصمة: «له»، وهو خطأ مخالف الأصول. ط. النيل: «إذا لم يكن لهم».

(٢) (د، ع، ي): «معاني»، والمثبت من ط. النيل.

(٣) ط. النيل والعاصمة: «يوافقون».

ومجيئه بهذا القرآن، والصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق، وإيجاب الصدق^(١) والعدل، وتحريم الظلم والفواحش، وغير ذلك مما جاء به محمد ﷺ.

فإن قيل: بل في القرآن ما يقتضي أن رسالته خاصّة، وفيه ما يقتضي أن رسالته عامّة، وهذا تناقض.

قيل: هذا باطل، ويُعلم بطلانه^(٢) قبل العلم بنبوّته؛ فإنه من المعلوم لكلّ أحد آمن به أو كذّبه أنه كان من أعظم النّاس عقلاً وسياسةً وخبرة، وكان مقصوده دعوة الخلق إلى طاعته واتباعه، وكان يقرأ هذا^(٣) القرآن على جميع النّاس، ويأمر بتبليغه إلى جميع الأمم، وكلّ^(٤) من طلب منه أن يؤمّنه حتى يقرأ عليه القرآن من الكفّار وجب عليه أن يجيبه ولو كان مشركاً، فكيف إذا كان كتابياً؟! كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا آمَنَهُ﴾^(٥) ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون^(٦) [التوبة: ٦]. وكان قد أظهر أنه مبعوثٌ إلى أهل الكتاب وسائر الخلق، وأنه رسولٌ إلى الثقلين الجنّ والإنس. فيمتنع مع هذا أن يُظهر ما يدلُّ على أنه لم يُبعث إليهم، فإن هذا لا يفعله من له أدنى عقل؛ لمناقضته لمراده، فكيف يفعله مثل هذا الذي اتّفقت^(٦) عقلاء الأمم على أنه أعقل الخلق، وأحسنهم سياسةً وشرعةً؟!

(١) (ع): «الصدقة».

(٢) (ت): «هذا يعلم بطلانه».

(٣) ليست في (ت).

(٤) ط. العاصمة: «وكان» خلاف الأصول.

(٥) في الأصول: «يعقلون»، وهو سهو.

(٦) (ع، ي، د): «مثل من اتفقت»، والمثبت من (ت).

وأيضًا، فكان أصحابه والمقاتلون معه لعدوّه^(١) يَنْفِرُونَ عنه، وقد كان عادتهم أن يستشكلوا ما هو دون هذا، وهذا لم يستشكله أحد.

ثم بعد هذا^(٢)، فلو قُدِّرَ أن في القرآن ما يدلُّ على أنه لم يُبْعَثْ إلا إلى العرب، وفيه ما يدلُّ على أنه بُعِثَ إلى سائر الخلق، كان هذا دليلًا على أنه أُرْسِلَ إلى غيرهم بعد أن لم يُرْسَلْ إلا إليهم، وأن الله عَمَّ بدعوته بعد أن كانت خاصّة.

فلا مناقضة بين هذا وهذا، فكيف وليس في القرآن آيةٌ واحدةٌ تدلُّ على اختصاص رسالته بالعرب، وإنما فيه إثبات رسالته إليهم، كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش، وليس هذا مناقضًا لهذا.

وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾^(٣) [النساء: ٤٧]، كما فيه إثبات رسالته إلى بني إسرائيل كقوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وليس هذا التخصيص لليهود^(٤) منافيًا لذلك التعميم.

وفي رسالته خطابٌ لليهود تارةً وللنصارى تارة، وليس خطابه لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضًا لخطابه للأخرى ودعوته لها.

وفي كتابه خطابٌ للذين آمنوا من أمّته في دعوته لهم إلى شرائع دينه، وليس في ذلك مناقضةٌ بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم.

(١) ط. العاصمة: «معه بعد ذلك»، وهو خطأ مخالف الأصول.

(٢) «ثم بعد هذا» ليست في (ي).

(٣) الأصول: «يا أهل الكتاب آمنوا بما أنزلنا»، وهو سهو.

(٤) ليست في (ي، ع)، وضرب عليها في (د)، وأثبتها من (ت).

وفي كتابه أمرٌ بقتال أهل الكتاب النصارى حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، ثم لم يكن هذا مانعاً أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، بل هذا الحكم ثابتٌ في المجوس بسنته واتفاق أمته، وإن قيل: إنهم ليسوا من أهل الكتاب.

فهذا كله ممّا يُعلم بالاضطرار من دينه قبل العلم بنبوّته، فكيف ونحن نتكلّم على تقدير نبوّته، والنبّي لا يتناقض قوله؟!!

وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلوماً بالاضطرار قبل العلم بنبوّته وبعد العلم بنبوّته، فالعلم الضروريّ اليقينيّ لا يعارضه شيء، ولكن هذا شأن الذين في قلوبهم زيغٌ من أهل البدع النصارى وغيرهم، يتبعون المتشابه ويدعون المُحكّم.

وبسبب مناظرة النصارى للنبّي ﷺ بالمتشابه، وعدولهم عن المُحكّم، أنزل الله ﷻ فيهم: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

والتأويل: يراد به تفسير القرآن، ومعرفة معانيه، وهذا يعلمه الراسخون،

ويراد به ما استأثر الربُّ بعلمه من معرفة كُنْهه، وكُنْه^(١) ما وَعَدَ به، ووقت السَّاعة، ونحو ذلك ممَّا لا يعلمه إلا الله^(٢).

والضُّلَّال يذكرون آياتٍ تشبه عليهم معرفة^(٣) معانيها، فيتَّبَعون تأويلها^(٤) ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وليسوا من الرَّاسخين في العلم الذين يعلمون تأويلها، مع أن هؤلاء الآيات التي ذكروها^(٥) من أوضح الآيات.

وهذا الذي سلَّكه في القرآن هو نظيرُ ما سلَّكه في الكتب المتقدِّمة وكلام الأنبياء من التَّوراة والإنجيل والزُّبور وغيرها؛ فإن فيها من النصوص الكثيرة الصَّريحة بتوحيد الله وعبوديَّة المسيح ما لا يحصى إلا بكُلْفَةٍ، وفيها كلماتٌ قليلةٌ فيها اشتباه، فتمسَّكوا بالقليل المتشابه الخفيِّ المُشكِـل من الكتب المتقدِّمة، وتركوا الكثير المُحَكَّم المُبَيَّن^(٦) الواضح.

فهم سلَّكوا في القرآن ما سلَّكه في الكتب المتقدِّمة، لكنَّ تلك الكتب يُقَرُّون بنبوَّة أصحابها ومحمَّدٌ ﷺ هم فيه مضطربون متناقضون، فأَيُّ قولٍ قالوه فيه ظهر فسادُه وكذبهم فيه إذا لم يؤمنوا بجميع ما أنزل إليه.

وإن قالوا: كلامه متناقض، ونحن نحتجُّ بما يوافق قولنا، إذ مقصودنا بيان تناقضه.

(١) (ت، ع): «وكنه معرفة»، وفي طرة (د) إشارة إلى أنها كذلك في نسخة، وضرب على «معرفة» في (ي).

(٢) انظر: «الانتصار لأهل الأثر» (٩٩) والمصادر المذكورة بحاشيته.

(٣) ليست في (د، ع).

(٤) كذا في الأصول. والوجه أن تكون: «فيتبعونها».

(٥) «التي ذكروها» ليست في (و).

(٦) (د، ي، ع): «البين».

قيل لهم^(١): عن هذا أجوبة:

أحدها: أنه في الكتب المتقدمة ممّا يُظنُّ أنه متعارضٌ أضعافُ ما في القرآن وأقربُ إلى التناقض، فإذا كانت تلك الكتب متّفقةً لا تناقض فيها، وإنما يُظنُّ تناقضها من يجهل معانيها ومراد الرُّسل، فيكون كما قيل:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السّقيم^(٢)

فكيف القرآن الذي هو أفضل الكتب؟!

الثاني: أنهم متمسّكون بالمتشابه في تلك الكتب، ومخالفون المُحكّم منها، كما فعلوه بالقرآن وأبلغ.

الثالث: أنه إذا^(٣) كان ما جاء به متناقضاً لم يكن رسول الله؛ فإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفاً متناقضاً، وإنما يتناقض ما جاء^(٤) من عند غير الله، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُكُرْءَانَ^٥ وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فكلُّ كتابٍ ليس من عند الله لا بدَّ أن يكون فيه تناقض، وما كان من عند الله لا يتناقض. وحينئذٍ، فإن كان متناقضاً لم يَجُزْ لهم الاحتجاجُ بشيءٍ منه؛ فإنه ليس من عند الله. وإن لم يكن متناقضاً ثبت أن ما فيه من عموم رسالته وأنه رسولٌ إليهم ليس^(٥) فيه شيءٌ يناقضه؛ فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض.

(١) (ي، ع): «كان» موضع «قيل لهم»، وفي طرة (د) إشارة إلى أنها في نسخة.

(٢) البيت للمتنبّي في ديوانه (٢١٦).

(٣) (د، ي، ع): «من»، وضرب عليها في (ي).

(٤) (ع): «جاء به»، وألحقت «به» في (ت).

(٥) ط. العاصمة: «فليس»، وهو خطأ مخالف للأصول.

الرابع: أنا نبيّن أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافي ما فيه من أنه أُرسِل إلى العرب، كما أن ما فيه من إنذار عشيرته الأقربين وأمر قريش لا ينافي ما فيه من دعوة سائر العرب؛ فإن تخصيص بعض العام بالذكر إذا كان له سبب يقتضي التّخصيص لم يدلّ على أن ما سوى المذكور يخالفه^(١)، وهذا الذي يسمى «مفهوم المخالفة» و«دليل الخطاب».

والناس كلّهم متّفقون على أن التخصيص بالذكر متى كان له سبب يوجب الذكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن للاسم^(٢) اللقب مفهوم، بل ولا للصفة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ فإنه نهاهم عن ذلك لأنه هو الذي كانوا يفعلونه، وقد حرّم في موضع آخر قتل النفس بغير حقّ، سواء كان ولدًا أو غيره، ولم يكن ذلك مناقضًا لتخصيص الولد بالذكر^(٣).
الخامس: أنه في ذلك أسوة المسيح^(٤) ﷺ؛ فإن المسيح خصّ أولًا بالدعوة، ثم عمّ.

كما قال^(٥) في الإنجيل: «ما بُعثت وأُرسِلت إلا لبني إسرائيل»، وقال أيضًا في الإنجيل: «ما بُعثت إلا لهذا الشعب الخبيث»^(٦).

ثم عمّ، فقال لتلاميذه حين أرسلهم كما في الإنجيل: «كما بعثني

(١) (ت، ي، و): «مخالفة».

(٢) (ت): «لاسم». وكلاهما صحيح.

(٣) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ٤٦٤)، و«منهاج السنة» (٧/ ٣٣١)، و«الاستقامة»

(١/ ٢٩٤)، و«الرد على البكري» (٢/ ٤٦١)، و«مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٣٨).

(٤) أي: مثله. وفي ط. العاصمة: «أسوة بالمسيح» خلاف الأصول.

(٥) ط. العاصمة: «قيل» خلاف الأصول.

(٦) في إنجيل متى (١٥: ٢٤): «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»، ونحوه في (١٠: ٦).

أبي أبعثُ بكم، فمن قبلكم فقد قبِلني»^(١).

وقال^(٢): «أرسلني أبي، وأنا أرسلكم»^(٣).

وقال^(٤): «كما أفعل أنا بكم، كذلك افعلوا أنتم بعباد الله، فسيروا في البلاد، وعمّدوا النَّاس باسم الأب والابن والروح القدس، ولا يكون لأحدكم ثوبان، ولا يحمل معه فضّة ولا ذهباً ولا عصاً ولا حذاء»^(٥).

ونحو ذلك ممّا هو في الأناجيل التي بين أيديهم من تخصيص الدّعوة ثمّ تعميمها، وهو صادقٌ في ذلك كلّ، فكيف يسوغ لهم إنكار ما في الإنجيل عن المسيح نظيره؟!

ثم يقال في بيان الحال: إن الله تعالى بعث محمّداً ﷺ كما بعث المسيح وغيره، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل^(٦) - كما يُذكر^(٧) في موضعه -، فأمره بتبليغ رسالته بحسب الإمكان إلى طائفةٍ بعد طائفة، وأمر بتبليغ الأقرب منه مكاناً ونسباً، ثم بتبليغ طائفةٍ بعد طائفة، حتّى تبلغ النّذارة إلى جميع أهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: من بلغه القرآن، فكلُّ من بلغه القرآن فقد أنذره محمّداً ﷺ.

(١) إنجيل متى (١٠: ٤٠)، إنجيل يوحنا (١٣: ٢٠).

(٢) في طرة (د) إشارة إلى أن في نسخة: «وقد» موضع «وقال».

(٣) إنجيل يوحنا (٢٠: ٢١).

(٤) إنجيل متى (٢٨: ١٦ - ٢٠)، إنجيل لوقا (٩: ٣).

(٥) مهملة في (ي، و)، (ت، ع، د): «حذا»، وفي طرة (ت) بقلم حديث: «حرابة»، وأثبت به في ط. النيل والعاصمة، وهو خطأ. وفي إنجيل لوقا: «خبزاً». والمثبت من الأصول يوافق ما في إنجيل برنابا (٢٥: ١٦ - ١٨): «فليكفكم إذن ثوبٌ واحد، ارموا كيسكم، لا تحملوا مزوداً ولا حذاءً في أرجلكم».

(٦) (ع، د): «وأشهر»، تحريف.

(٧) (ي): «نذكر».

وتبيّن^(١) هنا أن النذارة ليست مختصة بمن شافهم بالخطاب، بل ينذرهم به وينذر من بلغهم القرآن، فأمره الله ﷻ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين وهم قريش، فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ولمّا أنزل الله عليه هذه الآية انطلق ﷺ إلى مكانٍ عالٍ فعلا عليه، ثم جعل ينادي: «يا بني عبد مناف، إني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثلي رجلٍ رأى العدو، فانطلق يرباً^(٢) أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه، يا صباحاه»^(٣).

وهذه القصة رواها ابن عباس، وأبو هريرة، وعائشة، وغيرهم في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن والمسانيد والتفسير.

قال ابن عباس: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (ورهلك منهم المخلصين)^(٤)، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» -لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مُصدّقين؟» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً، ما جرّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد»^(٥).

(١) مهملة في (ي)، (و): «ويبين».

(٢) (ت، ع): «يريد». وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة. ويرباً أهله: أي يحفظهم من عدوهم، والربيئة: الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو. «النهاية» (رباً).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٧) من حديث قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) قال القرطبي (٨٣/١٦): «ظاهر هذا أنه كان قرأنا يتلى، وأنه نُسخ، إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر». وانظر: «إكمال المعلم» (١/٥٩٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

وقال أبو هريرة: لَمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا، فعَمَّ وَخَصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سَابُلُهَا بِبِلَالِهَا»^(١).

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ على الصِّفا، فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمّة رسول الله، يا عباس عمّ رسول الله لا أملك لكم من الله شيئًا»^(٢).

وقال ابن إسحاق^(٣): لَمَّا نزلت هذه الآية جعل النبي ﷺ ينادي: «يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة»، حتى عدّ الأفخاذ من قريش، ثم قال: «إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الله شيئًا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟! تبّا لك سائر اليوم، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْلَمٍ﴾ [المسد: ١ - ٥].

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٥).

(٣) لم أقف عليه من طريقه. وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/١٦٩) من حديث داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ودعا قريشاً إلى الله، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿قريش: ١ - ٣﴾.

وقد أنزل الله عليه في غير موضع أمر جميع الخلق بعبادته، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١)، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وقريش هم قومه الذين كذبه جمهورهم أولاً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، كما أن جمهور بني إسرائيل وهم قوم المسيح كذبوه أولاً.

ثم أمره الله تعالى أن يدعو سائر العرب، فكان يخرج بنفسه ومعه^(١) أبو بكر صديقهُ إلى قبائل العرب قبيلةً قبيلةً، وكانت العرب لم تزل تحج البيت من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام، فكان يبيتهم في منازلهم بمنى، وعكاظ، ومَجَنَّة، وذِي الْمَجَاز، فلا يجد أحداً إلا دعاه إلى الله، ويقول: «يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم»^(٢)، أمرهم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما يُعبد من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به، يا أيها الناس إن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربِّي، فمن يمنعني لأبلغ^(٣) كلام ربِّي؟ ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربِّي، يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذلل لكم

(١) ليست في (د، ع).

(٢) ليست في (ع، و، د). وفي (ي): «إليكم جميعاً».

(٣) (ت، و): «أن أبلغ».

بها العجم» فيقولون: يا محمد، أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! إن أمرك هذا لعجب^(١).

وما زال رسول الله ﷺ يُعلن دعوته، ويُظهر رسالته، ويدعو الخلق إليها، وهم يؤذونه ويجادلونه ويكلمونه، ويردّون عليه بأقبح الرّدِّ، وهو صابرٌ على أذاهم، ويقول: «اللهم لك الحمد، لو شئت لم يكونوا هكذا»^(٢).

فلما اشتدَّ عليه أمرُ قريش خرج إلى الطائف - وهي مدينةٌ معروفةٌ شرقي مكة بينهما نحو ليلتين - ومعه زيد بن حارثة، ومكث بها عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه في منزله وكلمه ودعاه إلى التوحيد، فلم يُجِبْه أحدٌ منهم، وخافوه على أحداثهم، وأغروا به سفهاءهم^(٣)، فجعلوا يرمونه بالحجارة إذا مشى، حتى إن رجله لتدْميان، وزيدٌ مولاه يقيه بنفسه، حتى ألجؤوه^(٤) إلى ظلِّ كَرَمَةٍ في حائطٍ لعبة وشيبة ابني ربيعة، فرجع عنه من كان^(٥) تبعه من سفهائهم، فدعا، فقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوِّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ

(١) لم أجده مجموعاً بهذا السياق. وأخرج صدره وبعض آخره ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٨٤) من طريق الواقدي. وأخرج قوله: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» أحمد (١٥١٩٢)، وابن ماجه (٢٠١)، وأبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥) من حديث جابر رضي الله عنه بسند صحيح. وأخرج آخره ابن إسحاق (١/ ٤١٧ - سيرة ابن هشام) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) جزء من الحديث السابق عند ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٨٤).

(٣) (ت): «فأغروا سفهاءهم».

(٤) ط. العاصمة: «ألجأوا» خلاف الأصول.

(٥) (ي، ت، و): «ما كان».

عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له
الظلمات، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ
سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رأى ابنا ربيعة ما صنّع به رثيا له، وقالوا لغلام لهما يقال له: عدّاس -
وكان نصرانياً-: خذ قطفاً من عنب، ثم اجعله في طبق، ثم اذهب إلى ذلك
الرجل يأكله، ففعل عدّاس، وأقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما
وضع رسول الله ﷺ يده، قال: «بسم الله»، ثم أكل، فنظر عدّاس إلى وجهه، ثم
قال له: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ:
«من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟»، فقال عدّاس: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل
نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: «أمن قرية الصّالح يونس بن متى؟»، فقال
له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها
عشرة يعرفون متى، من أين عرفت أنت متى وأنت أمي وفي أمّة أميّة؟ فقال
رسول الله ﷺ: «هو أخي، كان نبياً، وأنا نبي»، فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ
يقبّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رجع عدّاس فقالوا: ويلك يا عدّاس، مالك تقبّل
رأس هذا الرجل ويديه ورجليه^(١)، فقال: يا سيدي، ما في الأرض خير من هذا
الرجل^(٢)، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي^(٣).

(١) «ويديه ورجليه» ليست في (د، ع).

(٢) ليست في (ي، د، ع).

(٣) «السيرة» لابن هشام (٦٠ / ٢ - ٦٣) من حديث ابن إسحاق عن يزيد بن زياد عن
محمّد بن كعب القرظي مرسلًا، ومن طريقه ابن جرير في التاريخ (٣٤٤ / ٢)، وابن الأثير
في «أسد الغابة» (٥٠١ / ٣).

وله شواهد تقويه من مرسل الزهري عند البيهقي في «دلائل النبوة» (٤٣ / ٢)، ومرسل
عروة بن الزبير عند أبي نعيم في «دلائل النبوة» (٢٩٥)، ومرسل سليمان التيمي عند ابن
منده في «المستخرج من كتب الناس للتذكرة» (٧٣ / ١).

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة وهو محزون، إذ^(١) لم يستجب له رجلٌ واحدٌ ولا امرأة، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل^(٢) عليهم يا رسول الله وقد فعلوا وفعلوا؟! فقال: «يا زيد، إن الله ﷻ جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرٌ دينه ومُظهرٌ نبيه»^(٣).

ثم ذكر ابن إسحاق^(٤) دخوله إلى مكة، وكان رسول الله ﷺ لما لقي من أهل مكة والطائف ما لقي، ودعا بالدعاء المتقدم، نزل عليه جبريل ومعه ملكُ الجبال، كما في «صحيح البخاري»^(٥) أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومٍ أحد؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ، فإذا فيها جبريل، فناداني: إن الله قد سمع قول قومك وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم». قال: «فناداني ملكُ الجبال وسَلَّمَ عليَّ، ثم قال: يا محمَّد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملكُ الجبال قد بعثني

= وأخرج الدعاء والخبر مختصراً الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٣ / ١٣)، و«الدعاء» (١٠٣٦) بسند حسن من طريق ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، وخرجه الضياء في «المختارة» (١٨١ / ٩). وانظر تنمة تخريجه في التعليق على «الوابل الصيب» (١١٥-١١٦).

(١) ليست في (و)، وألحقت في (ت، ي).

(٢) (ع): «ندخل».

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١٨٠ / ١) من طريق الواقدي عن محمد بن جبير بن مطعم مرسلًا.

(٤) «السيرة» لابن هشام (٦٣ / ٢).

(٥) (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

رَبُّكَ^(١) إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأُخْشَبَيْنِ»، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ^(٢)».

وأخرج مسلمٌ في صحيحه^(٣) عن أبي هريرة: أنه قيل للنبي ﷺ: ادعُ الله على المشركين، فقال: «إني لم أُبْعَثْ لِعَانًا، وإنما بُعِثْتُ رَحْمَةً».

وفي الصحيحين^(٤) عن خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ، أنه قال: لَمَّا اشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَيْنَا مِنَ الْمَشْرِكِينَ أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْنَا: أَلَا تَدْعُ اللهَ لَنَا؟ أَلَا تَسْتَنْصِرُ اللهَ لَنَا؟ فقال: «لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يَوْخَذُ الرَّجُلُ فَيُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُجَاءُ بِالْمُنْشَارِ فَيُجْعَلُ فَوْقَ رَأْسِهِ حَتَّى يُجْعَلَ فِرْقَتَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ وَعَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلِيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخْشَى إِلَّا اللهَ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

وَذَكَرَ^(٥) مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالْإِغْرَاءِ، وَهُوَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُظْهِرٌ لِأَمْرِ اللهِ، مَبْلَغٌ^(٦) رِسَالَتِهِ، لَا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةٌ لَا تَمُ، مُوَاجَهٌ لِقَوْمِهِ بِمَا يَكْرَهُونَ مِنْ عَيْبِ دِينِهِمْ وَأَلْهَتِهِمْ، وَتَضْلِيلِ آبَائِهِمْ، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِهِمْ، وَإِظْهَارِ عِدَاوَتِهِمْ^(٧)، وَقِتَالِهِ إِيَّاهُمْ = مَا بَلَغَ مَبْلَغَ الْقَطْعِ.

(١) (د، ع): «ربي».

(٢) كذا في الأصول، وهي رواية في مستخرج أبي عوانة (١٤ / ٥٤٢). ورواية الصحيحين: «لا يشرك به»، وسترده كذلك في آخر الكتاب (٤ / ٥٣٦).

(٣) (٢٥٩٩).

(٤) صحيح البخاري (٣٦١٢) وهو من أفرادهِ كما في «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (٣ / ٣٦٣).

(٥) ابن إسحاق.

(٦) (ي، و): «بتبليغ».

(٧) (و): «عداوته».

قال عكرمة، عن ابن عباس: ولَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا^(١) حَضَرَ
 الْمَوْسِمُ حَجَّ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاَنْتَهَى النَّبِيُّ ﷺ إِلَى فَرِيقٍ مِنْهُمْ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ
 الْقُرْآنَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِالَّذِي آتَاهُ اللَّهُ، فَأَيَقَنُوا وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى
 دَعْوَتِهِ، وَعَرَفُوا مَا كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ بِصِفَتِهِ وَمَا
 يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَصَدَّقُوهُ وَآمَنُوا بِهِ، وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ الَّذِي سَأَقَ اللَّهُ
 لِلْأَنْصَارِ^(٢) مَا كَانُوا^(٣) يَسْمَعُونَ مِنَ الْأَخْبَارِ فِي صِفَتِهِ، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ
 جَعَلُوا يَدْعُوهُمْ سِرًّا، وَيُخْبِرُونَهُمْ بِأَقْوَالِ^(٤) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ
 النُّورِ وَالْهُدَى وَالْقُرْآنَ، فَأَسْلَمُوا، حَتَّى قَلَّ^(٥) دَارٌ مِنْ دُورِهِمْ إِلَّا أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ
 لَا مُحَالَةَ^(٦).

وقد^(٧) ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يُخْبِرُونَ بِهِ
 الْعَرَبَ وَيَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ مُقَرِّينَ بِنَبَوَّتِهِ، مُخْبِرِينَ بِهَا

(١) ليست في (ي، د، ع).

(٢) (و): «سَأَقَ اللَّهُ بِهِ الْأَنْصَارَ».

(٣) أي: أن ما سمعه الأنصار من أهل الكتاب من صفة النبي ﷺ كان من أسباب إيمانهم وما
 سَأَقَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ. وفي (ت): «إِلَى مَا كَانُوا». والعبارة مختلفة في المصادر التالية،
 ورواية البيهقي: «فلما سمعوا قوله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه، وعرفوا
 ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فصدقوه واتبعوه، وكانوا من أسباب الخير
 الذي سُبِّحَ لَهُ ﷺ».

(٤) (د، ع): «بأحوال»، وكُتِبَتْ فِي طَرَةِ (ت) بغير خط النَّاسِخِ.

(٥) زيد في (و) فوق السطر: «أن يوجد»، وليست في سائر الأصول والمصادر.

(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٦٢ / ٢٠)، ومن طريقه أبو نعيم في «دلائل النبوة»
 (٣٠٦) من حديث ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير مرسلًا، وفي سنده
 ضعف. انظر: «مجمع الزوائد» (٤٠ / ٦). ومن مرسل الزهري، أخرجه البيهقي في «دلائل
 النبوة» (٤٣٠ / ٢).

(٧) (ع، د): «قال وقد».

مبشرين بها قبل أن يُبعث، فقال تعالى فيما يخاطب^(١) به أهل الكتاب: ﴿وَلَقَدْ
 ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
 وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ
 وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
 وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى
 الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾
 يَسْكَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِيدٌ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا
 وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۚ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿البقرة: ٨٧ - ٩١﴾.

فقد أخبر تعالى أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون على العرب بمحمد ﷺ
 قبل أن يُبعث، أي يستنصرون به، وكانوا هم والعرب يقتتلون، فتغلبهم العرب،
 فيقولون: سوف يُبعث النبي الأمي من ولد إسماعيل فتتبعه ونقتلكم معه شرَّ
 قتلة، وكانوا ينعتونه بنعوته، وأخبارهم بذلك كثيرة متواترة، وكما قال تعالى:
 ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وأخبر بما كانت عليه اليهود من أنه كلما جاءهم رسول^(٢) بما لا تهوى
 أنفسهم كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم.

(١) (د، ع): «خاطب».

(٢) ط. العاصمة: «رسول الله» خلاف الأصول.

وأخبر أنهم باءوا بغضبٍ على غضبٍ؛ فإنهم ما زالوا يفعلون ما يُغضب الله عليهم:

فإما أن يراد بالتَّثنية [تكرُّر] غضب الله عليهم^(١).

وإما أن يراد به مرَّتان، والغضبُ الأول تكذيبهم للمسيح والإنجيل، والغضبُ الثاني لمحمَّد والقرآن^(٢).

(١) فهو غضبٌ بعد غضب بحسب تكرُّر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وليس المراد التثنية التي تشفع الواحد. انظر: «بدائع الفوائد» (٢/٤٣٦).

وزادت ط. النيل وتبعثها المطبوعات: «تأكيد» قبل «غضب الله» وليست في الأصول، وزيادة «تكرُّر» أشبه بالصواب.

(٢) هذا آخر الجزء الأول من الأصل (ت)، وهو آخر ما وصلنا منه.

فصل

وكان يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته ﷺ، ومعجزاته تزيد على ألف معجزة^(١)، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات، ومثل القرآن المعجز، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله وبشارة الأنبياء به، ومثل أخبار الكهّان والهواتف به، ومثل قصة الفيل التي جعلها الله آية عام مولده، وما جرى عام مولده من العجائب الدالة على نبوته، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي تُرجمُ بها الشياطين بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه، ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحدٌ إلا بتعليم الله ﷻ من غير أن يعلمه إياها بشر، فأخبرهم بالماضي مثل قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم، وبالمستقبلات.

وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلّم من أهل الكتاب ولا غيرهم، ولم يكن بمكة أحدٌ من علماء أهل الكتاب ممّن يتعلّم هو منه، بل ولا كان يجتمع بأحدٍ منهم يعرف اللسان العربيّ، ولا كان هو يُحسنُ لساناً غير العربيّ، ولا كان يكتب كتاباً، ولا يقرأ كتاباً مكتوباً.

ولا سافر قبل نبوته إلا سفرتين:

سفرة وهو صغيرٌ مع عمّه أبي طالب، لم يفارقه، ولا اجتمع بأحدٍ من أهل الكتاب ولا غيرهم.

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٢١٢).

وذكر النووي في مقدمة «شرح مسلم» (٢/١) أن معجزات النبي ﷺ تزيد على الألف والمئتين، وفي «تهذيب الأسماء» (٣٣/١): «تبلغ ألوفاً». وقال البيهقي: بلغت ألفاً، وقال الزاهدي من الحنفية: ظهر على يديه ألف معجزة، وقيل: ثلاثة آلاف. انظر: «فتح الباري» (٥٨٢/٦)، و«الشفاء» للقاضي عياض (٣١٣، ٤٦٤).

وسفرة أخرى وهو كبيرٌ مع رَكْبٍ من قريش، لم يفارقهم، ولا اجتمع بأحدٍ من أهل الكتاب.

وأخبر من كان معه بإخبار أهل الكتاب بنبوته، مثل إخبار بحيرا الراهب بنبوته وما ظهر لهم منه ممّا دلّهم^(١) على نبوته، ولهذا تزوّجت به خديجة^(٢) قبل نبوته لِمَا أُخْبِرَتْ به من أحواله.

وهذه الأمور مبسّطةٌ في موضعٍ آخر^(٣).

ولكن المقصود هنا التنبيه بأن محمّداً ﷺ له معجزاتٌ كثيرة، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرّة^(٤)، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم^(٥)، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير، وهذا قد جرى غير مرّة له^(٦).

ولأمّته من الآيات ما يطول وصفه، فكان بعض أتباعه يحيي الله له الموتى من الناس والدوابّ^(٧)، وبعض أتباعه يمشي بالعسكر الكثير على البحر حتى

(١) (و): «ما دلّهم».

(٢) (د، ع): «خديجة بنت خويلد».

(٣) سيأتي الكلام عليها في آخر الكتاب.

(٤) أخرجه البخاري (١٦٩، ٣٥٧٩، ٤١٥٢) من حديث أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٦١٨، ٣٥٧٨، ٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩، ٢٠٤٠، ٢٠٥٦) من حديث أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري (٣٤٤، ٣٥٧٧)، ومسلم (٦٨١، ٦٨٢، ١٧٢٩) من حديث البراء بن عازب وسلمة بن الأكوع وعمران بن حصين رضي الله عنه.

(٧) كما وقع لصلة بن أشيم وغيره. انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٢٢٥)، و«البداية والنهاية» (٤٩/٩، ٥٠).

يَعْبُرُوا إِلَى النّاحِيَةِ الْآخَرَى^(١)، وَمِنْهُمْ مَنْ أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَصَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا^(٢)، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ^(٣).

ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما في القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمر الماضي خبراً مفصلاً لا يعلمه أحدٌ إلا أن يكون نبياً أو مَنْ أخبره نبياً، وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحدٌ من البشر، وهذا ممّا قامت به الحجّة عليهم، وهم مع قوّة عداوتهم له وحرصهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعناً يُقْبَلُ منهم، وكان علمُ سائر الأمم بأن قومه المُعَادِينَ له المجتهدين في الطعن عليه وهم^(٤) لم يمكنهم أن يقولوا: إن هذه الغيوب علّمه إياها^(٥) بشرٌ يوجبُ^(٦) على جميع الخلق^(٧) أن يتحقّقوا^(٨) أن هذا لم يعلمه إياها بشر.

ولهذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه، وقومه تُقَرُّ بذلك، ولم يتعلّم من أحدٍ غير قومه. ولهذا لمّا^(٩) زعم بعضهم أنه تعلّم من بشرٍ ظهر كذبُه لكلِّ أحد، كما قال

(١) كما جرى للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه وغيره. انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ٥٤، ٣١٠-٣١٧).

(٢) كما تقدم في قصة أبي مسلم الخولاني (١/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٢١٣-٢٢٩).

(٤) ليست في (و).

(٥) (و): «علمها إياه».

(٦) الجملة الفعلية خبر كان. وفي (و): «فوجب».

(٧) (د، ع): «على علم جميع الخلق».

(٨) «أن يتحقّقوا» كتبت في (و) فوق السطر، وليست في باقي الأصول.

(٩) ساقطة من ط. العاصمة.

تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿النحل: ٩٨ - ١٠٣﴾.

وكان بمكة رجلٌ أعجميٌّ مملوكٌ لبعض قريش، فادَّعى بعض الناس أن محمّداً كان يتعلّم من ذلك الأعجمي^(١)، فبيّن الله أن هذا كذبٌ ظاهر، فإن ذلك رجلٌ أعجميٌّ لا يمكنه أن يتكلّم بكلمةٍ من هذا القرآن العربيّ، ومحمّدٌ ﷺ عربيٌّ لا يعرف شيئاً من ألسنة العجم، فمن كلّمه بغير العربية لا يفقه كلامه، فلا ذاك الرجلُ يُحسِنُ التكلّم بالعربية، ولا محمّدٌ ﷺ يفهم كلاماً بغير العربية، فلهذا قال تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي^(٢): يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علّم محمّداً ﴿أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

وكذلك قال بعض الناس عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ آفَرتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ﴾ قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا﴾ ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿الفرقان: ٤ - ٦﴾.

(١) ط. النيل: «الرجل الأعجمي»، وفي طرة (د) أنها كذلك في نسخة.

(٢) ليست في (ي).

فَبَيَّنَ سَبْحَانَهُ أَنَّ قَوْلَ هَذَا مِنَ الْكَذْبِ الظَّاهِرِ الْمَعْلُومِ لِأَعْدَائِهِ فَضْلًا عَنْ
أَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي قَوْمِهِ وَلَا فِي
بَلَدِهِ مَنْ يُحْسِنُ ذَلِكَ لِيُعِينَهُ عَلَيْهِ؛ فَلهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ فَإِنْ
جَمِيعُ أَهْلِ بَلَدِهِ وَقَوْمِهِ الْمُعَادِينَ لَهُ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا ظُلْمٌ لَهُ وَزُورٌ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ
هَذَا أَحَدٌ مِنْ عِقْلَائِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ.

وَكذلك قولهم: ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلِي عَلَيْهِ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا﴾، فَإِنْ قَوْمُهُ الْمَكْذِبِينَ لَهُ^(١) يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ مَنْ يُمْلِي عَلَيْهِ
كِتَابًا.

وَقَدْ بَيَّنَّ مَا يُظْهَرُ كَذِبُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾؛ فَإِنْ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَسْرَارِ مَا لَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ إِلَّا بِإِعْلَامِ اللَّهِ إِيَّاهُ، فَإِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

ثُمَّ لَمَّا تَبَيَّنَ^(٢) بَطْلَانُ قَوْلِهِمْ هَذَا ذَكَرَ مَا قَدَحُوا بِهِ فِي نَبَوَّتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى:
﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۖ﴾ (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾
[الفرقان: ٧، ٨] فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيه في الأسواق التي
يُبَاعُ فِيهَا مَا يُوْكَلُ وَمَا يُلْبَسُ، وَقَالُوا: هَلَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا، أَوْ
يَسْتَغْنِي عَنْ ذَلِكَ بِكَنْزٍ يَنْفَقُ مِنْهُ أَوْ جَنَّةٍ يَأْكُلُ مِنْهَا، ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا لَرَجُلٍ مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

(١) ط. النيل: «المعادين له».

(٢) في طرة (د) إشارة إلى أن في نسخة: «بَيَّنَّ».

قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، يقول: مثّلوكم بالكاذب وبالمسحور^(١) والناقل عن غيره، وكلُّ من قال^(٢) هذه الأقوال يَظْهَرُ كَذْبُهُ^(٣) لكلِّ من عرفك.

ولهذا قال تعالى ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، والضَّالُّ: الجاهل العادل عن الطريق، فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم في المناظرة.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، فإنه أتاهاهم بجليّة^(٤) ما في الصُّحُفِ الْأُولَىٰ^(٥)، كالتّوراة والإنجيل، مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئاً، فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبيُّ أو من أخبره نبيُّ، وهم يعلمون أنه لم يَعْلَمْ ذلك بخبر أحدٍ من الأنبياء، تبين لهم أنه نبيُّ، وتبين ذلك لسائر الأمم؛ فإنه إذا كان قومه الْمُعَادِينَ^(٦) له وغير المُعَادِينَ له مُقَرَّرِينَ بأنه لم يجتمع بأحدٍ يَعْلَمُهُ ذلك صار هذا منقولاً بالتواتر، وكان ممّا أقرَّ به مخالفوه مع حرصهم على الطَّعن لو أمكن.

فهذه الأخبار بالغيوب المتقدّمة قامت بها الحجّة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك.

(١) ط. العاصمة: «والمسحور» خلاف الأصول.

(٢) من ط. النيل، وليست في سائر الأصول.

(٣) (ي): «كذبها».

(٤) (ع): «جملية»، (د): «جليّة»، وهي مهملة في (ي)، والمثبت من ط. النيل.

(٥) من قوله: «فإنه أتاهاهم» إلى هنا ساقط من (و) لانتقال نظر الناسخ.

(٦) كذا في الأصول، وفي ط. النيل: «المعادون»، وهي الجادة.

وقد أخبر بالغيوب المستقبل، وهذه تقوم بها الحجة على من عرف
تصديق ذلك الخبر، كما قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾، ثم قال:
﴿وَهُمْ ^(١) مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾
[الرُّوم: ١ - ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾
[البقرة: ٢٣ - ٢٤]، فأخبر أنهم لن يفعلوا ^(٢) ذلك في المستقبل، وكان كما أخبر.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فأخبر أنه لا يقدر
الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا الخبر قد مضى له
أكثر من سبعمئة سنة، ولم يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا
القرآن.

وقال عن الكفار وهو بمكة: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]،
وظهر تصديق ذلك يوم بدر وغيره بعد ^(٣) ذلك بسنين كثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي
الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ

(١) ط. العاصمة: «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم»، خلاف الأصول.

(٢) (و): «لم يفعلوا»، وهو خطأ.

(٣) (و): «وبعد»، وهو خطأ كسابقه، وأثبتته ط. العاصمة.

وَلْيَسْبِدْ لَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿[النور: ٥٥]﴾، وكان الأمر كما وَعَدَهُ، وظهر تصديق ذلك بعد سنين كثيرة.

وكذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّمَةٍ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان، واليد والسنان.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، فكان كما أخبرهم، غلبوا في الدنيا، كما شاهدته الناس، وهذا يصدق الخبر الآخر^(١) وهو أنهم يُحْشَرُونَ إلى جهنم وبئس المهاد.

وقد أيده تأييدًا لا يؤيد به^(٢) إلا الأنبياء، بل لم يؤيد أحد من الأنبياء كما أُيد به^(٣)، كما أنه بُعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم ﷺ.

فلا يُعْرَف قطُّ أحدٌ ادَّعى النبوة وهو كاذبٌ إلا قطع الله دابرَه، وأذَّله، وأظهر كذبه وفجوره.

وكلُّ من أيده الله من المدَّعين للنبوة لم يكن إلا صادقًا، كما أيَّد نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، بل وأيَّد شعيبًا وهودًا وصالحًا؛ فإن سنة الله أنه^(٤) ينصرُ رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وهذا هو الواقع.

(١) (و): «الأخير».

(٢) ط. النيل: «لا يؤيد».

(٣) ليست في (د، ع، ي). وفي ط. النيل: «كما أيده».

(٤) (و، ع): «أن»، وأصلحت في (د).

فمن كان لا يَعْلَم ما يفعله الله إلا بالعادة، فهذه عادة الله وسنته يُعْرَفُ^(١) بها ما يَصْنَع، ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادّعى النبوة وكذب عليه تأييداً لا يمكن أحداً معارضته.

وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب لا يُتِمُّ الله أمره، ولا ينصره، ولا يؤيده^(٢).

فصار هذا معلوماً من هذه الجهات.

ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله في الأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم، وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤١) ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (٤٢) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ (٤٣) ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٤) ﴿فَكَأَيُّ مَن قَرِيَةٍ﴾

(١) مهملة في (ي). ط. النيل: «تعرف».

(٢) (ي، د): «ويؤيده».

أَهْلَكْتُهَا^(١) وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدُ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿[الحج: ٤٥ - ٤٦]﴾.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿[الرُّوم: ٩ - ١٠]﴾.

وقال تعالى: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿[غافر: ٤ - ٥]﴾.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[غافر: ٢١ - ٢٢]﴾.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ

(١) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو، قراءة المصنف وأهل الشام لعصره.

بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ
فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥].

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ
وَإِسْحَاقُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ [ص: ١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا (١) يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾
فَقَدْ كَذَبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ [الشعراء: ٥-٦]، فأخبر أن المكذِّبين
له سيأتيهم في المستقبل أخبار القرآن الذي استهزؤوا به، وبين أن ما أخبرهم به
حقٌ بوقوع المُخْبِرِ (٢) مطابقاً للخبر، وكان الأمر كذلك.

ومثله قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]، أخبر أنه سيريهم في
أنفسهم وفي الأفاق ما يبين أن القرآن حقٌ، بأن يروا ما أخبر به كما أخبر به، ثم
قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٣﴾﴾، فإنه قد شهد (٣) للقرآن بأنه
حقٌ بالآيات البينات والبراهين الدالة على صدقه التي تتبين بشهادة الربِّ بأنه
حقٌ، فلا يحتاج مع الشَّهادة الحاضرة إلى انتظار الآيات المستقبلية.

(١) في الأصول: «ما»، وهو سهو، أو أراد الاستشهاد لا التلاوة. وفي الآية الأخرى في سورة
الأنبياء: ﴿مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّنْ رَبِّهِمْ مُحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَمُتَلَبِّثُونَ ﴿١﴾﴾.

(٢) ط. العاصمة: «الخبر»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) ط. النيل والعاصمة: «يشهد»، والمثبت من الأصول.

وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ الْنُذُرُ﴾ [القمر: ١ - ٥]، أخبر باقتراب الساعة، وانشقاق القمر، وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار^(١)، وكان النبي ﷺ يقرأ هذه السورة في المَجَامع الكبار مثل الجُمُع والأعياد^(٢)؛ لسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار، وكلُّ الناس يُقرُّ ذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامّة.

ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجْهِ وَدُسِرَ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ﴾ [القمر: ٩ - ١٥]، فأخبر أنه أبقى السفن آية على قدرة الرب وعلى ما جرى لنوح مع قومه.

ثم قال: فكيف كان عذابي لمن كذب ونُذري؟!!

وكذلك ذكر قصة عادٍ وثمود ولوط وغيرهم، يقول في عقب كل قصة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ونُذره: إنذاره^(٣)، وهو ما بلغته عنه الرُّسل من الإنذار، وكيف كانت عقوبته للمُنذرين، والإنذار هو الإعلام بالمخوف؛ فتبين بذلك صدق ما أخبرت به الرُّسل من الإنذار وشدة عذابه لمن كذب رسله.

(١) انظر: «نظم المتناثر» للكتاني (٢١١-٢١٢).

(٢) سياطي تخريجه قريباً.

(٣) (و): «وإنذاره»، وهو خطأ، واختارته ط. العاصمة.

وذكر قصة فرعون فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ عَالِ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۖ﴾ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ [القمر: ٤١ - ٤٥].

وذكر في قصة محمد ﷺ مع الناس أنواعاً من ذلك، فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فِتْنَةً تُفْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۚ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۚ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كُنَّا اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجُلَاءَ لَعَذَبْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ - ٤].

ومثل هذا كثير في القرآن من ذكر دلائل النبوة وأعلام الرسالة ليس هذا موضع بسطه، وإنما المقصود هنا التنبيه على جنس (١) ذلك.

وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونُمرود وسنحاريب وجنكسخان وغيرهم من الملوك الكافرين = جوابه ظاهر؛ فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة، وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادة الله (٢) وطاعته،

(١) (و): «جزء».

(٢) ط. النيل: «عبادته».

ومن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، بخلاف من ادّعى أن الله أرسله بذلك، فإنه لا يكون إلا رسولاً صادقاً ينصره الله ويؤيّده، وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم، أو يكون كذاباً فينتقم الله منه ويقطع دابره، ويتبين أن ما جاء به^(١) ليست من الآيات والبراهين التي لا تقبل المعارضة، بل هي من جنس مخارق السحرة والكهّان والكذّابين التي تقبل المعارضة، فإن معجزات الأنبياء من خواصّها أنه لا يقدر أحدٌ أن يعارضها ويأتي بمثلها، بخلاف غيرها، فإن معارضتها ممكنة، فتبطل^(٢) دلالتها.

والمسيح الدّجال يدّعي الإلهية، ويأتي بخوارق، ولكن نفس دعواه الإلهية دعوى ممتنعة في نفسها، ويرسل الله عليه المسيح ابن مريم فيقتله ويظهر كذبه، ومعه ما يدلُّ على كذبه من وجوه:

منها: أنه مكتوبٌ بين عينيه «كافر».

ومنها: أنه أعور، والله ليس بأعور.

ومنها: أن أحداً لن يرى ربه حتى يموت.

ويريد أن يقتل الذي قتله أولاً، فيعجز عن قتله.

فمعه من الدلائل الدّالة على كذبه ما يبين أن ما معه ليس آيةً على صدقه، بخلاف معجزات الأنبياء، فإنه لا يمكن أحداً من الإنس والجن أن يأتي بنظيرها ولا يبطلها، مثل قلب العصا حيّة لموسى، وإخراج ناقة لصالح من الأرض، وإحياء الموتى للمسيح، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمّد ﷺ.

فإن المشركين لما سألوا النبي ﷺ آيةً واقترحوا عليه انشقاق القمر،

(١) ط. العاصمة: «جاءه به»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٢) مهملة في (ي)، (د)، (و): «فيبطل».

فأراهم ذلك، وقد أخبر الله تعالى بذلك في القرآن، فقال تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ
السَّاعَةُ ۖ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ۚ (١) وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ
الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) خَلِيعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿

[القمر: ١ - ٧].

ثم ذكر تعالى ما جرى قبله للمكذّبين مع رسلهم^(١)، فذكر قصّة قوم نوح
وهود وصالح ولوط، ثم فرعون.

وهذه السّورة كان النّبي ﷺ يقرأ بها في أعظم اجتماعات النّاس عنده وهي
الأعياد، والنّاس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر، وقول المكذّبين:
إنه سحرٌ، والنّاس كلهم المؤمن به والمنافق والكافر يُقرّون على هذا لم يقل
أحدٌ منهم: إن القمر لم ينشق، ولا أنكره أحد.

وفي صحيح مسلم^(٢) أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سأل أبا واقد الليثي: ما
[كان] يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿ق
وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ ۖ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ومعلومٌ بالضرورة في مطّرد العادة أنه لو لم يكن انشقّق لأسرع النّاسُ
المؤمنون به إلى تكذيب ذلك، فضلاً عن أعدائه من الكفّار والمنافقين، لا سيّما
وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مجامعهم.

(١) «مع رسلهم» ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (٨٩١).

وأيضاً، فمعلومٌ أن محمّداً ﷺ كان من أحرص الخلق على تصديق الناس له واتباعهم إياه، مع أنه كان أخبر الناس بسياسة الخلق، فلو لم يكن القمر انشقَّ لما كان يُخبر بهذا ويقرؤه على جميع الخلق ويستدلُّ به ويجعله آيةً له؛ فإن من يكون من أقلِّ الناس خبرةً بالسياسة لا يتعمّد^(١) إلى ما يعلم جميعُ الناس أنه كاذبٌ به فيجعله من أعظم آياته الدّالة على صدقه، ويقرأه على الناس في أعظم المَجَامع^(٢).

وقال^(٣): ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾ بصيغة الفعل الماضي، ولم يقل: «قامت الساعة» ولا «ستقوم»، بل قال: ﴿أَقْرَبَتِ﴾ أي: دَنَتْ وَقَرُبَتْ، ﴿وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾ الذي هو دليلٌ على نبوة محمّدٍ وعلى إمكان انخراق^(٤) الفلك الذي هو قيام القيامة^(٥).

وهو سبحانه قرَن بين خبره باقتراب الساعة وخبره بانشقاق القمر؛ فإن مبعث محمّدٍ ﷺ هو من أشراط الساعة، وهو دليلٌ على قربها، كما قال ﷺ في الحديث الصّحيح: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وجمَعَ بين أصبعيه السَّبَّابة والوسطى^(٦).

(١) كذا في الأصول. والجادة: يعمد.

(٢) ط. العاصمة: «المجاميع»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) (ي، ع): «وهي».

(٤) ط. العاصمة: «انحراق» بالمهملة، وهو خطأ.

(٥) من قوله: «وقال اقتربت» إلى هنا لحقَّ في طرة (د) بخط شيخ الإسلام، وكتب تحته أحدهم: «هذه التخریجة بخط المصنف ﷺ».

(٦) أخرجه البخاري (٤٩٦٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥) ومسلم (٨٦٧، ٢٩٥١) من حديث سهل بن سعد وأنس بن مالك وأبي هريرة وجابر بن عبد الله ﷺ.

وقد قال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾

[محمد: ١٨].

وعلمُ السَّاعةِ أخفاها الله عن جميع خلقه، كما يُذكر ذلك عن المسيح في الإنجيل أنه لما سئل عنها، فقال: إنها لا يعلمها أحدٌ من النَّاسِ ولا الملائكة ولا الابن، وإنما يعلمها الأبُّ وحده^(١)، وهذا ممَّا يدل على أنه ليس هو ربَّ العالم.

وكذلك محمدٌ ﷺ أخبر بذلك لما سئل عنها، قال تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ۚ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: خَفِيَتْ على أهل السماوات والأرض، ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۚ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي الصَّحيح^(٢) عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «تسألوني عن السَّاعة، وإنما علمُها عند الله».

فانشقاق القمر كان آيةً على شيئين:

على صدق الرسول.

وعلى مجيء السَّاعة وإمكان انشقاق الفلك.

فإن المنكرين لقيام القيامة الكبرى - قيام النَّاسِ من قبورهم لربِّ العالمين، وانشقاق السَّمَاوَاتِ وانفطارها - سواءٌ أقرُّوا بالقيامة الصَّغرى، وأن الأرواح بعد

(١) إنجيل متى (٢٤: ٣٦)، إنجيل مرقس (١٣: ٣٢).

(٢) صحيح البخاري (٢٥٣٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الموت تنعم^(١) أو تُعَذَّب، كما هو قول الفلاسفة الإلهيين^(٢)، أو أنكروا المعاد مطلقاً، كما أنكر ذلك من أنكره من مشركي العرب والفلاسفة الطبيعيين وغيرهم = ينكرون انشقاق السماوات.

ويزعم هؤلاء الدهرية أن الأفلاك لا يجوز عليها الانشقاق، كما ذكر ذلك أرسطو وأتباعه^(٣)، وزعموا أن الانشقاق يقتضي حركة مستقيمة، وهي ممتنعة بزعمهم في الفلك المحدد؛ إذ لا خلاء وراءه عندهم، وهذا لو دلّ فإنما يدلُّ على ذلك في الفلك الأطلس لا فيما دونه، فكيف وهو باطل؟ فإن الحركة المستقيمة هناك بمنزلة جعل الأفلاك ابتداءً في هذه الأحياء التي هي فيها سواء سُمِّي خلاءً أو لم يسمَّ، كما هو مذكورٌ في غير هذا الموضع^(٤).

والمقصود هنا أنه تعالى أخبر بانشقاق القمر مع اقتراب الساعة؛ لأنه دليلٌ على إمكان انشقاق الأفلاك وانفطارها الذي هو قيام الساعة الكبرى، وهو آية على نبوة محمد ﷺ الذي هو من أشراط الساعة، والله تعالى في كتابه يجمع بين ذكر القيامة الكبرى والصغرى، كما في سورة الواقعة، ذكر في أولها القيامة الكبرى، وفي آخرها القيامة الصغرى، وذلك كثيرٌ في سور القرآن، مثل سورة ق، وسورة القيامة، وسورة التكاثر، وسورة الفجر، وغير ذلك^(٥).

(١) مهملة في (ي)، (و): «تنعم».

(٢) رسمها مشتبه في (د، و): «الالاهيين»، وجعلتها ط. العاصمة: «اللاهيين»، وهو تحريف، والتعليق عليه خطأ محض، وعلى الصواب في (ي، ع). والفلاسفة الإلهيون يثبتون معاد الأرواح ونعيمها أو عذابها. انظر: «شرح الأصبهانية» (٧٢٠)، و«مجموع الفتاوى» (٢٨٣/٤).

(٣) انظر: «الأربعين» للرازي (٤٤/٢، ٤٧).

(٤) انظر ما سيأتي (٣٤٧-٣٤٩/٤).

(٥) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (٤/٢٦٢)، و«جامع المسائل» (١١٥/٨)، وما سيأتي (٢٢٩/٤).

وقد استفاضت الأحاديثُ بانشقاق القمر، ففي الصحيحين^(١) عن ابن مسعودٍ أنه قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وفي لفظ^(٢): ونحن معه بمنى، فقال كفار قريش: سحركم ابنُ أبي كبشة، فقال رجل منهم: إن محمدًا إن كان سحر^(٣) القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلدٍ آخر: هل رأوا هذا؟ فأتوا، فسألوهم، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وعن أنس بن مالك أنه قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما، فنزلت: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأُنْشِقَ الْقَمَرُ ۝ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢]^(٤).

وهذا حديثٌ صحيحٌ مستفيض، رواه ابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس^(٥)، وهو أيضًا معروفٌ عن حذيفة^(٦).

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والروايات في الصحيح بانشقاق القمر عن ابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنس رضي الله عنهم^(٧).

(١) صحيح البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) نقله المصنف عن «الشفاء» للقاضي عياض (٣٤٤ - ٣٤٥)، وقوله: «ونحن معه بمنى» في البخاري (٣٨٦٩) ومسلم (٢٨٠٠)، وما يليه بمعناه في مسند الطيالسي (٢٩٣).

(٣) (د، ي، ع): «ساحر».

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٦٨) ومسلم (٢٨٠٢)، ونزول الآية عند الترمذي (٣٢٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٦٦) ومسلم (٢٨٠٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٩٤٤) وعبد الرزاق (٥٣٤٣).

(٧) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (١/٢٨٧).

ولمَّا زعموا أن هذا القرآن هو ألفه، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿[الطور: ٣٣، ٣٤].

ثم تحدّاهم بعشر سور، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿[هود: ١٣ - ١٤].

ثم تحدّاهم بسورة واحدة، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴿[البقرة: ٢٣]، وقال تعالى أيضًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿[يونس: ٣٨].

فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به، ثم أسجّل على جميع الخلق بالعجز^(١) إلى يوم القيامة بقوله: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿[الإسراء: ٨٨]، فأخبر من ذلك الزّمان أن الإنس والجنّ إذا اجتمعوا لا يقدرّون على معارضة القرآن بمثله، فعجز لفظه^(٢)، ومعناه ومعارفُه وعلومُه أكملُ معجزةٍ وأعظمُ شأنًا^(٣).

(١) أي أطلق عليهم الخبر بالعجز وأرسله. انظر: «الصواعق المرسلة» (٢/٤٦٦، ٤٦٨)، و«التاج» (سجل). ط. العاصمة: «سجل على جميع الخلق العجز» خلاف الأصول في الكلمتين، وإن كان المعنى قريبًا، يقال: سجّل عليه بكذا شهره ووَسَمَه.

(٢) كذا في الأصول. والمراد أنه معجزٌ بلفظه.

(٣) انظر: «التسعينية» (٨١٩)، و«المسودة» (٢٠١)، وما سيأتي (٤/١٨٧، ١٩٣).

والأمر كذلك، فإنه لم يقدر أحدٌ من العرب وغيرهم مع قوّة عداوتهم له^(١)، وحرصهم على إبطال أمره بكلّ طريق، وقدرتهم على أنواع الكلام، أن يأتوا بمثله.

وانزل الله إذ ذاك آياتٍ بيّن فيها أنه رسول^(٢) إليهم، ولم يذكر فيها أنه لم يُرسل إلى غيرهم.

فقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٣ - ٤٧].

وقال في سورة السجدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السجدة: ٣].

وقال في سورة يس: ﴿يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلُ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس: ١ - ٦].

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) ط. النيل: «رسول الله».

ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاثة^(١) نعمته على هؤلاء، وحبته عليهم بإرساله، وذكر بعض حكمته في إرساله، وذلك لا يقتضي أنه لم يرسل إلا لهذا، بل مثل هذا كثيرٌ معروفٌ في لسان العرب وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ومعلومٌ أن في هذه الدوابِّ منافعٌ غير الركوب.

وقال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ١٥
يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ ﴿[غافر: ١٥]، فقد أخبر أنه يُنْزِل الملائكة بالوحي على الأنبياء؛ لِيُنْذِرُوا يوم القيامة، وذلك لا يمنع أن يكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين، والأمر والنهي بالشرائع.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فأخبر تعالى أنه خلق العالم العلوي والسفلي؛ ليعلم العباد قدرته وعلمه، ومع هذا ففي خلق ذلك له من الحكمة أمورٌ أخرى غير علم العباد.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، ومعلومٌ أن في جعل الكعبة قِيَمًا للناس والهدي والقلائد حكمًا ومنافع أخرى.

(١) كذا في الأصول، من باب الحمل على المعنى.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ومعلوم أن في ملك الله (١) حكماً أخرى غير جزاء المحسن والمسيء. وكذلك قوله: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ [النساء: ١٦٣]. إلى قوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ومعلوم أن في إرسال الرُّسل من (٢) سعادة من آمن بهم وغيرها حكمة أخرى غير دفع حجة الخلق على الله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، ومعلوم أن في تسخيرها حكماً ومنافع غير التكبير.

وقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، ومعلوم أن لله حكماً في خلق الشمس والقمر والليل والنهار غير انتفاع بني آدم.

(١) (ع): «ملكه».

(٢) ليست في (ع، و).

وكذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]،

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وفيها حكمٌ آخرى.

وقال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ﴾

[البقرة: ٢١٣]، وفي إنزال الكتاب من هدى من اهتدى به واتَّعَظَهِ وغير ذلك مقاصدٌ غير الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا

عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨ - ٣٩]، ومعلومٌ أن في بعث^(١) الخلق يوم القيامة مقاصدٌ غير بيان المختلف في علم هؤلاء.

ومما بيَّن ذلك أنه قال في الآية التي احتجُّوا بها: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ

ءَابَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، ومعلومٌ أنه لم يُبْعَثْ لمجرّد الإنذار، بل وليبشِّر من آمن به، ولأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، وغير ذلك من مقاصد الرُّسل، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] لا ينافي كونه

لم يصفهم في موضعٍ آخر إلا بالإنذار.

وقد قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا

لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

(١) (و، ي): «مبعث».

حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ [الكهف: ١ - ٥].

وكان المسلمون مرّةً صلّوا صلاة العيد بحضرة حِصَار النَّصَارَى، فقام خطيبُهم فخطب بهذه الآية، ولمّا قرأ قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أشار إلى جند الإيمان، ولمّا قرأ قوله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أشار إلى جند الصُّلْبَانِ.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفي إنزال الكتاب والميزان حكمٌ أخرى من البشارة والإنذار وغير ذلك.

وكذلك قوله عن أهل الكهف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، وفي بعثهم حكمٌ أخرى، بدليل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّى وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴿[الجن: ٢٧ - ٢٨]، ومعلومٌ أن في ذلك مقاصد أخرى من هداية الخلق، وقيام الحجّة على من بلغهم، وغير ذلك.

وقوله: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وفيه حكمٌ أخرى من قيام الحجّة على الخلق، وضلال من ضلّ به.

ومثله قوله: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ

أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ومعلومٌ أن في ذلك مقاصد أخرى من البشارة، والأمر والنهي، وغير ذلك.

وكذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لِكَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴿[الحديد: ٢٨ - ٢٩]﴾، ومعلومٌ أن في جزاء المؤمنين مقاصد أخرى غير علم أهل الكتاب وما معه.

وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ومعلومٌ أن فيه حكمة أخرى، مثل تبشير من آمن به، والأمر والنهي، وإنذار غير هؤلاء من العرب.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿[يس: ٦٩ - ٧٠]﴾، ومعلومٌ أن فيه حكمة أخرى غير الإنذار.

وقال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، ومعلومٌ أن فيه حكمة أخرى من إنذار الخلق كلهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتبشير المؤمنين.

وقال ^(١) تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴿[الأحزاب: ٧ - ٨]﴾، ومعلومٌ أن في أخذ الميثاق حكمًا أخرى.

(١) في الأصول: «فقال»، ولعله سهو.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ١ - ٢].

وقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ إلى قوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأَ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، وكذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وفي ذلك كله حِكْمٌ أخرى.

وكذلك قوله: ﴿فَالنَّقْطَةُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وإن كانت هذه لام العاقبة، فليست العاقبة منحصرةً في ذلك، بل في ذلك من الإحسان إلى موسى وتربيته وغير ذلك حِكْمٌ أخرى.

ومثل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، وفي إرساله حِكْمٌ أخرى.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وفي إنزاله تبشيرٌ وإنذار، وأمرٌ ونهي، ووعدٌ ووعيد.

وكذلك قوله في عيسى بن مريم: ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

وكذلك قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الجاثية: ١٢]، وفيه حكمٌ آخرى، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلُكُ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

وكذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وفي كونهم وسطًا حكمٌ آخرى.

وكذلك قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وفيهما حكمٌ آخرى.

وكذلك قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وفي ذلك حكمٌ آخرى من البشارة والأمر والنهي.

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله:

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠ - ١٤١]، وفي ذلك حكمٌ آخرى.

ومثل ذلك كثيرٌ في كلام الله ﷻ وغير كلام الله، إذا ذكر حكمةً للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمةٌ أخرى، لكن لا بدّ لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبة^(١).

وهذا كالمناسبة في قوله: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]؛ فإن هؤلاء كانوا أول المُنْذَرِينَ، وأحقّهم بالإنذار، فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة، لا أنه خصّهم لانتفاء إنذار من سواهم^(٢).

وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ

عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، ومعلومٌ أنه نزل به ليكون بشيرًا، وليأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلّ الطيبات، ويحرّم الخبائث، ويضع الآصار والأغلال ﷻ.

(١) الأصول: «مناسبته». والمثبت من ط. النيل أقرب.

(٢) وانظر ما سيأتي (٢/ ١٦٤).

فصل

وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فهذا كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهذا في عمومه نزاع^(١):

فإنه إما أن يكون خطاباً لجميع الناس، ويكون المراد: إنا بعثنا إليكم رسولاً من البشر، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملكٍ من الملائكة، فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولاً بشرياً، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ - ٩].

وإما أن يكون الخطاب للعرب.

وعلى التقديرين، فإن ما تضمن ذكر إنعامه على المخاطبين بإرساله رسولاً من جنسهم، وليس في هذا ما يمنع أن يكون مرسلًا إلى غيرهم، فإنه إن كان خطاباً للإنس كلهم فهو أيضاً مرسلٌ إلى الجنّ وليس من جنسهم، فكيف

(١) قال شيخ الإسلام: «والتحقيق أنه خوطب به أولاً العرب، بل خوطب به أولاً قريش، ثم العرب، ثم سائر الناس من أهل الكتاب والأُميين غير العرب». انظر: «تفسير آيات أشكلت» (١/ ٢٣٦ - ٢٣٨)، و«الرد على المنطقيين» (٥٤٠)، و«مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٨٩ - ١٩٢).

يَمْتَنَعُ إِذَا كَانَ خُطَابًا^(١) لِلْعَرَبِ بِمَا أَمْتَنَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمْتَنَ عَلَى غَيْرِهِمْ
بِذَلِكَ!؟

فَالْعَجْمُ أَقْرَبُ إِلَى الْعَرَبِ مِنَ الْجَنِّ إِلَى الْإِنْسِ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي الْكِتَابِ
الْعَزِيزُ أَنَّ الْجَنِّ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ آمَنُوا بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ
الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ
مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ
لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِمَ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي
الْأَرْضِ ﴿٣٢﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

وَقَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا
سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَإِنَّهُ تَعَالَى جَدُّ
رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ دَكَاةٌ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَإِنَّا ظَنَنَّاهُ أَنْ
لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَإِنَّهُ دَكَاةٌ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴿٦﴾ وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا
مُتَلِثًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴿٨﴾ وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ
لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَإِنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنًا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَإِنَّا مِمَّا
الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَإِنَّا ظَنَنَّاهُ أَنْ لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ
نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهْدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا
رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَإِنَّا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾

(١) ط. النيل: «إذا كان الخطاب خطابًا».

(٢) لم ترد البسملة في (ي، ع)، وضرب عليها في (د).

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوِاسِقُونَ أَلْجَأُوا إِلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ نَسِلْهُ^(١) عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قَالَ^(٢) إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿الجن: ١ - ٢٨﴾.

ونظير هذا قوله: ﴿وَلِإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ^(٣)﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقومُه قريش، ولا يمنع أن يكون ذكرًا^(٤) لسائر العرب، بل لسائر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ - ٥٢]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الفرقان: ٨٦]، وإن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٦ - ٨٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ١ - ٢٨].

(١) مهملة في (ي)، (د، ع): «يسلكه»، والمثبت من (و) قراءة أبي عمرو.

(٢) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو.

(٣) أكملت الآية في ط. النيل والعاصمة، خلاف الأصول.

(٤) (و): «ولا يمنع أنه ذكر».

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ ^(١) ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

وهذا على أصح القولين، وأن المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ ﴿أنه ذكر لهم يذكرونه فيهدون به.﴾

وقيل: إن المراد أنه شرف لهم ^(٢). وليس بشيء؛ فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم، وليس شرفاً لجميع قومه، بل من كذب به منهم كان أحق بالذم، كما قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

بخلاف كونه تذكرة وذكرى؛ فإنه تذكرة لهم ولغيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فعم العالمين جميعهم، فقال: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ ^(٣) عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

(١) (و، ع): «بضنين»، والمثبت من (د، ي) قراءة أبي عمرو. وانظر: «درء التعارض» (١٠) / (٢١٨)، و«النبوات» (١٠٤٧)، «الرد على المنطقيين» (٢٧٨).
(٢) روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير (٢٠ / ٦٠٢)، ولم يحك سواه. وانظر: تفسير ابن كثير (٧ / ٢٢٩)، و«المحرر الوجيز» (١٣ / ٢٣٠).
(٣) الأصول وط. النيل: «أسألهم»، وهو سهو.

فصل

هذا الكلام على الوجه الأول، وهو قول من يقول: «إنه لم يقل: إنه أُرْسِلَ إلا إلى العرب»^(١).

وأما الوجه الثاني: وهو أن نقول: هو ذَكَرَ أنه رسولٌ إلى النَّاسِ كافَّةً، كما نطق به القرآن في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢) [سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقد صرَّح فيه بدعوة أهل الكتاب وبدعوة الجنِّ في غير موضع. فإذا سلَّموا أنه ذَكَرَ ذلك، ولكن كَذَّبُوهُ في ذلك، فإما أن يقرُّوا برسالته إلى العرب، أو لا يقرُّوا.

فإن أقرُّوا بأنه رسولٌ أرسله الله، لم يمكن مع ذلك تكذيبه، كما تقدَّم^(٣)، بل يجبُ الإقرار برسالته إلى جميع الخلق كما أخبر بذلك، كما تقدَّم أن من ذَكَرَ أنه رسول الله لا يكون إلا من أفضل الخلق وأصدقهم، أو من شرِّ الخلق وأكذبهم؛ فإنه إن كان صادقاً فهو من أفضلهم، وإن كان كاذباً فهو من شرِّهم، وإذا كان الله قد أرسله - ولو إلى قرية، كما أرسل يونس بن متى إلى أهل نينوى - كان من أفضل الخلق، وكان صادقاً لا يكذب على الله، ولا يقول عليه إلا الحقَّ، ولو كَذَّبَ على الله ولو في كلمة واحدة لكان من الكاذبين، لم يكن

(١) رسالة بولس الأنطاكي المتقدمة (١/ ٤٠).

(٢) زادت ط. العاصمة: «بشيراً»، وليست في الأصول.

(٣) (١/ ٥٢).

من رسل الله الصادقين، فإن الكاذب لا يكذب في كل شيء، بل في البعض، فمن كَذَبَ على الله في كلمة واحدة فقد افترى على الله الكذب، وكان من القسم الكاذبين في دعوى الرسالة لا من الصادقين.

وأيضاً، فإن مقصود الرسالة تبليغُ رسالات الله على وجهها، فإذا خلط الكذب بالصدق لم يحصل مقصود الرسالة.

وأيضاً، فإذا علم أنه كَذَبَ في بعضها لم يتميز ما صدق فيه ممَّا كَذَبَ فيه إلا بدليل آخر غير رسالته، فلا يحصل المقصود برسالته.

ولهذا أجمع أهل الملل قاطبةً على أن الرُّسل معصومون فيما يبلغونه عن الله ﷻ، لم يقل أحدٌ قط: إن من أرسله الله يكذب عليه.

وقد قال تعالى ما يبين أنه لا يُقَرُّ كاذباً عليه، قال (١) تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، ثم قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، فقوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ كلامٌ مستأنف، ليس داخلاً في جواب (٢) الشرط؛ فإنه لو كان معطوفاً على جواب الشرط لقال: (ويُحِقُّ الْحَقَّ) بالكسر لالتقاء الساكنين، كما في قوله ﴿فِرَ اللَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]، فلَمَّا قال: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ بالضم دَلَّ على أنه

(١) ط. النيل: «بقوله».

(٢) (و): «جزاء».

جملةً مستأنفةً أخبر فيها أنه تعالى يمحو الباطل كباطل الكاذبين عليه، ويحقّ الحقّ كحقّ الصادقين عليه، فمحو الباطل نظيرُ إحقاق الحق، ليس ممّا علّق بالمشيئة، بل لا بدّ منه، بخلاف الختم على قلبه، فإنه معلق بالمشيئة، ولا يجوز أن يُعلّق بالمشيئة محو الباطل كتعليق الختم، بل يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه^(١).

وقال تعالى في صيانه وإحكامه لما تبّلغه رسله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدِ الْالَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[الحج: ٥٢ - ٥٤].

وأيضاً، فإذا لم يكن أرسل إلا إلى العرب، وقد دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وكفرهم إذا لم يؤمنوا به، وجاهدتهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى ذريّاتهم^(٢)، كان ذلك ظلماً لا يفعله إلا من هو من أظلم الناس، ومن كان نبياً قد أرسله الله فهو منزّه عن هذا وهذا.

فالإقرار برسالته إلى العرب دون غيرهم، مع ما ظهر من عموم دعوته للخلق كلّهم، قولٌ متناقضٌ ظاهر الفساد، وكلّ ما دلّ عليه أنه رسولٌ فإنه يستلزم رسالته إلى جميع الخلق، وكلّ من اعترف بأنه رسولٌ لزمه الاعترافُ

(١) انظر: «النبوات» (٨٩٩)، وتفسير ابن جرير (٢٠ / ٥٠٤).

(٢) (ع): «ذريّتهم»، وفي طرة (د) إشارة إلى أنها في نسخة.

بأنه رسولٌ إلى جميع الخلق، وإلا لزم أن يكون الله أرسل رسولاً يفترى عليه الكذب، ويقول للناس: إن الله أمركم بالتباعي، وأمرني بجهادكم إذا لم تفعلوا، وهو كاذبٌ في ذلك، ومعلومٌ أن كلَّ ما دلَّ على أن الله أرسله فإنه يدُلُّ على أنه صادقٌ في الرسالة، وإلا فلا، فالرسولُ الكاذبُ لا يحصل به مقصود الرسالة، بل يكون من جملة المفترين على الله الكذب، وأولئك ليسوا من رسل الله، ولا يجوز تصديقهم في قولهم: إن الله أرسلهم.

فصل

وأما إن لم^(١) يُقَرُّوا برسالته إلى العرب ولا غيرهم، بل قالوا فيه ما كان يقوله مشركو العرب من أنه شاعرٌ أو ساحرٌ أو مفترٍ كاذب ونحو ذلك، فيقال لهم على هذا التقدير: فدليلكم أيضًا باطل، ولا يجوز أن تحتجُّوا بتقدير تكذيبكم لمحمد ﷺ بشيءٍ من كلام الأنبياء قبله، سواء صدَّقتُم محمدًا ﷺ في جميع ما يقوله أو في بعضه أو كذَّبتموه، فدليلكم باطل، فيلزم بطلان دينكم على كلِّ تقدير، وما ثبت بطلانه على كلِّ تقدير فهو باطلٌ في نفس الأمر، فيثبت أنه باطلٌ في نفس الأمر.

وذلك أنكم إذا كذبتُم محمدًا لم يبق لكم طريقٌ تعلمون به صدق غيره من الأنبياء، فيمتنع مع تكذيبه القولُ بصدق غيره، بل من اعتقد كذبه وصدق غيره لم يكن عالمًا بصدق غيره، بل يكون مصدِّقًا لهم بغير علم، وإذا لم يكن عالمًا بصدقهم لم يجز احتجاجه قطُّ بأقوالهم، بل ذلك قولٌ منه بلا علم، ومحااجةٌ فيما^(٢) لا علم له بها.

فإن الدلائل الدالة على صدق محمد ﷺ أعظمُ وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى، ومعجزاته أعظمُ من معجزات غيره، والكتاب الذي أُرسل به أشرفُ من الكتاب الذي بُعث به غيره، والشريعة التي جاء بها أكملُ من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام، وأُمَّته أكملُ في جميع الفضائل^(٣) من أمة هذا وهذا، ولا يوجد في التوراة والإنجيل علمٌ نافعٌ وعملٌ صالحٌ إلا وهو في القرآن أو مثله أو أكمل^(٤) منه، وفي القرآن من العلم النافع

(١) (و): «وإما أن لا».

(٢) ليست في (و).

(٣) (ع): «التفاصيل».

(٤) ساقطة من ط. العاصمة.

والعمل الصّالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل، فما من مطعنٍ من مطاعن أعداء الأنبياء يُطعنُ به على محمّد ﷺ إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى.

وهذه جملةٌ مبسوطةٌ في موضع آخر^(١)، لم نبسطها هنا؛ لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلى ذلك، فيمتنع الإقرار بنبوّة موسى وعيسى عليهما السّلام مع التكذيب بنبوّة محمّد ﷺ، ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل النّاس وأضلّهم، أو من أعظمهم عنادًا واتباعًا لهواه.

وذلك أن هؤلاء القوم^(٢) احتجّوا بما نقلوه عن الأنبياء، ولم يذكروا الأدلة الدّالة على صدقهم، بل أخذوا ذلك مسلّمًا، وطلبوا أن يحتجّوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله، وبما نقلوه عنه على صحة دينهم.

وهذه حجةٌ داحضة، سواء صدّقه أو كذّبه، فإن صدّقه بطل دينهم وإن كذّبه بطل دينهم؛ فإنهم إن صدّقه فقد علّم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته، كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرّسل، وأنه أبطل ما هم عليه من الاتّحاد وغيره، وكفرهم في غير موضع.

ولهذا كان مجرّد التصديق بأن محمّدًا رسول الله - ولو إلى العرب - يوجب بطلان دين النّصارى واليهود وكلّ دينٍ يخالف دينه؛ فإن كان رسولاً لله فإنه لا يكذب على الله، ومحمّد ﷺ قد علّم أنه دعا النّصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم، وأنه كفر من لم يؤمن به ووعدّه النار، وهذا متواترٌ عنه تواترًا تعلمه العامّة والخاصّة.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٠١ - ٢٠٨)، وما سيأتي (١/ ٢٦٠، ٢٧٥).

(٢) (و): «وهؤلاء القوم».

وفي القرآن من ذلك ما يذكره، كما قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ^(١) لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ
﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ١ - ٨].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَمَا اُخْتَلَفَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ
لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٨ - ٢٠].

وقد ذكر كفر اليهود والنصارى في غير موضع، كقوله تعالى عن النصارى:
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى أيضاً: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

(١) سقطت البسملة من ط. العاصمة، وهي ثابتة في جميع الأصول.

مَرِيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرِيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

وقال تعالى: ﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَن عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٥]

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ لَا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

فقد قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢] في موضعين^(١)، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوَ خَيْرًا لَكُمْ ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠].

والنصارى قالت الأقوال الثلاثة، فذكر الله عنهم هذه الأقوال^(٢)، لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم، وهذا قول طائفة منهم، وهذا قول طائفة منهم^(٣)، كما ذكره طائفة من المفسرين كابن جرير الطبري والثعلبي

(١) ط. العاصمة: «الموضعين» خلاف الأصول.

(٢) هذه الجملة متقدمة على التي قبلها في (د، ي، ع).

(٣) «وهذا قول طائفة منهم» الثالثة ساقطة من ط. العاصمة. وفي (ع، د) هاهنا زيادة يشبه أنها كانت في مسودة المصنف ثم ضرب عليها، وسيأتي مضمونها بعد، وهي: «وقولهم ثالث =

وغيرهما^(١)، وظنَّ ابن جرير الطبري أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقوبية، والنسطورية، والمَلَكِيَّة^(٢).

ثم تارةً يحكون عن اليعقوبية أن عيسى هو الله، وعن النسطورية أنه ابن الله، وعن المَرْقُوسِيَّة^(٣) أنه ثالث ثلاثة، وتارةً يحكون عن النسطورية أنه ثالث ثلاثة، وعن المَلَكِيَّة أنه الله، ويفسِّرون قولهم: «ثالث ثلاثة» بالأب والابن وروح القدس^(٤).

والصواب^(٥) أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة: المَلَكِيَّة، واليعقوبية، والنسطورية؛ فإن هذه الطوائف كلُّها تقول بالأقانيم الثلاثة: الأب والابن وروح القدس^(٦)، فتقول: إن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح: إنه الله، وتقول: إنه ابن الله، وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والنَّاسُوت، وأن المتَّحد هو الكلمة، ومتفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك، وهو قولهم: «نؤمن بإله واحد، أب، ضابط الكل، خالق السماوات

= ثلاثة قول النسطورية، وقولهم إنه ابن الله قول الملكانية، ومنهم من يقول قوله إن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقوبية، وقولهم والابن وروح القدس».

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٨/٥٧٩، ٥٨٠)، والبغوي (٢/٣١٣)، و«الكشف والبيان» للثعلبي (١١/٩٢، ٢٤١، ٤٤٩، ١٣/٢٩٧، ١٧/٣٨٣).

(٢) من قوله: «وظن ابن جرير» إلى هنا ليس في (و)، ولم تثبت ط. العاصمة، ووقع في (ع، د) قبل قوله: «كما ذكره طائفة»، وهو سهو، وتأخر موضعه في (ي).

(٣) نسبة إلى مرقوس. وفي الأصول وط. النيل والعاصمة: «المريوسية»، وهو تحريف.

(٤) اليعقوبية: أتباع يعقوب البراذعي، والنسطورية: أصحاب نسطور الحكيم، وكان بطريرك القسطنطينية. والملكية: فرقة كانت على دين ملك الرومان. وظهرت هذه الفرق في عهد التثليث بعد مجمع نيقية. انظر: «التاريخ المجموع» لابن البطريق، و«الملل والنحل» (٢/٢٧-٣٢)، و«محاضرات في النصرانية» لأبي زهرة (١٥٧-١٦٠).

(٥) ضبب عليها في (و) وكتب بحذائها في الطرة: «والحق».

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٧/٢٣٣، ٨/١٠٠).

والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، وبربّ واحد يسوع المسيح ابن الله، الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نورٌ من نور، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حق، مولودٌ غير مخلوق»^(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، فقد فسّروه بالتثليث المشهور عنهم، المذكور في أمانتهم.

ومن الناس من يقول: «إن الله هو المسيح ابن مريم» قول اليعقوبية، وقولهم^(٢): «ثالث ثلاثة» هو قول النصارى الذين يقولون بالأب والابن وروح القدس^(٣)، وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة، وسمّوا كل واحدٍ من الثلاثة بالإله والربّ.

وقد فسّره طائفةٌ بجعلهم عيسى وأمه إلهين يُعبدان من دون الله.

قال السّدي في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، قال: قالت النصارى: إن الله هو المسيح وأمه، فذلك قوله: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٤).

وقد قيل قول ثالث أغرب من ذلك عن أبي صخر^(٥)، قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال: هو قول اليهود: عزيز ابن الله، وقول

(١) تقدم الكلام على أمانتهم هذه (١٧٣ / ١).

(٢) ليست في (و).

(٣) «روح القدس» ليست في (د، و، ع). وبعدها في (ي): «وظن ابن جرير الطبري...» العبارة التي سبق ذكرها.

(٤) أخرجه ابن جرير (٥٨١ / ٨)، وقال ابن كثير (١٥٨ / ٣): «وهذا القول هو الأظهر».

(٥) حميد بن زياد، ابن أبي المخارق المدني، من صغار أتباع التابعين (ت: ١٨٩). انظر: «تهذيب الكمال» (٣٦٦ / ٧).

النَّصَارَى: المسيح ابن الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة^(١)، وهذا ضعيف^(٢).

وقد ذكر سعيد بن البطريق^(٣) في أخبار النصارى أن منهم طائفة يقال لهم «المَرْيَمِيَّة»^(٤) يقولون: إن مريم إله، وإن عيسى إله^(٥).

فقد يقال: إن هذا قول هؤلاء، كما أن القول بأن عزيز ابن الله قول اليهود^(٦).

وأما الأول^(٧) فمتوجّه؛ فإن النصارى المتفقيين على «الأمانة» كلهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، والله تعالى قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك، فقال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، فذكر سبحانه في هذه الآية التثليث والاتحاد، ونهاهم عنهما، وبين أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾، لم يذكر هنا أمه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٩/٤).

(٢) قال ابن كثير (١٥٨/٣): «وهذا قول غريب».

(٣) طبيب نصراني، له دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم، عيّن بطريقاً على الإسكندرية، توفي سنة ٣٢٨هـ / ٩٤٠م. انظر: «تاريخ الأنطاكي» (٢٣)، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (٥٤٥)، و«الوافي» (٢٠٣/١٥)، و«الأعلام» (٩٢/٣).

(٤) الأصول: «المريسية»، وهو تحريف. وفي تاريخ ابن البطريق: «المريميين». وستأتي (٣/١٤٢، ١٧٥) بلفظ: «المريمانية». ويقال لهم: البربرانية. انظر: «النصرانية وآدابها» للويس شيخو (٤٩)، و«محاضرات في النصرانية» لمحمد أبو زهرة (١٢٤).

(٥) تاريخ ابن البطريق المسمى «نظم الجواهر» (١٢٦/١).

(٦) من قوله: «فقد يقال» إلى هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٧) وهو تفسيره بالتثليث المشهور عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

قال معمر، عن قتادة: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾: هو قوله: «كُنْ»، فكان^(١).

وكذلك قال قتادة: ليس الكلمة صارت^(٢) عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى^(٣).

وكذلك قال الإمام أحمد^(٤) في مصنفه الذي صنّفه في كتبه^(٥) في الردّ على الجهميّة، وذكره عنه الخلال والقاضي أبو يعلى^(٦).

قال أحمد: ثم إن الجهم ادّعى أمراً آخر^(٧)، فقال: إنّنا وجدنا في كتاب الله آية تدلّ على أن القرآن مخلوق.

قلنا: أيّ آية؟ قال: قول الله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾، وعيسى مخلوق^(٨).

فقلنا: إن الله منعكم الفهم في القرآن، عيسى عليه السلام تجري عليه ألفاظ

(١) أخرجه ابن جرير (٧/٧٠٣).

(٢) الأصول: «صار»، والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم أقوم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١١٢٣).

(٤) (د، ع): «أحمد بن حنبل».

(٥) كذا في الأصول. وفي ط. العاصمة: «كتابه». ولعل الصواب: «فيما كتبه». انظر: «بيان

تلبس الجهمية» (٥/٧٨)، و«مجموع الفتاوى» (٨/٤٠٩، ١٧/٣٩١، ٤١٢).

(٦) انظر: الانتصار لأهل الأثر (١٠١) والتعليق عليه.

(٧) ساقطة من ط. العاصمة.

(٨) «وعيسى مخلوق» ساقطة من ط. العاصمة.

لا تجري على القرآن؛ لأن عيسى تجري عليه تسمية: مولود^(١)، وطفل، وصبي، وغلام، يأكل ويشرب، وهو يُخاطَبُ بالأمر والنهي، يجري عليه الوعد والوعيد، هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم، ولا يحلُّ لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى، هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في^(٢) عيسى؟!

ولكن المعنى في قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: «كُنْ»، فكان عيسى بـ «كُنْ»، وليس عيسى هو الـ «كُنْ»، ولكن بالـ «كُنْ» كان، فالـ «كُنْ» من الله قوله، وليس الـ «كُنْ» مخلوقاً.

وَكَذَبَتِ النَّصَارَى وَالْجَهْمِيَّةُ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِ عِيسَى.

وذلك أن الجهميَّة قالوا: عيسى روحُ الله وكلمته؛ لأن الكلمة مخلوقة. وقالت النَّصارَى: روحُ الله من ذات الله، وكلمةُ الله من ذات الله، كما يقال: هذه الخِرقة من هذا الثوب.

وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة.

قال أحمد: وأما قوله جل ثناؤه: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يقول: من أمره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الباقية: ١٣] يقول: من أمره.

(١) (ع، د): «نسمة ومولود»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة. وفي (و): «لأن عيسى مولود». وكما أثبت في (ي) وبعض نسخ «الرد على الزنادقة والجهمية»، وفي بعضها: «لأنه يسميه مولوداً...». وانظر: «مجموع الفتاوى» (٤/٢١٩، ٨/٤١٤).

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

وتفسير «روح الله» إنما معناها أنها روحٌ بكلمة الله خَلَقَهَا^(١)، كما يقال: عبدُ الله وسماءُ الله، - وفي نسخة: روحٌ يملكها الله، خلقها الله -^(٢).

وقال الشعبي في قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾: الكلمة حين قال له: «كُنْ»، فكان عيسى بـ «كُنْ»، وليس عيسى هو الـ «كُنْ»، ولكن بالـ «كُنْ» كان^(٣).

وقال ليث عن مجاهد: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ قال: رسولٌ منه^(٤).

يريدُ مجاهدٌ قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٥) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا^(٦) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴿[مريم: ١٧-١٩].

والمعنى: أن عيسى خُلِقَ من هذه^(٥) الرُّوح، وهو جبريل رُوحُ القُدُس، سُمِّيَ رُوحًا كما سُمِّيَ كلمة؛ لأنه خُلِقَ بالكلمة.

والنَّصارى يقولون في أمانتهم: «تجسَّد من مريم ومن رُوح القُدُس»؛ لأنه جاء^(٦) كذلك في الكتب المتقدمة، لكن ظنُّوا أن رُوح القُدُس هو صفةُ الله، وجعلوها حياته وقدرته، وهو ربُّ، وهذا غلطٌ منهم، فإنه لم يُسمَّ أحدٌ من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئًا من صفاته: رُوح القُدُس، بل رُوحُ القُدُس في غير موضعٍ من كلام الأنبياء عليهم السَّلام يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء، كالوحي والهدى والتأييد، ويراد بها المَلَك.

(١) ط. النيل و«الرد على الزنادقة والجهمية»: «خلقها الله».

(٢) «الرد على الزنادقة والجهمية» (٢٤٩-٢٥٢).

(٣) لم أقف عليه. وهو لفظ الإمام أحمد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٣/٤).

(٥) ساقطة من ط. العاصمة.

(٦) ليست في (و، ي).

وهكذا في تفسير ابن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن عيسى بن مريم استقبل رهطاً من اليهود، فلما رأوه قالوا: قد جاء السّاحر ابن السّاحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فخذفوه وأمه، فلما سمع عيسى ذلك قال: اللهم أنت ربي، وأنا من روحك خرجتُ، وبكلمتك خلقتني^(١)، ولم آتهم من تلقاء نفسي، وذكر تمام الحديث^(٢).

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]، فهذا يوافق قوله تعالى: ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ١٧ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ١٨ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٧-١٩].

وهذا مبسوط في موضع آخر^(٣).

والمقصود هنا أنهم سواءٌ صدّقوا محمّداً أو كذّبوه، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين؛ فإنه إن كان نبياً صادقاً فقد بلغ عن الله في هذا الكتاب كُفْرَ النَّصَارَى في غير موضع، ودعاهم إلى الإيمان به، وأمر بجهادهم، فمن علم أنه نبيٌّ ولو إلى طائفةٍ معيّنة يجب^(٤) تصديقه في كل ما أخبر به، وقد أخبر بكفر النَّصَارَى وضلالهم.

(١) (و): «خُلِقْتُ».

(٢) ساقه بتمامه الثعلبي في «الكشف والبيان» (١١/٦٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/٤٤)، وابن السائب الكلبي متهمٌ بالكذب.

(٣) قوله: «وهذا مبسوط في موضع آخر» ساقط من ط. العاصمة. وانظر: مسألة في «أن عيسى كلمة الله» لشيخ الإسلام (٥٦-٥٨)، وما سيأتي (٢/٤٩٤، ٣/١٩٧).

(٤) (د، ع): «فيجب».

وإذا ثبت هذا لم يُغْنِ عنهم الاحتجاجُ بشيءٍ من الكتب والمعقول، بل يُعَلِّمُ من حيث الجملة أن كلَّ ما يحتجُّون به على صحَّة دينهم فهو باطل، وإن لم يبيِّن فساد حججهم على التفصيل؛ لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقًّا، كما أن المسيح ﷺ لما حكم بكفر من كذَّبه من اليهود كان كلُّ ما يحتجُّ به اليهود على خلاف ذلك باطلاً، فكلُّ ما عارض قول النبيِّ المعصوم فهو باطل.

وإن كذبوا محمَّداً تكذيباً عاماً مطلقاً، وقالوا: ليس هو نبيُّ أصلاً، ولا أرسل إلى أحدٍ، لا إلى العرب ولا إلى غيرهم، بل كان كذاباً^(١) من الكذَّابين، امتنع مع هذا أن يصدِّقوا بنبوة غيره؛ فإن الطريق الذي يُعَلِّمُ به نبوة موسى وعيسى يُعَلِّمُ به نبوة محمَّدٍ ﷺ بطريق الأولى.

فإذا قالوا: علِّمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات، وعُرِفَت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا.

قيل لهم: معجزات محمَّدٍ أعظم، وتواترها أبلغ، والكتاب الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ أكمل، وأمَّته أفضل، وشرائع دينه أحسن، وموسى جاء بالعدل، وعيسى جاء بتكميلها بالفضل، وهو ﷺ قد جمع في شريعته بين^(٢) العدل والفضل.

فإن ساغ لقائل أن يقول: هو مع هذا كاذبٌ مفترٍ، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك، فيبطل بتكذيبهم محمَّداً ﷺ جميعاً ما معهم من النبوات؛ إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله، فكيف بما هو أولى منه؟!

(١) ليست في (ع، د).

(٢) ليست في (و)، (ي): «به».

فلو قال قائل: إن هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء، وموسى لم يكن نبياً، أو إن داود وسليمان ويوشع ويحيى^(١) كانوا أنبياء، والمسيح لم يكن نبياً.

أو قال ما تقوله السامرة^(٢): إن يوشع كان نبياً، ومن بعده كداود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء.

أو قال ما يقوله اليهود: إن داود وسليمان وأشعيا وحبقوق ومليخا وعاموص ودانيال^(٣) كانوا أنبياء، والمسيح بن مريم لم يكن نبياً.

كان هذا قولاً متناقضاً معلوم البطلان؛ فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له، ودلائل نبوة الأكمل أفضل^(٤)، فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل؟!

وصار هذا كما لو قال قائل: إن زفر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء، وأبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء.

أو قال: إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاة، والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة.

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) من فرق اليهود، يخالفون سائر اليهود في توراتهم وشريعتهم، ولا يعترفون بالمشنا ولا بنبوة من بعد موسى ويوشع، وهم في اليهود «كالرافضة في المسلمين»، كما يقول شيخ الإسلام. انظر: «الملل والنحل» (١/ ١٩٩)، و«منهاج السنة» (١/ ٣٧، ٥/ ١٧٤)، و«الرد على المنطقيين» (٢٩٠)، و«جامع الرسائل» (١/ ٢٧٠)، و«مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٧٩)، وما سيأتي (٢/ ٥٦).

(٣) من أنبياء بني إسرائيل المذكورين في العهد القديم، ومنهم من لم يثبت عند المسلمين أنه نبي، كمليخا وعاموص، كما سيأتي (٣/ ٤٨٤).

(٤) (ي، و): «الأفضل أكمل».

أو قال: إن صاحب «الملكي» و«المسيحي»^(١) ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء، وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء.

أو قال: إن كوشيار والخرقى^(٢) ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة، وبطلميوس^(٣) ونحوه لم يكن لهم علم بالهيئة.

ومن قال: إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، ومحمد بن عبد الله لم يكن نبياً، فتناقضه أظهر، وفساد قوله أبين من هذا جميعه.

بل وكذلك من قال: إن موسى وعيسى رسولان، والتوراة والإنجيل كتابان منزَّلان من عند الله، ومحمدًا ليس برسول، والقرآن لم ينزل من الله، فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبَّر ما جاء به محمد ﷺ وما جاء به

(١) الملكي: هو كتاب «كامل الصناعة الطبية الضرورية» لعلي بن العباس المجوسي، قال القفطي: مال الناس إليه في وقته ولزموا درسه إلى أن ظهر كتاب «القانون» لابن سينا فمالوا إليه وتركوا «الملكي» بعض الترك، و«الملكي» في العمل أبلغ، و«القانون» في العلم أثبت. واشتهر بالملكي؛ لأنه صنفه للملك عضد الدولة فناخسرو البويهى. انظر: «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (١/ ٢٨٠)، و«عيون الأنباء» (٣٢٠)، و«الأعلام» (٤/ ٢٩٧).

والمسيحي: هو كتاب «كناش مسيح»، ويقال له: «المسيحي» نسبة إلى مؤلفه عيسى بن حكم الدمشقي الطبيب المشهور بمسيح. انظر: «عيون الأنباء» (١٧٧)، وتعليق شيخنا الإصلاحي على «زاد المعاد» (٤/ ١١٤، ٢٦٨، ٥٣٤).

(٢) كوشيار: أبو الحسن كوشيار بن لبان الجيلي، توفي سنة ٣٥٠، وقيل بعدها، فلكي مهندس، له كتاب «الزيج الجامع»، و«مجمل الأصول في أحكام النجوم»، وغيرهما. انظر: «اتمة صوان الحكمة» (٩١)، و«الأعلام» (٥/ ٢٣٦).

والخرقي: أبو بكر محمد بن أحمد المروزي، له «التبصرة في علم الهيئة»، توفي سنة ٥٣٣. انظر: «الفوائد البهية» للكنوي (٩٢)، و«الأعلام» (٥/ ٣١٧).

(٣) كذا في الأصول، ويقال: بطليموس (بتقديم الياء)، وكلاهما صحيح. انظر: «تاج العروس» (١٥/ ٤٥٩)، و«معجم أعلام المورد» (١٠٧).

من قبله، وتدبر كتابه والكتب التي قبله، وآيات نبوته^(١) وآيات نبوة هؤلاء،
وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء.

وهذه الجملة مفصلة مشروحة في غير هذا الموضع^(٢)، لكن المقصود هنا
التنبيه على مجامع جوابهم.

وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من احتجوا به من
الأنبياء، فلو ناظرهم من يكذب هؤلاء الأنبياء كلهم^(٣) من المشركين
والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم، ولا حجة لهم أيضا على المسلمين
الذين يقرّون بنبوة هؤلاء؛ فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء
الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل
الذي به علّموا صدقهم.

وأیضا، فالطريق الذي به علّمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم
وأخبارهم، فكذلك تُعلم نبوة محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق
الأولى، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه
لمحمد في كلمة مما جاء به.

(١) (ع): «نبوة محمد».

(٢) سيأتي تفصيل ذلك (١/ ٢٧٥).

(٣) ليست في (ع).

فصل (١)

ومما ينبغي أن يُعلم^(٢) أن كثيرًا من النصارى إنما يعتمدون في النبوات على بشارة^(٣) الأنبياء بمن يأتي بعدهم، فيقولون: المسيح عليه السلام بشرت به الأنبياء قبله، بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه لم يبشر به نبي.

وجواب هؤلاء من وجهين:

أحدهما: أن يقال: بل البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة أعظم من البشارة بالمسيح عليه السلام، وكما أن اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى بن مريم، بل هو آخر ينتظرونه، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال؛ فإنه الذي يتبعه اليهود، ويخرج معه سبعون ألف مُطيلس من يهود أصبهان^(٤)، ويقتلهم المسلمون معه، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي، تعال فاقتله^(٥)، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وثبت أيضًا في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ينزل عيسى بن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرقي دمشق»^(٦)، «فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»^(٧)، ويقتل مسيح الهدى عيسى بن مريم مسيح الضلالة

(١) ليست في (و).

(٢) (ي): «ومما يعلم».

(٣) (ع): «بشارات».

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ولفظه: «سبعون ألفًا عليهم الطيالة»، جمع طيلسان، وهو ثوبٌ يلبس على الكتف يحيط بالبدن.

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٢٥، ٢٩٢٦)، ومسلم (٢٩٢١) من حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأعورَ الدَّجَالَ على بضع عشرة خطوة من باب لُدٍّ^(١)؛ ليتبين للناس أن البشر لا يكون إلهًا، فيقتل من ادَّعى فيه أنه الله وهو بريء مما ادَّعى فيه من^(٢) ادَّعى في نفسه أنه الله وهو دَجَّالٌ كذاب.

فهكذا البشاراتُ بمحمد ﷺ في الكتب المتقدمة، وقد يتأولها بعض أهل الكتاب على غير تأويلها، كما قد بُسِطَ في موضع آخر؛ فإن بسط الكلام في ذكر محمد ﷺ في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب له موضع آخر^(٣).

الجواب الثاني: أن يقال: ليس من شرط النبي أن يبشِّر به من تقدَّمه، كما أن موسى كان رسولاً إلى فرعون، ولم يتقدَّم لفرعون به بشارة، وكذلك الخليل ﷺ أُرسل إلى نمرود ولم يتقدَّم به بشارة نبي إليه، وكذلك نوح وهود وصالح وشعيب ولو طَّلم يتقدَّم بواحدٍ من^(٤) هؤلاء بشارة إلى قومهم بهم مع كونهم أنبياء صادقين؛ فإن دلائل نبوة النبي لا تنحصر في إخبار من تقدَّمه، بل دلائل النبوة منها المعجزات ومنها غير المعجزات، كما قد بُسِطَ في موضع آخر^(٥).

وهؤلاء النصارى إنما مستند دينهم في التثليث والاتحاد وغير ذلك هو السَّمع، وهو دعواهم أن الكتب الإلهية جاءت بذلك، ليس مستندهم فيه العقل، فإذا تبين أنهم مع تكذيبهم بمحمد ﷺ يمتنع أن تثبت نبوة غيره امتنع استدلالهم بالسَّمعيات.

(١) أخرجه مسلم في حديث النواس المتقدم، دون ذكر عدد الخطوات فلم أره مرفوعاً.

(٢) الأصول: «لمن»، والمثبت أشبه.

(٣) سيأتي ذلك مفصلاً (٤/ ٧٠-١٠٢).

(٤) «بواحد من» ليست في (و، ي).

(٥) كما سيأتي (٤/ ١٧٦-١٨٣).

وأما العقلیات، فإن تشبّثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجّتهم فيها ضعيفة،
وأنها على نقيض مذهبهم أدلُّ منها على مذهبهم، وسنبيّن إن شاء الله أن لا
حجّة لهم في سمع ولا عقل، بل ذلك كلّ حجة عليهم.

وأما تمثيلهم الكتاب^(١) بالوثيقة التي كُتب الوفاء في ظهرها^(٢)، فتمثيلٌ
باطلٌ غير مطابق؛ لأن الإقرار بالوفاء إقرارٌ بسقوط الدّين، ولا مناقضة بين
ثبوت الدّين أولاً وسقوطه آخرًا بالوفاء، بل أمكن مع هذا دعواه.

وأما من يذكّر أنه رسول الله، فلا يمكن أن يُقرّ بأنه رسول الله في بعض ما

(١) يعني القرآن.

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٩). قال: «فإن المسلمين إذا احتججنا عليهم بما في كتابهم
يقولون: إذا كنتم تحتجّون ببعضه فيلزمكم قبوله كله. قالوا: ليس الأمر على هذه الصورة،
لأنه إذا كان لإنسان على إنسان كتابٌ بدّين مئة دينار، وقد ذُكر في الكتاب أنه قد وفى،
فأظهر صاحبُ الدّين الكتابَ وطالب المديون بالمئة دينار، أيجوز إذا احتجّ المديون بما
في الكتاب من أنه قد وفى أن يقول له صاحبُ الدّين: كما تقبل هذا قبل المئة دينار
وأدّيتها؟! كلا، بل يدفع عنه المئة دينار التي في الكتاب بما في الكتاب أيضًا من أنه قد وفى.
وكذلك أي شيء قيل عنا واحتجّ به علينا من هذا الكتاب دفعناه من هذا الكتاب بما نجده
فيه من الحجج لنا».

وإنما نقلتُ النصّ بتمامه ليُفهم سياق الكلام؛ إذ لم يسبق ذكر تمثيلهم بوثيقة الدّين، وقد
أشكل ذلك على السّفاريني، فكتب عند هذا الموضع حاشية على نسخه نقلها ناسخا (د،
ع) في الطرة، قال: «قوله: وأما تمثيلهم الكتاب إلى آخر الفصل = فليس ممّا يلي ما قبله،
بل بين الكلامين تنافر، فيحتاج إلى تصحيح ذلك إن وُجدت نسخة صحيحة. اهـ
سفاريني». وتعقبه نعمان الألوسي، فكتب بخطّه تحته في نسخة (ع): «أقول: قد راجعتُ
نسخةً مصحّحةً في إسلامبول، فوجدتها محرّرة مثل هذا الكتاب، فلعلّ السفاريني قال:
إنها متنافرة بحسب الظاهر، وأن قول الشيخ: وأما تمثيلهم إلخ راجعٌ إلى ما حرّره
النّصارى في كتابهم المرسول إليه، فليراجع. الفقير نعمان». وقد راجعتُ رسالتهم،
ونقلت كلامهم في صدر هذه التعليقة، وبه يستبين استقامة النصّ وسلامته من التنافر؛ فإن
شيخ الإسلام ذكر أن مستند دينهم هو السمع، وأن ما أوردوه من العقلیات ضعيف، ثم
ذكر تمثيلهم القرآن بوثيقة الدّين نموذجًا لعقلياتهم الواهية، وأجاب عنه جوابًا مفصّلًا.

أنبأ به عن الله دون بعض، ولا يمكن اتباع بعض كتابه الذي ذكر أنه منزل من عند الله دون بعض.

فإنه إن كان صادقاً في قوله: «إنه رسول الله» كان معصوماً في كل^(١) ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يكذب في شيء منه لا عمداً ولا خطأً، ووجب اتباع الكتاب الذي جاء به من عند الله، ولم يمكن رد شيء مما ذكر أنه جاء به من الله.

وإن كان كاذباً في كلمة واحدة مما أخبر به عن الله فهو من الكاذبين المفترين، فلا يجوز أن يُحتجَ لشيء^(٢) من دينهم ولا دين غيرهم بمجرد إخباره عن الله، بل ولا بمجرد خبره وقوله وإن لم يذكر أنه خبر عن الله، كما لا يجوز مثل ذلك في سائر من عُرف أنه كاذب في قوله: «إني رسول الله»، كمسيلمة الحنفي، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي^(٣)، والحارث الدمشقي^(٤)، وبابا الرومي^(٥)، وأمثالهم من الكذابين.

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (د، و، ع): «بشيء»، والمثبت من (ي) أقوم.

(٣) مسيلمة والأسود وطليحة تراجمهم وأخبارهم مشهورة.

(٤) الحارث بن سعيد، نشأ بالشام متعبداً زاهداً، ثم ادعى النبوة، بعث عبد الملك بن مروان في طلبه حتى عثر عليه ببيت المقدس، وصلبه وقتله سنة ٧٩. انظر: «تاريخ دمشق» (١١/٤٢٧)، و«تاريخ الإسلام» (٢/٨٠٣).

(٥) متنبئ تركماني، ظهر بالروم، وادعى النبوة، وكان يقول: لا إله إلا الله، البابا ولي الله، واجتمع عليه خلق عظيم، فجهز صاحب الروم جيشاً لقتاله، وقتل في الموقعة سنة ٦٣٨. انظر: «مرآة الزمان» (٢٢/٣٧٠)، و«تاريخ مختصر الدول» (٢٥١)، و«تاريخ الإسلام» (١٤/٢٩)، و«الوافي» (١٠/٦١).

وقد ذكره شيخ الإسلام في مواضع من كتبه، ولم يعرفه محققوها: «شرح الأصبهانية» (٣٣١)، و«النبوات» (١٦٨، ٢٣٣، ٤٩٧)، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١١٤)، وكتابنا «الجواب الصحيح» (٢/٣٣، ٣٤٣، ٥٠٠/٣، ٤٢٣/٦ - ط. العاصمة).

والواحدُ من المسلمين وإن كان الله لا يؤاخذُه بالنسيان والخطأ، بل والرسول أيضًا وإن لم يكن مؤاخذًا^(١) بالنسيان والخطأ في غير ما يبلغُه عن الله عند السلف والأئمة وجمهور المسلمين، لكنَّ ما يبلغُه عن الله لا يجوز أن يستقرَّ فيه خطأ؛ فإنه لو جاز أن يبلغ عن الله ما لم يقله الله، ويستقرَّ ذلك، ويأخذُه النَّاسُ عنه معتقدين أن الله قاله، ولم يقله الله = كان هذا مناقضًا لمقصود الرسالة، ولم يكن رسولًا لله في ذلك، بل كان كاذبًا في ذلك وإن لم يتعمَّده، وإذا بلغ عن الله ما لم يقله وصُدِّق في ذلك كان قد صُدِّق من قال على الله غير الحقِّ، ومن تقول عليه ما لم يقله وإن لم يكن متعمَّدًا.

ويمتنع في مثل هذا أن يصدِّقه الله في كلِّ ما يخبر به عنه، أو أن يُقيم له من الآيات والبراهين ما يدلُّ على صدقه في كلِّ ما يخبر به عنه، مع أن الأمر ليس كذلك. ومن قامت البراهين والآيات على صدقه فيما يبلغُه عن الله كان صادقًا في كلِّ ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يكون في خبره عن الله شيءٌ من الكذب لا عمدًا ولا خطأً.

وهذا ممَّا اتَّفَق عليه جميعُ النَّاسِ^(٢) من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، لم يتنازعوا أنه لا يجوز أن يستقرَّ في خبره عن الله خطأ.

وإنما تنازعوا: هل يجوز أن يقع من الغلط ما يستدركه ويبيِّنُه، فلا ينافي مقصود الرسالة، كما نقل من ذكر «تلك الغرائقُ العُلَى»، وإن شفاعتها لُتَرْجَى^(٣).

(١) (و): «يؤاخذ».

(٢) «جميع الناس» ليست في (ي).

(٣) رويت من وجوه كثيرة مرسلة وموصولة لا تخلو من علة، قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٤١): «ولم أرها مسندة من وجه صحيح»، لكن كثرة طرقها تدل على أن للقصة =

هذا فيه قولان للناس:

منهم من منع^(١) ذلك أيضًا، وطعن في وقوع ذلك. ومن هؤلاء من قال: إنهم سمعوا ما لم يقله، فكان الخطأ في سمعهم، والشيطان ألقى في سمعهم.

ومن جوز ذلك^(٢) قال: إذا حصل البيان، ونسخ ما ألقى الشيطان، لم يكن في ذلك محذور، وكان ذلك دليلًا على صدقه وأمانته وديانته، وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق، كفعل طالب الرياسة المصر على خطئه. وإذا كان نسخ ما جزم^(٣) بأن الله أنزله لا محذور فيه، فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور. واستدل على ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[الحج: ٥٢-٥٤].

وعلى كل قول، فالناس متفقون على أن من أرسله الله وأقام الآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله لم يكن ما يبلغه عنه إلا حقًا، وإلا كانت الآيات الدالة على صدقه دلت على صدق من ليس بصادق، وبطلان مدلول الأدلة اليقينية ممتنع.

= أصلاً، كما قال ابن حجر في «الفتح» (٨/٤٣٩). وانظر: «الشفاء» للقاضي عياض (٦٤٥)، و«تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/٣٩١-٣٩٥).

(١) (و): «يمنع».

(٢) وشيخ الإسلام يميل إلى تجويزه، ويحكيه عن السلف، وينسب المنع للمتأخرين. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٩١)، و«منهاج السنة» (١/٤٧١، ٢/٤٠٩).

(٣) صححت في طرة (ي) إلى «جزم الله».

والصّدق الذي هو مدلول آيات الأنبياء وبراهينهم هو أن يكون خبره عن الله مطابقاً لمُخبره^(١)، لا يخالفه عمداً ولا خطأً.

ولو قال قائل: أنا لا أسمى^(٢) الخطأ كذباً، أو قال: إن المخطئ لا إثم عليه في خطئه^(٣).

قيل له: هذا لا ينفع هنا؛ فإن الآيات دلّت على أن الله أرسله ليبلغ عنه رسالاته، والله لا يرسل من يَعْلَمُ أنه يخبر عنه بخلاف ما قال له، كما لا يجوز إرسال من يتعمّد عليه الكذب، بل الواحد من الناس لا يرسل من يَعْلَمُ أنه يبلغ خلاف ما أرسله به، ولو عَلِمَ أنه يقول عليه ما لم يقل وأرسله مع ذلك لكان جاهلاً سفيهاً ليس بعليم حكيم، فكيف يجوز ذلك على أعلم العالمين وأحكم الحاكمين؟!!

وأيضاً، فإن الآيات والبراهين دلّت على صدقه في كلّ ما يبلغه عن الله، وأن الله مصدّقه في كلّ ما يبلغه عنه، فيمتنع أن لا يكون صادقاً في شيء من ذلك، ويمتنع أن يصدّق الله في كلّ ذلك من لا يصدّق في كلّ ذلك؛ فإن تصديق من لا يصدّق كذب، والكذب ممتنع على الله.

وإذا تبين أن من ذكر أنه رسول الله إما أن يكون رسولاً صادقاً في جميع ما يبلغه، فيمتنع مع هذا تناقض أخباره؛ لأنها كلها صادقة، وإما أن يكون غير صادق ولو في كلمة، فلا يكون رسولاً لله، فلا يُحتجّ بشيء ممّا يخبر به عن الله = كان تمثيل من ذكر أنه رسول الله بالمقرّ باستيفاء وثيقته تمثيلاً باطلاً؛ فإن صاحب الوثيقة الذي أقرّ بوفائها بعد كانت له حجة ثم استوفاه، ومن

(١) (ي): «لخبره».

(٢) (و، ي): «ألا أسمى»، وهو خطأ كسابقه.

(٣) (ع): «خطائه»، وهو صحيح. وتحرفت في (د) إلى «خطابه».

ذَكَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِمَّا صَادِقٌ وَإِمَّا كَاذِبٌ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُحْتَجَّ بِبَعْضِ كَلَامِهِ دُونَ بَعْضٍ.

وَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: مَقْصُودِي أَبَيِّنُ أَنَّهُ مُتَنَاقِضٌ، وَأَنَّ نَفْسَ كَلَامِهِ يَبَيِّنُ أَنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْنَا، وَأَنَّ دِينَنَا حَقٌّ، كَمَا أَنَّ نَفْسَ كَلَامِ الَّذِي كَانَ لَهُ الْحَقُّ هُوَ الْمُقَرَّرُ بِالْوَفَاءِ.

قِيلَ: إِنْ كَانَ كَلَامُهُ مُتَنَاقِضًا فَلَيْسَ بِرَسُولٍ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَحْتَجَّ بِشَيْءٍ مِمَّا بَلَغَهُ عَنِ اللَّهِ، بِخِلَافِ الْمُقَرَّرِ بِالْوَفَاءِ، فَإِنْ إِقْرَارُهُ مَقْبُولٌ عَلَى نَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى نَفْسِهِ بِالْوَفَاءِ، وَإِقْرَارُ الْمُقَرَّرِ عَلَى نَفْسِهِ^(١) وَشَهَادَتُهُ عَلَى نَفْسِهِ مَقْبُولَةٌ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا وَفَاسِقًا، بِخِلَافِ شَهَادَتِهِ عَلَى اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، إِذَا كَذَبَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ أَرْسَلَهُ؛ فَلَا يُقْبَلُ شَيْءٌ مِنْ شَهَادَتِهِ^(٢) وَخَبَرَهُ عَنِ اللَّهِ.

فَمَنْ شَبَّهَ إِقْرَارَ الْمُقَرَّرِ عَلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى غَايَةِ جَهْلِهِ بِالْقِيَاسِ وَالْإِعْتِبَارِ وَالتَّمْثِيلِ؛ فَإِنْ إِقْرَارُ الْمُقَرَّرِ عَلَى نَفْسِهِ حُجَّةٌ عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ فَاسِقًا مَعْرُوفًا بِالْكَذِبِ، لَيْسَ هُوَ مِثْلَ شَهَادَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى غَيْرِهِ؛ فَإِنْ شَهَادَتُهُ عَلَى غَيْرِهِ لَا تُقْبَلُ إِذَا كَانَ مَعْرُوفًا بِالْكَذِبِ، فَكَيْفَ بِمَنْ شَهِدَ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ؟!

فَالْمُقَرَّرُ عَلَى نَفْسِهِ يُمْكِنُ قَبُولُ إِقْرَارِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يُقْبَلُ دَعْوَاهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ الشَّاهِدُ قَدْ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ فِيمَا لَيْسَ هُوَ خَصَمًا فِيهِ وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ بِمَا ادَّعَاهُ.

(١) «بِالْوَفَاءِ وَإِقْرَارِ الْمَقَرَّرِ عَلَى نَفْسِهِ» سَقَطَ مِنْ (د، ع) لانتقال النظر.

(٢) مِنْ قَوْلِهِ: «عَلَى اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ» إِلَى هُنَا سَقَطَ كَذَلِكَ مِنْ (و، ي) لانتقال النظر، وَلَمْ تَثْبُتْ ط. الْعَاصِمَةُ.

وأما من يقول: إنه رسول الله، فلا يمكن أن يصدق في بعض ما يخبر به عن الله ويكذب في بعض، بل إن كان كاذبًا في كلمة واحدة فليس هو رسولاً لله، فلا يُحتج بكلامه، وإن قُدِّر أن الكلام في نفسه صدق، لكن نسبته إلى الله أن الله أرسله به وأوحاه لا يكون صادقاً فيه إذا كذب في كلمة واحدة؛ لأن الله لا يرسل كاذبًا. وإن لم يكن كاذبًا في كلمة واحدة وجب تصديقه في كل ما يخبر به، فلا يمكن تصديقه في بعض ما يخبر به عن الله دون بعض، بخلاف المُقرِّ والشاهد.

وإن كان المقصود بيان تناقضه، كان هذا احتجاجاً على أنه ليس برسول، فلا ينفعهم ذلك، مع أنه تبين أنه ليس بمتناقض.

وإن كان المقصود إلزام المسلمين به، فقد بينّا أنه لا يلزمهم^(١) من وجوه متعدّدة.

فهذا بيان أنهم لا يجوز لهم الاحتجاج بشيء من كلام محمد ﷺ سواء صدّقه أو كذّبوه.

ثم يقال لهم ثانياً في الجواب^(٢) عن التمثيل بالوثيقة: إن الإقرار بالاستيفاء يناقض استيفاء الحق، وأما القرآن الذي جاء به محمد^(٣) ﷺ فليس في إخباره بأنه أرسل إلى قريش ثم إلى العرب ما يناقض إخباره بأنه أرسل إلى جميع الناس أهل الكتاب وغيرهم، كما أنه ليس في إخباره أنه أرسل إلى بني إسرائيل ومخاطبة الله لهم بقوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠] ما يمنع^(٤) أن يكون مرسلًا إلى اليهود من غير بني إسرائيل وإلى النصارى والمشرّكين.

(١) (د، ع): «يلزمه».

(٢) (د، ع): «فالجواب».

(٣) (ي): «وأما محمد».

(٤) (و): «لا يمنع».

وهو لم يقل^(١) قط: إني لم أرسل إلا إلى العرب، ولا قال ما يدل على هذا، بل ثبت عنه بالنقل المتواتر أنه قال: إنه مرسل إلى جميع الجن والإنس، إلى أهل الكتاب وغيرهم.

ولو قُدِّر أنه قال: إنه لم يُرسل إلا إلى العرب، ثم قال: إني أرسلت إلى أهل الكتاب، لكان قد أرسل إلى أهل الكتاب بعد إرساله إلى العرب، كما قال: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ [النحل: ١١٥]، ثم إنه بعد هذا حرَّم الله أشياء، فلم يكن بين نفي تحريمها في الزمن الأول وإثبات تحريمها في الزمن الثاني منافاة.

ولكن نظير^(٢) الدين إذا أوجب شيئاً ثم نسخ إيجابه، كما نسخ إيجاب الصدقة بين يدي النجوى، ففي مثل هذا يَتَمَسَّكُ بالنصِّ النَّاسِخِ دون المنسوخ، كما يَتَمَسَّكُ بالإقرار بالوفاء النَّاسِخِ للإقرار بالدين.

(١) (ي): «ولم يقل»، (د، ع): «وهو أنه لم يقل».

(٢) مهملة في (ي). (و): «يظهر»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة.

فصل

وقد ذكرنا أنه لا يجوز أن يحتجوا بشيء من القرآن وما نُقل عن محمد ﷺ إلا مع التصديق برسالته، وأنه مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرار بنبوة غيره، ولا الاحتجاج بشيء من كلام الأنبياء، فتكذيبهم به^(١) يستلزم تكذيبهم بغيره، فإذا ثبت نبوة غيره ثبت نبوته، وذلك يستلزم بطلان دينهم، فكان صحة دليلهم يستلزم بطلان المدلول، وفساد المدلول يستلزم فساد الدليل؛ فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه، وإذا تحقق الملزوم تحقق اللازم، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، فإذا ثبت^(٢) الدليل ثبت المدلول عليه، وإذا فسد المدلول عليه لزم فساد الدليل؛ فإن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح.

فإن كان محمد رسول الله ﷺ لزم بطلان دينهم، وإذا بطل دينهم لم يجز أن يقوم دليل صحيح على صحته، وإذا^(٣) لم يكن رسول الله لم يجز الاستدلال بقوله؛ فثبت أن استدلالهم بقوله باطل على التقديرين.

ونحن نذكر هنا أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحد من الأنبياء أو الرسل على صحة دينهم.

وأيضاً، فإن الذين احتجوا بقولهم مثل موسى وداود والمسيح وغيرهم، إما أن يكونوا عَرَفُوا أنهم أنبياء بدليل على نبوتهم، كالأستدلال بآياتهم وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علم ولا دليل، وإما أن يكونوا احتجوا بذلك على المسلمين لأنهم يسلّمون نبوة هؤلاء.

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (ي): «صح».

(٣) (ي، و): «وإن».

وعلى كل تقدير لا يصح استدلالهم بقولهم:

أما على الأول، فلأنه أي طريق ثبت^(١) بها نبوة واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام فإنه تثبت نبوة محمد ﷺ بمثلها وأعظم منها.

وحينئذ، فإن لم يقرؤا بنبوة محمد ﷺ مع أن كل دليل يدل على نبوة موسى وداود وعيسى وغيرهم يدل على نبوة محمد ﷺ لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم، فجعلوه قائماً مع انتفاء مدلوله، وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته؛ فإنه إنما يدل إذا كان مستلزماً للمدلول، فإذا كان تارة يوجد مع المدلول وتارة لا يوجد لم يكن مستلزماً له، فلا يكون دليلاً.

فإن من جعل المعجزات دليلاً على نبوة نبي، وقال: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم من المعارضة، ونحو ذلك مما يذكر في هذا المقام، وجعلوا ذلك دليلاً على نبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء.

قيل له: إن كان هذا دليلاً فهو دليل على نبوة محمد ﷺ، وإن لم يكن دليلاً لم يكن دليلاً على نبوة موسى وعيسى؛ فإنه قد ثبت عن محمد من المعجزات ما لم يثبت مثله عن غيره، ونقل معجزاته متواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره، فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمد ﷺ.

وإن قالوا: معجزات محمد ﷺ لم تتواتر عندنا.

قيل: ليس من شرط التواتر أن يتواتر عند طائفة معينة، بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم: لم تتواتر عندنا معجزات موسى^(٢) والمسيح

(١) (د، ع): «ثبت».

(٢) (و): «لم يتواتر عندنا موسى».

عليهما السّلام. وإنما تتواتر أخبار كلِّ إنسانٍ عند من^(١) رأى المشاهدين له أو رأى من رآهم وهلّمَّ جرًّا^(٢).

ومعلومٌ أن أصحاب محمّد ﷺ الذين رأوه ونقلوا معجزاته أضعافُ أصحاب المسيح ﷺ، والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصّحابة كذلك، فيلزم من التصديق بمعجزات المسيح ﷺ التصديق بمعجزات محمّد ﷺ، ومن التكذيب بمعجزات محمّد التكذيب بمعجزات المسيح.

وإن قالوا: عُرِفَتْ نبوّة المسيح ببشارات الأنبياء قبله.

قيل: وفي الكتب المتقدّمة من البشارات بمحمّد ﷺ مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر، كما سيأتي بعضها إن شاء الله^(٣).

وإن تأوّلوا تلك البشارات بمحمّد ﷺ بما يَمْنَعُ دلالتها.

قيل لهم: واليهود يتأوّلون بشارات المسيح بما يَمْنَعُ دلالتها على المسيح.

فإذا قالوا: تلك التأويلات باطلةٌ من وجوهٍ معروفة، بيّن لهم أن هذه باطلةٌ أيضًا بمثل تلك الوجوه وأقوى. فما من جنسٍ من الأدلة يدلُّ على نبوّة موسى والمسيح إلا ودلالته على نبوّة محمّد ﷺ أقوى وأكثر، فيلزم من ثبوت نبوّة موسى والمسيح ثبوت نبوّة محمّد ﷺ، ومن الطّعن في نبوّة محمّد ﷺ الطّعن في نبوّة موسى والمسيح.

(١) (د، ع): «كل من».

(٢) انظر: «درء التعارض» (١/١٩٦)، و«مجموع الفتاوى» (١٨/٥١، ٦٩)، وما سيأتي (٤/٤٥١-٤٦٩).

(٣) (٤/٧٠-١٠٢).

وإن قالوا: إن المسيح إلهٌ.

قيل لهم: ثبوت كونه إلهًا لو كان ممكنًا أبعدُ من ثبوت كونه رسولًا، فكيف إذا كان ممتنعًا؟!

وذلك أنه ليس معهم ما يدل على إلهيته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء، أو الخوارق.

والخوارق لا تدل على الإلهية؛ فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة ولم تدل على إلهية أحد منهم.

وأما أقوال الأنبياء عليهم السلام، فلا ريب أن دلالتها على رسالته ورسالة محمد ﷺ أظهر من دلالتها على إلهية المسيح؛ فيمتنع الاحتجاج بها على إلهية المسيح دون رسالة محمد ﷺ ورسالة المسيح.

ومتى ثبت أن محمدًا رسول الله ﷻ بطلت إلهية المسيح؛ فإنه كفر من قال: إنه الله أو ابنُ الله. بل وكذلك متى ثبت أن المسيح رسولُ الله بطل كونه إلهًا؛ فإن كونه هو الله مع كونه رسولَ الله متناقض.

وقولهم: إنه إلهٌ بلاهوتِهِ، ورسولٌ بناسوتِهِ، كلامٌ باطلٌ من وجوه:

منها: أن الذي كان يكلم الناس إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله، فإن كان هو الله بطل^(١) كونه رسول الله، وإن كان رسول الله بطل كونه هو الله. ولهذا لما كان الذي كلم موسى ﷺ من الشجرة هو الله لم تنطق الكتب بأنه^(٢) رسول الله.

(١) لم تحرر في (ي، ع) في الموضعين، وعلى الصواب في (و) وطرة (د).

(٢) أي المتكلم.

وهذا واردٌ بأيّ وجهٍ فسّروا الاتّحاد؛ فإنه من المعلوم أن النّاس كانوا يسمعون من المسيح كلامًا بصوته المعروف، وصوته لم يختلف^(١) ولا حاله عند الكلام تغيّرت كما يختلفُ [صوتُ]^(٢) الإنسان وحالُه عند الكلام إذا حلَّ^(٣) فيه الجنّي وإذا فارقه الجنّي؛ فإن الجنّي إذا تكلم على لسان المصروع ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من النّاس، بل اختلف حال المصروع وحال كلامه، وسُمِع منه من الكلام ما يُعلم يقينًا أنه لا يعرفه، وغاب عقله بحيث يظهر ذلك للحاضرين، واختلف صوته ونغمته، فكيف بمن يكون ربّ العالمين هو الحال في المتّحد به المتكلّم بكلامه؟! فإنه لا بدّ أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظم من الفرق الذي بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما.

يبين هذا أن موسى لمّا سمع كلامه سمع صوتًا خارقًا للعادة، مخالفًا لما يَعهَد من الأصوات، ورأى من الآيات الخارقة والعجائب ما يبين أن ذلك الذي سمعه لا يقدر على التكلّم به إلا الله.

وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته طول^(٤) عمره وكلام سائر النّاس فرق يدلّ على أنه نبّي فضلًا عن أن يدلّ على أنه إله، وإنما عُلِم أنه نبّي بأدلة منفصلة. ولم يكن حاله يختلف، مع أنهم يقولون: إن الاتّحاد ملازمٌ له من حين خُلِق ناسوته في بطن أمّه مريم وإلى الأبد، لا يفارق اللاهوت لذلك النّاسوت أبدًا. وحينئذٍ، فمن المعلوم أن خطابه للناس إن كان خطاب ربّ العالمين لم

(١) ط. النيل: «يختلف عليهم».

(٢) ليست في الأصول والطبعات، والسياق يقتضيها.

(٣) ط. النيل: «دخل»، وفي طرة (د) إشارة إلى أنها في نسخة.

(٤) (و): «مع طول»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

يكن هو رسوله، وإن كان خطابُ رسوله لم يكن ذلك صوتُ ربِّ العالمين.

الوجه الثاني: أن خطابه خطابُ رسولٍ ونبيٍّ، كما ثبت ذلك عنه في عامّة المواضع.

الثالث: أن مصير الشَّيْئَيْنِ شيئًا واحدًا مع بقائهما على حالهما بدون الاستحالة والاختلاط ممتنعٌ في صريح العقل، وإنما المعقول مع الاتِّحاد أن يستحيلًا ويختلطًا، كالماء مع الخمر واللَّبَن، فإنهما إذا صارا شيئًا واحدًا استحالا واختلطًا.

الرابع: أنه مع الاتِّحاد يصير الشَّيْئَانِ شيئًا واحدًا، فيكون الإله هو الرَّسول، والرَّسول هو الإله؛ إذ هذا هو هذا، وإن كان الإله غير الرَّسول فهما شيئان.

ومهما مثَّلوا به قولهم، كتشبيههم ذلك بالنَّار في الحديد، والرُّوح في البدن^(١)، فإنه يدلُّ على فساد قولهم؛ فإن الحديد متى طُرِقَ أو وُضِعَ في الماء كان ذلك مصيبًا للنَّار، وكذلك البدن إذا جاع أو صُلِبَ وتألَّم كان ذلك الألم مصيبًا للرُّوح، فيلزم أن يكون ربُّ العالمين قد أصابه ألمُ الجوع والعطش، وكذلك الضَّرْبُ والصَّلْبُ على قولهم، وهذا شرٌّ من قول اليهود: إنه فقيرٌ، وإنه بخيلٌ، وإنه مسَّه اللُّغوب.

(١) انظر: رسالة بولس الأنطاكي (٤٢٠، ٤٢١).

فصل

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين، قيل لهم:

أولاً: هذه حجةٌ جدليّة، فما مستندكم فيما بينكم وبين الله في تصديق شخصٍ وتكذيب آخر، مع أن دلالة الصّدق فيهما واحدة، بل هي في الذي كذّبتموه أظهر؟! فإن كانت حقاً لزم تصديق من كذّبتموه وفسد دينكم، وإن كانت باطلةً بطل استدلالكم بها على دينكم. فثبت أنهم مع تكذيب محمّد ﷺ لا يستقيم لهم الاستدلال بكلام أحدٍ من الأنبياء عليهم السّلام.

وقيل لهم ثانياً: المسلمون إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بما دلّهم على صدق محمّد ﷺ، فإن لم يكن محمّد صادقاً لم يعرفوا صدق هؤلاء، فيبطل دليلكم، وإن كان صادقاً بطل دين النصارى، فيبطل دليل صحّته؛ فثبت بطلان دليلهم على كلّ تقدير.

وقيل لهم ثالثاً: المسلمون لم يصدّقوا نبوة أحدٍ من هؤلاء إلا مع نبوة محمّد ﷺ، وإن قيل: إنهم عرفوا ذلك بطريق آخر، فإن الدليل الذي يدل على صدق واحدٍ منهم يدل على صدق محمّد ﷺ بطريق الأولى، فلا يمكنهم تصديق نبيٍّ^(١) مع تكذيب محمّد ﷺ.

وقيل لهم رابعاً: هم إنما يصدّقون موسى^(٢) وعيسى اللّذين بشّرا بمحمّد ﷺ، فإن كانا قد بشّرا به فثبت نبوته، وإن لم يكونا بشّرا به فهم لا يؤمنون إلا بالمبشّرين به وبالتّوراة والإنجيل التي^(٣) هو مكتوبٌ فيهما، فإن قُدّر عدم ذلك فهم لا يسلّمون وجود موسى وعيسى وتوراة وإنجيلٍ منزّلين من الله ليس فيهما ذكره ﷺ.

(١) مهملة في (ي)، (و): «موسى»، ط. النيل: «شيء»، والصواب المثبت من (د، ع).

(٢) (ع): «بموسى».

(٣) كذا في الأصول، وفي طرة (ع) إشارة إلى أن في نسخة: «اللذين».

وإن قالوا: نحن صدقنا هؤلاء الأنبياء بلا علم لنا بصدقهم وطريق يدلُّ على صدقهم؛ لأن هذا دين آبائنا وجدناهم يعظمون هؤلاء ويقولون: هم أنبياء، فاتبعنا آبائنا في ذلك من غير علم. وهذا هو الواقع من أكثرهم.

قيل: فإذا كان هذا قولكم في الأنبياء وفيما شهدوا به - إن كانوا شهدوا - فيلزم أن لا يكونوا عالمين به، بل متبعين فيه لأبائهم بغير علم بطريق الأولى، وبهذا يحصل المقصود، وهو أن ما أنتم عليه من اعتقاد دين النصرانية لا علم لكم به^(١) ولا دليل لكم على صحته، بل أنتم فيه متبعون لأبائكم، كاتباع اليهود والمشركين لأبائهم.

ولا ريب أن هذا حال النصارى، ولهذا سمَّاهم الله ضلَّالًا في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [٤] ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لِفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]. ولهذا كان النصارى معروفين بالجهل والضلال، كما أن اليهود معروفون^(٢) بالظلم والقسوة والعناد.

فتبين بما ذكرناه أنه لا يمكنهم مع تكذيب محمد ﷺ في كلمة واحدة الاحتجاج بقول أحد^(٣) من الأنبياء على شيء من دينهم ولا دين غيرهم.

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) الأصول: «معروفين»، سبق قلم.

(٣) (و): «واحد».

فصل

وأما كون القرآن أنزل باللسان العربي وحده، فعنه أجوبة:

أحدها: أن يقال: والتَّوراة إنما أنزلت باللسان العبري وحده، وموسى عليه السلام لم يكن يتكلَّم إلا بالعبرية، وكذلك المسيح لم يكن يتكلَّم بالتَّوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية، ثم^(١) وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد، بلسان الذي أنزلت عليه ولسان قومه الذين يخاطبهم أولاً. وسائر الأنبياء إنما يخاطبون النَّاس بلسان قومهم الذي يعرفونه أوَّلاً^(٢)، ثم بعد ذلك تُبلِّغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم، إما بأن يُترجم لمن لا يَعْرِفُ لسان ذلك الكتاب، وإما بأن يتعلَّم النَّاس بلسان^(٣) ذلك الكتاب، فيعرفون معانيه، وإما بأن يبيِّن للمرسل^(٤) إليه معاني ما أُرسِل به الرسول إليه بلسانه وإن لم يعرف سائر ما أُرسِل به.

وقد أخبر الله في القرآن ما قالته الرُّسل لقومهم وما قالوا لهم، وأكثرهم لم يكونوا عرباً، وأنزل^(٥) الله باللسان العربي.

وحينئذٍ، فإن شرط التكليف تمكُّن العباد من فهم ما أُرسِل به الرسول إليهم، وذلك يَحْصُل بأن يُرْسَل بلسان^(٦) يُعْرِفُ به مراده، ثم جميع النَّاس متمكِّنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان، أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة من يُترجمُ معناه، وهذا مقدورٌ للعباد.

(١) ليست في (ي).

(٢) من قوله: «وسائر الأنبياء» إلى هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٣) كذا في الأصول. وفي ط. النيل وما تلاها: «لسان».

(٤) (د، ي، ع): «المرسل».

(٥) كذا في الأصول. وفي ط. النيل وما تلاها: «وأنزله».

(٦) (ي، د، و): «بلسانه»، وفي طرة (و): «لعله بلسان»، وأشار في طرة (د) إلى أنها في نسخة، والمثبت من (ع).

ومن لم يمكنه فهمُ كلام الرسول إلا بتعلُّم اللغة التي أُرسِلَ بها وجبَ عليه ذلك؛ فإن ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب، بخلاف ما لا يتمُّ الوجوبُ إلا به فإنه ليس بواجب^(١)، ولا يكلفُ الله نفسًا إلا وسعها، لا في الأصل ولا في التَّمام، فلا نحتاج أن نقول: ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به وكان مقدورًا للمكلف فهو واجب؛ فإن ما ليس مقدورًا عليه لا يكلفُ به العباد، بل وقد يكون مقدورًا عليه ولا يكلفون به، فلمَّا كانت الاستطاعة شرطًا في وجوب الحجِّ لم يجب تحصيلُ الاستطاعة، بخلاف قطع المسافة^(٢)، فإنه ليس شرطًا في الوجوب، فلهذا يجب على الإنسان الحجُّ من المسافة البعيدة والقريبة إذا كان مستطيعًا.

وجمهورُ النَّاس لا يعرفون معاني الكتب الإلهية التَّوراة والإنجيل والقرآن إلا بمن يبينها ويفسرها لهم، وإن كانوا يعرفون اللغة، فهو لاء يجبُ عليهم طلبُ علمٍ ما يَعْرِفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، وهذا هو طلبُ العلم المفروض على الخلق.

وكذلك ما بيَّنه الرسول ﷺ من معاني الكتاب الذي أنزله الله عليه يجبُ على الخلق طلبُ علم ذلك ممَّن يعرفه، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرد اللسان، كما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «تفسير القرآن»^(٣) على أربعة أوجه: تفسيرٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسيرٌ لا يُعْذَرُ أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يَعْلَمُهُ العلماء، وتفسيرٌ لا يَعْلَمُهُ إلا الله ﷻ، فمن ادَّعى علمَه فهو كاذب»^(٤).

(١) انظر: «درء التعارض» (١/٢١٢-٢١٣).

(٢) (و): «المسافات».

(٣) (ع): «التفسير».

(٤) أخرجه ابن جرير (٧٠ / ١) بسند حسن، إلا أن فيه إرسالاً. وروي من وجه آخر يقويه عند الطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٨٥). ورفع محمد بن السائب الكلبي إلى النبي ﷺ، =

والله تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾

[إبراهيم: ٤]، لم يقل: «وما أرسلنا من رسولٍ إلا إلى قومه»، لكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبهم أولاً؛ ليبين لقومه، فإذا بين لقومه ما أراد^(١) حصل بذلك المقصود لهم ولغيرهم؛ فإن قومه الذين بلغ إليهم أولاً يمكنهم أن يبلغوا عنه اللفظ، ويمكنهم أن ينقلوا عنه المعنى لمن لا يعرف اللغة، ويمكن غيرهم أن يتعلم منهم لسانه، فيعرف مراده.

فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بمن ينقل عن الرسول، تارة المعنى وتارة اللفظ؛ ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى.

والقرآن يجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء^(٢). وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربية، وبعضهم جوزه مطلقاً، وجمهور العلماء منعوا أن يُقرأ^(٣) بغير العربية^(٤)، وإن جاز أن يُترجم للتفهم^(٥) بغير العربية، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه، وإن كان التفسير ليس قرآناً متلوّاً، وكذلك الترجمة.

= أخرجه ابن جرير (٧٠ / ١)، وقال: «في إسناده نظر»، والكلبي متروك الحديث متهم بالكذب، قال ابن كثير (١٥ / ١): «قد يكون إنما وهم في رفعه، ولعله من كلام ابن عباس». وقد روي من طريق الكلبي موقوفاً عند ابن المنذر في تفسيره (١٣١ / ١)، وفي سنده إعضال.

(١) (و): «إذا تبين ما أراد».

(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٤ / ٣٩٠، ٨ / ٢٣٠، ٤٧٤)، و«التسعينية» (٨١٩)، و«درء التعارض» (٤٣ / ١)، و«منهاج السنة» (٢ / ٦١٢)، و«الانتصار لأهل الأثر» (١٧٢)، و«مجموع الفتاوى» (٦ / ٥٤٢)، وما سيأتي (١ / ٢٩١، ٢ / ٦٩).

(٣) (ع): «وجمهور العلماء أن لا يقرأ».

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١ / ٥١٩)، وما سيأتي (٢ / ٦٩).

(٥) (و): «للتفهم».

وقد قال النبي ﷺ: «نَصَّرَ الله امرءاً سمع منا حديثاً، فبلغه إلى من لم يسمعه، فَرُبَّ حَامِلٍ فقهٍ غير فقيه، وَرُبَّ حَامِلٍ فقهٍ إلى من هو أفقه منه»^(١).

وقال أيضاً في الحديث الصحيح: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماء، فأُنبتت الكَلأ والعشبَ الكثير، وكانت منها طائفةٌ أمسكت الماء فنفع الله به الناس فزرعوا وسَقَوْا، وكانت منها طائفةٌ إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبتُ كلاً، فذلك مَثَلٌ من فقه»^(٢) في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ومَثَلٌ من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به»^(٣).

فدعا النبي ﷺ لمن يبلغ حديثه وإن لم يتفقه^(٤)، وقال: «رَبَّ حَامِلٍ فقهٍ غير فقيه، وَرُبَّ حَامِلٍ فقهٍ إلى من هو أفقه منه».

وقد كانت^(٥) العارفون باللغة العربية حين بعث الله محمداً ﷺ إنما يوجدون في جزيرة العرب وما والاها، كأرض الحجاز واليمن وبعض الشام والعراق، ثم انتشر^(٦) فصار أكثر السَّاكنين في وسط المعمورة يعرفون^(٧)

(١) أخرجه أحمد (٤١٥٧)، والترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وصححه الترمذي، وابن حبان (٦٦، ٦٨، ٦٩).
وروي من وجوه أخرى كثيرة تبلغ حد التواتر، وحديث ابن مسعود أصح ما في الباب.
انظر: «شرف أصحاب الحديث» (١٨)، و«موافقة الخبر الخبر» (١/ ٣٦٤)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٦).

(٢) (و، د): «تفقه»، وهو خطأ. وأشار في طرة (د) إلى أن «فقه» في نسخة. والمثبت من (ع، ي) رواية الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) ألحق في (و) فوق السطر بعدها: «فيه»، وليست في سائر الأصول.

(٥) كذا في الأصول. وغيّرت في ط. العاصمة إلى «كان».

(٦) الأمر، أو العلم بالعربية.

(٧) ساقطة من ط. العاصمة.

العربيّة، حتّى اليهود والنّصارى الموجودون في وسط الأرض يتكلّمون بالعربيّة كما يتكلّم بها أكثر المسلمين^(١)، بل كثيرٌ من اليهود والنّصارى يتكلّمون بالعربيّة أجود ممّا يتكلّم بها كثيرٌ من المسلمين.

وقد انتشرت هذه اللغة أكثر ممّا انتشرت سائر اللغات، حتّى إن الكتب القديمة من كتب أهل الكتاب، ومن كتب الفُرس والهند واليونان والقبط وغيرهم، عُرِّبت بهذه اللغة.

ومعرفة الكتب المصنّفة بالعربيّة والكلام العربيّ أيسرُ على جمهور النّاس من معرفة الكتب المصنّفة بغير العربيّة؛ فإنّ اللسان العبري^(٢) والسريانيّ والرّوميّ والقبطيّ وغيرها وإن عرفه طائفةٌ من النّاس فالذين يعرفون اللسان العربيّ أكثر ممّن يعرف لساناً من هذه الألسنة.

وأيضاً، فمعرفة ما أمر الله به^(٣) عباده أمراً عامّاً هو ممّا نقلته^(٤) الأُمَّة عن نبيّها محمّد ﷺ نقلاً متواتراً، وأجمعت عليه، مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله، وأنه أُرسل إلى جميع النّاس أمّيّهم وغير أمّيّهم، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، والحجّ^(٥)، وإيجاب الصّدق، وتحريم الفواحش والظُّلم، والأمر بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت = هو ما يعرفه المسلمون معرفةً عامّة، ولا يحتاج

(١) (و): «يتكلّم بها المسلمون»، وضرب على «أكثر». وفي (د، ي): «أكثر المسلمون». والمثبت من (ع).

(٢) (و، ي، د): «العربي»، وعلى الصواب في (ع)، وأشير في طرة (د) إلى أنه في نسخة.

(٣) ساقطة من ط. العاصمة.

(٤) ط. العاصمة: «نقله»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٥) ليست في (ي، د، و). وفي (د): «وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلاً» مضروباً عليها، وأثبتت في ط. النيل وما بعدها. والمثبت من (ع).

الإنسانُ في معرفة ذلك إلى أن يحفظ القرآن، بل يمكنُ الإنسان معرفة ما أمر الله به على لسان رسوله وإن لم يعرف اللغة العربيّة، ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسُورًا معها يصلّي بهنّ.

وكثيرٌ من الفرس والرُّوم والتُّرك والهند والحبشة والبربر وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا بالعربيّة الكلام المعتاد، وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتّقين، ومنهم من يحفظ القرآن كلّهُ وإذا كلّم الناس لا يستطيعُ أن يكلمهم إلا بلسانه، لا بالعربيّة، وإذا خوطب بالعربيّة لم يفقه ما قيل له!

الوجه الثاني: أن المسيح ﷺ كان لسانه عبريًّا، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتّبعوه أولاً، ثم إنه أرسلهم إلى الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح ﷺ.

فإن قالوا: إن رُسل المسيح حوّلت ألسنتهم إلى ألسنة من أرسل إليهم.

قيل: هذا منقولٌ في رُسل المسيح، وفي رُسل محمّد صلى الله عليهما^(١) وسلّم الذين أرسلهم إلى الأمم، ولا ريب أن رُسل رُسل الله كرُسل محمّد والمسيح عليهما الصلاة والسلام^(٢) إلى الأمم لا بدّ أن يعرفوا لسان من أرسلهم الرسول إليهم، أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرّسول ليترجمَ لهم، فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية^(٣) فلا بدّ أن يكون رسوله ينطقُ بلسانهم.

وكذلك رُسل النبي ﷺ الذين أرسلهم إلى الأمم^(٤)، فإن النبي ﷺ لمّا

(١) (و): «عليه»، (ي): «عليهم».

(٢) (و): «محمّد ﷺ والمسيح ﷺ».

(٣) كذا في الأصول. وسيأتي نظيره (١/ ٢٩١، ٣١٧): «يعرف بلسان العرب»، «عرف بالعربية».

(٤) «إلى الأمم» ليست في (ي، د، ع).

رجع من الحديبية أرسل رُسُله إلى أهل الأرض، فبعث إلى ملوك العرب باليمن والحجاز والشَّام والعراق، وأرسل إلى ملوك النَّصارى بالشَّام ومصر قِبْطهم ورُومهم وعربهم وغيرهم^(١)، وأرسل إلى الفُرس المجوس ملوك العراق وخراسان.

قال محمَّد بن سعد في «الطبقات»^(٢): ذكُرُ بعثة رسول الله ﷺ الرُّسل بكتبه إلى الملوك وغيرهم يدعوهم، وذِكُرُ ما كَتَبَ به رسول الله ﷺ لناسٍ من العرب وغيرهم.

ثم قال: أخبرنا محمَّد بن عمر الأسلمي، قال: حدثني معمر بن راشد ومحمَّد بن عبد الله، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباسٍ قال. وعن الواقدي، حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرَة، عن المِسْوَري، عن رفاعة.

وحدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه.

[وحدثنا عمر بن سليمان بن أبي حَثْمَة، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حَثْمَة]^(٣)، عن جدِّته الشَّفاء.

وحدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرَة، عن محمَّد بن يوسف، عن السَّائب بن يزيد، عن العلاء بن الحضرمي.

وحدثنا [معاذ] بن محمَّد الأنصاري، عن جعفر بن عمرو بن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أهله، عن عمرو بن أمية الضمري.

(١) (د، ع): «وعبرهم». وفي ط. النيل: «وعربهم وعبرهم وغيرهم».

(٢) (٢٢٢/١).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصول، وكذا المواضع الآتية، واستدركتها من طبقات ابن سعد.

دخل حديث بعضهم في حديث بعض.

قالوا: إن رسول الله ﷺ لَمَّا رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً، ف قيل: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة فضة منه، نقشه ثلاثة أسطر: «محمد، رسول، الله»، وختم به الكتب.

فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع، وأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم.

أرسل النبي ﷺ إلى هرقل دحية بن خليفة الكلبي، وإلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية حاطب بن أبي بلتعة، وإلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمي، وأرسل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني - وكان نصرانياً بظاهر دمشق - فبعث إليه شجاع بن وهب الأسدي، وأرسل إلى غير هؤلاء.

وقال أيضاً^(١): أخبرنا الهيثم بن عدي، قال: أخبرنا دلهم بن صالح وأبو بكر الهذلي، عن عبد الله بن بريدة، [عن أبيه بريدة] بن الحُصيب الأسلمي.

قال: وحدثنا محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان والزُّهري.

وحدثنا الحسن بن عمارة، عن فراس، عن الشعبي.

دخل حديث بعضهم في حديث بعض.

أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «اتنوني^(٢) بأجمعكم بالغداة»، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى الفجر يجلس في مصلاه قليلاً يسبح ويدعو، ثم التفت

(١) (٢٢٧/١).

(٢) «الطبقات»: «وافوني».

إليهم فبعث عدّة إلى عدّة، وقال ﷺ لهم^(١): «انصّحوا لله في أمر عباده، فإن من استرعى شيئاً^(٢) من أمور المسلمين ثم لم ينصح حرم الله عليه الجنة، انطلقوا، ولا تصنعوا كما صنعت رُسُل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد»، فأصبحوا -يعني الرُسُل- وكلُّ منهم يعرف^(٣) بلسان القوم الذين أُرسل إليهم، وذُكر ذلك للنبي^(٤) ﷺ، فقال: «هذا أعظم ما كان من حقّ الله ﷻ عليهم في أمر عباده».

الوجه الثالث: أن النصارى فيهم عربٌ كثيرٌ من زمن النبي ﷺ، وكلُّ من يفهمُ اللسان العربيّ فإنه يمكن فهمه للقرآن وإن كان أصل لسانه فارسياً أو رومياً أو تركياً أو هندياً أو قبطياً.

وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النصارى^(٥) قد قرؤوا المصحف، وفهموا منه ما فهموا، وهم يفهمونه بالعربية، واحتجوا بآيات من القرآن، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا: كيف تقوم الحجة علينا بكتاب لم نفهمه؟!

الوجه الرابع: أن حُكَم أهل الكتاب في ذلك حُكَم المشركين، ومعلوم أن المشركين فيهم عربٌ وفيهم عجمٌ تركٌ وهندٌ وغيرهما.

(١) ليست في (و، د).

(٢) تحرفت في الأصول إلى «أخبر عن شيء». وتبعثها ط. النيل والعاصمة. والتصحيح من «الطبقات».

(٣) «الطبقات»: «يتكلم».

(٤) ط. العاصمة: «النبي»، وهو خطأ مخالف للأصول و«الطبقات».

(٥) يريد المذكورين في رسالة بولس الأنطاكي.

فكما أن جميع المشركين كمشركي العرب، وكذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب، وفي اليهود والنصارى ممَّن يعرفُ بلسان^(١) العرب من لا يحصيه إلا الله ﷻ.

الوجه الخامس: أنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضاً على كل مسلم، وإنما يجبُ على المسلم أن يَعْلَم ما أمره الله به^(٢) وما نهاه عنه بأيِّ عبارة كانت، وهذا ممكنٌ لجميع الأمم، ولهذا دخل في الإسلام جميعُ أصناف العجم من الفُرس والتُّرك والهند والصَّقالبة والبربر، ومن هؤلاء من يَعْلَمُ اللسانَ العربيَّ، ومنهم من يَعْلَمُ ما فرض الله عليه بالترجمة^(٣).

وقد قدَّمنا^(٤) أنه يجوز ترجمة القرآن في غير الصَّلَاة للتَّفهيم^(٥)، كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين، وإنما تنازعوا: هل يقرأ بغير العربية تلاوةً كما يقرأ في الصَّلَاة؟ فجمهور العلماء منعوا من ذلك^(٦)، وحيثُ إذا قرأ الأعجمي فاتحة الكتاب وسورتين معها بالعربية أجزاءه، وكذلك التشهُد وغيره من الذكر المأمور به، وهذا أمرٌ يسيرٌ أيسر من أكثر الواجبات، فكيف يمتنع أن يأمر الله ﷻ عباده بذلك؟!

(١) كذا في الأصول، وسبق نظيره. وفي ط. النيل: «يعرف لسان».

(٢) «به» ليست في (ي). و«به الله» ليست في (و).

(٣) ط. العاصمة: «الترجمة»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) (١/٢٨٤).

(٥) (د، ع): «والتعبير»، وهي مهملة في (ي، و)، وصححت في طرة (و) إلى «والتفسير»، والأشبه ما أثبت، وقد سبقت العبارة بهذا اللفظ في الموضع المتقدم.

(٦) انظر: «المحلى» (٢/٢٨٥، ٣/٧٢)، و«المغني» (٢/١٥٨).

وأما جُمْلُ ما أمر به الرسول ﷺ من الصَّلاة، والزكاة، والصَّوم^(١)،
والحجِّ، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وما حرَّمه الله من
الشرك، والفواحش، والظلم، وغير ذلك = فهذا ممَّا يمكن أن يعرفه كلُّ أحدٍ^(٢)
بتعريف مَنْ يَعْرِفه، إمَّا باللسان العربيِّ، وإما بلسانٍ آخر، لا يتوقَّفُ تعريفُ ذلك
على لسان العرب.

(١) من ط. النيل، وليست في الأصول.

(٢) (و): «واحد».

فصل

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَغَمِّيْ وَعَرِّيْ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فهذا يتضمنُ إناعامَ الله به^(١) على عبادِهِ؛ لأنَّ اللسانَ العربيَّ أكملُ الألسنة وأحسنُها بيانًا للمعاني، فنزول الكتاب به أعظمُ نعمةً على الخلق من نزوله بغيره.

وهو إنما خوطبَ به أولاً العربُ ليفهموه، ثمَّ من يَعْلَمُ لغَتَهُمْ يَفْهَمُهُ كما فَهِمُوهُ، ثمَّ من لم يَعْلَمْ لغَتَهُمْ ترجمَهُ له مَنْ عَرَفَ لغَتَهُمْ. وكان إقامة الحجَّة به على العرب أولاً، والإناعام به عليهم أولاً؛ لمعرفة لغتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، [وقال]: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، واللُّدُّ جمع الألدِّ، وهو الأعوج في المناظرة، الذي يروغ عن الحق^(٢)، كما قال النبي ﷺ: «إِنْ أَبْغَضَ الرَّجَالُ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدَّ الْخَصِمَ»^(٣).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۖ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فهو كما قال تعالى، وقومُ محمدٍ ﷺ هم قريش، وبلسانهم أُرْسِلَ، وهو سبحانه لم يقل: «وما أُرسلنا من رسول إلا إلى قومه»، بل الرسول يبعثه الله إلى قومه وغير قومه، كما تقول النَّصارى: إنه بَعَثَ المسيح ﷺ.

(١) ليست في (و)، ولم تثبتها ط. العاصمة.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والحواريين^(١) إلى غير بني إسرائيل وليسوا من قومه، فكذلك بُعث محمدٌ ﷺ إلى قومه وغير قومه، ولكن إنما يُبعثُ بلسان قومه ليبين لهم، ثم يحصل البيان لغيرهم بتوسط البيان لهم، إمّا بلغتهم ولسانهم، وإمّا بالترجمة لهم.

ولو لم يتبين لقومه أولاً لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم، وإذا تبين لقومه أولاً حصل البيان لهم ولغيرهم بتوسطهم، وقومهم إليهم بُعث أولاً، ولهم دعا أولاً، وأنذر أولاً^(٢)، وليس في هذا أنه لم يُرسل إلى غيرهم، لكن إذا تبين لقومه لكونه بلسانهم أمكن بعد هذا أن يعرفه غير قومه، إمّا بتعلمه بلسانهم وإمّا بتعريف بلسان يفهم به.

والرجل يكتب كتاب علم في طبٍّ أو نحوٍ أو حسابٍ بلسان قومه، ثم يُترجم ذلك الكتاب ويُنقل إلى لغاتٍ أُخرى، وينتفع به أقوامٌ آخرون، كما تُرجمت كتب الطبِّ والحساب التي صُنفت^(٣) بغير العربي، وانتفع بها العرب وعرفوا مراد أصحابها، وإن كان المصنف لها أولاً إنما صنفها بلسان قومه.

وإذا كان هذا في بيان الأمور التي لا يتعلّق بها سعادة الآخرة والنّجاة من عذاب الله، فكيف يمتنع في العلوم التي يتعلّق بها سعادة الآخرة والنّجاة من العذاب أن يُنقل من لسانٍ إلى لسانٍ حتى يفهم أهل اللسان الثاني بها ما أراده بها المتكلّم بها أولاً باللسان الأول؟!

وأبناء فارس المسلمون لمّا كان لهم عناية^(٤) بهذا ترجموا مصاحف كثيرة، فيكتبونها بالعربيّ، ويكتبون الترجمة بالفارسيّة، وكانوا قبل الإسلام أبعد

(١) ليست في (د)، وفي (ي): «أو الحواريين».

(٢) من قوله: «وقومه إليهم بعث» إلى هنا ليس في (و).

(٣) مهملة في (ي)، (د، ع): «صنعت».

(٤) ط. العاصمة: «من عناية»، وهو خطأ مخالف للأصول.

عن المسلمين من الرُّوم النَّصارى^(١)، فإذا كان الفرسُ المجوسُ قد وصل إليهم معاني القرآن بالعربيِّ وترجمته، فكيف لا يصل إلى أهل الكتاب وهم أقربُ إلى المسلمين منهم؟! وعامةُ الأصول التي يذكرها القرآن عندهم شواهدُها ونظائرُها في التَّوراة والإنجيل والزُّبور وغير ذلك من النبوات.

بل كلُّ من تدبَّر نبوات الأنبياء وتدبَّر القرآن جزم جزماً^(٢) يقيناً بأن محمداً رسول الله حقاً، وأن موسى رسول الله صدقاً؛ لما يرى من تصادق الكتابين التَّوراة والقرآن، مع العلم بأن موسى عليه السلام لم يأخذ عن محمدٍ ﷺ، وأن محمداً ﷺ لم يأخذ عن موسى؛ فإن محمداً ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحاله^(٣) كان أمياً من قوم أميين، مقيماً بمكة، ولم يكن عندهم من يحفظ التَّوراة ولا الإنجيل ولا الزُّبور، ومحمدٌ لم يخرج من بين ظهرائهم، ولم يسافر قطُّ إلا سفرتين إلى الشام: خرج مرةً مع عمِّه أبي طالب قبل الاحتلام، ولم يكن يفارقه، ومرةً أخرى مع ميسرة في تجارته، وكان ابن بضع وعشرين سنة، مع رفقةٍ كانوا يعرفون جميع أحواله، ولم يجتمع قطُّ بعالمٍ أخذ عنه شيئاً لا من علماء اليهود ولا النَّصارى ولا من غيرهم، لا بحيراً ولا غيره، ولكن كان بحيراً الرَّاهب لما رآه عرفه؛ لما كان عنده من ذكره ونعته، فأخبر أهله بذلك، وأمرهم بحفظه من اليهود، ولم يتعلَّم لا من بحيراً ولا من غيره كلمةً واحدة، وسنين - إن شاء الله - الدلائل الكثيرة على أنه لم يأخذ عن أحدٍ من أهل الكتاب كلمةً واحدة^(٤)، وقصة بحيراً المذكورة، ذكرها أربابُ السِّير وأصحاب المسانيد والسُّنن.

(١) ط. العاصمة: «الروم والنَّصارى»، وهو كذلك خطأ مخالف للأصول.

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) ليست في (و).

(٤) كما سيأتي (١/٢٩٩، ٤/١١٠-١٢١).

قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي في جامعه^(١):
حدثنا الفضل أبو العباس البغدادي، قال: حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو
نوح، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري، عن
أبيه، قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش،
فلما أشرفوا على الرَّاهب هبطوا، فحلُّوا رحالهم، فخرج إليهم الرَّاهب، وكانوا
قبل ذلك يمرُّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت. قال: فهم يحلُّون رحالهم
فجعل يتخلَّلهم الرَّاهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيِّد
العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخ
من قريش: ما علِّمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجرٌ ولا
حجرٌ إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان^(٢) إلا لنبيٍّ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل
من غُرْضُوفٍ^(٣) كتفه مثل التُّفَّاحَةِ، ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهاهم به -

(١) (٣٩٤٨). وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٦٩٦)، والبزار (٣٠٩٦)، والحاكم (٦٧٢ / ٢) وغيرهم بهذا الإسناد. وقد تفرد به عبد الرحمن بن غزوان، ولقبه قُرَاد، وهو ثقة له أفرادٌ وغرائب، وأنكر حديثه هذا الذهبي في مواضع من كتبه، وقال: «هو حديثٌ منكَّرٌ جدًّا»، وقال: «يشهد القلب بوضعه»، وقال متعقبًا الحاكم في تصحيحه: «أظنه موضوعًا، وبعضه باطل»، انظر: «تاريخ الإسلام» (١ / ٥٠٢ - ٥٠٤)، و«المغني» (٢ / ٣٨٤)، و«تلخيص المستدرک» (٢ / ١٠٧٤ - مختصره لابن الملقن)، و«السير» (٩ / ٥١٩)، و«الميزان» (٢ / ٥٨١)، وابن القيم في بعض فوائده (٢١ - ٥٣)، وقال: «لم يروه البخاري ولا مسلم ولا أحدٌ من أصحاب الصحيح»، ثم قال: «وهو حديثٌ منكَّرٌ جدًّا من وجوه»، وأفاض في بيان ما تضمَّنه من ألفاظٍ منكَّرة. والأشبه أن أصل الحديث محفوظ، وفيه زياداتٌ وألفاظٌ وَهَمَ فيها قُرَاد أو شيخه يونس، كما أشار إلى ذلك ابن كثير في «الفصول» (٩٤)، وابن حجر في «هدى الساري» (٤١٨)، و«الفتح» (٨ / ٧١٦)، و«الإصابة» (١ / ٦٤٣)، وقد ميَّزت تلك الألفاظ بحرفٍ غليظ، وأحسن شيخ الإسلام إذ أسقط من الرواية أن أبا بكرٍ بعث مع النبي ﷺ بلالًا حين ردَّه أبو طالب، فإنها غلطٌ بلا ريب.

(٢) (د، و، ي): «يسجدان». والمثبت من (ع) يوافق رواية الترمذي.

(٣) الغرضوف والغضروف: كل عظم ليِّن. «التاج» (غرضف).

وكان هو في رعية الإبل -، فقال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تُظِلُّه، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الرُّوم، فإن الرُّوم إن رأوه عرفوه بالصِّفة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الرُّوم، فاستقبلهم الرَّاهب، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أن هذا النبيَّ خارجٌ في هذا الشَّهر، فلم يبق طريقٌ إلا بُعثَ إليه بأناس، وإنا قد أُخبرنا خبره لطريقك^(١) هذه. فقال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحدٌ من النَّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فتابعوه^(٢) وأقاموا معه. قال: أنشدكم الله يا معشر العرب أيكم وليُّه؟ فقال أبو طالب: أنا، فلم يزل يناشده حتى ردَّه أبو طالب، وزوَّده الرَّاهبُ من الكعك والزَّيت.

قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ورواه البيهقي في كتاب «دلائل النبوة»^(٣) من حديث العباس بن محمَّد، عن قُرَادِ أَبِي نُوح^(٤)، وقال العباس^(٥): لم يحدث به -يعني بهذا الإسناد- غير قُرَاد، وسمعه يحيى وأحمد من قُرَاد.

قال البيهقي: «أراد أنه لم يحدث به^(٦) بهذا الإسناد سوى هؤلاء^(٧)، فأما القصَّة فهي عند أهل المغازي مشهورة».

(١) (د، ع): «بطريقك».

(٢) كذا في الأصول، وهي رواية البزار وابن أبي شيبة وغيرهما. وعند الترمذي وغيره: «فابعوه». وانظر: «الزهر الباسم» لمغلطاي (١/٤٤٢).

(٣) (٢/٢٤-٢٦).

(٤) ط. العاصمة: «بن نوح»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

(٥) العباس بن محمد الدوري الحافظ.

(٦) ساقطة من ط. العاصمة.

(٧) في مطبوع «الدلائل»: «ولإنما أراد به بإسناده هذا موصولاً».

وقال ابن سعد في «الطبقات»^(١): حدثنا محمد بن عمر، قال: حدثني محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، قال: لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج به أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة، فنزلوا بالراهب بحيرا، فقال بحيرا لأبي طالب في النبي ﷺ ما قال، وأمره أن يحتفظ به، فردّه أبو طالب معه إلى مكة، وشبّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب، يكلّؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايها؛ لما يريد به من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلاً، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى، فما رئي مُلاحياً ولا مُمارياً أحداً، حتى سمّاه قومه: الأمين؛ لما جُمِعَ فيه من الأمور الصالحة.

وقال ابن الجوزي^(٢): خرج أبو طالب إلى الشام، ومعه رسول الله ﷺ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام، فنزل الركب ببُصرى وبها راهبٌ يقال له: بحيرا في صومعة له، وكان ذا علمٍ بالنصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة راهبٌ تنتهي إليه علمُ النصرانية صاغراً عن كابر، وفيها كتبٌ يدرسونها، وكان كثيراً ما يمرُّ به^(٣) الركبُ فلا يكلمهم، حتى إذا كان في ذلك العام نزلوا منزلاً قريباً من الصومعة، فصنع لهم الراهب طعاماً، ودعاهم، وإنما حمّله على ذلك لشيءٍ رآه، فلمّا رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته، وأمر بذلك الطعام، فحضر، وأرسل إلى القوم، فقال: يا معشر قريش، أحبُّ أن تحضروا طعامي ولا يتخلّف منكم أحد، فقال: وهذا شيءٌ تكرموني [به]، فلمّا حضروا عنده جعل يلاحظ النبي ﷺ لحظاً شديداً، وينظر إلى جسده، وجعل أبو طالب

(١) (٩٩/١). وهو معضل، داود بن الحصين من أتباع التابعين.

(٢) انظر: «المنتظم» (٢/٢٩٢)، و«الوفا» (٨٢)، و«صفة الصفوة» (١/٢٨).

(٣) ساقطة من ط. العاصمة.

يخاف عليه من الرَّاهِب، ثم قال الرَّاهِب لأبي طالب: ارجع بابن أخيك؛ فإنه كائنٌ له شأنٌ عظيم، فإنَّا نجد صفته في كتبنا، ونرويه^(١) عن آبائنا، فلمَّا فرغوا من التَّجارة رجع به أبو طالب سريعًا إلى مكة، فما خرج بعدها به أبو طالب خوفًا عليه.

هذا مع أن في القرآن من الردِّ على أهل الكتاب في بعض ما حرَّفوه، مثل دعواهم أن المسيح ﷺ صُلِبَ، وقول بعضهم: إنه إله، وقول بعضهم: إنه ساحر، وطعنهم على سليمان ﷺ وقولهم: إنه كان ساحرًا، وأمثال ذلك = ما يبيِّن أنه لم يأخذ عنهم.

وفي القرآن من قصص الأنبياء عليهم السَّلام ما لا يوجد في التَّوراة ولا الإنجيل^(٢)، مثل قصَّة هود وصالح وشعيب وغير ذلك.

وفي القرآن من ذكر المعاد وتفصيله، وصفة الجنَّة والنَّار، والنَّعيم والعذاب، ما لا يوجد مثله في التَّوراة والإنجيل، بل التَّوراة ليس فيها تصريحٌ بذكر المعاد، وعامَّة ما فيها من الوعد والوعيد فهو في الدُّنيا، كالوعد بالرزق والنصر والعاقبة، والوعيد بالقحط والأمراض والأعداء^(٣). وإن كان ذكرُ المعاد موجودًا في غير التَّوراة من النبوءات، ولهذا كان أهل الكتاب يُقرُّون بالمعاد وقيام القيامة الكبرى، وقد قيل: إن ذلك مذكورٌ في التَّوراة أيضًا، لكن لم يُبسَّط كما بُسَّط في غير التَّوراة.

(١) مهملة في (د، ي). (ع): «فيرونه»، (و): «ويروونه»، وكلاهما خطأ، وأثبتت الثاني منهما ط. العاصمة. وفي «المنتظم» و«صفة الصفوة»: «وما روينا».

(٢) (و): «والإنجيل».

(٣) انظر: «درء التعارض» (٥/ ٣١٠)، و«المنهاج» للحليمي (١/ ٣٦٨، ٣٦٩)، و«تنقيح الأبحاث» لابن كمونة (٤٠)، و«قصة الحضارة» (٢/ ٣٤٥)، و«اليهودية» لأحمد شلبي (١٩٥)، و«موسوعة اليهود واليهودية» للمسيحي (٥/ ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٨٩).

فصل

فإن قالوا: إن الكتب التي عندنا من التّوراة والإنجيل وغيرهما ترجمها لنا الحواريّون، وهم عندنا رسلٌ معصومون، وترجموها لجميع الأمم، بخلاف القرآن؛ فإنه إنما يترجمه من ليس بمعصوم.

فعن هذا أجوبة:

أحدها: أن هذا كذبٌ بيّن؛ فإن من العرب من النّصارى من لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وكان فيهم نصارى كثيرون تنصّروا قبل مبعث محمّد ﷺ، وكان فيهم قومٌ على دين المسيح الذي لم يبدّل، وهم مؤمنون من أهل الجنّة، كسائر من كان على دين المسيح ﷺ؛ فإن كلّ من كان على دين المسيح ﷺ الذي لم يبدّل قبل مبعث محمّد ﷺ فإنه مؤمنٌ مسلمٌ من أهل الجنّة.

ومع هذا فليس على وجه الأرض توراَةٌ ولا إنجيلٌ مُعرَّبٌ من عهد الحواريّين، بل التّوراة العبريّة تُنقلُ من اللسان العبريّ أو غيره إلى العربيّة، وكذلك الإنجيل يُنقلُ من اللسان الرّومي أو السّرياني أو اليوناني^(١) أو غيرها إلى العربيّة.

فلو كان عند كلّ أمةٍ من الأمم توراَةٌ وإنجيلٌ ونبوّاتٌ بلسانهم لكان نصارى العرب أحقّ بهذا من نصارى الحبشة والصّقالبة والهند؛ فإنهم جيران البيت المقدّس، وهم بنو إسماعيل ﷺ.

والأنجيل عندهم أربعة، وهم يدّعون أن كلّ واحد كتبها بلسانٍ، كُتبت بلسان العبريّ والرّومي واليوناني، مع أن في بعض الأنجيل ما ليس في بعض،

(١) «أو اليوناني» ليست في (د)، وأخرت في (ي) إلى بعد «العربية».

مثل قولهم: «عمّدوا النَّاس باسم الأب والابن وروح القدس» الذي جعلوه أصل دينهم، وهذا إنما هو قوله في إنجيل متى^(١).

وإذا كان كل واحد من الأربعة كتب إنجيلًا بلسانه لم يكن هناك إنجيل واحد أصليّ ترجع إليه الأناجيل كلّها.

ثم هم مع هذا يدّعون أنها تُرجمت باثنين وسبعين لسانًا، وهذا فيه من الكذب والتناقض أمورٌ سننبه إن شاء الله على بعضها، لكن غاية ما يدّعون أنه تُرجمَ باثنين وسبعين لسانًا، ومعلومٌ أن الألسنة الموجودة في بني آدم في جميع المعمورة في زماننا وقبل زماننا أكثر من هذا، كما يعرفه من عرّف أحوال العالم، بل اللسان الواحد كالعربي والفارسي والتركي جنسٌ تحته أنواعٌ مختلفة لا يفهم بعضهم لسان بعض إلا أن يتعلّمه منهم.

والعرب أقرب الأمم إلى بني إسحاق بني إسرائيل والعيص^(٢)؛ فإنهم بنو إسماعيل وجيرانهم، فإن أهل الحجاز جيران الشام، ومكة لم تزل تحج إليها العرب، ولم يكن قطّ عند العرب توراّة ولا إنجيلٌ عربيّان من عهد المسيح ﷺ، بل ولا كان بمكة لا توراّة ولا إنجيلٌ لا معرّب ولا غير معرّب، ولهذا قال تعالى: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]، فكيف يدّعى أن التّوراّة والإنجيل ترجمهما الحواريّون لكل قوم من جميع بني آدم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا بلسان يفهمونه به؟! وهل يقول هذا إلا من هو من أكذب النَّاس وأجهلهم!؟

(١) إنجيل متى (١٩: ٢٨).

(٢) العيص بن إسحاق بن إبراهيم، أخو يعقوب (إسرائيل)، عليهم السلام. انظر: تاريخ ابن جرير (٣١٩/١، ٣٣٠)، و«المنتظم» (٣٠٧/١).

الوجه الثاني: أن يقال: ترجمة الكلام من لغة إلى لغة لا تحتاج إلى معصوم، بل هذا أمرٌ تَعَلَّمَهُ الأُمَم، فكلُّ من عرف اللسانين أمكنه التَّرجمة، ويحصل العلمُ بذلك إذا كان المترجمون كثيرين متفرِّقين لا يتواطؤون على الكذب، وبقرائن تقترن بخبر أحدهم، وبغير ذلك، وهذا موجودٌ معلوم. بل إذا ترجمه اثنان كلُّ منهما لا يعرفُ ما يقوله الآخر، ولم يتواطئا^(١)، حصل بذلك المقصود في الغالب، وهم يذكرون أن التَّوراة ترجمها اثنان وسبعون حبراً من اليهود، ولم يكونوا معصومين، وأن^(٢) المَلِك فرَّقهم لئلا يتواطؤوا على الكذب، واتَّفَقوا على ترجمةٍ واحدة، وهذا كان بعد الخراب الأول، فهكذا يمكنُ ترجمة غير التَّوراة.

وهذه التَّوراة في زماننا والإنجيل والزُّبور يُترجمُ باللغة العربيَّة، ويُعرفُ المقصودُ به بلا ريب، فكيف بالقرآن الذي يفهمُ أهلُه معناه، ويفسِّرونه، ويترجمونه أكملَ وأحسنَ ممَّا يترجم أهلُ التَّوراة والإنجيل التَّوراة والإنجيل؟!

الوجه الثالث: أن دعوى العصمة في كلِّ واحدٍ من الحواريين، وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسى عليهما السَّلام، دعوى ممنوعة، وهي باطلة، وإنما هم رسلُ المسيح ﷺ، بمنزلة رسل موسى ورسُل إبراهيم ورسُل محمَّد صلى الله عليهم وسلَّم، وأكثر النَّصارى أو كثيرٌ منهم^(٣) أو كلُّهم يقولون: هم رسلُ الله وليسوا بأنبياء.

وكلُّ من ليس بنبيٍّ فليس برسولٍ لله^(٤)، وليس بمعصوم، وإن كانت له خوارقُ عاداتٍ، كأولياء الله من المسلمين وغيرهم؛ فإنه وإن كانت لهم كراماتٌ

(١) ط. العاصمة: «يتواطؤوا»، خلاف الأصول.

(٢) (ي): «فإن».

(٣) (و): «أو أكثرهم».

(٤) (ي، د، ع): «برسول الله».

من الخوارق فليسوا معصومين من الخطأ، والخوارق التي تجري على يدي غير الأنبياء عليهم السّلام لا تدلّ على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء، فضلاً عن كونهم معصومين؛ فإن وليّ الله من يموت على الإيمان، ومجرّد الخارق لا يدلّ على أنه يموت على الإيمان، بل قد يتغيّر عن ذلك الحال.

وإذا قطعنا بأن الرجل وليّ الله، كمن أخبر النبي ﷺ بأنه من أهل الجنة^(١)، فلا يجب الإيمان بكلّ ما يقوله إن لم يوافق ما قالته الأنبياء، بخلاف الأنبياء عليهم السّلام؛ فإنهم معصومون، لا يجوز أن يستقرّ فيما يبلغونه خطأ، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم، ومن كفر بواحد منهم فهو كافر، ومن يسبّ واحداً منهم وجب قتله في شرع الإسلام، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١٣٦) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نُولُوا فَأِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[البقرة: ١٣٦ - ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّهِ وَمَلَيْكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهذا مبسوط في موضع آخر^(٢).

(١) من قوله: «تجري على» إلى هنا ليس في (د)، واستدرك في طرة (ع)، وهو في (ي، و).
 (٢) انظر: «الصفدية» (١/٢٦١، ٢/٣١١)، و«شرح الأصبهانية» (٦١٥)، و«الصارم المسلول» (١٨٨، ١٩١، ٤٢١، ١٠٤٨)، و«الإخنائية» (٤٧٣)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/٢٩٠، ١٩/١٨٥).

فصل

وأما قولهم: «لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسلٌ من قبله، خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا، وسلّموا إلينا التّوراة والإنجيل بلغتنا، على ما يشهد لهما الكتابُ الذي أتى به هذا الرّجل»^(١)، حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال في النحل^(٢): ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]»^(٣).

فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن إثبات رسولٍ من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسولٍ ثانٍ؛ فإن بني إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى عليه السلام، وكانوا على شريعة التّوراة، ثم بعث الله عليه السلام إليهم المسيح عليه السلام، ووجب^(٤) عليهم الإيمانُ به، ومن لم يؤمن به كان كافرًا وإن قال: إني متمسكٌ بالكتاب الذي أنزل إليّ. فكذلك إذا أرسل الله رسولًا بعد المسيح وجب الإيمانُ به، ومن لم يؤمن به كان كافرًا، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بني إسرائيل كان كافرًا.

وبنو إسرائيل أكثر اختصاصًا بموسى والتّوراة من الرّوم وغيرهم بالمسيح^(٥) والإنجيل؛ فإنهم كانوا عبرانيين والتّوراة عبرانية.

الوجه الثاني: دعواهم أنهم متمسكون في هذا الوقت بالدين الذي نقله

(١) ليست في (د، ي، ع)، وألحقت في (و) مع التصحيح.

(٢) ط. النيل: «سورة النحل».

(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤).

(٤) (ي، د، ع): «وجب».

(٥) مهملة في (ي، و). وفي (د): «فالمسيح»، وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة، والصواب المثبت من (ع).

الحواريُّون عن المسيح ﷺ كذبٌ ظاهر، بل هم عامَّة ما هم عليه من الدِّين عقائده وشرائعه، كالأمانة، والصَّلاة إلى المشرق، واتِّخاذ الصُّور والتمثيل في الكنائس، واتِّخاذها وسائط، والاستشفاع بأصحابها، وجعل الأعياد بأسمائهم، وبناء الكنائس على أسمائهم، واستحلال الخنزير، وترك الختان، والرَّهبانيَّة، وجعل الصَّيام في الرِّبيع، وجعل خمسين يومًا، والصَّلوات، والقرايين، والنَّاموس = لم ينقله الحواريُّون عن المسيح، ولا هو موجودٌ لا في التَّوراة ولا في الإنجيل، وإنما هم متمسِّكون بقليلٍ ممَّا جاءت به الأنبياء.

وأما كفرِّيَّاتهم وبدعهم فكثيرةٌ جدًّا، ولا ينقل^(١) أحدٌ عن المسيح والحواريِّين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه في صلاتهم السَّحرية: «تعالوا بنا نسجد للمسيح إل هنا»، وفي الصلاة الثانية والثالثة: «يا والدة الإله، مريم العذراء، افتحي لنا أبواب الرَّحمة»^(٢).

الوجه الثالث: قولهم: إنهم سلَّموا إليهم^(٣) التَّوراة والإنجيل بلغاتهم، إنما يستقيم إن كان صحيحًا في بعض النَّصارى لا في جميعهم؛ فإن العرب من النَّصارى وغير العرب لم يسلم أحدٌ إليهم توراَةً وإنجيلًا بلسانهم، وهذا أمرٌ معروف، ولا يوجد^(٤) قطُّ توراَةً ولا إنجيلٌ معرَّبٌ من زمن الحواريِّين، وإنما عرِّبت في الأزمان المتأخِّرة، فإذا كانت النَّصارى من العرب تقوم^(٥) عليهم الحجَّة قبل محمَّد ﷺ بكتابٍ نزل بغير لسانهم ثم عرِّبَ لهم، فكيف لا تقوم على الرُّوم وغيرهم الحجَّة بكتابٍ نزل بغير لسانهم ثم تُرجمَ بلسانهم؟!

(١) ط. العاصمة: «لم ينقل»، خلاف الأصول.

(٢) انظر: «تخجيل من حرَّف التَّوراة والإنجيل» (١/١٢١، ٣٦٣، ٢/٦٢٩).

(٣) (د، ع): «إلينا».

(٤) (و): «توجد».

(٥) (ي): «لن تقوم»، وهو خطأ.

الوجه الرابع: أن يقال: الأُمَّة إذا غَيَّرت دينَ رسولها الذي أُرسِل إليها وبَدَّلته أرسِل الله إليها من يدعوها إلى الدِّين الذي يحبُّه الله ويرضاه، كما أن بني إسرائيل لَمَّا غَيَّرُوا دينَ موسى وبَدَّلوه بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين الذي يحبُّه ويرضاه^(١)، وكذلك النَّصارى لَمَّا بَدَّلُوا دينَ المسيح وغَيَّروه بعث الله إليهم وإلى غيرهم مُحَمَّدًا ﷺ بالدين الذي يحبُّه ويرضاه.

وقد ثبت في الصَّحيح^(٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»، وأولئك البقايا الذين كانوا^(٣) متمسِّكين بدين المسيح قبل مبعث مُحَمَّدٍ ﷺ كانوا على دين الله ﷻ، وأما من حين بُعث مُحَمَّدٌ ﷺ فمن لم يؤمن به فهو من أهل النَّار، كما قال ﷺ في الحديث الصَّحيح: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأُمَّة يهوديٌّ ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به، إلا كان من أصحاب النَّار»^(٤).

الوجه الخامس: أن يقال: دعواهم أن الرُّسل سلَّموا إليهم التَّوراة والإنجيل وسائر النبوات باثنين وسبعين لسانًا، وأنها باقيةٌ إلى اليوم على لفظٍ واحد، دعوى يُعَلَّم أن قائلها متكلمٌ^(٥) بلا علم، بل مفتر كاذب^(٦)، وذلك أن هذا يقتضي أنه الآن في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانًا، كلها منقولةٌ

(١) (د، ع): «يحبُّه الله».

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) (ي): «وأولئك البقايا إن كانوا».

(٤) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) مهملة في (ي)، (د، و، ع): «يتكلم». والأشبه ما أثبت.

(٦) (و): «كذاب».

عن الحواريين، وكلها متفقة غير مختلفة البتة، فهنا^(١) أربع دعاوى:

* أنها موجودة باثنين وسبعين لساناً.

* وأنها متفقة.

* وأنها كلها منقولة عن الحواريين.

* الرابعة: أنهم معصومون.

فيقال: من الذي منكم لو قُدِّرَ أن هذه الكتب التي باثنين وسبعين لساناً هي عن الحواريين، وهي موجودة اليوم، فمن الذي يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضاً؟!!

وذلك لا يمكن إلا لمن يَعْلَم الاثنين وسبعين لساناً، ويكون ما عنده من الكتب يَعْلَم أنها^(٢) مأخوذة عن الحواريين، وَيَعْلَم أن كل نسخة في العالم بذلك^(٣) اللسان توافق النسخة التي عنده، وإلا فلو جمَعَ اثنين^(٤) وسبعين نسخة باثنين وسبعين لساناً لم يَعْلَم أن كل نسخة من هذه هي المأخوذة عن الحواريين إن قُدِّرَ أنه أُخِذَ عنهم اثنان وسبعون^(٥) لساناً، ولا يَعْلَم أن كل نسخة في العالم توافق تلك النسخة^(٦)؛ فإنه من المعلوم أنه في زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتب تُنْقَل من لسان إلى لسان، كما يُترجم من العبرانية إلى العربية،

(١) في الأصول: «فهذا»، وكذلك أثبتتها الطبقات، وهو تحريف. والتركيب كثير الوقوع في كلام المصنف.

(٢) (ع، د): «أنما هي».

(٣) ط. العاصمة: «بهذا»، خلاف الأصول.

(٤) كذا في الأصول، من باب الحمل على المعنى، والجادة: اثنين.

(٥) (ع، د): «اثنين وسبعين».

(٦) من قوله: «ولا يعلم أن كل نسخة» إلى هنا ليس في (و، ي).

ومن السريانية والرّومية واليونانية إلى العربيّة وغيرها، وحينئذٍ فإذا وُجدت نسخةً بالعربيّة لم يَعْلَم أنها ممّا عُرِّبَتْ بعد الحواريّين، أو هي من المأخوذ عن الحواريّين، إذا قُدِّرَ أنه أُخِذَ عنهم نسخةٌ بالعربيّة.

ولا يمكنُ أحدًا^(١) أن يجمع جميع النُّسخ المعرّبة، ويقابل بينها، بل وقد وجدنا النُّسخ المعرّبة يخالف بعضها بعضًا في التّرجمة مخالفةً شديدةً تمنع الثّقة ببعضها.

وقد رأيتُ أنا بالزّبور عدّة نسخ معرّبة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط، وما يشهد بأنها مبدّلةٌ مغيرةٌ لا يوثق بها، ورأيتُ من التّوراة المعرّبة من النُّسخ ما يكذب بكثيرٍ من ترجمتها طائفةً من أهل الكتاب.

فكيف يمكنه أن يجمعَ جميع النُّسخ التي بالاثنتين وسبعين لسانًا، ويقابل بين نسخ كلّ لسانٍ حتّى يكون فيها النُّسخة القديمة المأخوذة عن الحواريّين، ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة؟!!

ولا يمكن ذلك إلا لمن يكون عارفًا بالاثنتين وسبعين لسانًا معرفةً تامّةً، وليس في بني آدم من يقدر على ذلك، ولو قُدِّرَ وجود ذلك فلم يُعرَف أن القادر على ذلك فعل ذلك وأخبرنا باتفاقها.

ولو وُجد ذلك لكان هذا خبرًا واحدًا، وأن يُترجم^(٢) كلّ لسانٍ من يعلم صحّة ترجمته حتّى تنتهي التّرجمة إلى لسانٍ واحدٍ كالعربيّ مثلاً، ويعلم حينئذٍ اتفاقها.

(١) غيّرناها ط. العاصمة إلى «لأحد» متابعة لطبعة المدني ومخالفة للأصول، وهي على الصواب في ط. النيل.

(٢) (ي، و): «أو أن يترجم».

وإلا فإذا تُرجم هذا الكتاب بلسانٍ أو لسانين أو أكثر، وتُرجم الآخر كذلك، لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنى بهذا اللسان هو المعنى بهذا اللسان، وهذا لا يكون إلا ممّن يعرف اللسانين، أو من يُترجم له اللسانان باللسان الذي يعرفه. ومعلومٌ أن أحداً لم يُترجم له الاثنان وسبعون لساناً بلسانٍ واحد أو ألسنةٍ يعرفها، ولا يُعرفُ أحدٌ باثنين وسبعين لساناً.

وحينئذٍ، فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لساناً، أو الجزم بأن نسخ كلِّ لسانٍ متَّفقة، جزمٌ بما لا يُعلمُ صحَّته، لو لم يكن في الأرض اليوم الاثنان وسبعون لساناً منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك، فكيف وأكثر ما بأيدي الناس هو ممّا تُرجم بعد ذلك بالعربي وغيره؟!!

هذا إذا ثبت أن الحواريين سلّموها باثنين وسبعين لساناً، وأنها باقيةٌ إلى اليوم، وهذا أمرٌ لا يمكن أحداً معرفته، فليس اليوم توراثة وإنجيلٌ ونبوءاتٌ يشهد لها أحدٌ أنها مترجمةٌ باللسان العربيّ من عهد الحواريين، بل ولا بأكثر الألسنة، وإلا فإذا قُدِّر أن الحواريين سلّموها باثنين وسبعين لساناً مع حصول الترجمة بعد ذلك وكثرة المترجمات أمكن وقوعُ التَّغيير في بعض المترجمات.

وحينئذٍ، فالعلمُ بأن تلك النسخ القديمة^(١) لا تغيير^(٢) فيها، لا يمنعُ وقوعَ التغيير في بعض ما تُرجم بعدها، أو في بعض ما نُسخ منها^(٣)، ولا سبيلٌ إلى العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لساناً، بخلاف القرآن الذي هو بلسان العرب وخطُّ العرب؛ فإن العلم باتفاق ما يوجد من نُسخه^(٤) ممكنٌ، وهو

(١) ليست في (د، ع).

(٢) ط. العاصمة: «تغيير»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) (د، ع): «بعدها».

(٤) ط. العاصمة: «نسخة»، وهو خطأ مخالف للأصول.

محفوظٌ في الصُّدُور، لا يحتاج إلى حفظٍ في الكتب، فهو منقولٌ بالتواتر لفظًا وخطًا.

الوجه السادس: قولهم: «وسَلِّمُوا إلينا التَّوراةَ والإنجيلَ بلساننا، على ما يشهد لهما الكتابُ الذي أتى به هذا الرَّجلُ»^(١).

فيقال لهم: ليس في القرآن ما يشهد لكم بأن التَّوراةَ والإنجيلَ سُلِّمَتَا إليكم بلسانكم، فاستشهادكم بالقرآن على هذه الدعوى من جنس استشهادكم به على أن دينكم حقٌّ، ومن جنس استشهادكم بالنبوءات على ما أحدثتموه وغيرتم به دينَ المسيح ﷺ من التثليث والاتِّحاد وغير ذلك.

وقولهم: «حيث يقول الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾» [إبراهيم: ٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].

فيقال: لا ريب أن قوم موسى ﷺ هم بنو إسرائيل، وبلسانهم نزلت التَّوراة، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح ﷺ، وبلسانهم كان المسيحُ يتكلَّم، فلم يخاطب واحدٌ من الرُّسُولَيْنِ أحدًا إلا باللسان العبراني، لم يتكلَّم أحدٌ منهما لا بروميَّة ولا سُرْيانيَّة ولا يونانيَّة ولا قِبْطِيَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] كلامٌ مطلقٌ عامٌّ، كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، ليس في هذا تعرُّضٌ لكون التَّوراةَ والإنجيلَ سُلِّمَتَا إليهم بالسنتهم.

الوجه السابع: أن يقال: عمدتهم في هذه الحجَّة أنهم يقولون: الحواريُّون هم عندنا رسل الله، كإبراهيم وموسى، والمسيح عندنا هو الله، وهو أرسل

(١) ليست في (ع، ي، د).

هؤلاء إلينا^(١)، فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا، وأن يكونوا سلّموا إلينا التّوراة والإنجيل بلساننا.

فيقال لهم: هَبْ أنكم تدّعون هذا وتعتقدونه - ونحن سنبيّن إن شاء الله تعالى أن هذه دعاوى باطلة -، لكن أنتم في هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذي هو القرآن الذي جاء به محمّد ﷺ يشهد لكم بذلك، وهذا كذبٌ ظاهرٌ على محمّد ﷺ وعلى كتابه، وأنتم صدّرتكم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم.

ونحن نبين كذبكم وافتراءكم عليه، سواء أقررتم بنبوته أو لم تقرّوا بها؛ فإنه من المعلوم يقيناً عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله، بل كفر من قال ذلك، ولا يشهد للحواريين بأنهم رسل أرسلهم الله، بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا: إنا مؤمنون مسلمون، وأنهم قالوا: نحن أنصار الله، كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله، بل وأنهم أفضل من الحواريين؛ لكون أمته خير الأمم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأْمَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

(١) (و): «إلينا هؤلاء».

وسياتي الكلام على هذا مبسوطاً^(١)، ونبيّن أن الرّسل المذكورين في سورة «يس» ليس هم الحواريين^(٢)، ولا كانوا رسلاً للمسيح، بل كان هذا الإرسال قبل المسيح، وأهل القرية كذبوا أولئك الرّسل، فأهلكهم الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) **﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾** [يس: ٢٨-٢٩].

والرّسل المذكورون في سورة «يس» هم ثلاثة، وكان في القرية رجل آمن بهم، وهذه وإن كانت أنطاكية^(٣) فكان هذا الإرسال قبل المسيح، والمسيح ﷺ ذهب إلى أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السّماء، ولم يُعزّزوا بثالث، ولا كان حبيب النّجار^(٤) موجوداً إذ ذاك، وآمن أهل أنطاكية بالمسيح ﷺ، وهم^(٥) أول مدينة آمنت به^(٦)، كما قد بُسط في غير هذا الموضع^(٧).

والمقصود هنا أن محمّداً ﷺ لم يشهد للمسيح بالإنبياء، ولا للحواريين بأنهم رسل الله، ولا أنهم سلّموا إليهم التّوراة والإنجيل بلسانهم، ولا بأنهم معصومون.

(١) (١/٤٢٥-٤٣٣).

(٢) (ي، و، د): «الحواريون».

(٣) مدينة تاريخية على الضفة اليسرى لنهر العاصي، شمال غرب الشام، تبعد ٣٠ كيلاً من شاطئ البحر المتوسط، كانت تابعة لحلب ضمن لواء إسكندرون، ثم آلت إلى تركيا منذ سنة ١٩٣٩ وهي اليوم ضمن محافظة هتاي.

(٤) الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، المذكور في سورة يس. انظر: تفسير ابن كثير (٦/٥٧٠).

(٥) ط. العاصمة: «وهي» خلاف الأصول وط. النيل.

(٦) انظر: سفر أعمال الرسل (١١: ٢٦).

(٧) انظر: «جامع الرسائل» (١/٦٦)، وما سياتي (١/٤٢٦).

وما ذكروه من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] إنما يتناول رُسُلَ الله، لا رُسُلَ رُسُلِ الله، بل رُسُلُ رُسُلِ الله يجوز أن يبلغوا رسالات الرُّسل بلسان الرُّسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان كانت رُسُلُ الرُّسل تخاطبهم بلسانهم، لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهية بلسانهم، بل يكفي أن يقرؤوها بلسان الأنبياء عليهم السَّلام، ثم يترجموها بلسان أولئك.

وهو سبحانه قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾، ولم يقل: «وما أرسلنا من رسولٍ إلا إلى قومه»، بل محمَّدٌ أُرسِلَ بلسان قومه وهم قريش، وأُرسِلَ إلى قومه وغير قومه، كما يذكرون هم^(١) ذلك عن المسيح ﷺ.

(١) ليست في (ي، و).

فصل

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ ﴿فَحَقُّ، وتمام﴾^(١)
 الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^ط
 فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
 كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿[النحل: ٣٦].

وهذا كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] في أصح الأقوال^(٢)، أي: ولكل قوم داع يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، كما أنت هادي، أي داع لمن أرسلت إليه.

والهادي بمعنى الداعي المعلم المبلغ، لا بمعنى الذي يجعل الهدى في القلوب^(٣)، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿[الشورى: ٥٢-٥٣] وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء، بُعث إليهم موسى، وُبعث إليهم بعده أنبياء كثيرون، حتى قيل: إنهم ألف نبي^(٤)، وكلهم يأمرون بشريعة

(١) (د، ع): «فتمام».

(٢) وضعف القول بأن الهادي هنا هو الله، أو النبي ﷺ، أو علي رضي الله عنه. انظر: «منهاج السنة» (١٣٨/٧ - ١٤٣)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/٥٨١، ١٣/٣٥٤).

(٣) انظر: «الرد على البكري» (٤٣٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٦/١٥٦، ١٨/١٧٢).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً بسند واهٍ من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وهما متروكان، وقال ابن رجب في «فتح الباري» (٤/٣٤٣): «هذا إسنادٌ ضعيفٌ لا يعتمد عليه».

التَّوراة ولا يغيِّرون منها شيئاً، ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعةٍ أخرى غير فيها بعض شرع التَّوراة بأمر الله ﷻ.

فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده إليهم لم يمنع إرسال المسيح إليهم، فكيف يمتنع إرسال محمد ﷺ إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولهم^(١) من حين المسيح لم يأتهم رسولٌ من الله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]؟!

وهذه الفترة التي كانت بين المسيح ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه، وهي فيما ذكره غير واحدٍ من العلماء، كسلمان الفارسي وغيره، كانت ستمئة سنة^(٢)، وقد قيل: ستمئة^(٣) شمسية، وهي ستمئة وعشرون أو ثمانية عشر هلالية، وذلك أن كل مئة شمسية تكون مئة وثلاث سنين هلالية، كما قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، وهذه تسع^(٤) وبعض العاشرة، والتاريخ قد تحسب فيه التامة وتحسب فيه الناقصة، فمن قال: عشرين حسب الناقصة، ومن قال: ثمانية عشر حسب التامة فقط^(٥).

= وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٦٩٧/٨) عن الأعمش. وذكره مقاتل في مواضع من تفسيره (٨٥/١، ٢١٢، ٤٧٩، ٨٣٧/٣). وأخرج أبو يعلى (٤١٣٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧٧٤) عن أنس رضي الله عنه بسند ضعيف مرفوعاً: «بُعِثَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ بعد ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل».

- (١) ط. النيل: «وهم».
- (٢) أخرجه البخاري (٣٩٤٨) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه.
- (٣) ط. النيل: «ستمائة سنة». وكذا الموضع الآتي: «مائة سنة».
- (٤) ط. النيل: «التسع».
- (٥) انظر: تفسير ابن كثير (٧٠/٤)، و«فتح الباري» (٢٧٧/٧).

فصل

وأما قولهم: «نعلم أن الله عدلٌ، وليس من عدله أن يطالب أمةً يوم القيامة»^(١) باتِّباع إنسانٍ لم يأت إليهم، ولا وقفوا له على كتابٍ بلسانهم ولا من جهة داعٍ من قبَله»^(٢).

فيقال: الجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا الكلام لا يجوز أن يقوله من كتب هذا الكتاب ولا أحدٌ يفهم بالعربيَّة؛ فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربيَّة، وقد قرؤوه وناظروا بما فيه، وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربيَّة كان ذلك أبلغ في قيام الحجَّة عليهم؛ فإنهم يمكنهم فهم ما قال بالعربيَّة وتفهم^(٣) ذلك لقومهم باللسان الآخر.

الثاني: أنهم^(٤) يفهمون ما في كتبهم الرُّومية والسُّريانية والقبطية وغيرها، ويترجمونها للعرب من النَّصارى بالعربيَّة، فإذا قامت الحجَّة على عرب النَّصارى باللسان الرُّومي فلأن تقوم على الرُّوم باللسان العربيّ أولى؛ فإن اللسان العربيّ أكثر انتشارًا في العالم من اللسان الرُّومي، والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره، وهو أكمل بيانًا وأتم تفهيمًا^(٥).

وحينئذٍ، فيكون وصول المعاني به إلى غير أهل لسانه أيسر؛ لكمال معناه، ولكثرة العارفين به، وهؤلاء علماء النَّصارى يقرؤون كتب الطبِّ والحساب

(١) رسالة بولس: «أمة من الأمم».

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤، ٤١٨).

(٣) (د، ع): «ويفهم».

(٤) (ع، و، د): «كما أنهم».

(٥) مهملة في (ي)، (د، ع): «تفهما».

والفلسفة وغير ذلك باللسان العربي، مع أن مصنفها كانوا عجمًا من روميّ ويونانيّ وغير ذلك، فما المانع أن يُقرأ القرآنُ العربيّ وتفسيره وحديثُ النبي ﷺ باللسان العبري مع أنه أخذ عن الرسول بالعربي؟! فهو أولى بأن يُعرف به مراد المتكلّم به.

الوجه الثالث: أن يقال: النَّاسُ لَهُمْ فِي عَدْلِ اللَّهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ^(١):

قيل: كُلُّ مَا يَكُونُ مَقْدُورًا لِلَّهِ^(٢) فَهُوَ عَدْلٌ.

وقيل: العَدْلُ مِنْهُ نَظِيرُ الْعَدْلِ مِنْ عِبَادِهِ.

وهما قولان ضعيفان.

وقيل: مِنْ عَدْلِهِ أَنْ يَجْزِيَ الْمُحْسِنَ بِحَسَنَاتِهِ، لَا يَنْقُصُهُ شَيْئًا مِنْهَا، وَلَا يَعاْقِبُهُ بِمَا ذَنْبٌ.

ومعلومٌ أنه إذا أمر العبدَ بما يقدر عليه كان جائزًا باتفاق طوائف أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، وإن كان الفعل مكروهًا للإنسان؛ فإن الجنة حُفَّتْ بالمكارة وحُفَّتْ النَّارُ بالشَّهوات، وقد كُفِّتْ بنو إسرائيل والنصارى من الأعمال ما هو مكروهٌ لهم وشاقٌّ عليهم، فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم ببلغةٍ يبيّن بعضُ المسلمين معناها لهم؟!.

والعربُ الذين^(٣) نزل القرآن بلسانهم طَبَّقُوا الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ نَصَارَى لَا يُحْصَوْنَ، فَكُلُّ مَنْ عَرَفَ بِالْعَرَبِيَّةِ^(٤) مِنَ النَّصَارَى أَمَكْنَهُ فَهُمْ مَا يَقَالُ

(١) انظر: «منهاج السنة» (١/١٣٤، ٦/٤٠٢)، و«تفسير آيات أشكلت» (١/٤٤٤)، و«جامع الرسائل» (١/١٢١-١٤٢)، و«مجموع الفتاوى» (١/٢١٩، ١٨/١٣٨)، وما سيأتي (١/٣٢٨).

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) لم تحرر في (و، ي). (د، ع): «الذي». والوجه ما أثبت.

(٤) تقدمت الإشارة إلى هذا الاستعمال (١/٢٨٧).

بالعربي، ومن كان منهم روميًا كان له أسوة من أسلم من سائر طوائف الأعاجم، كالفرس والتُّرك والهند والبربر والحبشة وغيرهم، وهو متمكِّنٌ من معرفة ما أمره الله والعمل به كما يمكن هؤلاء كلهم^(١)، بل الرُّوم أقدر على ذلك من غيرهم، فلا يُيِّ وجهٌ يمتنع أن يأمرهم الله بذلك؟!!

وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به إذا كان مقدورًا للعبد فعله أن يفعله، باتفاق أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى.

وإنما ما تنازع النَّاس فيه: هل يسمَّى واجبًا؟

فقل: يسمَّى واجبًا.

وقيل: لا يسمَّى واجبًا؛ فإن الأمر لم يقصده بالأمر، وقد لا يخطر بباله إذا كان الأمر مخلوقًا.

قال هؤلاء: ولأن الواجب ما يُذمُّ تاركه شرعًا أو يعاقبُ تاركه شرعًا، أو ما يستحقُّ تاركه الذمُّ أو العقاب^(٢)، أو ما يكون تاركه سببًا للذمِّ أو العقاب.

قالوا: وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به لا يستحقُّ تاركه الذمُّ والعقاب؛ فإن الحجَّ إذا وجب على شخصين أحدهما بعيدٌ والآخر قريبٌ، ولم يفعلاه، لم تكن عقوبة البعيد على التَّرك أعظمَ من عقوبة القريب، مع أن المسافة التي لا بدَّ لهما من قطعها أكثر. وكذلك من وجب عليه قضاء دينه من غير احتياجٍ إلى بيع شيءٍ من ماله، ليست عقوبته على التَّرك بأقلَّ من عقوبة من يحتاج إلى بيع مالٍ له ليقضي به دينه.

وفصل الخطاب: أن ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به هو من لوازم وجود الواجب،

(١) ليست في (ع).

(٢) «أو العقاب» ليست في (و)، ولم تثبتها ط. العاصمة.

ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، فالمأمور به لا يمكن فعله إلا بلوازمه،
والمنهني عنه لا يمكن تركه إلا بترك ملزوماته، لكن هذا الملزوم لزومه^(١) عقلي
أو عادي، فوجوبه وجوب عقلي عادي، لا أن الأمر نفسه قصد إيجابه والذم
والعقاب على تركه^(٢).

وتنازع الناس: هل يقال: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، سواء كان
وجوبه شرعياً أو عقلياً؟ أو يحتاج أن يقال: ما لا يتم الواجب إلا به، وكان
مقدوراً للمكلف، فهو واجب؟

فالجمهور أطلقوا العبارة الأولى، وبعض المتأخرين قيّدوها بالقدرة^(٣)،
ولا حاجة إلى ذلك؛ فإن ما لم يكن مقدوراً ينتفي الوجوب مع انتفائه، فيكون
شرطاً في الوجوب، لا في فعل الواجب. والجمهور قالوا: ما لا يتم الواجب إلا
به فإنه يجب.

والمقصود هنا أن الله إذا أوجب على العباد شيئاً، واحتاج أداء^(٤) الواجب
إلى تعلّم شيء من العلم، كان تعلّمه واجباً^(٥).

فإذا كان معرفة العبد لما أمره^(٦) الله به تتوقّف على أن يعرف معنى كلام
تكلّم به بغير لغته، وهو قادر على تعلّم معنى تلك الألفاظ التي ليست بلغته، أو
على معرفة ترجمتها بلغته، وجب عليه تعلّم ذلك.

(١) الأصول: «لزوم»، والمثبت أشبه، أو يكون: «لكن هذا اللزوم لزوم...».

(٢) انظر: «المسودة» (١/ ١٨٧ - ١٨٩)، و«درء التعارض» (١/ ٢١١ - ٢١٣)، و«جامع
الرسائل» (٢/ ١٦٨).

(٣) ط. النيل: «بالمقدور»، وفي طرة (د، ع) إشارة إلى أنها في نسخة.

(٤) ليست في (د، ع).

(٥) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٢٧).

(٦) (و): «أمر».

ولو جاءت رسالةٌ من ملكٍ إلى ملكٍ بغير لسانه لطلب من يترجم مقصودَ الملك المُرسِل، ولم يَجْزُ أن يقول: أنت لم تبعث إليَّ من يخاطبني بلغتي، مع قدرته على أن يفهم مراده بالترجمة، فكيف يجوز أن يقال ذلك لرب العالمين؟!!

ولو أمر^(١) بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته، وهم قادرون على معرفة ما أمرهم به، إما بتعلُّم لغته، وإما بمن يترجم لهم ما قاله، لم يكن ذلك ظلمًا، فكيف يكون ظلمًا من ربِّ العالمين، مع أنه ليس بظلمٍ من المخلوقين؟! ولو وجب لبعض الرعية حقٌّ على بعض، أو ظلم بعضهم بعضًا، لوجب على الملك أن يُنصفَ المظلوم، ويرسل إلى الظالم من يأمره بالعدل والإنصاف، ويعاقبه إذا لم يُنصف إذا كان الظالم متمكِّنًا من معرفة أمر الملك بالترجمة أو غيرها. وهذا هو العدل، ليس العدل أن يترك النَّاسَ ظالمين في حقِّ الله وحقِّ عباده.

والله تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم النَّاسُ بالقسط، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فليس لأحدٍ ممَّن أرسل إليه رسولٌ، وهو قادرٌ على معرفة ما أرسل به إليه بالترجمة أو غير^(٢) الترجمة، أن يمتنع من شرع الله الذي أنزله، وهو القسط الذي بعث به رسوله، لكون الرسول ليس لغته لغته، مع قدرته على أن يعرف مراده بطرقٍ متعددة.

والنَّاسُ في مصالح دنياهم يتوسَّل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة وغيرها، فيتبايعون وبينهم ترجمانٌ يبلغ بعضهم عن بعض، ويتراسلون في

(١) (و، ي): «أمر به».

(٢) (و): «أو غير».

عمارة بلادهم وأغراض نفوسهم بالتراجم الذين يترجمون لهم.

وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا؛ فكيف لا يتوسّلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعض؟! وكيف يكون أمر الدنيا أهمّ من أمر الدين إلا عند من أغفل الله قلبه عن ذكر ربّه، واتّبع هواه، وأعرض عن ذكر ربّه، ولم يُرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]،

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

الوجه الرابع: أنه من العجب أن تعدّ النصارى مثل هذا ظلماً خارجاً عن العدل، وهم قد نسبوا^(١) إلى الله من الظلم العظيم على هذا الأصل ما لم ينسبه إليه أحد من الأمم، كما سبّوه وشتموه مسبّة ما سبّه إياها أحد من الأمم.

فهم من أبعد الأمم عن توحيدهِ وتمجيدهِ وحمدهِ والثناء عليه، وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الربُّ عليه وعاقبه، وأن تلك العقوبة بقيت في ذريّته، إلى أن جاء المسيح وصُلب، وأنه كانت الذرّيّة في حبس إبليس، فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنّم في حبس إبليس، حتى قالوا ذلك في الأنبياء: نوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وغيرهم!

ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافراً، ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه، فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعد؟! هذا لو قُدِّر أن آدم لم يُتَّب، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة؟!

(١) (ع): «وهم نسبوا».

ثم يزعمون أن الصَّلبَ الذي هو من أعظم الذُّنوب والخطايا به خَلَّصَ الله آدم وذريته من عذاب الجحيم، وبه عاقبَ إبليس، مع أن إبليس ما زال عاصيًا لله مستحقًا للعقاب من حين امتنع من السُّجود لآدم ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح، والرَّبُّ قادرٌ على عقوبته، وبنو آدم لا عقوبة عليهم في ذنب أبيهم.

فمن كان قولهم مثل هذه الخرافات التي هي مَضَاحُكُ العقلاء، والتي لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم، فكيف يدَّعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل، ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسان بتعلُّم ما يقدر على تعلُّمه وفيه صلاحُ معاشه ومعاده، ويجعلون مثل هذا موجبًا لتكذيب كتابه ورساله، والإصرار على تبديل الكتاب الأوَّل وتكذيب الكتاب الآخر، وعلى أنه يتضمَّن مخالفة موسى وعيسى وسائر الأنبياء والرُّسل؟!!

والنَّصارى^(١) يقولون: إن المسيح الذي هو عندهم اللَّاهُوت والنَّاسُوت جميعًا إنما مكَّن الكفَّار من صُلْبِهِ ليحتال بذلك على عقوبة إبليس^(٢).

قالوا: فأخفى نفسه عن إبليس لئلا يَعْلَمَ.

قالوا^(٣): ومكَّن أعداءه من أخذه وضربه والبصاق في وجهه ووضع الشَّوك على رأسه وصُلْبِهِ، وأظهر الجزع من الموت، وصار^(٤) يقول: يا إلهي، لم سلَّطت أعدائي عليَّ؟ ليختفي^(٥) بذلك عن إبليس، فلا يعرف إبليس أنه الله

(١) قبلها في (ع): «فصل»، ولا وجه له.

(٢) كما سيأتي (٣٧/٢).

(٣) ليست في (و، ي).

(٤) (د، ع): «وجعل»، وفي طرتها إشارة إلى أن «صار» في نسخة.

(٥) (د، ع): «ليخفي».

أو ابن الله، ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين، فيحتج عليه الرب حينئذٍ، ويقول: بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحي؟ فيقول له إبليس: بخطيئتك، فيقول: ناسوتي لا خطيئة له كنوايسيت الأنبياء، فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تؤخذ^(١) أرواحهم إلى جهنم، وأنا لا خطيئة لي!

قالوا: فلما أقام الله الحجّة على إبليس، جاز للربّ حينئذٍ أن يأخذ إبليس ويعاقبه، ويخلص ذريّة آدم من إذهابهم إلى الجحيم.

وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وصفه، فمن هذا قوله فقد قدح في علم الربّ وحكمته وعدله قدحاً ما قدحه فيه أحد، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يقال: إبليس إن كان أخذ الذريّة بذنّب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره، وإن كان بخطاياهم فلم يأخذهم بذنّب أبيهم، وهم قالوا: إنما أخذهم بذنّب آدم.

الثاني: أن يقال: من خلق بعد المسيح من الذريّة كمن خلق قبله، فكيف جاز أن يمكّن إبليس من الذريّة المتقدّمين دون المتأخّرين، وكلّهم بالنسبة إلى آدم سواء؟! وهم أيضاً يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدّمين، فكيف جاز تمكّن^(٢) إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدّمين ولم يمكّن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح؟!

(١) (د، ي، ع): «تأخذ».

(٢) ط. العاصمة: «تمكين»، خلاف الأصول وط. النيل.

الوجه الثالث: أن يقال: أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم، إما أن يكون ظلمًا من إبليس، وإما أن يكون عدلاً. فإن كان عدلاً فلا لوم على إبليس، ولا يجوز أن^(١) يُحتال عليه ليمتنع من العدل الذي يستحقُّه، بل يجب تمكينه من المتأخرين والمتقدمين. وإن كان ظلمًا فلم لا يمنعه الربُّ منه قبل المسيح؟!

فإن قيل: لم يقدر، فقد نسبوه إلى العجز. وإن قيل: قدر على دفع ظلم إبليس، ولم يفعله، فلا فرق بين دفعه في زمانٍ دون زمان، إن جاز^(٢) ذلك جاز في كلِّ زمان، وإن امتنع امتنع في كلِّ زمان.

الوجه الرابع: أن إبليس إن كان معذورًا قبل المسيح فلا حاجة إلى عقوبته، ولا ملام^(٣) عليه، وإن لم يكن معذورًا استحقَّ العقوبة، ولا حاجة إلى^(٤) أن يحتال عليه بحيلة تُقام بها الحجة عليه.

الوجه الخامس: أنه بتقدير أنه لم يُقم عليه حُجَّة^(٥) قبل الصَّلب فلم يُقم عليه حُجَّة^(٦) بالصَّلب؛ فإنه يمكنه أن يقول: أنا ما علمتُ أن هذا النَّاسوت هو ناسوتُ الربِّ، وأنت يا ربِّ قد أذنت لي أن آخذ جميع ذرية آدم فأردَّ بهم^(٧) إلى

(١) «يجوز أن» ليست في (ع).

(٢) (د، ع): «أو جاز»، وهو خطأ.

(٣) (د، ع): «يلام».

(٤) ليست في (د، ع).

(٥) (و): «الحجة».

(٦) ليست في (ي، د، ع).

(٧) مهملة في (ي)، ورسمت في (د، و، ع): «فاوديهم»، وكذلك أثبتتها الطبقات. وأرجو أن الصواب ما قرأت، وقد جاء في التنزيل أن فرعون يورد قومه النار، وبئس الورد المورد. وأما «فاوديهم» أو «فأزديهم» بمعنى «أهلكهم» فلا يلتزم بها سياق الكلام.

الجحيم، وهذا واحدٌ منهم، وما علمتُ أنك أو ابنك اتَّحدَ به، ولو علمتُ ذلك لعظمتُهُ، فأنا معذورٌ في ذلك، فلا يجوز أن تظلمني.

الوجه السادس: أن يقال^(١): إن إبليس يقول حينئذٍ: يا ربِّ، فهذا النَّاسُوت الواحد أخطأتُ في أخذِ روحه، لكن سائر بني آدم الذين بعده لي أن أحبس أرواحهم في جهنم، كما حبستُ أرواح الذين كانوا قبل المسيح، إمَّا بذنب أبيهم وإمَّا بخطاياهم أنفسهم. وحينئذٍ، فإن كان ما يقوله النَّصارى حقًّا فلا حجةَ لله على إبليس.

الوجه السَّابع: أن يقال: هَبْ أن آدم أذنبَ وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان، فعقوبة بني آدم على ذنوبهم هي إلى الله أو إلى إبليس؟! فهل يقول عاقلٌ أن إبليس له أن يغوي بني آدم بتزيينه لهم، ثم له أن يعاقبهم جميعًا بغير إذنٍ من الله له^(٢) في ذلك؟!!

وهل هذا القول إلا من جنس^(٣) قول المجوس الثنوية الذين يقولون: إن كلَّ ما في العالم من الشرِّ من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل إبليس، لم يفعل الله شيئًا من ذلك، ولا عاقب الله أحدًا على ذنب؟

ولا ريب أن هذا القول سرى إلى النَّصارى من المجوس؛ ولهذا^(٤) لا ينقلون هذا القول في كتابٍ منزَّل، ولا عن أحدٍ من الحواريين، ولهذا كان المانوية دينهم مركَّبًا من دين النَّصارى والمجوس، وكان رأسهم ماني نصرانيًّا

(١) ليست في (و، ي)، وفي (د): «نقول».

(٢) ليست في (و).

(٣) ليست في (و، د، ع).

(٤) ط. العاصمة: «لهذا» خلاف الأصول.

مَجُوسِيًّا^(١)، فالنسبُ بين النَّصَارَى والمَجُوسِ^(٢) بل وسائر المشركين نسبٌ معروف^(٣).

الوجه الثامن: أن يقال: إبليسُ عاقَبَ بني آدم وأدخلهم جهنم بإذن الله أو بغير إذنه؟

إن قالوا: بإذنه، فلا ذنب له، ولا يستحقُّ أن يحتال عليه ليعاقب ويُمْنَع^(٤).

وإن كان بغير إذنه، فهل جاز في عدل الله أن يمكِّنه من ذلك أم لم يجز؟ فإن جاز ذلك في زمانٍ جاز في جميع الأزمنة، وإن لم يجز في زمانٍ لم يجز في جميع الأزمنة، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده.

الوجه التاسع: أن يقال: هل كان الله قادرًا على منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة، وكان ذلك عدلاً منه لو فعله أم لا؟

فإن كان ذلك مقدورًا له وهو عدلٌ منه لم يَحْتَجْ أن يحتال على إبليس، ولا يَصْلُبَ نفسه أو ابنه. ثم إن كان هذا العدل واجبًا عليه وجب منعُ إبليس، وإن لم يكن واجبًا جاز تمكينه في كلِّ زمان، فلا فرق بين زمانٍ وزمان.

وإن قيل: لم يكن قادرًا على منع إبليس، فهو تعجيزٌ للرَّبِّ عن^(٥) منع إبليس، وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل الملل، من جنس قول الثنوية الذين

(١) تقدمت ترجمته (٥٢ / ١).

(٢) ليست في (د، ع).

(٣) انظر: «درء التعارض» (٣٦٢ / ٥)، و«تثبيت دلائل النبوة» (١٦٩ / ١)، و«تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (٨٤٨ / ٢).

(٤) مهملة في (و، ي)، (د، ع): «ويمتنع».

(٥) (د، ع): «على».

يقولون: لم يكن يَقْدِرُ النُّورُ أن يمنع الظُّلْمَةَ^(١) من الشَّرِّ، ومن جنس قول دِيمُقْرَاطِيس^(٢) والْحَرَنَانِيِّينَ^(٣) الذين يقولون: لم يمكن واجبُ الوجود أن يمنع النَّفْسَ من^(٤) ملابسة الهَيُولَى^(٥)، بل تعلَّقت النفسُ بها بغير اختياره^(٦).

الوجه العاشر: أن ما فعله به الكفَّارُ اليهودُ صلبوه، هل كان^(٧) طاعةً لله أو معصية؟

فإن كان طاعةً لله استحقَّ اليهودُ الذين صلبوه أن يشبههم ويكرمهم على طاعته، كما يشبُّ سائر المطيعين له. والنَّصارى متَّفِقون على أن أولئك من أعظم النَّاسِ إثْماً، وهم من شرِّ الخلق، وهم يستحلُّون من دمهم ولعنتهم ما لا يستحلُّونه من غيرهم، بل يبالغون في طلب اليهود وعقوبتهم في آخر صومهم الأيام التي تشبه أيام الصَّليب.

وإن كان أولئك اليهود عصاةً لله، فهل كان قادراً على منعهم من هذه المعصية أم لا؟ فإن لم يكن قادراً لم يكن قادراً على منع إبليس من ظلم الذُّرِّيَّة

(١) (ي): «الظلم»، (د، ع) وط. النيل: «العالم»، وهو خطأ.

(٢) فيلسوف يوناني، قبل أفلاطون، كان يقول بالجزء الذي لا يتجزأ. انظر: «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلدجل (٣٣)، و«الملل والنحل» (٢/ ١٤٠، ١٧٠).

(٣) مهملة في (ي، و)، (ع، د): «والحنانيين»، وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة. والحرنانيون: جماعة من الصابئة الكلدانيين، نسبتهم إلى حرَّان (من مدن الجزيرة الفراتية، جنوب شرق تركيا اليوم) على غير قياس، يقولون بالقدماء الخمسة. انظر: «الفهرست» (٣/ ٣٥٧)، و«الملل والنحل» (٢/ ١١٢)، و«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» (٨٤)، و«الصحاح» (حرن).

(٤) (د، ع): «لم يكن واجب الوجود الذي يمنع النفس عن».

(٥) وهي الأصل والمادة، كما مضى (١/ ١٨٠).

(٦) انظر: «درء التعارض» (٩/ ٣٤٧)، و«منهاج السنة» (١/ ٢٠٩)، و«شرح الأصبهانية» (٢٨٠)، و«جامع الرسائل» (١/ ١٠٦).

(٧) «هل كان» ليست في (و). (ع، د): «قد كان».

في الزَّمن المستقبل، وإن كان قادرًا على منعهم من المعاصي ولم يمنعهم كان قادرًا على منع إبليس بدون هذه الحيلة، وإذا كان^(١) حسنًا منه تمكينهم من هذه المعصية كان حسنًا منه تمكين إبليس من ظلم الذُّرِّيَّة في الماضي والمستقبل، فلا حاجة إلى الحيلة عليه.

واعلم أن الوجوه الدّالة على فساد دين النصارى كثيرة جدًا، وكلّما تصوّر العاقل مذهبهم وتصور لوازمه تبين له فسادهم، لكن المقصود هنا بيان تناقضهم في أنهم يُقيمون عذر أنفسهم في ترك الإيمان بكتابه ورسوله ودينه لكونه سبحانه عدلًا لا يأمر الناس بما يعجزون عنه، وهو سبحانه لم يأمرهم إلا بما يقدرّون عليه، وقد نسبوا إليه من الظُّلم ما لم ينسبه إليه أحدٌ من بني آدم.

يوضّح هذا الوجه الحادي عشر: وهو أنه إمّا أن يقال في الظُّلم بقول^(٢) الجهميّة المُجبرّة الذين يقولون: يفعل ما يشاء بلا حكمة ولا سبب ولا مراعاة عدل.

وإما أن يقال بقول القدريّة أنه يجبُ عليه العدل الذي يجب على المخلوقين.

وإما أن يقال: هو عادلٌ منزّه عن الظلم ولكن ليس عدله كعدل المخلوق. فهذه أقوال الناس الثلاثة^(٣).

فإن قيل بالأول جاز أن يسلّط إبليس على جميع الذُّرِّيَّة بلا ذنب، وأن يعاقبهم جميعًا بلا ذنب، ولا حاجة حينئذٍ إلى الحيلة على إبليس.

(١) (د، ع): «وإن كان».

(٢) (د، ع): «وهو إمّا أن تقول في الظلم كما تقول».

(٣) كما تقدم في مسألة عدل الله (١/٣١٧).

وإن قيل بالثاني فمعلومٌ أن الواحد من الناس لو عَلِمَ أن بعض مماليكه أمره غيره^(١) بذنبٍ يكرهه السيّد، ففعله، كان العدلُ منه أن يعاقب الأمر والمأمورَ جميعًا. وأما تسليطُه للأمر على عقوبة المأمور فليس من العدل، وكذلك تسليط الأمر الظّالم على جميع ذرّيّة المأمور الذين لم يذنبوا ذنب أبيهم ليس من العدل.

وإن قيل: بل هو استحقُّ أن يستعبدَهم لكون أبيهم أطاعه.

قيل: فحينئذٍ يستحقُّ أن يأسر الأولين والآخرين، فلا يجوز أن يُمنع من حقّه بالاحتيال عليه.

وإن قيل: إنما يستحقُّ أخذَهم بخطاياهم^(٢).

قيل: فله أن يأخذ الأولين والآخرين.

وإن قيل: هو لما طلبَ أخذَ روح ناسوتِ المسيح مُنِعَ بهذا الذَّنْب.

قيل: هذا إن كان ذنبًا فهو أخفُّ ذنوبه، فإنه لم يَعْلَمَ أنه ناسوتُ الإله. وإذا استحقَّ الرَّجُلُ أن يَسْتَرْقَ أولادَ غيره، فطَلَبَ رجلاً لِيَسْتَرْقَهُ لظَنَّهُ أنه منهم، ولم يكن منهم، لم يكن هذا ذنبًا يمنعُ استرقاقَ الباقيين.

وإن قيل: إن عدلَ الرَّبِّ ليس كعدل المخلوقين، بل من عدله أن لا يَنْقُصَ أحدًا من حسناته، ولا يعاقبه إلا بذنبه، لم يَجُزْ حينئذٍ أن يعاقب ذرّيّة آدم بذنب أبيهم، ولم يَجُزْ أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنبٌ إلا ذنبُ تابوا منه بذنب غيرهم؛ فإن^(٣) الأنبياء معصومون أن يُقَرَّوا على ذنب، فكلُّ من مات منهم مات

(١) (و، ي): «أمر غيره»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٢) ط. العاصمة: «خطاياهم»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) (د) وط. النيل: «بأن»، (ي): «وإن». والصواب المثبت من (و، ع).

وليس له ذنبٌ يستحقُّ عليه العقوبة، فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم، إن قُدِّرَ أنه مات مصرًّا على الذَّنْبِ؟! مع أن هذا تقديرٌ باطل، ولو قُدِّرَ أن الأنبياء لهم خطايا يستحقُّون بها العقوبة بعد الموت وتسليط إبليس على عقوبتهم - مع أن هذا تقديرٌ باطل - فمن بعد المسيح من غير الأنبياء أولى بذلك، فكيف يجوز في العدل الذي يوجب التسوية بين المتماثلين عقوبة الأنبياء ومنع عقوبة من هو دونهم بل من هو من الكفار؟!!

الوجه الثاني عشر: أن الربَّ إذا قصَّد بهذا دفع ظلم إبليس، فهلَّا اتَّحد بناسوت بعض أولاد آدم ليحتال على إبليس فيمنعه من ظلم من تقدَّم؟ فإنَّ المنع من الشرِّ الكثير أولى من المنع من الشرِّ القليل، أتراه ما كان يعلم أن إبليس يعملُ هذا الشرَّ كلَّه؟! فهذا تجهيلٌ له، أو كان يَعْرِفُ^(١) وعَجَزَ عن دفعه؟! فهذا تعجيزٌ له. ثم ما الفرق بين زمانٍ وزمان؟! إن^(٢) كان تركُّ منعه عدلاً منه فهو عدلٌ في كلِّ زمان.

(١) (د، ع) وط. النيل: «يعترف»، وهو خطأ.

(٢) الأصول: «أم». والمثبت أشبه بالصواب.

فصل

وأما تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] بأن مراده قومه، كما قالوا: «وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ يريد بحسب^(١) مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما^(٢) جاء فيه»^(٣).

فيقال لهم: من فسر مراد متكلم - أي متكلم كان^(٤) - بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه، وإن كان المتكلم من آحاد العامة، ولو كان المتكلم من المتنبيين الكذابين؛ فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه، فيقال: أراد كذا وكذا؛ فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقاً أو كاذباً، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل^(٥) من خبر حاله علماً ضرورياً أنه لم يرد ذلك، بل يعلم علماً ضرورياً أنه أراد العموم؟!!

فإن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ صيغة عامة، وصيغة «من» الشرطية من أبلغ صيغ العموم، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

-
- (١) رسالة بولس الأنطاكي: «يريد به حسب».
- (٢) رسالة بولس الأنطاكي: «حسبما»، وهو أجود، أي: حسب ما جاء في القرآن من أنه لم يُرسل إلا للجاهلية من العرب.
- (٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤).
- (٤) ليست في (د، ع).
- (٥) ليست في (د، ع).

ثم إن سياق الكلام يدلُّ على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم؛ فإن هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى؛ فإنها نزلت لما قدم على النبي ﷺ وفدُ نجران النصارى، ورُوي أنهم كانوا ستين راکبًا، وفيهم: السيّد، والأَيَّهَم، والعاقب، وقصّتهم مشهورةٌ معروفة، كما تقدّم ذكرها^(١).

وقد قال قبل هذا الكلام يذمُّ^(٢) دينَ النّصارى الذي^(٣) ابتدَعوه، وغيرُوا به دينَ المسيح، ولَبَسُوا الحقَّ الذي بُعث به المسيحُ بالباطل الذي ابتدَعوه، حتّى صار دينهم مركّبًا^(٤) من حقٍّ وباطلٍ، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يَعْرِف ما نسخه المسيحُ من شريعة التّوراة ممّا أقرّه، والمسيحُ قرّر أكثرَ شرع التّوراة وغيرَ البعض^(٥)، وعامةُ النّصارى لا يميّزون ما قرّره ممّا غيره، فلا تعرّف^(٦) دينَ المسيح^(٧).

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠]، فقد بيّن أن من اتّخذ

(١) (١/ ٧٧-٨٨).

(٢) مهملة في (ي)، (د، و، ع): «بذم»، والمثبت أقوم.

(٣) (ع، د): «الدين».

(٤) (ع): «مترکبا».

(٥) (ي، ع): «المعنى». وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة.

(٦) أي عامة النصارى. وهي مهملة في (ي)، وفي ط. النيل والعاصمة: «يعرف».

(٧) من قوله: «دين المسيح ولبسوا» إلى هنا سقط من (و) لانتقال النظر، وسقط معظمه من (د، ع).

الملائكة والنبیین أرباباً فهو كافر، فمن اتَّخذ من دونهم أرباباً كان أولى بالكفر، وقد ذكر أن النصارى اتَّخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

ثم قال تعالى في آل عمران^(١): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس وغيره من السلف: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمدٌ وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمدٌ وهم أحياءٌ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه^(٢).

والآية تدلُّ على ما قالوا؛ فإن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ يتناول جميع النبيين، ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ،﴾، وهذه اللام الأولى تسمى «اللام الموطئة للقسم»، واللام الثانية تسمى «لام جواب القسم»، والكلام إذا اجتمع فيه شرطٌ وقسمٌ وقُدِّم القسمُ سَدَّ جوابُ القسمِ مَسَدَّ جواب الشرط^(٣).

(١) ط. النيل: «سورة آل عمران».

(٢) أخرجه ابن جرير (٥/٥٤٠، ٥٤١) عن علي رضي الله عنه وقتادة والسدي، وبنحو معناه عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الرد على المنطقيين» (٤٥٣ - ٤٥٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/٧٢٨).

والْقَسَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْنَ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنَ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَهُ﴾ [الحشر: ١٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنَ اتَّسْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَيْنَ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَيْنَ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ [النور: ٥٣]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَيْنَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢]، ومنه قوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، ﴿لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، ﴿لَيْنَ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وقوله: ﴿وَلَيْنَ جِئْتَهُمْ بِثَايَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الزُّمَر: ٥٨]، ﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ﴾ [هود: ٨].

ومثل هذا كثير.

وحيث لم يُذكر^(١) القسمُ فهو محذوفٌ مراد، تقديرُ الكلام: والله ﴿لَيْنَ

(١) (ع): «لا يذكر»، وسقطت «لم» من (و).

أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴿١﴾، وَاللَّهُ ﴿لَنْ﴾ قُولُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴿٢﴾.

ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدلُّ المذكور عليه، اختصارًا وإيجازًا، لا سيَّما فيما يكثر استعماله، كالقسم.

وقوله: ﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ هي (ما) الشرطيَّة، والتقدير: أي شيءٍ أعطيتكم من كتابٍ وحكمة، ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم، لتؤمننَّ به ولتنصرُنَّه، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به، ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ على أن تتركوا متابعتَه، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه، وإن كان معكم من قبله من كتابٍ وحكمةٍ فلا تستغنوا بما آتيتكم ^(٢) عمَّا جاء به؛ فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله.

فدلَّ ذلك على أنه من أدرك محمدًا من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتابٌ وحكمةٌ فعليه أن يؤمن بمحمدٍ وينصره، كما قال: ﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾.

وقد أقرَّ الأنبياء بهذا الميثاق، وشهد الله عليهم به، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ

(١) كذا في الأصول، أراد الاستشهاد، والتلاوة: (ولئن).

(٢) (و): « فلا يغيثكم ما آتيتكم ».

وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٢ - ٨٥].

قال طائفة من السلف^(١): لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(٢) قَالَ مِنْ قَالَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: نَحْنُ مُسْلِمُونَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، فَقَالُوا: لَا نَحُجُّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فكُلُّ مَنْ لَمْ يَرْحُجَّ الْبَيْتَ وَاجِبًا عَلَيْهِ - مَعَ الْإِسْطَاعَةِ - فَهُوَ كَافِرٌ، بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَا يَرُونَهُ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ، فَهَمُّ مِنَ الْكُفَّارِ، حَتَّى إِنَّهُ رُوِيَ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً تُبْلِغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ، وَلَمْ يَحُجَّ، فَلَيْمَتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا»^(٣)، وَهُوَ مُحْفُوظٌ مِنْ قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ (٦٢٢ / ٥) عَنْ عِكْرَمَةَ، وَابِيهَقِي (٣٢٤ / ٤) عَنْ مُجَاهِدٍ.

(٢) لَيْسَتْ فِي (ع).

(٣) أَخْرَجَهُ ابِيهَقِي (٣٣٤ / ٤) وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ، وَقَالَ ابْنُ عَدِي فِي «الْكَامِلِ» (٤٤٥ / ٧): «غَيْرَ مُحْفُوظٍ».

وَرُوِيَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَلَا يَثْبُتُ فِي الْبَابِ شَيْءٌ مَرْفُوعٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. انْظُرْ: «تَنْقِيحُ التَّحْقِيقِ» (٤٠٤ - ٤١٠)، وَ«تَخْرِيجُ أَحَادِيثِ الْكُشَافِ» (٢٠٢ / ١)، وَ«الْبَدْرِ الْمُنِيرُ» (٣٨ - ٤٥).

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ كَمَا فِي «السَّنَةِ» لِلْخَلَالِ (٤٤ / ٥، ٤٧). وَأَخْرَجَهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ فِي «مُسْنَدِ عُمَرَ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «مُسْنَدِ الْفَارُوقِ» (٤٤٨ / ١)، وَابْنُ حَجَرٍ فِي «التَّلْخِصِ الْحَبِيرِ» (١٥١٠ / ٤).

وقد اتَّفَق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس: الشهادتين، والصَّلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحجَّ البيت، فإنه كافر.

وأيضًا، فقد قال تعالى في أول سورة آل عمران^(١): ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۚ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٨-٢٠].

فقد أمره تعالى بعد قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ أن يقول: أَسْلَمْتُ وجهي لله ومن اتَّبَعَنِ، وأن يقول للذين أُوتُوا الكتاب -وهم اليهود والنصارى-، والأُمِّيِّينَ -وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم-: أَسْلَمْتُمْ؟

فالعرب الأُمِّيُّون يدخلون في لفظ «الأُمِّيِّين» باتفاق النَّاس، وأما من سواهم فإمَّا أن يشمله هذا اللفظ، أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبيِّنة أنه أُرسِل إلى جميع النَّاس.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۚ وَاللَّهُ

(١) (و): «أول السورة».

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١﴾، فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام، كما أمر به الأميين، وجعلهم إذا أسلموا مهتدين، وإن لم يُسلموا فقد قال: «إنما عليك البلاغ» أي: تبليغهم رسالات ربك إليهم، والله هو الذي يحاسبهم.

فدلّ بهذا (٢) كَلَّه على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين.

وفي الصحيحين (٣) عن النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه إلى هرقل ملك النصارى: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرًا مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين».

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء، كنوح وإبراهيم ويعقوب وأتباعهم إلى الحواريين، وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وأن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان.

(١) من قوله: «فقد أمره تعالى» إلى هنا ساقط من (ع).

(٢) (و): «هذا».

(٣) صحيح البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِتَايِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ۝٧١﴾ (يونس: ٧١-٧٢)، فهذا نوح الذي أغرق^(١) الله أهل الأرض بدعوته، وجعل جميع الآدميين من ذريته، يذكر أنه أمر أن أكون^(٢) من المسلمين.

وأما الخليل، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ (البقرة: ١٢٧-١٢٨)، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ (البقرة: ١٢٨-١٢٩)، ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٣٠﴾ (البقرة: ١٣٠-١٣١)، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٣١﴾ (البقرة: ١٣١-١٣٢)، ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ (البقرة: ١٣٢-١٣٣)، فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام، وأنه قال: «أسلمت لرب العالمين»، وأن إبراهيم وصّى بنيه ويعقوب وصّى بنيه^(٤) أن لا يموتنَّ إلا وهم مسلمون.

وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٣٠﴾ (البقرة: ١٣٠)، ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٣١﴾ (البقرة: ١٣١-١٣٢)، [آل عمران: ٦٧-٦٨].

(١) (ي، و): «غرق». وسقط لفظ الجلالة من ط. العاصمة، وهو في الأصول كلها.

(٢) كذا في الأصول على حكاية لفظ الآية. وفي ط. النيل والعاصمة: «يكون».

(٣) زادت ط. العاصمة هنا: «قال تعالى»، وليست في الأصول.

(٤) «ويعقوب وصّى بنيه» ليست في (و).

وقال تعالى عن يوسف الصّديق ابن يعقوب أنه قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالى عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال عن السّحرة الذين آمنوا بموسى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠ - ٥١]، وقالوا أيضًا^(١): ﴿وَمَا لَنَقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقال تعالى في قصّة سليمان: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُونِی مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠ - ٣١]، وقال: ﴿قَالَ يَتَآيَهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]، وقال: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

وقال تعالى عن بلقيس التي آمنت بسليمان: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

(١) ليست في (د، ع). وفي طرة (د) أن في نسخة: «وقال تعالى».

وقال تعالى عن الحواريين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي
وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنًا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، ^(١) ﴿رَبَّنَا ءَامِنًا بِمَا أُنزِلَتْ
وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

فهؤلاء الأنبياء ^(٢) وأتباعهم كلهم يذكر تعالى أنهم كانوا مسلمين، وهذا
مما يبين أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ^(٣) [آل عمران: ٨٥]،
وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، لا يختص بمن بُعث
إليه محمد ﷺ، بل هو حكم عام في الأولين والآخرين.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى:
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ۚ تِلْكَ ءَامَانِيهِمْ ۚ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

(١) زادت ط. العاصمة هنا: «وقال تعالى»، وليست في الأصول.

(٢) (د، ع): «الأنبياء كلهم».

(٣) أكمِلت الآية في (د، ع).

فصل

قولهم: «ثم وجدنا في هذا الكتاب من تعظيم السيّد^(١) المسيح وأمه، حيث يقول في سورة الأنبياء: ﴿وَأَلَّتِي أَحْصَنْتَ فَرَجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

مع الشّهادات للسيّد المسيح بالمعجزات، وأنه حبلت به أمّه من غير مُبَاضَعَة رجل، [بل] ببشارة^(٢) مَلَكٍ^(٣) الله لأُمّه، وأنه تكلم في المهد، وأحيا الميت، وأبرأ الأكمه، ونقى الأبرص^(٤)، وأنه خلق من الطّين كهيئة الطّير فنفخ فيه فكان طيرا^(٥) بإذن الله، أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتّحدة في النَّاسوت.

ووجدنا أيضًا في الكتاب أن الله رفعه إليه، قال في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ١٥٧ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وفي سورة آل عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال في سورة البقرة: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ

(١) ليست في (و).

(٢) (ي، و): «بشارة». (ع، د): «لبشارة». والمثبت وما بين المعقوفين من رسالة بولس.

(٣) (د، ع): «ملائكة»، وفي الطرة إشارة إلى أن «ملك» في نسخة، وهي التي في رسالة بولس الأنطاكي.

(٤) (ع): «وإحياء الميت وإبراء الأكمه ونقي الأبرص».

(٥) (ي، و): «طائرا».

مَرِّمَ الْبَيْتِ وَأَيْدَنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴿البقرة: ٨٧﴾، وقال في سورة الحديد: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال في سورة آل عمران: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

ثم وجدناه يعظم إنجيلنا^(١).

الجواب: أمّا تعظيم المسيح وأمه فهو حقٌّ، وكذلك مدح من كان على دينه الذي لم يبدّل قبل أن يُبعث ﷺ^(٢)، أو بقي على ذلك إلى أن بُعث محمدٌ ﷺ فآمن به؛ فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون، وكذلك من كان على دين موسى الذي لم يبدّل إلى أن بُعث المسيح فآمن به، فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون.

وقد قدّمنا^(٣) أن المسلمين هم عدلٌ متوسّطون، لا ينحرفون لا^(٤) إلى غلوٍّ ولا إلى تقصير، وأما اليهود والنصارى فهم على طرفي نقيض، هؤلاء ينحرفون إلى جهة، وهؤلاء إلى الجهة^(٥) التي تقابلها، كما ذكرنا تقابلهم في النسخ، وكذلك تقابلهم في التحريم والتحليل والطهارة والنجاسة.

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤ - ٤١٥).

(٢) (د، ع): «قبل أن انبعث محمد ﷺ».

(٣) (١/ ١١ - ١٤).

(٤) ليس في (و).

(٥) (د، ي، ع): «جهة».

فإن اليهود حرّمت عليهم الطّيّبات، وهم يبالغون في اجتناب النجاسات، حتى إن الحائض لا يؤاكلونها ولا يساكنونها^(١) ولا يجامعونها، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب، بل يُقرّض موضعها، ويستخرجون الدّم من العروق، إلى غير ذلك من الآصار والأغلال التي كانت عليهم.

وأما النصارى ففي مقابلتهم، تجد عامّتهم لا يرون شيئاً حراماً ولا نجساً إلا ما كرهه الإنسان بطبعه، ويصلّون مع الجنابة والحَدَث وحمل النّجاسات، ويأكلون الخبائث، كالدّم والميتة ولحم الخنزير، إلا من كره منهم شيئاً فتركه.

والمسلمون وسط، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدلاً خيَّاراً.

قال^(٢) تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلى شبه اليهود والنصارى مأموراً بترك ذلك الانحراف، واتباع الصّراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم

(١) (ع، د): «يشاربونها».

(٢) (ع، د): «كما قال».

من النبيين والصّديقين والشّهداء والصّالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، غير
المغضوب عليهم كاليهود، ولا^(١) الضّالّين كالنصارى.

وذلك مثل من يبالغ^(٢) في اجتناب النّجاسات، فيُنَجِّس ما لم يُنَجِّسه الله
ورسوله، ويحرّم ما لم يحرّمه الله ورسوله، ويأخذه الوسواس في اجتناب
النّجاسات، ويحرّم طيّباتٍ أحلّها الله للمسلمين، مثل: من يرى أن القياس أن
النّجاسة لا تزول لا بماءٍ ولا بغيره^(٣)، أو يرى أنها وإن زالت فلم يبق لها أثرٌ
فالمحلّ نجسٌ إذا لم تزل بما يشترطه هو من الماء أو غيره، أو يرى أن الطيّبات
التي أحلّ^(٤) الله حرامٌ خبيثةٌ لأنها مستحيلةٌ عن المحرّم، مع أن الخلّ حلالٌ وإن
كان قد كان خمراً باتفاق المسلمين إذا بدأ الله بإحالاته^(٥)، أو يرى أن الماء
الطيب والمائعات الطيّبة التي ليس فيها أثرٌ من الخبيث حرامٌ لكون الخبيث
لاقاها أو استهلك فيها، مع أنها من الطيّبات لا من الخبائث، أو يرى تحريم ما
سوى موضع الدّم الذي هو أذى، إلى غير ذلك من أقوالٍ قالها بعض العلماء،
ولكنّ غيرهم نازعهم في ذلك واتّبع ما دلّ عليه الكتاب والسّنة.

(١) (و، ي): «وغير».

(٢) (د، ع): «بالغ».

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤٧٦/٢١).

(٤) ط. النيل وما تلاها: «أحلها».

(٥) يشير إلى قول عمر رضي الله عنه: «لا تأكل من خمرٍ أُفْسِدَتْ حتّى يكون الله بدأ فسادها»، أخرجه
ابن أبي شيبة (٢٤٥٧٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٩٢/٨)، والبيهقي (٣٧/٦)
وغيرهم. أي: حتّى يكون الله ابتداء قلبها وإحالتها، فلا يجوز القصد إلى تخليلها. انظر:
«شرح العمدة» (٦٦/١)، و«مجموع الفتاوى» (٤٨٤/٢١، ٥٠٣، ٦٠١). وتحرفت
الجملة في ط. العاصمة إلى «إذا بدا إلى حالته» متبعة للمطبوعة، وزعمت أن ما في
الأصول «جملة مضطربة»!

وأعظمُ من ذلك من يكفّر من خالفه من المسلمين، ويرى نجاسة الكفار، كما عليه^(١) كثيرٌ من أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم، فإذا أكل غيرهم من وعائهم نجّسه عندهم.

وأما ما يفعله كثيرٌ من الناس -من غير أن يقوله عالمٌ- مثلٌ من يغسل يديه وثيابه وحُصْر بيته يتوهم^(٢) نجاستها، أو يأمر الحائض إذا طهرت أن تبدل ثيابها الأول أو تغسلها، أو يمنع الجُنْب أن يأكل أو يشرب حتى يغتسل، فهذا كثيرٌ فيمن يُشبه اليهود، بل يُشبه سامرة اليهود^(٣).

وأما من يشبه النصارى فمثل من يُحسِنُ الظَّنَّ بمن لا يتطهر ولا يصلي من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة، مثل من يكون في مواضع الشياطين والنجاسات، كالحمّام والأتاتين^(٤) والمزابيل، وهو متلوّثٌ بالبول والعذرة، ويعاشر الكلاب، ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة، بل ولا يصلي، أو يصلي بلا وضوء. وقد علِمَ بالاضطرار من دين الإسلام أن الصلوات الخمس فرضٌ على كل أحد، وأن الوضوء من الحدث والاعتسال من الجنابة فرضٌ لا يصلي إلا به مع القدرة، ولا^(٥) يتيمّم مع القدرة، فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

ومن جعل الزاهد العابد الذي له نوعٌ من الخوارق -مثل نوع من الكشف والتصرّف الذي يكون من الشياطين والجهّال، يظنّون أنه من كرامات

(١) (د، ع): «كما دل عليه».

(٢) مهملة في (ي)، (ع، د): «بتوهم».

(٣) يقصد الرافضة. انظر: «منهاج السنة» (١/٣٧، ٥/١٧٤).

(٤) جمع أتون، وهو الموقد الكبير، كموقد الحمّام. «المعجم الوسيط» (أتن).

(٥) (د، ع): «وأن لا».

أولياء الله - إذا لم يكن يصلي الصلوات الخمس، ويتوضأ، ويغتسل من الجنابة = من المؤمنين أو من أولياء الله، فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

ومن لم يحرم الخبائث التي حرمها الله ورسوله، كالبول، والعذرة، والدم، والميتة، ولحم الخنزير، والخمر، فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

ومن جعل مستحل ذلك - مع العلم بمخالفته لدين الرسول - ولياً لله، فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

وكذلك فيمن ينتحل الإسلام، ويدم أهل الكتاب، من يكون منافقاً في الدرك الأسفل من النار، ويكون كثيرٌ من اليهود والنصارى أخفَّ عذاباً في الآخرة منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿[النساء: ١٤٥ - ١٤٦].

وكذلك المسلمون وأهل السنة في المسلمين، وكذلك^(١) في التوحيد.

فإن اليهود شبَّهوا الخالق بالمخلوق فيما يختصُّ بالمخلوق، وهو صفات النقص الذي يجب تنزيه الرب عنها، والنصارى شبَّهوا المخلوق بالخالق فيما يختصُّ بالخالق، وهو صفات الكمال التي لا يستحقُّها إلا الله ﷻ.

فقال من قال من اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا:

﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهو بخيل.

وقالوا: إنه خلق العالم، فتعب، فاستراح.

(١) ليست في (د، ع).

وَحُكِّي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: بَكَى عَلَى الطُوفَانِ حَتَّى رَمَدَ وَعَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ،
وَأَنَّهُ نَاحَ عَلَى بَعْضِ مَنْ أَهْلَكَهُ مِنْ عِبَادِهِ كَمَا يَنُوحُ الْمَصَابُ عَلَى مَيِّتِهِ.
وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَالَى اللَّهُ عَنْهُ وَيَتَقَدَّسُ ﷻ (١).

وَأَيْضًا، فَهَمَّ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَيَعْصُونَ أَمْرَهُ،
وَيَتَعَدَّونَ حُدُودَهُ، وَلَا يَجُوزُونَ لَهُ أَنْ يَنْسَخَ مَا شَرَعَهُ، بَلْ يَحْجُرُونَ عَلَيْهِ.

وَالنَّصَارَى يَصِفُونَ الْمَخْلُوقَ بِمَا يَتَّصِفُ بِهِ الْخَالِقُ، فَيَجْعَلُونَهُ (٢) رَبَّ
الْعَالَمِينَ، خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، الَّذِي هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ، وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا
أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، وَاتَّخَذُوا
الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (٣)، وَصَوَّرُوا تَمَاثِيلَ الْمَخْلُوقَاتِ
وَاتَّخَذُوهُمْ شَفْعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا فَعَلَتْ (٤) عِبَادُ الْأَوْثَانِ، كَمَا قَالَ

اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٨]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى
رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى:
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۚ مَا
لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤].

(١) انظر: «الملل والنحل» (١/١٠٦)، و«منهاج السنة» (٢/٦٢٨)، و«درء التعارض»
(٦/١٣٧، ٣٤٨)، وما سيأتي (٣/٣٦٠).

(٢) (ي، و): «فجعلوه».

(٣) «من دون الله» ليست في (و، ي).

(٤) (و): «فعل».

والمسلمون وسطاً، يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله^(١) من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، يصفونه بصفات الكمال، وينزهونه عن النقائص التي يمتنع^(٢) على الخالق ولا يتَّصف به المخلوق^(٣)، فيصفونه بالحياة والعلم^(٤) والقدرة والرَّحمة والعدل والإحسان، وينزهونه عن الموت والنَّوم والجهل والعجز والظُّلم والفناء، ويعلمون مع ذلك أنه لا مثل^(٥) له في شيء من صفات الكمال، فلا أحد يعلم كعلمه، ولا يقدر كقدرته، ولا يرحم كرحمته، ولا يسمع كسمعه، ولا يبصر كبصره، ولا يخلق كخلقه، ولا يستوي كاستوائه، ولا يأتي كإتيانه، ولا ينزل كنزوله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

ولا يصفون أحداً من المخلوقين بخصائص الخالق جلَّ جلاله، بل كلُّ ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقيرٌ إليه عبدٌ له، وهو الصَّمَد الذي يحتاج إليه كلُّ شيء، ويسأله كلُّ أحد، وهو غنيٌّ بنفسه، لا يحتاج إلى أحد في شيء من الأشياء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝ (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝ (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

(١) (د، ع): «رسله».

(٢) كذا في الأصول، من الحمل على المعنى، أي النقص الذي يمتنع.

(٣) أقحمت «إلا» في (و) قبل «المخلوق»، وأثبتتها ط. العاصمة وذكرت في تعليقها أنها لازمة للسياق. وليست في سائر الأصول وط. النيل، وهو الصواب، يريد أن ما تنزه المخلوق عن الاتصاف به من النقص فالخالق أولى بالتنزيه عنه. انظر: «التدمرية» (٥٠)، و«درء التعارض» (٧/٤)، و«شرح الأصبهانية» (٣٩٥).

(٤) ليست في (د، ع).

(٥) ط. العاصمة: «مثل»، خلاف الأصول.

وَالْأَرْضِ إِلَّا عِزِّي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ عِزِّي يَوْمَ
الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ
وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا ۖ وَأَسْتَكَبرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

وكذلك هم في المسيح.

فالنصارى يقولون: هو الله، ويقولون أيضًا: هو^(١) ابن الله، وهو إله تام
وإنسان تام.

واليهود يقولون: هو ولد زنا، وهو ابن يوسف النجار^(٢)، ويقولون عنه:
هو ساحر كذاب^(٣)، ويقولون عن مريم: إنها بغية عيسى، كما قال تعالى:
﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

(١) (ع): «إنه».

(٢) من قرابة مريم، تزعم المصادر النصرانية أنه كان خاطبًا لها. انظر: تفسير ابن جرير
(١٥/٤٩٤)، و«تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (١/١١٧) والتعليق عليه.

(٣) تأخرت جملة «ويقولون عنه هو ساحر كذاب» في (و، د، ي) إلى آخر الفقرة.

وأما المسلمون، فيقولون: هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وروحٌ منه^(١)، وهو وجيةٌ في الدنيا والآخرة، ومن المقربين. ويصفونه بما وصفه الله به في كتابه، لا يغلون فيه غلوَّ النَّصارى، ولا يقصِّرون في حقِّه تقصير اليهود.

وكذلك قولهم في سائر الأنبياء والمرسلين، وفي أولياء الله.

فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس.

والنَّصارى اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون.

ومع هذا، فقد شارك النَّصارى لليهود^(٢) في نقص حقِّ كثيرٍ من الأنبياء، فيقولون: إن سليمان لم يكن نبياً، ويقولون: إن الحواريين مثل موسى وإبراهيم، ويقولون: إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء وكان له أن يشرع شريعةً.

وبعض اليهود غلوا في العُزير حتى قالوا: إنه ابن الله.

ولهذا قال نبينا ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تُطْرُونِي كما أَطَرَت النَّصارى

عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٣).

والله تعالى ذكر في القرآن في سورة (كهيعص) قصَّة ابني الخالة يحيى

وعيسى، ويحيى يسمُّونه النَّصارى «يُوحَنَّا»، وهو يُوحَنَّا الْمُعَمِّدَانِي^(٤) عندهم،

(١) من قوله: «وكلمته ألقاها» إلى هنا ليس في (و).

(٢) كذا في الأصول. وفي ط. العاصمة: «اليهود»، وهو الجادة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٤) زعموا أنه كان يعمِّد التائبين في نهر الأردن بعد أن يعترفوا بخطاياهم. انظر:

«محيط المحيط» (٦٣١)، و«قاموس الكتاب المقدس» (١١٠٧).

فقال تعالى بعد أن ذكر قصّة يحيى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦) فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِیَهَبَ (١) لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلِّتَنِي مَثُ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسِيًّا مَنَسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَتْهَا مَنْ مَحْجَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَلِّطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٠﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣١﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٢﴾ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٣) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٤﴾ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٥﴾ فَاخْلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٦﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٧﴾

[مريم: ١٦-٣٨].

(١) كذا في الأصول. وهي قراءة أبي عمرو، قراءة المصنف وأهل الشام لعهد. وسيأتي الكلام عليها (١/٣٥٦).

فذكر سبحانه قصّة مريم والمسيح في هذه السّورة المكيّة التي أنزلها في أول الأمر بمكة في السّور التي ذكر فيها أصول الدّين التي اتّفق عليها الأنبياء، ثم ذكرها في سورة آل عمران، وهي من السّور^(١) المدنيّة التي يخاطب فيها من اتّبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين لمّا قدم عليه نصارى نجران، فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَخِطْتُهَا مَرِيماً وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿[آل عمران: ٣٣ - ٣٦].

وفي الصّحيحين^(٢) عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ أنه قال: «ما من مولودٍ إلا يمسّه الشّيطان، فيستهلّ صارخاً من الشّيطان، إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال تعالى^(٣): ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ٣٦ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكُمْ أَنَّىٰ لَئِذَا هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧﴾.

ثم ذكر قصّة زكريا ويحيى، ثم قال^(٤): ﴿هَٰذَا نَذَارٌ لِّكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ٣٨﴾ قَالَ رَبِّ

(١) من قوله: «التي اتفق عليها» إلى هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) من قوله: «وفي الصّحيحين» إلى هنا لحقّ مختوم بالتصحيح في طرة (د، ع).

(٤) كذا في الأصول. والأشبه أن تكون: «فقال».

هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي
 فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَمَسِيدًا وَحْشُورًا وَنَبِيًّا مِنْ
 الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ
 كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ
 ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
 الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾
 يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
 إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
 يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ
 عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
 وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَنُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا
 تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
 يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
 ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ
 نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ
 وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ
 خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفُاعِكِ إِلَىَّ وَطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَتُوفِّيهِمْ أَجُورُهُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوٌ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ؕ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَأَنْتُمْ هَؤُلَاءَ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ [آل عمران: ٣٨ - ٦٨].

فهو سبحانه قد ذكر قصّة مريم والمسيح في هاتين السورتين:

إحدهما: مكيّة، نزلت في أوّل الأمر مع السور الممهّدة لأصول الدّين، وهي سورة (كهيعص).

والثانية: مدنيّة، نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد، ولهذا تضمّنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم، كما نزلت في براءة مجاهدتهم.

فأخبر في السُّورة المَكِّيَّة أنها لَمَّا انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحه، فتمثل لها بشرًا سويًّا، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

قال أبو وائل^(١): «عَلِمْتُ أَنَّ الْمُتَّقِيَّ^(٢) ذُو نُهْيَةٍ»^(٣)، أي تقواه ينهاه^(٤) عن الفاحشة، وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة، فقالت: أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، أي تتقي الله.

وما يقوله بعض الجهَّال من أنه كان فيهم رجلٌ فاجرٌ اسمه «تقيٌّ»^(٥)، فهو من نوع الهذيان^(٦)، وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِیَهَبَ^(٧) لَكِ﴾، وفي القراءة الأخرى: ﴿لَا هَبَ لَكِ غُلَمًا زَكِيًّا﴾^(٨)، فأخبر هذا الرُّوح الذي تمثل لها بشرًا سويًّا أنه رسولُ ربها، فدلَّ الكلام على أن هذا الرُّوح عينٌ قائمةٌ بنفسها ليست صفةً

(١) شقيق بن سلمة الأسدي، من كبار التابعين، توفي سنة ٨٢.

(٢) كذا في الأصول. وفي مصادر الأثر: «التقي»، وهو لفظ الآية.

(٣) علقه البخاري مجزومًا به في الصحيح (٤/ ١٦٥، ٦/ ٩٣)، ووصله نعيم بن حماد في زيادات «الزهد» لابن المبارك (٢/ ١٩)، والحربي في «غريب الحديث» (١٠٥٩)، وابن جرير في التفسير (١٥/ ٤٨٧)، وغيرهم. انظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣٧).

(٤) كذا في الأصول، من الحمل على المعنى، والجادة: تنهاه.

(٥) نسبه الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٣٦٣) إلى ابن عباس دون إسناد. وحكاه مكي في «الهداية» (٧/ ٤٥١٠) عن وهب بن منبه، وأخرجه ابن جرير (١٥/ ٤٨٦) عنه مختصرًا، وهو أشبه، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٦/ ١٧): «وهو ضعيفٌ ذاهبٌ مع التخرُّص».

(٦) (ع): «نوع من الهذيان».

(٧) هذه قراءة أبي عمرو، وهي قراءة المصنف وأهل الشام لعهد، كما سلف مرارًا.

(٨) قرأ بها الجماعة غير أبي عمرو ونافع في رواية ورش والحلواني وسالم بن هارون عن قالون. انظر: «جامع البيان» للداني (٣/ ١٣٤٠).

لغيرها، وأنه رسولٌ من الله ليس صفةً من صفات الله، ولهذا قال جماهير العلماء: إنه جبريل عليه السلام^(١)؛ فإن الله سمّاه ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وسمّاه ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، وسمّاه ﴿جِبْرِيلُ﴾ [البقرة: ٩٧]^(٢).

وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسّد من مريم ومن روح القدس، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله، وأنه إلهٌ يخلق ويرزق ويُعبَد، وليس في شيءٍ من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمّي صفة القائمة به «روح القدس»، ولا سمّي كلامه ولا شيئاً من صفاته «ابناً».

وهذا أحد^(٣) ما يتبيّن^(٤) به ضلالُ النَّصارى، وأنهم حرّفوا كلام الأنبياء، وتأوّلوه على غير ما أرادت الأنبياء؛ فإن أصل تثليثهم مبنيٌّ على ما في أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم: «عمّدوا النَّاسَ باسم الأب والابن وروح القدس»^(٥).

فيقال لهم: هذا إذا كان قد قاله المسيح. وليس في لغة المسيح ولا لغة أحدٍ من الأنبياء أنهم يسمّون صفة الله القائمة به ولا كلمته^(٦) ولا حياته لا «ابناً» ولا «روح قُدُس»، ولا يسمّون كلمته «ابناً»، ولا يسمّونه نفسه «ابناً» ولا «روح قُدُس»^(٧)، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يُسمّون^(٨) المصطفى المكرّم

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٤٨٥ / ١٥)، و«الدر المنثور» (٤٩ / ١٠).

(٢) انظر: مسألة في «أن عيسى كلمة الله» لشيخ الإسلام (٤٥، ٤٧، ٥٦ - ٥٨).

(٣) (ع): «آخر».

(٤) مهملة في (ي)، ولم تحرر في (و). والتركيب مألوف في كلام المصنف.

(٥) إنجيل متى (٢٨: ١٩).

(٦) (د، ي، ع): «لا كلمته».

(٧) كما سيأتي (٢ / ١٩٧ - ١٩٨).

(٨) (و): «يصفون».

«ابنًا»، وهذا موجودٌ في حقِّ المسيح وغيره، كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل: «أنت ابني بِكَرِّي»^(١) أي بني إسرائيل^(٢).

و«روح القدس» يراد به الروح التي تنزل على الأنبياء، كما نزلت على داود وغيره؛ فإن في كتبهم أن روح القدس كانت في داود وغيره، وأن المسيح قال لهم: «أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»^(٣)، فسَمَّاهُ «أبًا» للجميع، لم يكن المسيح مخصوصًا عندهم باسم «الابن»، ولا يوجد عندهم لفظ^(٤) «الابن» إلا اسمًا لمخلوق، لا اسمًا لشيءٍ من صفات الله، ولا في كتب الأنبياء أن صفة الله تولدت منه^(٥).

وإذا كان كذلك، كان في هذا ما يبيِّن أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزليَّة التي يقولون: إنها تولدت من الله عندهم، مع كونها أزليَّة، ولا بروح القدس حياة الله، بل المراد بالابن ناسوتُ المسيح، وروح القدس ما أنزل عليه من الوحي والمَلَكُ الذي نزل به، فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله وبما أنزله على رسوله والمَلَكُ الذي نزل به. وبهذا أمرت الأنبياء كلُّهم، وليس للمسيح خاصَّةٌ استحقَّ بها أن يكون فيه شيءٌ من اللاهوت، لكن ظهر فيه نورُ الله وكلامُ الله وروحُ الله، كما ظهر في غيره من الأنبياء والرُّسل؛

(١) سفر الخروج (٤: ٢٢).

(٢) كذا في الأصول. ولعل الصواب حذف «بني» كما في (٣/ ٩٩). وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام. وانظر: «تثبيت دلائل النبوة» (١/ ١٢٠)، و«تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (١/ ٢٠٥، ٢٤٣-٢٦٢)، وما سيأتي (٢/ ١٥٠، ١٩٥، ١٩٨).

(٣) إنجيل يوحنا (٢٠: ١٧).

(٤) (ي): «لغة».

(٥) ط. النيل: «إلا اسمًا للمصطفى المكرم، لا اسمًا لشيءٍ من صفات الله القديمة حتى يكون الابن صفة الله تولدت منه».

ومعلومٌ أن غيره^(١) أيضًا فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمَّى «ابنًا» وروح القدس حلَّت فيه، وهذا مبسوطٌ في غير هذا الموضع^(٢).

والمقصود هنا التنبيه على أن كلام الأنبياء عليهم السَّلام يصدِّق بعضه بعضًا، وأنه ليس مع النَّصارى لا حُجَّة سمعيَّة ولا عقليَّة توافق ما ابتدَعوه، ولكن فسَّروا كلام الأنبياء بما لا يدلُّ عليه، وعندهم في الإنجيل أنه قال: «إن السَّاعة لا يعلمها الملائكة ولا الابن، وإنما يعلمها الأب وحده»^(٣)، فبيَّن أن الابن لا يعلم السَّاعة، فعُلم أن الابن ليس هو القديم الأزليّ، وإنما هو المُحدَث الزَّمانى.

(١) (و): «إِنْ غَيْرُهُ»، وليس فيها «ومعلوم».

(٢) سياًتي (٣/ ٣٩٥-٣٩٨).

(٣) إنجيل متى (٢٤: ٣٦)، إنجيل مرقس (١٣: ٣٢).

فصل

والمضاف إلى الله نوعان^(١)؛ فإن المضاف :

* إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والحياة.

* وإما أن يكون عيناً قائمة بنفسها.

فالأول: إضافة صفة، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]،

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقول النبي ﷺ في الحديث

الصَّحِيح حديث الاستخارة: «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ

الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ

مِنْ فَضْلِكَ»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]،

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ

إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥].

والثاني: إضافة عين، كقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله:

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به، ليست مخلوقة له بئنة عنه^(٤)،

(١) انظر: «درء التعارض» (٢٦٥ / ٧)، و«الصفدية» (٦٧ / ٢)، و«بيان تلبيس الجهمية»

(٦ / ٥٣٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٧ / ١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٦٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو.

(٤) (د، ي، ع): «مخلوق له بائن عنه»، وأصلحت في (و).

والمضاف في الثاني مملوكٌ لله مخلوقٌ له بائنٌ عنه، لكنّه مفضَّلٌ مشرَّفٌ؛ لما خصَّه الله به من الصِّفات التي اقتضت إضافته إلى الله ﷻ، كما خصَّ ناقة صالح من بين النُّوق، وكما خصَّ بيته بمكَّة من بين^(١) البيوت، وكما خصَّ عباده الصَّالحين من بين الخلق.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، فإنه وصف هذا الرُّوح بأنه تمثِّل^(٢) بشرًا سويًّا، وأنها استعازت بالله منه إن كان تقيًّا، وأنه قال: «إنما أنا رسول ربك»، وهذا كلُّه يدلُّ على أنها عينٌ قائمةٌ بنفسها، وهي التي تسمَّى في اصطلاح النُّظار «جوهرًا»، وقد تسمَّى «جسمًا» إذا كانت مشارًا إليها، مع اختلاف النَّاس في الجسم هل هو مركَّبٌ من الجواهر المفردة، أم من المادَّة والصُّورة، أم ليس مركَّبًا لا من هذا ولا من هذا؟^(٣).

وإذا كان الله قد بيَّن أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها، بل من الأعيان القائمة بنفسها، عُلِمَ أن المضاف مملوكٌ لله مخلوقٌ له، لكن إضافته إلى الله تدلُّ على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة.

وقد ذكرتُ فيما كنتُ كتبه قبل هذا من الرَّدِّ على النَّصارى الكلام في ذلك وغيره^(٤)، وبيَّنتُ أن المضافات إلى الله نوعان: أعيانٌ، وصفات.

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) ط. النيل: «تمثل لها».

(٣) والصواب ثالثها. انظر: «درء التعارض» (٣/ ٤٤٢، ٤/ ١٣٤، ٨/ ٣٢٠، ١٠/ ٣١٢)، و«منهاج السنة» (٢/ ١٣٦، ١٦٥، ٢١٠، ٥٣١).

(٤) لعله يشير إلى جوابه عن إيراد بعض النَّصارى على المسلمين قولهم: إن عيسى كلمة الله وهو مخلوق، والقرآن كلام الله وهو غير مخلوق، وقد نُشر في رسالة مفردة.

فالصِّفَات إذا أُضِيفَتْ إليه، كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك، دَلَّت الإضافة على أنها إضافةٌ وصفٍ له قائمٌ به، ليست مخلوقة؛ لأن الصِّفة لا تقوم بنفسها، فلا بدَّ لها من موصوفٍ تقوم به، فإذا أُضِيفَتْ إليه عُلِمَ أنها صفةٌ له، لكن قد يعبرُ باسم الصفة عن المفعول بها، فيسمَّى^(١) المقدورُ قدرةً، والمخلوقُ بالكلمة كلامًا، والمعلومُ علمًا، والمرحومُ به رحمةً، كقول النبي ﷺ: «إن الله خلق الرَّحمة يوم خلقها مئة رحمة»^(٢)، وقوله تعالى فيما يروي عنه نبيُّه أنه قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشياء»^(٣)، ويقال للمطر والسحاب: هذه قدرةٌ قادرٍ، وهذه قدرةٌ عظيمة، ويقال في الدعاء: «غفر الله لك علمه فيك» أي معلومه^(٤).

وأما الأعيان إذا أُضِيفَتْ إلى الله تعالى، فإما أن تضاف بالجهة العامة التي يشترك فيها المخلوق، مثل كونها مخلوقةٌ ومملوكةٌ له ومقدورةٌ ونحو ذلك، فهذه إضافةٌ عامةٌ مشتركة، كقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١].

وقد يضاف لمعنى يختصُّ بها يميِّز به المضافُ عن غيره، مثل: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله، وروح الله؛ فمن المعلوم اختصاصُ ناقة صالح بما تميَّزت به عن سائر النياق، وكذلك اختصاص الكعبة، واختصاص العبد الصالح الذي عبد الله وأطاع أمره، وكذلك الروح المقدَّسة التي امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح.

(١) (د، ي، ع): «يسمى»، وأصلحت في (و).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: «الحجة» لأبي علي (١٤١/٢)، و«المحتسب» لابن جني (٣٤٣/١).

فإن المخلوقات اشتركت في كونها مخلوقة مملوكةً مربوبةً لله يجري عليها حكمه وقضاؤه وقدره، وهذه الإضافة لا اختصاص فيها ولا فضيلة للمضاف على غيره، وامتاز بعضها بأن الله يحبُّه ويرضاه ويصطفيه ويقربه إليه ويأمر به أو يعظمه ويحبُّه، فهذه الإضافة يختصُّ بها بعض المخلوقات، إضافةً^(١) البيت والناقة والروح وعباد الله من هذا الباب.

وقد قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال في سورة التحريم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) ومريم ابنتَ عمرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّي وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْإِيمَانُ وَكَانَتْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التحريم: ١١-١٢].

فذكر امرأة فرعون التي ربّت موسى بن عمران، وجمعت بينه وبين أمّه حتى أرضعته أمّه^(٢) عندها، وذكر مريم أمّ المسيح التي ولدته وربّته، فهاتان المرأتان ربّتا هذين الرسولين الكريمين.

فلما قال هنا: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي في المرأة، و﴿فِيهِ﴾ أي في فرجها، ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾، وقال هنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِإِيْتَابِكَ وَلِئَلَّكَ غُلَامٌ زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩] = دلّ على أن قوله: ﴿رُوحَنَا﴾

(١) (د، ي، ع): «كإضافة».

(٢) ليست في (ع).

(٣) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو، كما سلف.

ليس المراد به أنه صفةٌ لله، لا الحياة ولا غيرها، ولا هو ربُّ خالق، فلا هو الربُّ الخالق ولا صفة الربِّ الخالق، بل هو روحٌ من الأرواح التي اصطفاه الله وأكرمها، كما تقدّم في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، وأن الأكثرين على أنه جبريل^(١).

وهذا الأصل الذي ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلى الله بين^(٢) صفاته وبين مملوكاته أصلٌ عظيمٌ ضلَّ فيه كثيرٌ من أهل الأرض من أهل الملل كلِّهم؛ فإن كتب الأنبياء التَّوراة والإنجيل والقرآن وغيرها أضافت إلى الله أشياء على هذا الوجه وأشياء على هذا الوجه، فاختلف النَّاسُ في هذه الإضافة:

* فقالت المعطّلة نفاة الصِّفات من أهل الملل: إن الجميع إضافةٌ مُلكٍ، وليس لله حياةٌ قائمةٌ به، ولا علمٌ قائمٌ به، ولا قدرةٌ قائمةٌ به، ولا كلامٌ قائمٌ به، ولا حبٌّ ولا بغضٌ، ولا غضبٌ ولا رضى، بل جميع ذلك مخلوقٌ من مخلوقاته.

وهذا أول ما ابتدعه^(٣) في الإسلام الجهميّة، وإنما ابتدعوه بعد انقراض عصر الصَّحابة وأكابر التَّابعين لهم بإحسان، وكان مُقدِّمهم رجلٌ يقال له: الجهم بن صفوان^(٤)، فنُسبت^(٥) الجهميّة إليه، ونفوا الأسماء والصفات، واتَّبَعَهُم المعتزلة وغيرهم، فنفوا الصِّفات دون الأسماء، ووافقهم طائفةٌ من الفلاسفة أتباع^(٦) أرسطو.

(١) (ع): «هو جبريل».

(٢) (د، ع): «من».

(٣) ط. العاصمة: «ابتدعته»، خلاف الأصول.

(٤) الجهم بن صفوان، أبو محرز السمرقندي، المتكلم، رأس الجهمية وأساس البدعة، قتل سنة ١٢٨. انظر: «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣٨٩)، و«لسان الميزان» (٢/ ٥٠١).

(٥) مهملة في (ي)، (و): «فنسب».

(٦) (ي): «وأتباع».

* وقالت الحلولية: بل ما يضاف إلى الله قد يكون هو صفة له^(١) وإن كان بائناً عنه. بل قالوا: هو قديم أزلي. فقالوا: روح الله قديمة أزلية صفة لله. حتى قال كثير منهم: إن أرواح بني آدم قديمة أزلية صفة لله^(٢). وقالوا: إن ما يسمعه الناس من أصوات القرّاء ومداد المصاحف قديم^(٣) أزلي وهو صفة لله.

وقال حدّاق هؤلاء: بل غضبه ورضاه وحبّه وبغضه وإرادته لما يخلقه قديم أزلي^(٤)، وكلامه الذي سمعه موسى قديم أزلي، وأنه لم يزل راضياً محبّاً لمن علّم أنه يطيعه قبل أن يُخلَق، ولم يزل غضباناً ساخطاً على من علّم أنه يكفر قبل أن يُخلَق، ولم يزل ولا يزال قائلاً: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، قبل أن يوجدوا، وبعد موتهم، ولم يزل ولا يزال يقول: يا معشر الجنّ والإنس، قبل أن يُخلَقوا، وبعدهما يدخلون الجنة والنار.

* وأما سلف المسلمين من الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان، وأئمّة المسلمين المشهورون بالإمامة فيهم كالأربعة وغيرهم، وأهل العلم بالكتاب والسّنة، فيفرّقون بين مملوكاته وبين صفاته، فيعلمون أن العباد مخلوقون، وصفات العباد مخلوقة، وأجسادهم وأرواحهم وكلامهم وأصواتهم بالكتب الإلهية وغيرها، ومدادهم وأوراقهم، الملائكة^(٥) والأنبياء وغيرها.

ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست مخلوقة، كعلمه وقدرته وكلامه وإرادته وحياته وسمعه وبصره ورضاه وغضبه وحبّه وبغضه، بل هو موصوفٌ

(١) (و): «بل ما يضاف إلى صفة الله هو صفة له».

(٢) ط. العاصمة: «وصفة»، خلاف الأصول.

(٣) (ع): «حق قديم».

(٤) زادت ط. العاصمة هنا من (ي): «وهو صفة لله»، مع أن الناسخ ضرب عليه وكتب فوقه (لا ... إلى)، وليس في سائر الأصول.

(٥) بدل من «العباد». وتحرفت في (و) إلى «المكتبة». ط. النيل: «والملائكة».

بما وصف به نفسه وبما وصفته^(١) به رسله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفته^(٢) به رسله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يتأولون كلام الله بغير ما أراده، ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق، بل يعلمون أن الله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل هو موصوف بصفات الكمال، منزّه عن النقائص، وليس له مثل في شيء من صفاته.

ويقولون: إنه لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال، لم يزل متكلماً إذا شاء بمشيئته وقدرته، ولم يزل عالماً، ولم يزل قادراً، ولم يزل حياً سمياً بصيراً، ولم يزل مُريداً، فكلُّ كمالٍ لا نقص فيه يمكن اتصافه به فهو موصوفٌ به، لم يزل ولا يزال متصفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام ﷻ.

والنصارى من أعظم الناس اضطراباً في هذا الأصل، فتارةً يجعلون كلامه الذي تكلم به - كالتّوراة والإنجيل - مخلوقاً منفصلاً عنه^(٣)، وينفون عنه الصّفات، وتارةً يجعلون كلمته قديمةً أزليّةً متولّدةً عنه، لم تزل ولا تزال، ثم يقولون: هذه الكلمة هي ابنه، ويجعلون هذه الكلمة علمه أو حكمته، ويقولون: إن هذه الكلمة هي إلهٌ خالق، وهو الذي خلق السّماوات والأرض، ويقولون^(٤): هذه الكلمة هي المسيح، والمسيح إلهٌ خالق العالم، ويقولون مع هذا: إن هذه الكلمة ليست هي الأب الذي خلق السّماوات والأرض.

(١) (د، ع): «وصفه».

(٢) (د، ع): «ولا بما وصفه».

(٣) ليس في (ع، د).

(٤) (و، ي): «وأن».

فيجعلون كلمته صفةً قديمةً أزليّةً، ويجعلونها ابنًا له، ويجعلون الصّفة إلهاً خالقًا، ويجعلون المسيح هو الإله الخالق، ويقولون مع هذا: هو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٌّ من جوهر أبيه.

ولهم في كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب، ومخالفة كلام الأنبياء، وتفسيره بغير ما أرادوه، ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول، ما سنذكر إن شاء الله منه ما ييسره الله ﷻ؛ إذ بيان فساد أقوال^(١) النصارى بالاستقصاء لا يتسع له هذا الكتاب.

ولمّا قصَّ الله تعالى قصّة المسيح قال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤] أي يشكون ويتمارون كتَمَارِي اليهود والنصارى.

ثم قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧]، فاختلفت اليهود والنصارى فيه.

ثم اختلفت النصارى فيه، وصاروا أحزابًا كثيرةً جدًّا، كالنسطورية، واليعقوبية، والملكيّة^(٢)، والمارونية^(٣)، والمريمانية^(٤)، والشّمشاطيّة^(٥)، وأمثال هذه الطوائف، كما سنذكر إن شاء الله كثيرًا من طوائفهم واختلافهم في مجامعهم كما حكى ذلك عنهم أحدُ أكابرهم سعيدُ بن البطريق^(٦) وغيره؛ فإنه

(١) (د، ع): «دين».

(٢) تقدم التعريف بهذه الطوائف الثلاث (١-٢٥٣).

(٣) مهملة في (ي، د، ع). وفي ط. النيل والعاصمة: «والباروبية»، تحريف.

(٤) تقدم التعريف بهم (١/٢٥٥).

(٥) مهملة في (ي، د، ع). وفي ط. النيل والعاصمة: «والسمياطية»، تحريف.

(٦) تقدمت ترجمته (١/٢٥٥).

ليس في الأمم أكثر اختلافًا في ربِّ العالمين منهم^(١).

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من هذه الطوائف كلها ﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴿يقول تعالى: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا، ﴿لَكِنْ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ كالنصارى الذين ظلموا بإفكهم وشركهم ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨] ضلُّوا عن الحقِّ في المسيح.

وقد وصف الله النصارى بالضلال في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴿[الكهف: ٤]؛ لأن الغالب عليهم الجهل بالدين، وأنهم يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه، ليس منقولاً عن الأنبياء حتى يُسَلَّمَ^(٢) لقائله، بل هم ابتدعوه، وإذا سألتهم عن معناه قالوا: هذا لا يُعْرَفُ بالعقول، فيبتدعون كلاماً يعترفون^(٣) بأنهم لا يعقلونه^(٤)، وهو كلامٌ متناقضٌ ينقض أوله آخره، ولهذا لا تجدهم يتفقون على قولٍ واحدٍ في معبودهم، حتى قال بعض الناس: لو اجتمع عشرة نصارى افرقوا على أحد عشر قولاً!

(١) من قوله: «والمارونية» إلى هنا ليس في (و).

(٢) (ي، ع، د): «سلم». والمثبت من ط. النيل أشبه.

(٣) الأصول: «يعرفون»، وهو خطأ. وانظر ما سيأتي (٢١١/٣).

(٤) من قوله: «ليس منقولاً» إلى هنا ليس في (و).

وقال الربيعي^(١): النَّصَارَى أَشَدُّ النَّاسِ اخْتِلَافًا فِي مَذَاهِبِهِمْ، وَأَقْلَهُهُمْ
تَحْصِيلًا لَهَا، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْرَفَ لَهُمْ مَذْهَبٌ، وَلَوْ سَأَلْتَ قَسًّا مِنْ أَقْسَائِهِمْ^(٢)
عَنْ مَذْهَبِهِمْ فِي الْمَسِيحِ، وَسَأَلْتَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، لاختلَفُوا عَلَيْكَ الثَّلَاثَةَ، وَلَقَالَ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَوْلًا لَا يَشْبَهُ قَوْلَ الْآخَرِ.

وقال بعض النُّظَّارِ: مَا مِنْ قَوْلٍ يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُقَلَاءِ إِلَّا إِذَا تَأَمَّلْتَهُ
تَصَوَّرْتَ مِنْهُ مَعْنًى مَعْقُولًا وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا، إِلَّا قَوْلَ النَّصَارَى، فَإِنَّكَ كُلَّمَا تَأَمَّلْتَهُ
لَمْ تَتَصَوَّرْ لَهُ حَقِيقَةً تُعْقَلُ، لَكِنَّ غَايَتَهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا «الْأَمَانَةَ» أَوْ غَيْرَهَا، وَإِذَا
طَوَّلُوا بِتَفْسِيرِ ذَلِكَ فَسَّرَهُ كُلُّ مِنْهُمْ بِتَفْسِيرٍ يَكْفُرُ بِهِ الْآخَرُ، كَمَا يَكْفُرُ الْيَعْقُوبِيَّةُ
وَالْمَلِكَانِيَّةُ وَالنَّسْطُورِيَّةُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ؛ لِاخْتِلَافِهِمْ فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ،
إِذَا كَانَ قَوْلُهُمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ مِنْ أَفْسَدِ الْأَقْوَالِ وَأَعْظَمِهَا تَنَاقُضًا، كَمَا بُيِّنَ
فِي مَوْضِعٍ آخَرَ^(٣).

(١) مهملة في (ي، د). ولم أعرفه. وفي ط. العاصمة: «الربيعي».

(٢) لم أر الجمع في معاجم العربية، على كثرة وقوعه في كلام المتأخرين، وفي أثر متقدم في
«تاريخ دمشق» (٢/ ٢٥٥). وانظر: «تكملة المعاجم» لدوزي (٨/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «الصفدية» (١/ ١٢٨)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ١٢٧)، و«درء التعارض»
(٥/ ٤٣، ١٠/ ٢٣٧)، و«التسعينية» (٨٦٠)، و«شرح الأصبهانية» (١١٨)، و«الرد على
الشاذلي» (١٧٠)، و«الرد على البكري» (١/ ١٨١)، و«مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٧٣ -
٢٨٥)، وما سيأتي من الكتاب.

فصل

وأما قولهم: «فكان طيرًا بإذن الله، أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت»^(١).

فهذا إذا قالوه على أنه مذهبهم، من غير أن يقولوا: إن محمدًا أراد، تكلّمنا معهم في ذلك، وبيّنّا فساد ذلك عقلاً ونقلاً.

وأما قولهم: إن محمدًا ﷺ كان يقول: إن المراد إذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت، فهذا من البهتان الظاهر على محمد ﷺ، وهو من جنس قولهم: «إن قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] أراد به: النَّصَارَى»، ومن جنس قولهم: «إن قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥] أراد به: من العرب»، ومن جنس قولهم: «﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] أراد بهم: الحواريين»، ومن جنس قولهم: «﴿آلَهُ﴾ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] أراد به: الإنجيل»^(٢).

فهذه المواضع التي فسّروا بها القرآن، وزعموا أن محمدًا ﷺ الذي بيّن للناس ما أنزل إليهم كان يريد بما^(٣) يتلوه من القرآن هذه المعاني التي ذكروها، هي من الكذب الظاهر الذي يدلُّ على غاية جهل قائلها أو غاية معاندته، ولكن مثل هذا التأويل غير مستنكر من النَّصارَى؛ فإنهم قد فسّروا مواضع كثيرة من التّوراة والإنجيل والزّبور والنبوّات بنحو هذه التفسير التي حرّفوا فيها الكلام الذي جاءت به الأنبياء عن مواضعه تحريفًا ظاهرًا، فبدّلوا بذلك كتب الله

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨).

(٣) (ي، د، ع): «بها ما».

ودينَ الله، وضاهوا بذلك اليهود الذين حرّفوا وبدّلوا وإن اختلف^(١) جهةُ التحريف والتبديل.

فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتّوراة والإنجيل، وهم من الذين يدعون المُحكّم ويتّبعون ما تشابه^(٢) منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، لكن في هذه المواضع حرّفوا المُحكّم الذي معناه ظاهرٌ لا يحتمل إلا معنى واحدًا، فكانوا من الجهل والمعادنة أبعدَ عن الصّواب ممّن حرّف معنى المتشابه.

وذلك أنه قد علّم بالاضطرار من دين محمّد ﷺ أنه كان يقول: إن المسيح عبدُ الله^(٣) مخلوقٌ كسائر المرسلين، وأنه يكفر النصارى الذين يقولون: هو الله أو ابن الله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝﴾ [٧٢] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [٧٢] أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ

(١) كذا في الأصول. وفي ط. النيل: «اختلفت».

(٢) ط. العاصمة: «نشأ به»، وهو تحريف مخالف للأصول.

(٣) (ع): «عند الله».

وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَنْعَبُدُوا مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَبْأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

فقد ذكر كُفْرَ النَّصَارَى في قولهم: «هو الله» مرتين، وذكر أنه ليس المسيح إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسل، فغايتة الرسالة، كما قال في مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وغاية أمه أن تكون صِدِّيقَةً، ودلَّ بهذا أنها ليست بنبية^(١)، ثم قال: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَامَ﴾ وهذا من أظهر الصفات النافية للإلهية؛ لحاجة الآكل إلى ما يدخل في جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات.

والربُّ تعالى أحدٌ صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والنصارى يقولون^(٢): إنه يلد، وإنه يولد، وإن له كفواً، كما قد بيّن في موضع آخر^(٣).

وقد أخبر بعبودية المسيح في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا يَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمَ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ

(١) انظر: «الصفدية» (١/١٩٨)، و«النبوات» (٥٢٥)، و«مجموع الفتاوى» (٤/٣٩٦، ١١/٣٦٤، ١٨/٢٦٦)، وما سيأتي (١/٥٠٠).

(٢) (د، ي، ع): «تقول».

(٣) سيأتي (٢/٢٢٣).

إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٩].

وأخبر تعالى أن أول شيء نطق به المسيح قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ﴿الآيات إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿الآيات كلها [النساء: ١٧١-١٧٣].

فإذا كان قد عُلم بالاضطرار من دين محمد ﷺ، وبالنقل المتواتر عنه، وبإجماع أمته إجماعاً يستندون فيه إلى النقل عنه، وبكتابه المنزل عليه، وبسنته^(١) المعروفة عنه، أنه كان يقول: إن المسيح عبد الله ورسوله، ليس هو إلا رسول، وأنه يكفر النصارى الذين يقولون: هو الله وهو ابن الله، والذين يقولون: ثالث ثلاثة، وأمثال ذلك = كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذي بلغه نبيه محمد ﷺ: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: «أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة بالناسوت» كذباً ظاهراً على محمد ﷺ.

وهذا مما يعرف كذبهم فيه على محمد ﷺ جميع أهل الأرض العالم بحال محمد ﷺ، سواء أقرؤوا بنبوته أو أنكروها.

(١) (و، ي): «وسنته».

فالمقصود في هذا المقام أن هؤلاء كذبوا على محمد ﷺ كذباً ظاهراً معلوماً للخلق المؤمنين به والمكذّبين له، ليس هو كذباً خفياً، وإن قُدِّر أن ما قالوه يكون ممكناً^(١) معقولاً، فكيف إذا كان ممتنعاً في صرائح العقول؟! بل هو قولٌ غير معقول، أي غير معقولٍ ثبوته في الخارج، وإن كان يُعقَل ما يَخْتَلِقون^(٢) ويُعَلِّم به فساد عقولهم، كمن قال^(٣) سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التي يمتنع ثبوتها في الخارج، وذلك كما قد بُسِط في موضعٍ آخر.

فإن قولهم: «بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتَّحدة في النَّاسوت» باطلٌ من وجوه:

منها: أن تلك الكلمة إما أن تكون هي الله، أو صفةٌ لذاته، أو لا هي ذاته ولا هي^(٤) صفةٌ له، أو الذات والصفة جميعاً.

فإن لم تكن هي ذات الله ولا صفته، ولا الذات والصفة، كانت بائنةً عنه مخلوقةً له، ولم تكن لاهوتاً، بل ولا خالقةً. وحينئذٍ فلم يتَّحد بالمسيح لاهوتٌ، بل لم يتَّحد به - إن كان^(٥) اتَّحد به - إلا مخلوق.

وإن كانت الكلمة هي الذات أو الذات والصفة فهي ربُّ العالمين، وهي الأب عندهم، وهم متَّفِقون على أن المسيح ليس هو الأب، ولم يتَّحد به الأب، بل الابن.

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) الأصول: «يختلفون». والمثبت أشبه.

(٣) الأصول: «لمن قال». وبما أثبت يلتزم السياق.

(٤) ليست في (و، ي).

(٥) ط. العاصمة: «بل إنه لم يتَّحد به إنه كان»، وهو خطأ مخالف للأصول.

وإن كانت الكلمة صفةً لله ﷻ فصفة الله ليست هي الإله الخالق،
والمسيح عندهم هو الإله الخالق. وأيضًا، فصفة الله قائمةٌ بذاته، لا تفارق ذاته
وتحلُّ بغيره وتتَّحد به، وكلمة الله عندهم اتَّحدت بالمسيح.

وإن قالوا: قولنا هذا كما تقول^(١) طائفةٌ من المسلمين: إن القرآن أو
التَّوراة أو الإنجيل حلٌّ في القرَّاء أو اتَّحد بهم، وإن القديم حلٌّ في المخلوق أو
اتَّحد به، ونحو ذلك.

قيل: لو كان قول هؤلاء صوابًا لم يكن لهم فيه حجة؛ فإنه على هذا
التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التَّوراة والإنجيل والزَّبور
والقرآن، وأنتم تدَّعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصًا بذلك دون غيره.

وأيضًا، فهؤلاء وجميع الأمم متَّفِقون على أن قرَّاء القرآن وسائر الكتب
الإلهية ليس واحدٌ منهم هو الله، ولا هو ابن الله، ولا أنه خالقٌ للعالم، فإذا
جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله ولا ابن الله
ولا ربًّا للعالم.

وأيضًا، فلم نعلم^(٢) أحدًا من هؤلاء قال: إن اللاهوت اتَّحد بالنَّاسوت،
ولا إن القديم اتَّحد بالمُحدَث، ولا إن كلام الله صار هو والمخلوق شيئًا
واحدًا، فالاتِّحاد باطلٌ باتِّفاق هؤلاء وغيرهم، ولكن طائفةٌ منهم أطلقت لفظ
«الحلول»، وطائفةٌ أنكرت لفظ «الحلول» وقالوا: إنما نقول ظهر القديم في
المُحدَث لا حلٌّ فيه، لكن قالوا ما يستلزم الحلول.

(١) (د، ع): «يقول».

(٢) (ع، د): «يعلم».

وسلفُ المسلمين وجمهورهم يخطئون هؤلاء، ويبينون خطأهم عقلاً ونقلاً، وقولهم ليس هو قول أحدٍ من أئمة المسلمين، ولا قول طائفة مشهورة من طوائف المسلمين، كالمالكية والشافعية والحنفية والحنبلية والثورية والداودية والإسحاقية وغيرهم، ولا قول طائفة من طوائف المتكلمين من المسلمين، لا المنتسبين إلى السنة كالأشعرية والكرامية، ولا غيرهم كالمعتزلة والشيعة وأمثالهم.

وإنما قال ذلك طائفة قليلة انتسبت إلى بعض علماء المسلمين، مثل قليل من المالكية والشافعية والحنبلية، وهؤلاء غايتهم أن يقولوا بحلول صفة من صفات الله.

وكذلك من قال بحلول الرب واتحاده في العبد من طوائف الغلاة المنتسبين إلى التشيع^(١) والتصوف أو غيرهم، فهم ضلال كالنصارى، مع أنه لا حجة للنصارى على هؤلاء؛ إذ كان ما يقولونه لا يختص به المسيح، بل هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء والصالحين، والنصارى تدعي اختصاص المسيح بالاتحاد، مع أن المتحد بالناسوت صار هو والناسوت شيئاً واحداً، ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أو صفة خارج عن الآخر، والنصارى يدعون الاتحاد ثم يتناقضون، فمنهم من يقول: جوهر واحد، ومنهم من يقول: جوهران، ومنهم من يقول: مشيئة واحدة، ومنهم من يقول: مشيئتان، كما سيأتي الكلام إن شاء الله على ذلك^(٢).

(١) (د، ي، ع): «الشيعة»، وكلاهما صحيح، والمثبت من (و) أجود.

(٢) (٣/٥-٢٦).

فصل

وأما قوله تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] فهذا حق كما أخبر الله به، فمن اتبع المسيح ﷺ جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود، وأيضا فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة.

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به، بل لما بدّل النصارى دينه، وبعث الله محمداً ﷺ بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء، جعل الله محمداً وأُمَّته فوق النصارى إلى يوم القيامة، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، أنه ليس بيني وبينه نبي»^(١).

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[المؤمنون: ٥١-٥٣].

فكل من كان أتم إيماناً بالله ورسله كان أحق بنصر الله تعالى؛ فإن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾

(١) تقدم تخريجه والكلام على لفظه في صدر الكتاب (١٠ / ١).

[غافر: ٥١]، وقال في كتابه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ

﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفافات: ١٧١-١٧٣].

واليهود كذبوا المسيح ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم، كما قال الله فيهم: ﴿بَشَرًا مِّثْلَ بَشَرِهِمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، فالغضب الأول بتكذيبهم للمسيح، والثاني بتكذيبهم لمحمد^(١) ﷺ.

والنصارى لم يكذبوا المسيح؛ فكانوا^(٢) منصورين على اليهود، والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى؛ فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله، ولم يكذبوا بشيء من كتبه، ولا كذبوا أحدًا من رسله، بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولمَّا^(٣) كان المسلمون هم المتبعون لرسول الله كلهم المسيح وغيره، وكان الله قد وعد أن ينصر^(٤) الرسل وأتباعهم، قال النبي ﷺ في الحديث

(١) (د، ع): «تكذيبهم المسيح والثاني تكذيبهم محمدًا».

(٢) (د، ع): «وكانوا».

(٣) (ي): «فلما».

(٤) «أن ينصر» ليست في (ع، د).

الصَّحِيح: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرةً على الحقِّ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»^(١).

وقال أيضًا: «سألتُ ربي أن لا يسلِّط على أمتي عدوًّا من غيرهم، فيجتاحهم، فأعطانيها» الحديث^(٢).

فكان ما احتجُّوا به حجةً عليهم لا لهم.

(١) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (١٩٢٠)، (١٩٢٤) من حديث ثوبان وعقبة بن عامر رضي الله عنه. وهو حديث متواتر، كما سبق (١/ ٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٢٥) من حديث معاذ رضي الله عنه. وبمعناه عند مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه. وشواهده كثيرة من حديث ابن عمر وعلي وأنس وخباب بن الأرت وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم.

فصل

وأما قوله تعالى^(١): ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، فهذا حقُّ كما أخبر الله به^(٢).

وقد ذكر تعالى تأييد عيسى بن مريم بروح القدس في عدة مواضع، فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعَمِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وقد^(٣) قال تعالى في القرآن: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴿[النحل: ١٠١ - ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١١٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿[الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ

(١) (د، ع): «وأما قولهم» يعني احتجاج النصارى بالآية.

(٢) (د، ع): «كما قال تعالى».

(٣) «قد» ساقطة من ط. العاصمة.

عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١﴾ [البقرة: ٩٧].

فروح القدس الذي نزل (٢) بالقرآن من الله هو الروح الأمين، وهو جبريل.

وثبت في الصحيح (٣) عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس».

وفي صحيح مسلم (٤) وغيره عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت النبي ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله».

وفي الصحيحين (٥) عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «أهْجُهم - أو هاجِهم - وجبريلُ معك».

فهذا حسان بن ثابت واحدٌ من المؤمنين، لَمَّا نافح عن الله ورسوله وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام.

وأهل الأرض يعلمون أن محمداً ﷺ لم يكن يجعل اللاهوت متَّحداً بناسوت حسان بن ثابت، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح، وأهل الكتاب يُقرُّون بذلك، وأن غيره من الأنبياء كان مؤيِّداً بروح القدس، كداود وغيره، بل يقولون: إن الحواريين كانت فيهم روح القدس.

(١) زادت ط. العاصمة: «مصدقا» خلاف الأصول.

(٢) (ي): «ينزل».

(٣) صحيح البخاري (٤٥٣)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٤) (٢٤٩٠).

(٥) صحيح البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦).

وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون في غير المسيح، بل في غير الأنبياء، كما سيأتي إن شاء الله^(١).

وإنما المقصود في هذا المقام بيان كذبهم على محمد ﷺ.

وهذا التأييد نظير قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فهذا التأييد بروح منه عام لكل من لم يحب أعداء الرسل وإن كانوا أقاربه، بل يحب من يؤمن بالرسل وإن كانوا أجنب، ويبغض من لم يؤمن بالرسل وإن كانوا أقارب.

وهذه ملة إبراهيم، قال^(٢) تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] وقال: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وهذا التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عام في كل من نصرهم على من خالفهم من المشركين وأهل الكتاب، كما تقدّم^(٣).

(١) (٣/ ٣٩٥-٣٩٨).

(٢) ط. العاصمة: «وقال»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) (ي): «كما كان»، (و): «كما كان تقدم».

وليس في القرآن ولا في الإنجيل ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القدس الذي أُيد به المسيح هو صفة الله القائمة به، وهي حياته، ولا أن روح القدس ربُّ^(١) يَخْلُق وَيَرْزُق، فليس روح القدس هي الله ولا صفة من صفات الله، بل ليس في شيء من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمّى ابناً ولا روح القدس.

فإذا تأوّل النصارى قول المسيح: «عمّدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس»^(٢) على أن الابن صفة التي هي العلم، وروح القدس صفته التي هي الحياة = كان هذا كذباً بيناً على المسيح؛ فلا^(٣) يوجد قط في كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله ولا شيئاً من صفاته «ابناً» ولا حياته «روح القدس».

وأيضاً، فهم يذكرون في «الأمانة»^(٤) أن المسيح تجسّد من مريم ومن روح القدس، وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسل روحه الذي هو جبريل، وهو روح القدس، فنفخ في مريم، فحملت بالمسيح، فكان المسيح متجسّداً مخلوقاً من أمّه ومن ذلك الروح، وهذا الروح ليس صفةً لله، لا حياته ولا غيرها.

بل «روح القدس» قد جاء ذكرها كثيراً في كلام الأنبياء، ويراد بها إما المَلَك، وإمّا ما يجعله الله في قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا

(١) ليس في (ع، د).

(٢) إنجيل متى (٢٨: ١٩).

(٣) (د، ع): «ولا».

(٤) تقدم ذكرها بتمامها (١/ ١٧٣).

الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴿[الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(١) [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿يُلْقِي^(٢) الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

فسمي الملك روحًا، وسمي ما ينزل به الملك روحًا، وهما متلازمان، والمسيح ﷺ مؤيدٌ بهذا وهذا. ولهذا قال كثيرٌ من المفسرين: إنه جبريل، وقال بعضهم: إنه الوحي^(٣).

وهذا كلفظ «الناموس» يراد به صاحبُ سرِّ الخير، كما يراد بالجاسوس صاحبُ سرِّ الشرِّ، فيكون «الناموس» جبريل، ويراد به الكتاب الذي نزل به وما فيه من الأمر والنهي والشرع، ولما قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى»^(٤)، فُسِّر «الناموس» بهذا وهذا^(٥)، وهما متلازمان.

(١) أتمت ط. العاصمة الآية خلافاً للأصول.

(٢) زادت ط. العاصمة قبلها: «ذو العرش» وليست في الأصول.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٢/٢٢٣، ١٧/٦٤١، ٢٠/٢٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) لم أر من ذكر التفسير الثاني. قال النووي في «شرح مسلم» (٢/٢٠٣): «واتفقوا على أن جبريل ﷺ يسمي الناموس، واتفقوا على أنه المراد هنا». وانظر: «أعلام الحديث» للخطابي (١/١٣٠)، و«فتح الباري» (١/٢٥)، و«شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى» لأبي شامة (١٥٧).

فصل

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿[الحديد: ٢٥-٢٦]﴾ فهو حقُّ كما قال تعالى، وليس في ذلك مدحٌ للرهبانية، ولا لمن بدّل دين المسيح، وإنما فيه مدحٌ لمن اتّبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرّافة والرّحمة^(١)، حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم، وهذه الرّهبانية لم يشرعها الله^(٢) ولم يجعلها مشروعةً لهم، بل نفى جعله عنها، كما نفى ذلك عمّا ابتدعه المشركون بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبتته للمشروع بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧].

فالرّهبانية ابتدعوها^(٣)، لم يشرعها الله.

(١) ط. العاصمة: «الرّحمة والرّافة» خلاف الأصول ونظم الآية.

(٢) (ي، و): «لم يشرعها لهم».

(٣) ليست في (ع).

وللناس في قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ قولان^(١):

أحدهما: أنها منصوبة، يعني: ابتدعوها، إمّا بفعلٍ مضميرٍ على قومه وأصحابه^(٢)، يفسّره ما بعده.

أو يقال: هذا الفعل عمل^(٣) في المضمّر والمُظْهَر، كما هو قول الكوفيّين، حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما.

ونظيره قوله: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:

٣١]، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وعلى هذا القول فلا تكون الرّهبانِيّة معطوفةً على الرّأفة والرّحمة.

والقول الثاني: أنها معطوفةٌ عليها، فيكون الله قد جعل في قلوبهم الرّأفة والرّحمة والرّهبانِيّة المبتدعة، ويكون هذا جَعْلًا خَلْقِيًّا كونيًّا. والجَعْل الكوني يتناول الخير والشرّ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَكَارُ﴾ [القصص: ٤١].

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٣٠ / ٥)، و«الإيضاح العضدي» لأبي علي الفارسي (٣١)، و«السيط» (٣١٥ / ١٢)، و«إعراب القرآن» للباقولي (٣٧٨ / ١)، و«البحر المحيط» (٢٠٢ / ٢٤)، و«الدر المصون» (٢٥٤ / ١٠)، و«مغني اللبيب» (٢٠٩ / ٦)، و«مدارج السالكين» (١٤٧٦). وقال الزجاج: «هذه الآية صعبةٌ في التفسير».

(٢) الأصول: «قوله وأصحابه»، والمثبت أشبه، أي عائد على قوم عيسى وأصحابه. وهو أولى من التأويل المذكور في طرة (د): «المعنى ابتدعوا رهبانِيّةً ابتدعوها. وأصحاب هذا يقولون: يفسّره ما بعده». وجملة «على قومه وأصحابه» ثابتة في جميع الأصول، وأسقطتها ط. العاصمة، وقال محققها: «يبدو لي أنها زائدة لا مكان لها»!

(٣) (د، ع): «يعمل».

وعلى هذا القول فلا مدح للرهبانية بجعلها^(١) في القلوب.

فثبت على التقديرين أنه ليس في القرآن مدح للرهبانية^(٢).

ثم قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يُبتدع.

وهذا يسمى استثناء منقطعاً^(٣)، كما في قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤٠) وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴿٢١﴾ بل الذين كفروا يكذبون ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ [الانشقاق: ٢٠ - ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾^(٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ [النساء: ٩٢].

وهذا أصح الأقوال في هذه الآية، كما هو مبسوط في موضع آخر. ولا يجوز أن يكون المعنى: أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن الله لا يفعل شيئاً ابتغاء رضوان نفسه، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه، كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين، كما قد بسط في موضع آخر^(٤).

(١) (ي، د، ع): «لأنها».

(٢) ليست في (د، ع).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٨٢).

(٤) سيأتي (١/ ٣٩٠ - ٣٩١).

وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية وما رعوها حق رعايتها، وليس في ذلك مدح لهم، بل هو ذم.

ثم قال تعالى: ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ولو أريد: الذين آمنوا بالمسيح أيضًا، فالمراد من اتبعه على دينه الذي لم يبدل، وإلا^(١) فكلهم يقولون: إنهم مؤمنون بالمسيح.

وبكل حال، فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذي لم يبدل، ومن آمن بمحمد ﷺ، لم يمدح النصارى الذين بدّلوا دين المسيح، ولا الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

فإن قيل: قد قال بعض الناس: إن قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ عطف على ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، وإن المعنى: أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية أيضًا^(٢) ابتدعوها، وجعلوا الجعل شرعيًا ممدوحًا.

قيل: هذا غلط؛ لوجوه:

منها: أن الرهبانية لم تكن في كل من اتبعه، بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك، بخلاف الرأفة والرحمة، فإنها جُعِلت في قلب كل من اتبعه.

ومنها: أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية، بخلاف الرأفة والرحمة فإنهم لم يبتدعوها، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم. فإن كان المراد هو

(١) (د، ع): «والآن».

(٢) ليست في (د، ي، ع).

الَجْعَلُ الشَّرْعِيَّ الدِّينِيَّ لَا الْجَعْلُ الْكُونِيَّ الْقَدْرِيَّ فَلَمْ تَدْخُلِ الرَّهْبَانِيَّةُ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ الْجَعْلُ الْخَلْقِيَّ الْكُونِيَّ فَلَا مَدْحَ لِلرَّهْبَانِيَّةِ فِي ذَلِكَ.

ومنها: أَنَّ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ جَعَلَهَا فِي الْقُلُوبِ، وَالرَّهْبَانِيَّةُ لَا تَخْتَصُّ بِالْقُلُوبِ، بَلِ الرَّهْبَانِيَّةُ تَتَضَمَّنُ^(١) تَرْكَ الْمُبَاحَاتِ مِنَ النِّكَاحِ وَاللَّحْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَدْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَمُّوا بِالْتَّرَهُّبِ^(٢)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى نَهْيَهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]^(٣).

وَتَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحِينَ^(٤) أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ لَا أَفْطِرُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ لَا أُنَامُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَكُلُ اللَّحْمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا، فَقَالَ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأُنَامُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»^(٥) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالُوا: هَذَا أَبُو إِسْرَائِيلَ^(٦)، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ،

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (و): «بالرهبانية». وما في باقي الأصول أجود. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٥١١، ١١/٥٨٤، ١٤/٤٥٦، ١٧/١٨١).

(٣) أخرجه ابن جرير (٨/٦٠٧-٦١٦) من وجوه كثيرة. وأصله في البخاري (٤٦١٥) ومسلم (١٤٠٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) (٦٧٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٦) الأنصاري أو القرشي. اسمه يسير، وقيل قشير. قال الحافظ عبد الغني بن سعيد: ليس في الصحابة من يكنى أبا إسرائيل غيره. انظر: «الإصابة» (١٢/٢٠).

ولا يستظلّ، ولا يتكلّم، ويصوم، فقال: «مُرّوه فليجلس، وليستظلّ، وليتكلم، وليتمّ صومه».

وثبت في «صحيح مسلم»^(١) عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته: «خير الكلام كلام الله»^(٢)، وخير الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلُّ بدعة ضلالة».

وفي السنن^(٣) عن العرياض بن سارية أن النبي ﷺ قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعصّوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كلَّ بدعة ضلالة». قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيح^(٤).

وقد بيّنت النصوص الصحيحة أن الرّهبانّة بدعةٌ وضلالة، وما كان بدعةً وضلالةً لم يكن هديً، ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرّعها، كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

فإن قيل: قد قال طائفة: معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وقالت طائفة: ما فعلوها أو ما^(٥) ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

(١) (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) كذا يورد المصنف رحمه الله الحديث في كتبه معزوًّا إلى مسلم، ولفظه في الصحيح: «خير الحديث كتاب الله». وعند النسائي (١٣١١): «أحسن الكلام كلام الله».

(٣) سنن ابن ماجه (٤٣)، وأبي داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٤) وصححه طائفة من أهل العلم. وانظر تخريجًا له مبسوطًا في التعليق على «ذم الكلام» لأبي إسماعيل الأنصاري (٣/١٢٢-١٤٨ ط. الغرباء).

(٥) (و): «وما».

قيل: كلا القولين خطأ، والأول أظهر خطأ؛ فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم، بل لم يشرعها لا إيجاباً ولا استحباباً.

ولكن ذهب طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها.

وليس في الآية ما يدل على ذلك؛ فإنه قال: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها، بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة، وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَارَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين.

قيل: ليس في الكلام ما يدل على ذلك، بل يدل على أنهم مع عدم الرعاية يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها، وإن لم يكن واحد منهما محموداً، بل مذموماً، مثل نصارى بني تغلب^(١) ونحوهم ممن دخل في النصرانية ولم يقوموا بواجباتها، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم^(٢)، فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شراً منهم، والنار دركات كما أن الجنة درجات.

وأيضاً، فالله تعالى إذا كتب شيئاً على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه، بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله.

(١) (ع): «نصارى تغلب».

(٢) قيل: إنهم لم يأخذوا من دين أهل الكتاب إلا شرب الخمر. انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/٥٦، ٣٢/١٩٠، ٣٥/٢٢٣).

وأيضًا، فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيصٌ بغير موجب؛ فإن ما كتبه ابتداءً لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه، فكيف بالرهبانية؟!

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، فهذا المعنى لو دلَّ عليه الكلام لم يكن في ذلك مدحٌ للرهبانية^(١)؛ فإن من فعل ما لم يأمر الله به بل نهاه عنه مع حُسن مقصده غايته أن يثاب على قصده، لا يثاب على ما نُهي عنه، ولا على ما ليس بواجب ولا مستحبٍّ، فكيف والكلام لا يدلُّ عليه؟! فإن الله قال: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾، ولم يقل: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولا قال: ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

ولو كان المراد: ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، لكان منصوبًا على المفعول^(٢)، ولم يتقدّم لفظ الفعل ليعمل فيه، ولا نفى الابتداء، بل أثبت له، وإنما تقدّم لفظ الكتابة.

فعلّم أن القول الذي ذكرناه هو الصواب، وأنه استثناءٌ منقطع، فتقديره: وابتدعوا رهبانيةً ما كتبناها عليهم، لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن إرضاء الله واجبٌ مكتوبٌ على الخلق، وذلك يكون بفعل المأمور وبترك المحذور، لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينه^(٣) عن تركه، والرهبانية فيها فعلٌ ما لم يأمر به وتركٌ ما لم ينه عنه.

(١) (ع): «الرهبانية».

(٢) المفعول له. وفي (ع): «الفعل». ط. النيل: «المفعولية»، ولا تجري هذه اللفظة على قلم المصنف. انظر: «بيان تلبس الجهمية» (٦/٢)، و«الصارم المسلول» (٣/٧١١، ٧٢٣)، و«جامع المسائل» (١/١٦٠، ٦/٦٠).

(٣) (و): «يؤمر بفعله وبترك ما لم ينه» في الموضعين.

فصل

وأما قوله تعالى: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤] فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى، بل هي مذكورة بعد قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ۝١١١ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝﴾، ثم قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِّنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ۝﴾ [آل عمران: ١١٠ - ١١٣].

ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۝﴾ صفة اليهود، وكذلك قوله: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ۝﴾، فقوله عقب ذلك: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ۝﴾ لا بد أن يكون متناولا لليهود.

ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ليس فيهم مؤمن، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ، والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود، والله تعالى إنما أثنى على من آمن من أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِّنَ

أَهْلَ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا^(١) أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ^(٢) إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى^(١) في آل عمران نزلت في النجاشي^(٢) ونحوه ممن آمن بالنبي ﷺ، لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ﷺ، ولا العمل بشرائع الإسلام؛ لكون^(٣) أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام.

وقد قيل: إن النبي ﷺ إنما صلى عليه لما مات لأجل هذا، فإنه لم يكن هناك من يُظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة كما يصلي المسلمون على جنائزهم^(٤).

ولهذا جعل من أهل الكتاب، مع كونه آمن بالنبي ﷺ، بمنزلة من يؤمن^(٥) بالنبي ﷺ في بلاد الحرب ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار وهو في الباطن مؤمن كما كان مؤمن آل فرعون.

(١) (ي، د): «الآخرة». وسقط من (و) من «الآية» إلى «عمران».

(٢) كما سيأتي عن جماعة من السلف. وانظر: تفسير ابن جرير (٣٢٧/٦).

(٣) (د، ي، ع): «لكونه».

(٤) ذكر ذلك الخطابي وغيره. انظر: «معالم السنن» (٣١٠/١)، و«التمهيد» (٣٣١/٦)، و«إكمال

المعلم» (٤١٤/٣)، و«فتح الباري» (١٨٨/٣)، و«جامع المسائل» (١٧٦/٤).

(٥) (ي): «من لم يؤمن»، وهو سهو.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ۝٢٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٢٩﴾ وَالَّذِي آمَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۝٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ۝٣٢﴾ يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مَذْرِبِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوَكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ ۝٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْكَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ

بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّامَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ۖ دَخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر: ٢٨-٤٦].

فقد أخبر سبحانه أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب، وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتُم إيمانه، وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره، فهو من آل فرعون^(١) باعتبار النسب والجنس والظاهر، وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشدَّ العذاب.

وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١]، وامرأة الرجل من آله؛ بدليل قوله: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ [الحجر: ٥٩-٦٠].

وهكذا أهل الكتاب، فيهم من هو في الظاهر منهم وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ، يعمل بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملاً، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام كعجز النجاشي^(٣).

(١) ليست في (ي).

(٢) (د، ي، و): «إلا امرأته كانت من الغابرين»، وهو سهو، تلك آية أخرى في سورة الأعراف: ٨٣. وأصلحت في (ع) لتوافق الصواب.

(٣) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ١١١ - ١٢٥)، و«مجموع الفتاوى» (٧/ ٧١، ٣٥/ ٢٥)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (٥٨).

وكما أن الذين يُظهِرون الإسلام فيهم من هو^(١) في الظاهر^(٢) مسلمون وفيهم من هو منافق كافر في الباطن إمّا يهوديٌّ وإمّا نصرانيٌّ وإمّا مشركٌ وإمّا معطلٌ، كذلك في أهل الكتاب والمشرّكين من هو في الظاهر منهم وهو^(٣) في الباطن من أهل الإيمان بمحمّد ﷺ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله، وَيَسْقُطُ^(٤) ما يعجز عنه من ذلك^(٥).

وفي حديث حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، قال: لمّا مات النجاشي قال النبي ﷺ: «استغفروا لأخيكم»، فقال بعض القوم: تأمرنا أن نستغفر لهذا العِلْج يموت بأرض الحبشة؟! فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. ذكره ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم^(٦).

وذكره حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصري: أن رسول الله ﷺ قال: «استغفروا لأخيكم النجاشي»، فذكر مثله^(٧).

(١) ط. النيل: «هم».

(٢) (ي): «الذين يظهرون الإسلام هم في الظاهر».

(٣) (و): «ومن هو». والمثبت من سائر الأصول أقوم.

(٤) (ي، ع، د): «ويسقط عنه».

(٥) ط. العاصمة: «في ذلك» خلاف الأصول.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٤٦/٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٦٧)، وأخرجه الضياء في «المختارة» (١٦٤٩)، وليس إسناده بالقوي، قال ابن حجر في «العجاب» (٨٢٠/٢): «وهو من رواية مؤمل بن إسماعيل عن حماد، وفيه لين».

وروي من طريق حميد الطويل عن أنس ﷺ. أخرجه البزار (٦٥٥٦)، والنسائي في

«الكبرى» (١١٠٢٢، ١١٠٢٣)، وابن المنذر في «التفسير» (١٢٨٧) وغيرهم، وأخرجه

الضياء في «المختارة» (٢٠٣٧، ٢٠٣٨)، وفي إسناده اختلاف.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٤٦/٣). والمرسل أشبه بالصواب.

وكذلك ذكر^(١) طائفة من المفسرين عن جابر بن عبد الله^(٢)، وابن عباس، وأنس، وقتادة، أنهم قالوا: نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة، واسمه أصحمة، وهو بالعربية: عطية. وذلك أنه لما مات نعا جبريل للنبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم» قالوا: ومن^(٣) هو؟ قال: «النجاشي»، فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع^(٤).

وزاد بعضهم: وكُشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي، وصلى عليه، وكبر أربع تكبيرات، واستغفر له، وقال لأصحابه: «استغفروا له»، فقال المنافقون: انظروا^(٥) إلى هذا، يصلي على عِلج حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه! فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٦): ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ^(٧).

-
- (١) ليست في (و).
 (٢) «بن عبد الله» من (و).
 (٣) ط. العاصمة: «من» خلاف الأصول.
 (٤) هذا سياق الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/ ٥٨٥-٥٨٦)، وعنه نقل الواحدي في «أسباب النزول» (٢٧١)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ١٥٥). وانظر لتفصيل رواياته: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (١/ ٢٦٥، ٢٦٦)، و«العجاب» لابن حجر (٢/ ٨١٩-٨٢٢)، و«الفتح السماوي» للمناوي (١/ ٤٩٩).
 (٥) (ي، د، ع): «ابصروا».
 (٦) «هذه الآية» ساقطة من ط. العاصمة.
 (٧) تنمة سياق الرواية السابقة عند الثعلبي.

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح ﷺ إلى أن بُعث محمدٌ ﷺ فأمن به، كما نُقل ذلك عن عطاء^(١).

وذهب طائفة إلى أنها نزلت في مؤمن^(٢) أهل الكتاب كلهم^(٣).

والقول الأول أجود^(٤)؛ فإن من آمن بمحمدٍ ﷺ، وأظهر الإيمان به، وهو من أهل دار الإسلام، يعمل ما يعمل المسلمون ظاهراً وباطناً، فهذا من المؤمنين، وإن كان قبل ذلك مشركاً^(٥) يعبد الأوثان، فكيف إذا كان كتابياً؟! وهذا مثل عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهما.

وهؤلاء لا يقال: إنهم من أهل الكتاب، كما لا يقال في المهاجرين والأنصار: إنهم من المشركين وعباد الأوثان، ولا يُنكر^(٦) أحدٌ من المنافقين ولا من غيرهم أن يصلّي على واحدٍ منهم، بخلاف من هو في الظاهر منهم وفي الباطن من المؤمنين.

وفي بلاد النصارى من هذا النوع خلقٌ كثيرٌ يكتُمون إيمانهم، إمّا مطلقاً، وإمّا يكتُمونه عن العامة ويظهرونه لخاصّتهم^(٧)، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]،

(١) نقله الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/ ٥٨٧)، وذكره المصنف بالمعنى.

(٢) ط. العاصمة: «مؤمني» متبعة لطبعة المدني، وخلافاً للأصول وط. النيل.

(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٦) عن مجاهد، ورجحه ابن جرير.

(٤) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ١١٤ - ١٢١).

(٥) (و): «قبل ذلك من المشركين».

(٦) (و): «يمكن»، وهو تحريف مفسد للمعنى، وأثبتته ط. العاصمة، وزادت «من» قبل «أن يصلّي» خلافاً للأصول.

(٧) «يكتُمونه» و«يظهرونه لخاصّتهم» سقطت من (و).

فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مالٍ يأخذونه، كما يفعل كثير من الأحرار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدونهم عن سبيل الله، فيمنعونهم من^(١) الإيمان بمحمد ﷺ.

وأما قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤]، فهذه الآية تتناول اليهود أقوى ممّا تتناول النصارى.

ونظيره^(٢) قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وهذا^(٣) مدحٌ مطلقٌ لمن تمسك بالتّوراة، ليس في ذلك مدحٌ لمن كذب المسيح، ولا فيها مدحٌ لمن كذب محمدًا ﷺ.

وهذا الكلام يفسّره^(٤) سياق الكلام، فإنه قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فقد جعلهم نوعين: نوعًا مؤمنين، ونوعًا فاسقين وهم أكثرهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يتناول من كان منهم مؤمنًا قبل مبعث

(١) ليست كذلك في (و).

(٢) (و): «ونظيرها».

(٣) (د، ع، ي): «هذا».

(٤) (د، ع): «تفسيره».

محمد ﷺ^(١)، كما يتناولهم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهُتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقوله عن إبراهيم الخليل: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

ثم لما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُواْكُمْ أَلَدَبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُواْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغْضٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْاْ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١١-١١٢]

وضربُ الذَّلَّةِ عليهم أيما تُقِفُوا، ومبأؤهم بغضبٍ من الله^(٢)، وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حقٍّ، وعصيانهم، واعتدائهم = كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد ﷺ، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا

(١) (د، ع): «لقوله تعالى منهم المؤمنون يتناول من كان مؤمناً قبل من كان قبل مبعث محمد ﷺ». والصواب المثبت من (و، ي).

(٢) من قوله: «ذلك بأنهم كانوا» إلى هنا ليس في (و). ووقع في الأصول هنا زيادة كلمة «الآية»، ولعل المراد إن صح إثباتها: ما ذكر في الآية من ضرب المسكنة عليهم. والأشبه أن المصنف لم يكمل الآية أولاً وكتب «الآية» كما في (و)، ثم ألحق تتمتها والعبارة التي بعدها كما وقع في الأصول الأخرى، وسها عن الضرب على «الآية». وأسقط ط. العاصمة «الآية» استشكالاً لها.

وَعَدَسِهَا وَبَصَلَهَا ط قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَبَطُوا
مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَנَةُ وَبَاءُوا بِقَضْبٍ مِّنَ
اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿البقرة: ٦١﴾.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيحِينَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه ^(١) الملل
الأربع متمسكًا بها ^(٢) قبل النسخ بغير تبديل.

كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثرهم
قبل محمد ﷺ من الكفر، قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ
آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ
الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

وهذا يتناول من كان متصفاً منهم بهذا قبل النسخ، فإنهم كانوا على الدين
الحق الذي ^(٣) لم يبدل ولم يُنسخ، كما قال في الأعراف: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا
مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ

(١) ليست في (ي).

(٢) «متمسكًا بها» ليس في (و).

(٣) ليست في (و).

سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ [الأعراف: ١٦٨ - ١٧٠].

وقد قال تعالى مطلقاً^(١): ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فهذا خبرٌ من الله عمَّن كان متصفاً بهذا^(٢) الوصف قبل مبعث محمد ﷺ، ومن أدرك من هؤلاء محمدًا ﷺ فأمن به كان له أجره مرتين^(٣).

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (و): «به بهذا».

(٣) في (د) ههنا زيادة مضروب عليها، وليست في سائر الأصول وط. النيل.

فصل

قالوا: «ثم وجدناه يعظّم إنجيلنا، ويقدّم صوامعنا ويشرف مساجدنا»^(١)،
ويشهد بأن اسم الله يُذكر فيها كثيرًا، وذلك مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَئِمْتُمْ صَوْمِعُ وَيَعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]»^(٢).

والجواب: أن فيها ذكر الصوامع والبيع، وأمّا قوله: ﴿يُذَكِّرُ﴾^(٣) فيها أَسْمُ
اللَّهِ كَثِيرًا ﴿فإنما ذكره عقب ذكر﴾^(٤) المساجد، والمساجد للمسلمين، وليس
المراد بها كنائس النصارى، فإنها هي البيع.

ثم قوله تعالى: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ إمّا أن يكون مختصًا
بالمساجد، فلا يكون في ذلك إخبارًا بأن اسم الله يُذكر كثيرًا في الصوامع والبيع،
وإمّا أن يكون ذكر اسم الله^(٥) في الجميع، فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن
يبعث الله محمدًا ﷺ كان فيها من يتبع دين المسيح الذي لم يبدل ويذكر فيها
اسم الله كثيرًا.

وقد قيل: إنها بعد النسخ والتبديل يُذكر فيها اسم الله كثيرًا، وإن الله يحبُّ
أن يُذكر اسمه.

(١) في رسالة بولس: «ويقدّم صوامعنا وبيعنا على المساجد» يعني في الآية، وهو أجود مما
وقع في الأصول.

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).

(٣) الأصول: «ويذكر»، يريد الاستشهاد لا التلاوة، وأثبت لفظ الآية.

(٤) (و): «ذكره».

(٥) (ي): «ذكر الله».

قال الضحاك: «إن الله يحب أن يُذكر اسمه وإن كان يُشرك به»^(١)، يعني أن المشرك به خيرٌ من المعطل الجاحد الذي لا يذكر اسم الله بحالٍ.

وأهل الكتاب خيرٌ من المشركين، وقد ذكرنا^(٢) أنه لما اقتتل فارس والروم، وانتصرت الفرس، ساء ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، وكرهوا انتصار الفرس على النصارى؛ لأن النصارى أقرب إلى دين الله من المجوس.

والرسل بُعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وتقديم خير الخيرين على أدناها حسب الإمكان، ودفع شر الشرين بخيرهما، فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساداً إذا هدمها المجوس والمشركون، وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً فهذا خيرٌ وصالح.

وهذه الآية ذُكرت في سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وهذه الآية أول آية نزلت في الجهاد، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠]، فيدفع بالمؤمنين الكفار، ويدفع شر الطائفتين بخيرهما، كما دفع المجوس بالروم النصارى، ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد ﷺ، وهذا كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ

(١) لم أره بهذا اللفظ، وهو لازم قول الضحاك بالعموم في الآية وأن اسم الله يُذكر كثيراً في البيع والصوامع والمساجد، كما أخرجه ابن جرير (٥٨٦/١٦).

(٢) في صدر الكتاب (١/١٣١-١٣٥).

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿البقرة: ٢٥١﴾.

وأما التقديم في اللفظ، فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَجِيئِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، وقوله: ﴿وَالذَّارِبَتِ ذَرَوًا ﴿١﴾ فَأَلْحَمْتُ وَقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَرِيَتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْمَقَسَمَتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١-٤]، ونظائره متعددة.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿لَهَّدَمْتُ صَوَامِعُ وَبِيعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، بين^(١) سبحانه أنه لولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لَهَّدَمْتُ مواضع العبادات، وهدمها فسادًا إذا هدمها من لا يبذلها بخير منها، وأدناها هي الصوامع؛ فإن الصومعة تكون لواحدٍ أو طائفة^(٢) قليلة، فبدأ بأدنى المعابد، وختم بأشرفها، وهي المساجد التي يُذكر فيها اسمُ الله كثيرًا.

ففي الجملة حكمُ هذه المعابد حكمُ أهلها، وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون، وهدمُ معابد المؤمنين المسلمين فساد.

وبعد النسخ والتبديل إذا غلب أهل الكتاب من هو شرُّ منهم كالمجوس والمشركين، وهدموا معابدهم، كان ذلك فسادًا. وإذا هدمها من هو خيرٌ منهم كأمة محمد ﷺ، وأبدلوها مساجد يُذكر فيها اسمُ الله كثيرًا ولا يُشركُ به، ويُذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله، كان ذلك صلاحًا لا فسادًا.

(١) (و): «فبين».

(٢) (و): «لطائفة».

ولهذا أمر النبي ﷺ أن تتخذ^(١) المساجد مواضع معابد الكفار^(٢)، كما كان لثقيف أهل الطائف معبدٌ يعبدون فيه اللات التي قال الله فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، فأمر النبي ﷺ أن يُهدم ذلك المعبد، ويتخذ مكانه المسجد الذي يُعبد الله وحده فيه^(٣).

فإن المساجد هي بيوت الله في الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الآية إلى قوله: ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٥-٣٨].

-
- (١) مهملة في (ي)، (د، ع): «يتخذ».
- (٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢٦٦)، و«زاد المعاد» (٢/٣٥٨).
- (٣) أخرجه ابن ماجه (٧٤٣)، وأبو داود (٤٥٠) عن عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ «أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم»، وجوده النووي في «المجموع» (٢/١٨٠)، وصححه مغلطاي في «الإعلام» (٤/١٢٢٩)، وفي سنده من لا يعرف. وروي من وجه آخر غريب عند ابن منده في «معرفة الصحابة» (١/٣٢٨)، وأبي نعيم في «معرفة الصحابة» (١/٤٥٨)، ولا يصح.
- وأقوى منه أمره ﷺ أهل اليمامة أن يتخذوا مسجداً مكان بيعة كانت عندهم. أخرجه أحمد (٤٦٢/٣٩)، والنسائي (٧٠١) بسند حسن من حديث قيس بن طلق عن أبيه طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن حبان (١١٢٣)، وخرجه الضياء في «المختارة» (٨/١٦٣). وانظر: «بيان الوهم والإيهام» (٤/١٤٤)، و«تهذيب الكمال» (٢٤/٥٧)، و«البدر المنير» (٤٦٦/٢).

ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فذكر أهل
الجهل المركب والبسيط، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ
يَحْسِبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكْدِ يَرْنَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ
مِنْ نُورٍ ﴿[النور: ٣٩-٤٠].

فقد تبين أنه ليس لهم حجة في شيء مما جاء به محمد ﷺ، بل ما جاء به
حجة عليهم من وجوه متعددة.

فصل

قالوا: «وهذا وغيره أوجب لنا التمسك بديننا، وأن لا نهمل ما معنا، ولا نرفض مذهبنا، ولا نتبع غير السيّد المسيح كلمة الله وروحه، وحواريّه الذين أرسلهم إلينا»^(١).

والجواب: أنهم احتجّوا بحجّتين باطلتين:

إحدهما^(٢): أن محمّداً ﷺ لم يُرسل إليهم، بل إلى العرب^(٣)، وقد تبين أن الاحتجاج بها من أعظم الكذب والافتراء على محمّد ﷺ؛ فإنه لم يقل قط: إني لم أرسل إلى أهل الكتاب، ولا قال قط: إني لم أرسل إلا إلى العرب، بل نصوصه المتواترة عنه وأفعاله تبين أنه مرسل إلى جميع أهل الأرض أمّهم وكتائبهم.

والحجة الثانية: قولهم: إن محمّداً ﷺ أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ^(٤)، وهي أيضاً أعظم كذباً عليه من التي قبلها.

كيف يثني عليهم وهو يكفرهم في غير موضع من كتابه، ويأمر بجهادهم وقتالهم، ويذم المتخلّفين عن جهادهم غاية الذم، ويصف من لم ير طاعته في قتالهم بالنفاق والكفر، ويذكر أنه يدخل جهنم؟!!

وهذا كلّه يخبر به عن الله ويذكره تبليغاً لرسالة ربه، وإنما يضاف إليه لأنه بلّغه وأدّاه، لا لأنه أنشأه وابتداه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).

(٢) (ي، د، ع): «أحدهما»، من الحمل على المعنى.

(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤، ٤١٨).

(٤) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥ - ٤١٧).

بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾
وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ
أَحَدٍ عَنْهُ حَاغِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَنَذْكُرُهُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٥٢].

وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه، وعلى من أتبعه وكان على دينه
الذي لم يبدل، فهذا حق، وهو لا ينافي وجوب اتباع محمد ﷺ على من بُعث
إليه^(١).

فلو قُدِّر أن شريعة المسيح لم تبدل، وأن محمدًا ﷺ أثنى على كل من
أتبعها، وقال مع ذلك: إن الله أرسلني إليكم، لم يكن^(٢) متناقضًا، وإذا كفر من
لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه. فكيف وهو إنما مدح
من أتبع دينًا لم يبدل؟! وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم، بل ذمهم،
كما قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ وَسَوْفَ
يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]^(٣).

(١) في طرة (و) تعليق لأحد القراء: «بل يجب عليهم اتباعه ولو سكت عن دعوتهم؛ لأمر الله
تعالى لهم في كتبهم السابقة باتباعه، بل ولو لم يؤمروا في الكتب السابقة؛ لظهور معجزاته
الخارقة، وتحديثهم بالقرآن، وصدق ما أخبر فيه مما تقدم وما تأخر وما وعد به المؤمنين
من الفتوح والنصر والظفر والظهور على الدين كله».

(٢) (و): «لم يكن ذلك».

(٣) في طرة (و) تعليق آخر: «وكفى بها معجزة دالة على صدقه ﷺ؛ فإن العداوة من حين
نزولها إلى قيام الساعة دائمة كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفاها الله».

وقد قدّمنا^(١) أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود، كفرًا^(٢) بتبديلهم ما في الكتاب الأوّل، وكفرًا بتكذيبهم بالكتاب الثاني. وأمّا من لم يبدّل الكتاب أو أدرك محمّدًا ﷺ فأمن به، فهو لاء مؤمنون.

وممّا يبيّن ذلك أن تعظيم المسيح للتّوراة، واتّباعه لها، وعمله^(٣) بشرائعها، أعظم من تعظيم محمّد ﷺ للإنجيل، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطًا عن اليهود وجوب اتّباعهم للمسيح، فكيف يكون تعظيم محمّد ﷺ للإنجيل مسقطًا عن النصارى^(٤) وجوب اتّباعه؟!

(١) (١/١٨٩).

(٢) ط. النيل: «كفروا». وكذلك الموضع الثاني.

(٣) (ي): «وعلمه».

(٤) من قوله: «وجوب اتّباعهم» إلى هنا سقط من (ع) لانتقال النظر.

فصل

وأما قولهم: «وحواريّيه الذين أرسلهم إلينا أنذرونا بلغاتنا»^(١)، وسلّموا لنا^(٢) ديننا، الذين قد عُظّموا في هذا الكتاب بقوله في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال في سورة البقرة: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فأعني^(٣) بقوله: أنبياءه المبشرين ورسله ينحو بذلك^(٤) الحواريّين الذين داروا في سبعة أقاليم العالم، وبشّروا بالكتاب الواحد الذي هو الإنجيل الطاهر؛ لأنه لو عني^(٥) عن إبراهيم وداود وموسى ومحمّد كان قال: معهم الكتب؛ لأن كلّ واحدٍ منهم جاء بكتابٍ دون غيره، ولم يقل إلا الكتاب الواحد؛ لأنه ما أتى جماعةٌ مبشّرين بكتابٍ واحدٍ غير الحواريّين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر.

وجاء أيضًا في الكتاب: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ أَتْبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، يعني الحواريّين، لم يقل: «رسول» إنما قال: المرسلين^(٦).

(١) ط. العاصمة: «بلغتنا»، خلاف الأصول.

(٢) (ع): «إلينا». وضرب على الجملة في (و).

(٣) كذا في الأصول. أي: عني. وسيرد كذلك في مواضع. وليس بمسموع، وهو من عجمة كاتب الرسالة، وكذلك قوله: «عني عن».

(٤) أي: يقصد.

(٥) وردت في الموضع الآتي (١ / ٤٣٤): «أعني».

(٦) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥)، وفي النص الذي بين أيدينا من الرسالة اختصار.

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه ليس فيما ذكر ولا في غيره ما يوجبُ تكذيب الرّسول الذي أرسل إليكم وإلى غيركم، وتمسّكم بدينٍ مبدّلٍ منسوخ، كما أنه ليس فيما يعظّم به موسى والتّوراة ومن اتّبع موسى ما يوجب لليهود تكذيب الرّسول الذي أرسل إليهم وتمسّكهم بدينٍ مبدّلٍ منسوخ.

الثاني: أن قولهم: «ولا نتّبع غير المسيح وحواريّيه» قولٌ باطل؛ فإنهم ليسوا متّبعين لا للمسيح ولا لحواريّيه لوجهين:

أحدهما: أن دينهم مبدّل، ليس كلّه عن المسيح والحواريّين، بل أكثر شرائعهم أو كثيرٌ منها ليست عن المسيح والحواريّين.

الثاني: أن المسيح بشرٌ بأحمد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ اِنِّىْ رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُوْلٍ يَّاتِيْ مِنْ بَعْدِي اَسْمُهُ اَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فإذا لم يتّبعوا أحمد كانوا مكذّبين للمسيح.

وعندهم من البشارات عن المسيح وغيره من الأنبياء بأحمد ما هو مبسوطٌ في موضع آخر^(١) كما سيأتي إن شاء الله^(٢)، وإنما المقصود هنا منع احتجاجهم بشيءٍ ممّا جاء به محمّد ﷺ، وبيان أنه حجّةٌ عليهم لا لهم؛ إذ زعموا أن في بعضه حجّةٌ لهم.

الثالث: أن قولهم عن الحواريّين: «إنهم الرّسل الذين عظموا في هذا الكتاب» قولٌ باطلٌ فسّروا به القرآن تفسيرًا باطلاً من جنس تفسيرهم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] بالنّصارى، وتفسيرهم ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] أي: ينفخ

(١) (٤/٥-١٠٢).

(٢) «كما سيأتي إن شاء الله» ليست في (و)، وكأنها مما ألحقه المصنف.

فيه فيكون طيرًا بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في النَّاسوت، وتفسيرهم ﴿آلَهُ ۙ﴾ [البقرة: ١] بالإنجيل، وتفسيرهم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١) [البقرة: ٣] هم النَّصارى، وتفسيرهم قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] هم النَّصارى ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم اليهود^(٢)، وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن بمثل^(٣) ما يفسِّرون به التَّوراة والإنجيل والزُّبور من التَّفاسير التي هي من تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في آيات الله، والكذب على أنبيائه، بما يظهر أنه كذبٌ على الأنبياء^(٤) لكل من تدبَّر ذلك.

وبطلان ذلك يظهر من وجوه:

أحدها: أن الله قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ اسمُ جمعٍ مضافٍ يعمُّ جميع من أرسله الله تعالى.

الثاني: أن أحقَّ الرُّسل بهذا الحكم الرُّسل^(٥) الذين سمَّاهم الله^(٦) في القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

(١) زادت ط. العاصمة الآية التي بعدها، وليست في الأصول.

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٦، ٤١٨).

(٣) (و): «مثل».

(٤) (و): «أنبيائه».

(٥) ساقطة من ط. العاصمة.

(٦) لفظ الجلالة ليس في (و، ي).

وَيُؤْتِسْ وَهَرُونَ وَسَلِيمَنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿النساء: ١٦٣-١٦٥﴾.

وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ (١)، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَغَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: ٥].

(١) زادت الأصول هنا: «فاتقوا الله وأطيعوا»، وليس هو موضعها من المصحف.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وذكر قصته، ثم قال بعد (١) ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخِرِينَ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم لما قضى (٢) قصته قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ﴾ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾، فذكر إرسال رسله ﴿تَتْرَا﴾ أي متواترة، ثم ذكر إرسال موسى وهارون، وإرسال موسى وهارون قبل المسيح (٣) بمدة طويلة.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۖ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، فهذا إخبار منه ﷺ بأنه بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده.

وقال تعالى في المسيح صلوات الله عليه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، فأخبر أن المسيح رسول من هؤلاء الرسل، قد خلت من قبله الرسل، وقبله قد بعث في

(١) ط. النيل: «من بعد».

(٢) كذا في الأصول. ويشبه أن يكون الصواب: «قص».

(٣) ط. النيل: «قبل إرسال المسيح».

كُلُّ أُمَّةٍ رَسُولًا^(١).

وقد رُوي في حديث أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ أن الأنبياء مئة ألفٍ وأربعة وعشرين ألف^(٢) نبيٍّ، وأن الرُّسل منهم ثلاثمئة وثلاثة عشر^(٣)، وبعض الناس يصحّح هذا الحديث، وبعضهم يضعّفه، فإن كان صحيحًا فالرُّسل ثلاثمئة وثلاثة عشر، وإن لم تُعرف صحّته أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونوا أكثر، كما يمكن أن يكونوا أقلّ؛ فإن الله تعالى أخبر أنه بعث في كلِّ أُمَّةٍ رسولًا، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]،

(١) (و): «رسول».

(٢) «وأربعة وعشرون ألف» ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨) في سياق طويل من حديث معان بن رفاعه عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة رضي الله عنه، وعلي بن يزيد الألهاني والراوي عنه ضعيفان.

وأخرجه ابن حبان (٣٦١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٦٦) وغيرهما من حديث إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر رضي الله عنه، وهذا إسنادٌ شديد الضعف.

وأصحُّ ما في الباب: حديث زيد بن سلام عن أبي سلام عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، كم كانت الرسل؟ قال: «ثلاثمئة وخمسة عشر»، أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦١٧٧)، والطبراني في «الكبير» (١١٨/٨) وغيرهما بسند قوي، وصححه ابن حبان (٦١٩٠) دون موضع الشاهد، والحاكم في «المستدرک» (٢/٢٨٨) على شرط مسلم، وأبو عبد الله ابن منده في كتاب «التوحيد» (٣/١٤١)، وقال: «وروي من حديث القاسم أبي عبد الرحمن وغيره عن أبي أمامة عن أبي ذر بأسانيد فيها مقال».

قال ابن حجر في «الكاف الشاف» (٤/٢٠٤ - الكشف): «وأفرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات، ولم يصب في ذلك»، ثم أورد بعض متابعاته. وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/١٣١): «أخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن الجوزي في الموضوعات، وهما في طرفي نقيض، والصواب أنه ضعيفٌ لا صحيحٌ ولا موضوعٌ».

وانظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (١/٢٧٨)، و«البداية والنهاية» (٣/٩٠)، و«مجمع الزوائد» (١/١٥٩، ١٩٦، ٨/٢١٠)، و«الروض البسام» (٤/٢٤٣).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال^(١): «أنتم تُوفون سبعين أمةً أنتم أكرمها وأفضلها على الله»^(٢)، وهو حديثٌ جيد.

وقد قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقال تعالى في سورة تبارك: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾، وقال تعالى^(٣): ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، فهذا إخبارٌ منه بأن كل فوج ممَّن^(٤) يلقي في النار قد^(٥) جاءهم نذير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد قال تعالى: ﴿لَّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

(١) (و): «أن النبي ﷺ قال».

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٩)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والترمذي (٣٠٠١) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن»، وصححه الحاكم (٨٤ / ٤) ولم يتعقبه الذهبي، وقال ابن حجر في «الفتح» (٨ / ٢٢٥): «حديث حسن صحيح».

(٣) «وقال تعالى» ليست في (و)، وأكملت فيها الآيات في سياق واحد.

(٤) ليست في (و، ي).

(٥) (ي، ع، د): «وقد». وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلاً كثيرين إلى جميع الأمم، فكيف يجوز أن يدعى أن المراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] هم الحواريون فقط الذين أرسلهم المسيح؟!!

مع أن الحواريين رسل المسيح بمنزلة رسل موسى وإبراهيم ورسل محمد ﷺ، ومن أرسله رسول الله ﷺ وجبت على الناس طاعته فيما يبلغه عن رسول الله، كما في الصحيحين^(١) عن النبي ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني».

وبين^(٢) أن أميره إنما تجب طاعته في المعروف الذي أمر الله به ورسوله لا في كل ما يأمر به.

ففي الصحيحين^(٣) عن عليّ أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً، وأمر عليهم رجلاً، وأمرهم أن يسمعوا ويطيعوا، فأغضبوه، فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا ناراً، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها. فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار. فكانوا كذلك حتى سكن غضبه، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً»، وقال: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

(١) صحيح البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) (و، ع، ي): «فبين».

(٣) صحيح البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

وفي الصحيحين^(١) عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء المسلم السَّمْعُ والطَّاعة فيما أَحَبَّ وكرِه، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

وفي صحيح^(٢) مسلم^(٣) عن أمّ الحصين سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول: «ولو استُعْمِلَ عليكم عبدٌ أسودُّ يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا».

وفي الصحيحين^(٤) عنه ﷺ أنه قال: «فليبلغ^(٥) الشاهدُ الغائب؛ فربَّ مبلغٍ أوعى له من سامع».

وفي «صحيح البخاري»^(٦) عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وفي السنن^(٧) عنه أنه قال: «نَصَرَ الله امرأً سمع منا حديثاً، فبلغه^(٨) إلى من لم يسمعه، فربَّ حاملٍ فقهٍ غير فقيه، وربَّ حاملٍ فقهٍ إلى من هو أفقه منه». فالحواريُّون في تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء في تبليغهم عنهم.

(١) صحيح البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) (١٨٣٨، ١٢٩٨).

(٤) صحيح البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٥) (و): «ليبلغ». وكلاهما مروى.

(٦) (٣٤٦١).

(٧) تقدم تخريجه (٢٨٥ / ١).

(٨) (ي، د، ع): «استمع فسمع منا حديثاً ويبلغه».

وقال الله تعالى في كتابه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم العلماء والأمرء، فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله وجبت طاعتهم، وإن تنازع الناس في شيء وجب رده إلى الله والرسول ﷺ، لا يُردُّ إلى أحدٍ دون الرُّسل الذين أرسلهم الله.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، والكتاب اسم جنسٍ لكلِّ كتابٍ أنزله الله، ليس المراد به كتابًا معيَّنًا.

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتابٍ معيَّنٍ واحد، بل هذا^(١) يتضمَّن الإيمان بالتَّوراة والإنجيل والقرآن وكلِّ ما أنزله الله من كتاب.

كما قال في سورة الشورى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، فأمره الله تعالى أن يؤمن بكلِّ ما أنزله الله من كتاب، وأن يعدل بين من بلغتهم رسالته.

(١) (و): «بل وهذا». وهو سائغ، والمثبت أفصح.

كما قال: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكلُّ من بلغه القرآن فهو مخاطبٌ به يتناوله خطاب القرآن^(١)، وفي الصحيحين^(٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفي القراءة الأخرى ﴿وَكُتَابِهِ وَرُسُلِهِ﴾^(٣)، وكلا القراءتين موافقةٌ للأخرى^(٤).

وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: فاختلَفوا بعد ذلك، كما قال في السورة الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩].

فلما اختلف بنو آدم بعث الله^(٥) النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب، وذلك يتناول كلَّ كتابٍ أنزله الله؛ ليحكم الله ويحكم كتابه بين الناس بالحق، فالحاكم بين الناس هو الله تعالى، وحكمه في كتبه المنزلة؛ فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا في شيء أن يردُّوه إلى الله والرسول، والردُّ إلى الله هو الردُّ إلى كتابه؛ فأمرهم بالردِّ إلى كتابه ورسوله.

وقد ذمَّ تعالى من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١) قوله: «فكل من بلغه» إلى هنا وقع متأخراً بعد الحديث في (د، ع، ي).

(٢) تقدم تخريجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وهو من أفراد البخاري كما في «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (٣/ ٤٤٠).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (١٩٥)، و«حجة القراءات» (١٥٢).

(٤) (ع، ي، د): «الأخرى».

(٥) لم يثبت لفظ الجلالة في ط. العاصمة.

الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْتَفِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿النساء: ٦٠ - ٦٥﴾.

فقد تبين أن الرُّسل الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] يتناول الرُّسل الذين أرسلهم الله تعالى كلَّهم، ومن أحقَّهم بذلك الرُّسل الذين أخبر في القرآن أنه أرسلهم إلى عباده، فظهر بطلان قولهم: إنهم الحواريون.

الوجه الثالث: أنه قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فذكر أنه أنزل الحديد أيضًا؛ ليتبين من يجاهد في سبيل الله بالحديد. والنصارى يزعمون أن الحواريين والنصارى لم يؤمروا بقتال أحدٍ بالحديد^(١).

(١) انظر: إنجيل متى (٥: ٣٨-٤٤).

الوجه الرابع: أنه قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٣٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴿[الحديد: ٢٦، ٢٧]، وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من باب ذكر الخاص بعد العام وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التي امتاز بها عن غيره مما دخل في العام، كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد، ويأمر فلانًا وفلانًا بأن يفعلوا كذا وكذا، ومثل أن يقال: أرسل رسله إلى فلان وفلان^(١)، وأرسل إليهم فلانًا وأمره بكذا وكذا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، فنوح هو أبو آدميين الذين حدثوا بعد الطوفان؛ فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة، وقال في نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته، كما قال تعالى في إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم، وأنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

فأخبر أنه قفى على آثارهم برسله، وقفى بعيسى بن مريم وآتاه الإنجيل،

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

وهؤلاء رسل قبل المسيح، وآخرهم المسيح، ولم يذكر أنه أرسل أحدا من أتباع المسيح، بل أخبر أنه جعل في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة، فكيف يجوز أن يقال: إن مراده بالرسل الذين أرسلهم بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان هم الحواريون دون الرسل الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح؟!

الوجه الخامس: أنه ليس في القرآن آية تنطق بأن الحواريين رسل الله^(١)،

بل^(٢) ولا صرح في القرآن بأنه أرسلهم، لكن قال في سورة يس: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْتَوِمُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(١) ط. النيل: «هم رسل الله».

(٢) ليست في (ي).

فهذا كلام الله ليس فيه ذكرُ أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين، ولا أن الذين أرسلوا^(١) إليهم آمنوا بهم، وفيه أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة أنزل الله عليهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون.

وقد ذكر طائفة من المفسرين أن هؤلاء كانوا من الحواريين، وأن القرية أنطاكية، وأن هذا الرجل^(٢) اسمه حبيب النجار، ثم إن بعضهم يقول: إن المسيح أرسلهم في حياته^(٣)، لكن المعروف عند النصارى أن أهل أنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم^(٤)، لم يهلك الله أهل أنطاكية، والقرآن يدلُّ على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذي آمن بالرُّسل.

وأيضاً، فالنصارى يقولون: إنما جاءوا إلى أهل أنطاكية بعد رفع المسيح، وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث، قيل: أحدهما شمعون الصفا، والآخر بولص^(٥). ويقولون: إن أهل أنطاكية آمنوا بهم. ولا يذكرون حبيب

(١) (د، ع): «أرسل».

(٢) الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، كما تقدم (١/٣١٢).

(٣) قدّمه ابن جرير في التفسير (١٩/٤١٢)، وأخره في التاريخ (٢/١٩)، ورواه فيهما عن قتادة. ورواه ابن المنذر عن ابن جريج، كما في «الدر المنثور» (١٢/٣٣٤). وحكاه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٢/٢٦٠) عن «العلماء بأخبار الأنبياء». وعليه أكثر المفسرين، قال ابن كثير (٦/٥٧٣): «وهو الذي لم يذكر غير واحد من متأخري المفسرين غيره». وانظر: «البيسط» (١٨/٤٦٣)، و«الكشاف» (٤/٧)، و«معالم التنزيل» (٧/١٠)، و«مفاتيح الغيب» (٢٦/٢٦٠).

(٤) انظر: سفر أعمال الرسل (١١: ٢٦).

(٥) في سفر أعمال الرسل (١١: ٢٥) أن اللذين ذهبا إلى أنطاكية هما: برنابا، وشاول. وانظر: «التحرير والتنوير» (٢٢/٣٥٩). وفي تسميتهم خلاف في المصادر. وذكر أبو عبيد البكري في «المسالك والممالك» (١/١٤٢) أسماءهم بالسريانية والرومية. وفيما حكاه الثعلبي (٢٢/٢٦١) عن العلماء بأخبار الأنبياء أن شمعون الصفا هو الثالث وهو الذي دعا الله.

النَّجَّار، ولا مجيء رجل من أقصى المدينة، بل يقولون: إن شمعون وبولص دعوا الله حتى أحيا ابن المَلِك.

فالأمر المنقول عند النَّصارى أن هؤلاء الرُّسل^(١) المذكورون^(٢) في القرآن ليسوا من الحواريين، وهذا أصحُّ القولين عند علماء المسلمين وأئمة المفسِّرين^(٣)، ذكروا^(٤) أن الرُّسل^(٥) المذكورين في القرآن في سورة «يس» ليسوا من الحواريين، بل كانوا قبل المسيح، وسمَّوهم بأسماءٍ غير أسماء^(٦) الحواريين، كما ذكر محمَّد بن إسحاق.

قال سلمة بن الفضل: كان من حديث صاحب «يس» فيما حدَّثني محمَّد بن إسحاق، عن ابن عباس، وعن كعب، وعن وهب بن منبه: أنه كان رجلاً من أهل أنطاكية، وكان اسمه حبيباً، وكان يعمل الحرير^(٧)، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجُذام، وكان منزله عند بابٍ من أبواب المدينة يُتاجر^(٨)، وكان مؤمناً ذا صدقة، يجمع كسبه إذا أمسى - فيما يذكرون - فيقسمه نصفين، فيطعم نصفه عياله ويتصدَّق بنصفه، وكان بالمدينة التي هو بها - مدينة أنطاكية - فرعونٌ من

(١) ليست في (و، ي).

(٢) ط. النيل: «المذكورين»، وهي الجادة.

(٣) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (١١ / ٧): «وهو ظاهر القرآن»، ومال إليه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢٣٩ / ٧)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٨٢ / ١٨)، ونصره ابن كثير (٥٧٣ / ٦).

(٤) (و، ي): «وذكروا».

(٥) ليست في (و، ي).

(٦) ليست في (و).

(٧) ط. النيل: «بالحرث». وفي بعض أصول تفسير ابن جرير: «الجرير» بالمعجمة، ووقع تفسيرها بالحِبال إدراجاً عند ابن كثير. وعن السُّدي: «أنه كان قصَّاراً»، وهو مبيِّض الثياب. وقيل: كان إسكافاً. وقيل: كان حرَّاثاً.

(٨) ط. النيل: «يتاجر». وعند ابن جرير: «قاصياً»، وهو أقرب للفظ الآية.

الفراعنة يقال له: أنطخس بن أنطخس^(١)، يعبد الأصنام، صاحب شرك، فبعث الله إليه المرسلين، وهم ثلاثة: صادق، وصدوق، وشلوم^(٢)، فقدّم الله إليه وإلى أهل المدينة منهم اثنين، فكذبوهما، ثم عزّز الله بالثالث^(٣).

وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ: لكي تكون الحجة عليهم أشدّ، فأتوا أهل القرية فدعوهم إلى الله وحده وعبادته لا شريك له، فكذبوهم، فأتوا على رجل في ناحية القرية في زرع له، فسألهم الرجل: ما أنتم؟ قالوا: نحن رسل ربّ العالمين، أرسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال لهم: أتسألون على ذلك أجراً؟ قالوا: لا، قال: فألقى ما في يده، ثم أتى أهل المدينة ﴿قَالَ يَنْقَوْمُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٤﴾.

وهذا القول هو الصّواب^(٥)، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلاً لله قبل المسيح، وإن كانوا^(٦) قد أرسلوا إلى أنطاكية وآمن بهم حبيب النّجار فهم كانوا قبل المسيح، ولم تؤمن أهل القرية^(٧) بالرّسل، بل أهلكهم الله تعالى، كما أخبر في القرآن، ثم بعد هذا عمّرت أنطاكية، وكان أهلها مشركين، حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين، فآمنوا بالمسيح على أيديهم، ودخلوا دين المسيح.

(١) اضطربت المصادر وأصولها في رسم هذا الاسم: أبطيحس، أنطبخس، أنطبخس.

(٢) (د، ي، ع): «سلم» بالمهملة. وكذلك اختلفت المصادر.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٩ / ٤١٤، ٤١٩)، والتاريخ (١٨ / ٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٢ / ٣٣٥).

(٥) انظر: «جامع الرسائل» (١ / ٦٥ - ٦٦).

(٦) (و): «وأنهم كانوا». وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٧) (و): «المدينة».

ويقال: إن أنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح عليه السلام ^(١)، وذلك بعد رفعه إلى السماء، ولكن ظنّ من ظنّ من المفسّرين أن المذكورين في القرآن هم رسل المسيح، وهم من الحواريين. وهذا ^(٢) غلط؛ لوجوه ^(٣):

منها: أن الله قد ذكر في كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرُّسل، وأهل أنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا. ومنها: أن الرُّسل في القرآن ثلاثة، وجاءهم رجلٌ من أقصى ^(٤) المدينة يسعى، والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين، ولم يأتهم رجلٌ يسعى لا حبيبٌ ولا غيره.

ومنها: أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح، فلم يكن الله أرسلهم.

وهذا كما أن الله ذكر في القرآن أنه أهلك أهل ^(٥) مَدْيَن بالظُّلَّة لما جاءهم شعيب، وذكر في القرآن أن موسى أتاها وتزوَّج بنت واحدٍ منها، فظنّ بعض النَّاس أنه شعيبُ النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا غلطٌ عند علماء المسلمين، مثل ابن عباس والحسن البصري وابن جريج وغيرهم، كلُّهم ذكروا أن الذي صاهره موسى ليس هو شعيبًا النبي صلى الله عليه وسلم ^(٦)، وحُكي أنه شعيبٌ عمّن لا يُعرَف ^(٧)، ولم يثبت

(١) في سفر أعمال الرسل (١١: ٢٦): «ودُعِيَ التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً».

(٢) (د، ي، ع): «فهذا».

(٣) ذكر بعضها ابن كثير في التفسير (٥٧٣/٦).

(٤) (د، ي، ع): «أهل».

(٥) ليست في (و).

(٦) آثارهم في «الدر المنثور» (١١/٤٥٤، ٤٥٥).

(٧) زادت (و): «من العلماء». وممن ذهب إليه مقاتل وطائفة من المؤرخين والمفسرين،

وروي في حديث مرفوع لا يثبت، أخرجه ابن أبي حاتم (٩/٢٩٧٠). انظر: تفسير مقاتل

(٣/٣٤١)، و«المحبر» لابن حبيب (٣٨٩)، وتفسير ابن جرير (١٨/٢٢٣)، وتاريخه =

ذلك^(١) عن أحد من الصحابة والتابعين، كما قد بسطناه في موضع آخر^(٢).

وأهل الكتاب يُقَرُّون بأن الذي صاهره موسى ليس هو شعيبًا، بل رجل من أهل مدين. ومنهم من يقول: إنها غير مدين التي أهلك الله أهلها، والله أعلم. وكذلك ذكر المفسِّرون في «المرسلين»، هل أرسلهم الله، أو أرسلهم المسيح؟ قولين: أحدهما: أن الله هو الذي أرسلهم.

قال أبو الفرج ابن الجوزي: وهذا ظاهر القرآن، وهو مروى عن ابن عباس، وكعب، ووهب بن منبه^(٣).

قال: وقال: المفسِّرون في قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٩]: أخذ جبريل بعِضَادَتِي باب المدينة، ثم صاح^(٤) بهم صيحة واحدة، فإذا هم ميِّتون^(٥) لا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ، كالنَّارِ إِذَا أَطْفِئَتْ، وذلك قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، أي:

= (١٦٧/١)، و«زاد المسير» (٢١٦/٦)، وتفسير ابن كثير (٢٣٠/٦)، وتاريخه (٤٧/٢)، و«الدر المنثور» (٤٤٦/١١). قال ابن جرير: «وهذا مما لا يُدْرِكُ عِلْمُهُ إِلَّا بِخَبَرٍ، وَلَا خَبَرَ بِذَلِكَ تَجِبُ حُجَّتُهُ».

وإنما قال شيخ الإسلام: «وَحُكِّيَ أَنَّهُ شَعِيبٌ عَمَّنْ لَا يُعْرَفُ» مع أنه قول مقاتل وطائفة من المؤرخين والمفسرين اعتمادًا على قول الحسن: «يقولون: إنه شعيب، وليس بشعيب، ولكنه سيد الماء يومئذ»، قال شيخ الإسلام: «فالحسن يذكر أنه شعيب عَمَّنْ لَا يُعْرَفُ، ويردُّ عليهم ذلك، ويقول ليس هو شعيب». «جامع الرسائل» (٦٣/١).

(١) ليس في (و).

(٢) (و، ي): «في موضعه». وقد بسط ذلك المصنف في رسالة لطيفة مفردة منشورة في «جامع الرسائل» (١/٥٩-٦٦). وانظر: «الانتصار لأهل الأثر» (٢٢٦)، و«مجموع الفتاوى» (٤٢٩/٢٠).

(٣) «زاد المسير» (١١/٧).

(٤) (و): «وصاح».

(٥) (ع): «فإذا هم خامدون أي ميِّتون».

ساكنون كهيئة الرماد الخامد^(١).

ومعلومٌ عند الناس أن أهل أنطاكية لم يُصِبهُم ذلك بعد مبعث المسيح، بل آمنوا قبل أن يبدل دينه، وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه، إلى أن تبدل دينه بعد ذلك.

ومما يبيّن ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التّوراة لم يهلك الله مكذّبي الأمم بعذابٍ سماويٍّ^(٢) يعمّهم^(٣)، كما أهلك قوم نوح وعادٍ وthumb وقوم لوطٍ وفرعون وغيرهم، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفّار، كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة. وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذابٍ من السّماء، فدلّ ذلك على أن هؤلاء الرّسل^(٤) المذكورين في «يس» كانوا قبل موسى ﷺ.

وأيضًا، فإن الله لم يذكر في القرآن رسولاً أرسله غيره^(٥)، وإنما ذكر الرّسل الذين أرسلهم هو.

وأيضًا، فإنه قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، فأخبر أنه أرسلهم، كما أخبر أنه أرسل نوحًا وموسى وغيرهما، وفي الآية: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يس: ١٥]، ومثل هذا هو

(١) «زاد المسير» (١٤ / ٧).

(٢) (و): «بعذاب من السّماء».

(٣) وهو عذاب الاستئصال. انظر: «النبوات» (١ / ٢٠٩)، و«جامع الرسائل» (٢ / ٣٣٦)، وما سيأتي (٤ / ٥٣٧).

(٤) ليست في (و).

(٥) غير الله ﷻ.

خطابُ المشركين لمن قال: إن الله أرسله وأنزل عليه الوحي، لا لمن^(١) جاء رسولاً من عند رسول. وقد قال بعد هذا: ﴿يَحْزَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]، وهذا إنما هو في الرُّسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله.

وأيضاً، فإن الله ضرب هذا مثلاً لمن أرسل إليه محمداً ﷺ، يحذِّرهم أن ينتقم الله منهم كما انتقم من هؤلاء. ومحمداً إنما يُضْرَبُ له المثلُ برسولٍ نظيره، لا بمن أصحابه أفضلُ منهم؛ فإن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين. ولم يبعث الله بعد المسيح رسولاً، بل جعل ذلك الزمان زمان فترة؛ لقوله^(٢): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩].

وأيضاً، فإنه قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ ١٤ ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٤، ١٥]، ولو كانوا رُسل رسولٍ لكان التكذيبُ لمن أرسلهم، ولم يكن في قولهم: «إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا» شبهة؛ فإن أحداً لا ينكر أن يكون رسلُ رسلِ الله بشراً، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشراً.

وأيضاً، فلو كان التكذيبُ لهما وهما رسلُ الرسول لأمكنهما أن يقولوا: فأرسلوا إلى من أرسلنا أو إلى أصحابه؛ فإنهم يعلمون صدقنا في البلاغ عنه. بخلاف ما إذا كانا رسل الله.

(١) (ع، د، ي): «من».

(٢) (ي): «كقوله». وهو خطأ، وأثبتته ط. النيل والعاصمة.

وأيضًا، فقلوه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس: ١٤] صريحٌ في أن الله هو المرسل، ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك، لم يرسلهم الله، كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله: إنهم رسلُ الله، فلا يقال لِذِيحَةَ بن خليفة الكلبي: إن الله أرسله، ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن حذافة، وأمثالهما ممَّن أرسلهم الرسول، وذلك أن النبي ﷺ أرسل رسله إلى ملوك الأرض، كما أرسل ذِيحَةَ بن خليفة إلى قيصر، وأرسل عبد الله بن حذافة إلى كسرى، وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المُقوقس، كما تقدَّم ذكر ذلك^(١).

ومعلومٌ أنه لا يقال في هؤلاء: إن الله أرسلهم، ولا يُسمَّون عند المسلمين «رسل الله»، ولا يجوز باتِّفاق المسلمين أن يقال: هؤلاء داخلون في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فإذا كانت رسلُ محمدٍ ﷺ لم يتناولهم اسمُ «رسل الله» في الكتاب الذي جاء به، فكيف يجوز أن يقال: إن هذا الاسم يتناول رسلَ رسولٍ غيره؟!!

والمقصود هنا بيان معاني القرآن، وما أراده الله ﷻ بقوله: ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴿ [يس: ١٣، ١٤]، هل مراد الله ورسوله محمد ﷺ مَنْ أرسلهم الله أو من أرسلهم رسوله؟ وقد عُلِمَ يقينًا أن محمدًا ﷺ لم يدخل في مثل هذا، فمن قال: إن محمدًا ﷺ أراد بذلك من أرسله رسولٌ فقد كذب على محمدٍ ﷺ عمدًا أو خطأ.

(١) (١/ ١٣٠-١٦٦).

فصل

وقد تبين بما ذكرناه فساد قولهم في تفسير آية البقرة، فإنهم قالوا: «وقال في سورة البقرة: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]».

قالوا: «فأعني بقوله: أنبياءه المبشرين ورسله، ينحو بذلك عن^(١) الحواريين الذين داروا في سبعة أقاليم العالم، وبشروا بالكتاب الواحد^(٢) الذي هو الإنجيل الطاهر؛ لأنه لو كان أعني عن إبراهيم وموسى وداود ومحمد لكان قال: ومعهم الكتب؛ لأن كل واحد منهم جاء بكتابٍ دون غيره، ولم يقل: إلا الكتاب الواحد؛ لأنه ما أتى جماعة مبشرين بكتابٍ واحدٍ غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر»^(٣).

فيقال لهم: قد تقدم بعض ما يدل على فساد هذا التفسير^(٤).

وأيضاً، فإنه قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، والحواريون ليسوا من النبيين، وإن كان المسيح أرسلهم، ولا يلزم من إرساله لهم أن يكونوا أنبياء، كمن أرسلهم موسى ومحمد وغيرهما، ولهذا تسميهم عامة النصارى «رسلاً» ولا يسمونهم «أنبياء».

وأيضاً، فإنه قال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾، والحواريون لم ينزل معهم الكتاب، إنما أنزل الكتاب مع المسيح، ولكن الأنبياء أنزل معهم جنس الكتاب؛ فإن الكتاب اسم جنس، فيدخل فيه الكتب المنزلة كلها، كما في قوله:

(١) كذا في الأصول. وتقدم النص (١/٤١٢) بدون «عن».

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥). وقد تقدم (١/٤١٢).

(٤) (١/٤١٣-٤٣٣).

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي قوله: ﴿كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وفي القراءة الأخرى: ﴿وكتابه ورُسُلِهِ﴾^(١)، وكذلك قوله عن مريم: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحریم: ١٢]، وفي القراءة الأخرى: ﴿وكتابه﴾^(٢).

وأيضاً، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]، وهذا يدلُّ أنه لما اختلفت بنو آدم بعث الله النبيين، وكان اختلافهم^(٣) قبل المسيح، بل قبل موسى، بل قبل الخليل، بل قبل نوح، كما قال ابن عباس: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلُّهم على الإسلام، ثم حدث فيهم الشُّرك»^(٤).

والاختلافُ على وجهين:

* تارةً يختلفون، فيؤمن بعضهم، ويكفر بعضهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] يعني أهل الإيمان والكفر.

(١) من قوله: «وفي القراءة» إلى هنا ليس في (و).

(٢) قرأ بالأولى حمزة والكسائي، وبالثانية عامة القراء غير أبي عمرو وحفص عن عاصم. انظر: «السبعة» (١٩٥)، و«حجة القراءات» (٧١٥).

(٣) (و): «واختلافهم كان».

(٤) أخرجه ابن جرير (٦٢١/٣)، وصححه الحاكم (٤٨٠/٢) ولم يتعقبه الذهبي، وثبته شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (٢٥٧/٥).

* وقد يكون المختلفون كلهم على باطل، كقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي
الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ
رَبُّكَ ﴿[هود: ١١٨، ١١٩].

وأيضًا، فالإنجيل ليس فيه حكمٌ بين الناس فيما اختلفوا فيه، بل عامته
مواعظ ووصايا وأخبار المسيح، بخلاف التَّوراة والقرآن، فإن فيهما من الحكم
بين النَّاسِ فيما اختلفوا فيه ما ليس في الإنجيل.

وأيضًا، فإنه قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ
بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]،
وذلك يقتضي أن الله هدئ الذين آمنوا بعد اختلاف الذين أوتوا الكتاب بغيًا
بينهم لما اختلفوا فيه من الحق، وهذا ذمٌ لمن أوتوا الكتاب فاختلفوا،
والنَّصارى داخلون في هذا الذم، ولو كان المراد الإنجيل لكانوا^(١) هم
المذمومين دون غيرهم، وليس كذلك، بل اليهود وغيرهم من المختلفين
مذمومون أيضًا.

وإنما الممدوح هم المؤمنون الذين هداهم الله لما اختلف أولئك فيه من
الحق بإذنه، وهذا يتناول أمة محمد ﷺ قطعًا، وقد يتناول كل من آمن من الأمم
المتقدمة، كالذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم الخليل، كما قال
تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

(١) (د، ي، ع): «كانوا».

وَأَمَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّ اللَّهَ هَدَاهُمْ لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْأُمَمُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ. وَهَذَا بَيِّنٌ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ الْوَسْطَ بَيْنَ طَرَفِي الْبَاطِلِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ الَّذِي اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي التَّوْحِيدِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالْأَخْبَارِ، وَالتَّشْرِيعِ، وَالنَّسَخِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ^(١).

أَمَّا التَّوْحِيدُ، فَإِنَّ الْيَهُودَ شَبَّهُوا الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، فَوَصَفُوا الرَّبَّ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِ النَّقْصِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهَا الْمَخْلُوقُ، فَقَالُوا: إِنَّهُ فَقِيرٌ^(٢)، وَبَخِيلٌ، وَإِنَّهُ يَتَعَبُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَالنَّصَارَى وَصَفُوا الْمَخْلُوقَ بِصِفَاتِ الْخَالِقِ، صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي^(٣) يَخْتَصُّ بِهَا الْخَالِقُ، فَقَالُوا عَنْ الْمَسِيحِ: إِنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ، عَلَّامُ الْغُيُوبِ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ﴿وَنُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ^(٤) [التوبة: ٣١].

وَالْمُسْلِمُونَ هَدَاهُمُ اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفَ^(٥) فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَلَمْ يَشَبَّهُوا الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، وَلَا الْمَخْلُوقَ بِالْخَالِقِ، بَلْ أَثْبَتُوا لِلَّهِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَنَزَّهَوْهُ عَنِ النَّقَائِصِ، وَأَقْرَبُوا بِأَنَّهُ أَحَدٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَلَيْسَ لَهُ كَفْوًا أَحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَتَزَّهَوْهُ عَنِ النَّقَائِصِ خِلَافًا لِلْيَهُودِ^(٦)، وَعَنْ مِمَّا ثَلَّةِ الْمَخْلُوقِ لَهُ خِلَافًا لِلنَّصَارَى.

(١) (و): «وغير ذلك من التصديق والتكذيب».

(٢) (و): «إن الله فقير».

(٣) (و): «الذي».

(٤) ليست في (ي، د).

(٥) (و): «اختلفوا».

(٦) (و): «خلاف اليهود».

وَأَمَّا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوا بَعْضًا وَكَذَّبُوا بَعْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وَالنَّصَارَى أَشْرَكُوا بِهِمْ وَبِمَنْ هُوَ دُونُهُمْ، فَعْبَدُوا الْمَسِيحَ، بَلْ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَجَعَلُوا الْخَوَارِئِينَ رَسُولًا لِلَّهِ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَصِيرُ بِطَاعَتِهِ^(١) بِمَنْزِلَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَصَوَّرُوا تَمَاثِيلَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَصَارُوا يَدْعُونَهُمْ وَيَسْتَشْفَعُونَ بِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَإِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تَمَاثِيلَهُمْ.

وَفِي الصَّاحِحِينَ^(٢) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذُكِرَ لَهُ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبْشَةِ، وَذُكِرَ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرِ فِيهَا، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شَرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ، فَهَذَا هُمْ اللَّهُ لَمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، فَآمَنُوا بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ كُلِّهِمْ، وَلَمْ يَفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَغْلُوا فِيهِمْ غُلُوَّ النَّصَارَى، وَلَا قَصَّروا فِي حَقِّهِمْ تَقْصِيرَ الْيَهُودِ.

وكَذَلِكَ قَتَلَ الْيَهُودُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّصَارَى يَطِيعُونَ مَنْ يَأْمُرُ بِالشَّرِّ وَ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وَيَطِيعُونَ مَنْ يَحَرِّمُ الْحَلَالَ وَيَحِلُّ الْحَرَامَ، وَالْمُسْلِمُونَ يَطِيعُونَ مَنْ يَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا يَطِيعُونَ مَنْ يَأْمُرُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ.

(١) (ي، د، ع): «بطاعته يصير».

(٢) صحيح البخاري (٤٢٧) ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والنصارى فيهم الشُّرك بالله، واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله، كما قال تعالى في النصارى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال في اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

والإسلام هو أن يستسلم العبدُ لله وحده، فيعبده وحده بما أمره به، فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، والله لا يغفر أن يُشرك به، ومن لم يستسلم له بل استكبر عن عبادته كان ممن قيل فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فلهذا كان جميعُ الأنبياء وأممهم مسلمين لله، يعبدونه وحده بما أمرهم به، وإن تنوعت شرائعهم، فالمسيح لم يزل مسلمًا لما كان متبعا لشرع التَّوراة ولما نسخ الله له ما نسخه^(١) منها، ومحمدٌ ﷺ لم يزل مسلمًا لما كان يصلي إلى بيت المقدس، ثم لما صلى إلى الكعبة، ولما بعثه الله إلى الخلق كانوا كلهم مأمورين بطاعته، وكانت عبادة الله طاعته، فمن لم يطعه لم يكن عابداً لله، فلم يكن مسلمًا.

وأما التَّشريع، فإن اليهود زعموا أن ما أمر^(٢) الله به يمتنعُ منه أن ينسخه، والنصارى زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه، فهدى الله المؤمنين لما اختلف^(٣) فيه من الحق، فقالوا: إن الله سبحانه له أن ينسخ ما

(١) ط. العاصمة: «نسخ الله له نسخة». وهو خطأ مخالف للأصول.

(٢) (ع، د، ي): «أمره».

(٣) (و): «اختلفوا».

شَرَعَه خِلَافًا لِلْيَهُودِ، وَلَيْسَ لِلْمَخْلُوقِ^(١) أَنْ يَغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ شَرَعِ الْخَالِقِ خِلَافًا لِلنَّصَارَى.

وَأَمَّا الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَالطَّهَارَةُ وَالنَّجَاسَةُ، فَإِنَّ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الطَّيِّبَاتُ، وَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ فِي أَمْرِ^(٢) النِّجَاسَاتِ، فَمُنِعُوا^(٣) مِنْ مَوَاكِلَةِ الْحَائِضِ وَالْجُلُوسِ مَعَهَا فِي بَيْتٍ، وَمِنْ إِزَالَةِ النَّجَاسَةِ، وَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ شَحْمُ الثَّرَبِ^(٤) وَالْكُلَيْتَيْنِ وَكُلُّ ذِي ظُفْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ^(٥).

وَالْمَسِيحُ ﷺ أَحَلَّ لَهُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَابَلَهُمُ النَّصَارَى، فَقَالُوا: لَيْسَ شَيْءٌ مُحَرَّمٌ لَا الْخَنَزِيرَ وَلَا غَيْرَهُ، بَلْ وَلَا شَيْءٌ نَجَسٌ، لَا الْبَوْلَ وَلَا غَيْرَهُ، وَزَعَمُوا أَنَّ بَعْضَ أَكَابِرِهِمْ رَأَى مُلَاءَةً^(٦) صَوَّرَ لَهُ فِيهَا صُورَ الْحَيَوَانِ وَقِيلَ لَهُ: كُلْ مَا طَابَتْ نَفْسُكَ وَدَعِ مَا تَكْرَهُ، وَأَنَّهُ أُبِيحَ لَهُمْ جَمِيعُ الْحَيَوَانِ، وَنَسَخُوا شَرَعَ التَّوْرَةِ بِمَجَرَّدِ ذَلِكَ^(٧)، فَالْحَلَالُ عِنْدَهُمْ مَا اشْتَهَتْهُ أَنْفُسُهُمْ، وَالْحَرَامُ عِنْدَهُمْ مَا كَرِهَتْهُ أَنْفُسُهُمْ^(٨).

فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَأَحَلَّ اللَّهُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَأَزَالَ عَنْهُمْ الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ خِلَافًا لِلْيَهُودِ، وَأَمَرَهُمْ بِالطَّهَارَةِ - طَهَارَةِ الْحَدَثِ وَالْخَبَثِ - خِلَافًا لِلنَّصَارَى.

(١) (د، ع): «المخلوق»، (ي): «المخلوق».

(٢) (و): «وشددت عليهم من أمر». وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٣) (و): «حتى منعوا».

(٤) وهو شحم رقيق يغشي الكرش والأمعاء. «التاج» (ثرب).

(٥) قيل: إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعًا. «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٢).

(٦) وهي الملحفة تكون من ثوب رقيق. «المعجم الوسيط» (ريط، لحف، ملأ).

(٧) من قوله: «وأنه أبيع لهم» إلى هنا ليس في (و).

(٨) ليست في (و).

والمسيح ﷺ جعلته اليهود ولد زنا كذابا ساحرا، وجعلته النصارى هو الله خالق السماوات والأرض، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف^(١) فيه من الحق بإذنه، فشهدوا أنه عبد الله مخلوق خلافا للنصارى، وأنه رسول الله^(٢) وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين خلافا لليهود.

وأما التصديق والتكذيب، فإن اليهود من شأنهم التكذيب بالحق، والنصارى من شأنهم التصديق بالباطل؛ فإن اليهود كذبوا من كذبوه من الأنبياء وقد جاءوا بالحق، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، والنصارى يصدقون بمحالات العقول والشرائع، كما صدقوا بالتثليث والاتحاد ونحوهما من الممتنعات.

(١) (و): «اختلفوا».

(٢) ليس في ط. العاصمة.

فصل

ثم ^(١) قالوا عن القرآن: إنه شهد ^(٢) لهم أنهم أنصار الله، حيث يقول: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ^(٣) مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأْمَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] ^(٤).

فيقال: هذا حق، والحواريون مؤمنون مسلمون، وهم أنصار الله، لكن ليس في هذا أنهم رسل الله، ولا في هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم، ولا في هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط.

بل أمر ^(٥) الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ أن يكونوا أنصار الله، كما طلب المسيح ذلك بقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

وقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبي ^(٦) ﷺ من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار ^(٧) بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، والمهاجرون

(١) ليست في (ي، د، ع).

(٢) (و): «يشهد».

(٣) ساقطة من (و، ي).

(٤) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥). ولم تحسن ط. العاصمة قراءة هذا الموضع.

(٥) (د، ع): «يأمر».

(٦) (ي): «من أصحاب النبي».

(٧) (و): «أنصار الله».

أفضل من الأنصار^(١)، وهم أيضًا من أنصار الله، نصرّوه كما نصرّه الأنصار، لكن لما كان لهم اسمٌ يخصُّهم وهو «المهاجرون» وهو أفضل الاسمين حصَّ الأنصار بهذا الاسم.

والمهاجرون والأنصار أفضل ممَّن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند المسلمين، ومع هذا فليس فيهم عندهم نبيٌّ ولا رسولٌ لله، ولكن فيهم رسولُ الله ﷺ تسليمًا.

(١) انظر: «منهاج السنة» (٧/١٥٢)، و«مجموع الفتاوى» (١١/١٣٢، ١٦/١٩١).

فصل

قالوا: «وَأَمَّا تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا^(١)، فيقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ^(٢) الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال في سورة آل عمران: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ - ٤].

وقال في سورة البقرة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلتَّقِيينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥]، فأعنى بالكتاب الإنجيل، و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ نحن النصارى الذين آمنوا بالمسيح وما رأيناه، ثم أتبع بالقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فأعنى بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتى به وما أتى من قبله.

وقال في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى^(٣) وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧]، وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، فأعنى أيضًا بالكتاب المنير الذي هو الإنجيل المقدس.

(١) (و): «بأيدينا».

(٢) في الأصول: «ثم أنزلنا عليك». وهو خطأ في أصل رسالة بولس، كما سينبه المصنف إلى ذلك، ولم أستجز إثبات لفظ الآية المحرّف.

(٣) سقط من ط. العاصمة من أول الآية إلى هنا.

وقال أيضًا: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

فثبت بهذا ما معنا. ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل^(١) والتغيير لما فيها بتصديقه إياها^(٢).

والجواب - بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى في^(٣) سورة المائدة ﴿وَأَنْزَلْنَا^(٤) إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ - أن يقال:

أما تصديقُ خاتم الرُّسل محمدٍ^(٥) ﷺ لما أنزل الله قبله من الكتب، ولمن جاء قبله من الأنبياء، فهذا معلومٌ بالاضطرار من دينه، متواترًا تواترًا ظاهرًا، كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم.

وهذا من أصول الإيمان، قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١٣٦) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا

(١) رسالة بولس: «بالتبديل». وهو أجود.

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).

(٣) ط. العاصمة: «من»، خلاف الأصول.

(٤) الأصول: «ثم أنزلنا»، سها عن إصلاح هذه، وأصلح كلمة «إليك».

(٥) (و): «محمد رسول الله».

أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٤ - ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ءَ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ءَ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦].

وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكور في مواضع من القرآن، وقد قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣].

فبيّن أنه أنزل هذا القرآن مهيمناً على ما بين يديه من الكتب، والمهيمنُ: الشاهد المؤتمن الحاكم، يشهد^(١) بما فيها من الحق، وينفي^(٢) ما حُرّف فيها، ويحكم بإقرار ما أقرّه الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمنٌ في ذلك عليها.

وأخبر أنه أحسن الحديث، وأحسن القصص، وهذا يتضمّن أنه^(٣) كلٌّ من كان متمسكاً بالتّوراة قبل النسخ من غير تبديل شيءٍ من أحكامها فإنه من أهل الإيمان والهدى، وكذلك من كان متمسكاً بالإنجيل من غير تبديل شيءٍ من أحكامه قبل النسخ فهو من أهل الإيمان والهدى، وليس في ذلك مدحٌ لمن تمسك بشرع مبدّل، فضلاً عمّن تمسك بشرع مبدّل^(٤) منسوخ ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرّسل وما أنزل إليه من الكتب، بل قد بيّن سبحانه كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأوّل وبترك الإيمان بمحمّد ﷺ في غير موضع.

وأما تأويلهم قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أنه الإنجيل، وأنَّ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ عنى بهم النصارى، فهو من تحريف الكلم عن مواضعه وتبديل كلام الله، كما فعلوه في قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] أي بإذن اللاهوت^(٥)، وفي قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وفي غير ذلك ممّا ذكروه وتأوّلوه من القرآن على غير المعنى الذي أراد الله به.

(١) (د، ع): «فشهد».

(٢) ط. النيل: «ويبين»، وفي طرة (د، ع) إشارة إلى أنها في نسخة.

(٣) كذا في الأصول.

(٤) ساقطة من ط. العاصمة.

(٥) (و): «أي باللاهوت».

وهذا ممّا يؤيّد أنهم فعلوا كذلك بالتّوراة والإنجيل؛ فإنه إذا كان القرآن الذي قد عرّف تفسيره والمراد به العامّ والخاصّ، ونُقِلَ ذلك عن الرّسول نقلًا متواترًا حتّى عُرِفَ معناه علمًا يقينيًّا^(١) اضطراريًّا، فيبدّلون معناه، ويحرّفون الكلِمَ عن مواضعه، فماذا يصنعون بالتّوراة والإنجيل ولم يُنقل لفظُ ذلك ومعناه كما نُقل القرآن، وليس في أهل تلك الكتب ممّن^(٢) يذبّ عن لفظها ومعناها كما يذبّ المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه؟!

وهؤلاء غرّهم قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فظنّوا أن لفظ ﴿ذَلِكَ﴾ لمّا كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل!

فيقال لهم: هذا كقوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية، وقوله: ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾^(٤) ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [الطلاق: ٢]، ومثله قوله تعالى بعد أن ذكر خبر يوسف الصّديق: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال أيضًا لمّا ذكر خبر مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤]، كما قال لمّا ذكر آياتٍ يخبر

(١) مهملة في (و)، (ي): «يقينًا».

(٢) ط. النيل: «من». والمثبت من الأصول مستقيم.

(٣) الأصول: «سرحوهن»، وهو سهو، تلك آية البقرة: ٢٣١.

(٤) «وأقيموا الشهادة لله» ليست في الأصول.

فيها عن نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ الآية (١) [هود: ٤٩].

وقال: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿[يوسف: ١ - ٢]، و«تلك» في المؤنث مثل «ذلك» في المذكر، ومع هذا فأشار إلى القرآن بها (٢)، ومنه قوله: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وقوله: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، ومنه قوله: ﴿طَسَمَ﴾ (١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿[القصص: ١ - ٢]، ومنه قوله: ﴿حَمَّ﴾ (١) عَسَقَ (٢) كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[الشورى: ١ - ٣]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ٧]، وقوله: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ الآية [الرعد: ١]، ومثل هذا كثير.

وذلك أنه لما أنزل قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، و﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾، ونحو ذلك، لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة، وإنما كان قد أنزل قبل ذلك، فصار كالغائب الذي يشار إليه كما يشار إلى الغائب.

وهو باعتبار حضوره عند النبي ﷺ يشار إليه كما يشار إلى الحاضر، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، ولهذا قال غير واحد من السلف: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: هذا الكتاب (٣)، يقولون: المراد هذا الكتاب، وإن كانت الإشارة تكون تارة إشارة غائب، وتارة إشارة حاضر.

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) رسمها مشتبه في (د)، وليست في (ي، ع، و).

(٣) ذكر ابن جرير (١/ ٢٢٨) أنه قول «عامّة المفسرين»، ورواه عن مجاهد وعكرمة وابن جريج والسدي.

وقد قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأنهم كافرون ظالمون، فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب؟!

قال تعالى: ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأول التقوى تقوى الشرك، وقد وصف النصارى بالشرك في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۗ إِنَّا لَا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى لما ذكر المسيح: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٧ - ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

ونهى عن موالاتهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقد أخبر أن الله ولي المتقين، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الباقية: ١٨ - ١٩].

فلو كانوا من المتقين - فضلاً عن أن يكونوا هم المتقين - لكان الله وليهم، ولكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين، وهو قد نهى عن موالاتهم، وجعل من يتولاهم ظالمًا، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض.

ولهذا لما قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين الكافرين قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا يرث المسلم الكافر، ولا يرث^(١) الكافر المسلم»^(٢)، واتفق المسلمون على أن اليهودي والنصراني لا يرث مسلمًا ولو كان ابنه وأباه^(٣)؛ لأن الله قطع الموالاة بينهما، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأيضًا، فإنه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وهي الصلاة التي أمر بها في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقد قال ﷺ: «لا يقبل الله صلاةً بغير طهور»^(٤)، والنصارى يصلُّون بغير طهور، وقال ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»^(٥)، وهم لا يقرؤونها.

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٤١٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الاستذكار» (٤٩٢/١٥)، و«الإقناع» لابن القطان (١٠٩/٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

والصَّلاة التي فرضها وأثنى عليها مشتملةٌ على استقبال الكعبة، وعلى ركوع وسجدين في كلِّ ركعة، وغير ذلك ممَّا لا يفعله النَّصارى، فكيف يمدحهم بإقامة الصلاة وهم لا يقيمون الصَّلاة التي أمر^(١) بإقامتها؟!

ثم لو قال اليهوديُّ: المراد بقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ التَّوراة، وبالمتقين اليهود، لكان هذا -مع بطلانه- أقرب من قول القائل: إن المراد بالكتاب الإنجيل؛ لأن التَّوراة أحقُّ بذلك من الإنجيل؛ فإنها الأصل، والله تعالى يقرن بينها وبين القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مَن عِندَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

وقد قالت الجن لما سمعت القرآن: ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال النجاشيُّ لما سمع القرآن: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»^(٢)، وكذلك ورقة بن نوفل قال: «هذا هو الناموس الذي كان ينزل^(٣) على موسى بن عمران»^(٤).

(١) (ع): «أمرنا».

(٢) تقدم تخريجه (١١٨/١) في حديث أم سلمة الطويل.

(٣) (ي): «نزل».

(٤) تقدم تخريجه (١/٣٨، ١٢٨، ٣٨٤).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا^(١) لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أُولَٰمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: التَّوراة والقرآن، و﴿قَالُوا سَحِرَانِ^(٢) تَظَاهَرَا﴾ أي: موسى ومحمد، ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾، قال الله: ﴿قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]، فقد بين أنه لم يأت من عند الله كتابٌ أهدى من التَّوراة والقرآن.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ أي: الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى^(٣) ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ^(٤)﴾ وهذا كِتَابُ أَنزَلَنَّهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩١ - ٩٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فهي صفةٌ ثانيةٌ للذين يؤمنون بالغيب، وصفهم بالإيمان بالغيب^(٤) مجملًا، ثم وصفهم بإيمانٍ مفصّلٍ بما أنزل إليه^(٥) وما أنزل من قبله.

(١) الأصول: «وقالوا».

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، كما سلف (١/٣٨).

(٣) ألحقت الجملة التفسيرية في طرة (د، ي) مختومة بالتصحیح، ووقعت في المتن بعد الآية في (ع)، وخلت منها (و)، ولم تثبتها ط. العاصمة.

(٤) «وصفهم بالإيمان بالغيب» ساقطة من ط. العاصمة.

(٥) ط. العاصمة: «إليك»، وهو خطأ مخالف للأصول.

والعطفُ بالواو يكون لتغاير الدَّوات، ويكون لتغاير الصِّفات^(١)، كقوله

تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝﴾ [الأعلى: ١ - ٥]، والذي خلق فسوَّى هو الذي قدَّر فهدى، وهو الذي أخرج المرعى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ۝ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٩ - ١٢].

ومثله^(٢) قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]، فهم صنفٌ واحدٌ وصفهم^(٣) بهذه الصِّفات بحرف الواو.

وكذلك في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ

(١) تقدم تقرير ذلك (١/٤٨-٤٩).

(٢) (ي): «ومثل».

(٣) (ع): «وصفهم الله».

حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ ﴿المعارج: ١٩ - ٣٥﴾.

وقد قيل: إنَّ قوله ^(١): ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب، كمشركي العرب، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ صفة من آمن به ^(٢) من أهل الكتاب ^(٣).

وعلى هذا القول هؤلاء غير هؤلاء، لكن هذا ضعيف؛ فإنه لا بدَّ في المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أُنْزِلَ إليه وما أُنْزِلَ من قبله، ولا بدَّ في مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب، فكلُّ من الإيمانين واجبٌ على كلِّ واحد، ولا يكون أحدٌ على هدى من ربه مفلحاً إلا بهذا وهذا.

وأما قول النصارى: «نحن الذين آمنّا بالسَّيِّد المسيح وما رأيناه»، فهكذا اليهود آمنوا بموسى عليه السلام وما رأوه، والمسلمون آمنوا بمحمّد عليه السلام وما رأوه، بل المسلمون آمنوا بموسى وعيسى وسائر النبيين وما رأوهم، بخلاف اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

(١) (ع): «وقد فسر قبل إن قوله». (و): «وقد فسر قوله». وكلاهما خطأ. وصُحِّح كما أثبت في طرة (د، ي). وفي ط. العاصمة: «وقد فسر قبل قوله».

(٢) ليست في (ي).

(٣) يروى عن ابن عباس وغيره، واختاره ابن جرير، كما مضى (١/٤٨).

ثم «الغيب» ليس المراد به صورة النبي ﷺ؛ فإن صورة النبي ليست من الغيب، فإن الناس يرونها، وليس في رؤيتها ما يوجب إيماناً ولا كفرًا، ولكن الغيب ما غاب عن مشاهدة الخلق، وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب، فدخل فيه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهو الإيمان بأنهم رسلُ الله، وسواءٌ رُئيت^(١) أبدأهم أو لم تُرَ فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم، وقد يؤمن برسالتهم من لم يرههم. والمقصود الإيمانُ برسالتهم، لا بنفس صورهم حتى يقول القائل: آمناً بنبيٍّ ولم نره، وقد يَعْلَم من دلائل نبوته وأعلام رسالته من لم يره أكثر ممَّا يعلمها من رآه.

(١) (ع): «كانت رُئيت».

فصل

وأما قوله في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ﴾^(١) وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧]، فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل، وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل فيه، كما أثنى على موسى والتَّوراة بأعظم ممَّا عظم به المسيح والإنجيل.

فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قائلون للكذب، مصدِّقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوك، فهم مصدِّقون للكذب، مطيعون لمن^(٢) يخالفك وأنت رسول الله، فكل من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله ﷺ من أعظم الذنوب.

ولفظ «السَّمْع»^(٣) يراد به الإحساس بالصَّوت، ويراد به فهمُ المعنى^(٤)، ويراد به قبوله، فيقال: فلان سَمِعَ ما يقول فلان، أي: يصدِّقه أو يطيعه ويقبل منه^(٥).

(١) «مصدقًا لما بين يديه من التوراة» ليست في الأصول.

(٢) ط. النيل: «لما».

(٣) ط. العاصمة: «السميع»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) في طرة (د، ع) إشارة إلى أن في نسخة: «فهم الصوت».

(٥) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٨/ ٤٣٤ - ٤٣٦)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٢٠٨)، و«قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق» (١٣٣)، و«مفتاح دار السعادة» (٢١٨ - ٢١٩).

فقوله: ﴿سَمِعُوكَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: مصدّقون به، وإلا مجرد سماع صوت الكاذب وفهم كلامه ليس مذموماً على الإطلاق.

وكذلك ﴿سَمِعُوكَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: مستجيبون لهم مطيعون لهم^(١)، كما قال في حقّ المنافقين: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: مستجيبون مطيعون لهم.

ومن قال: إن المراد به الجاسوس، فهو غلطٌ كغلط من قال: ﴿سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ هم الجواسيس^(٢)؛ فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلى من لا يعرفه، ومعلومٌ أن النبي ﷺ كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كلٌّ من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم، ولم يكن يقصد أن يكتُم يهود المدينة ما يقوله ويفعله، خلاف من كان يأتيه من اليهود^(٣) وهم يصدّقون الكذب ويطيعون لليهود الآخرين الذين لم يأتوه^(٤).

والله نهى نبيه ﷺ أن يُخزِنَه المسارعون في الكفر من هاتين^(٥) الطائفتين: المنافقين^(٦) الذين أظهروا الإيمان به ولم تؤمن قلوبهم، ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتبعوا حكمه، بل إن حكم بما يهوّونه قبلوه، وإن حكم بخلاف ذلك لم قبلوه؛ لكونهم مطيعين

(١) ليست في (و، ع).

(٢) انظر: «درء التعارض» (٥ / ٢٦٢)، و«مجموع الفتاوى» (١٤ / ٤٥٢، ٢٨ / ١٩٤).

(٣) في طرة (د) إشارة إلى أن في نسخة: «من يأتهم من اليهود».

(٤) (و، ي): «ويطيعون لليهود الآخرين ويسارعون في الكفر من الذين لم يأتوه». وضرب على «ويسارعون في الكفر من» في (د).

(٥) (و، ي): «أن تحزنه هاتين».

(٦) ط. العاصمة: «المنافقتين»، وهو خطأ مخالف للأصول.

لقوم آخرين لم يأتوه.

قال تعالى: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ^(١)﴾ أي: لم يأتك أولئك القوم الآخرون، ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقول السَّمَّاعُونَ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

والحكمُ يفتقر إلى الصدق والعدل، فلا بدَّ أن يكون الشاهدُ صادقًا والحاكمُ عادلًا، وهؤلاء يصدِّقون الكاذبين من الشُّهود^(٢)، ويبغون^(٣) حكمَ المخالفين للرُّسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، وإذا لم يكن قصدُهم اتِّباعَ الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم، بل إن شئتَ فاحكم بينهم وإن شئتَ فلا تحكم، ولكن إذا حكمتَ فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك؛ إذ هو العدل.

قال تعالى: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ^ط وَإِنْ تَعَرَّضْ عَنْهُمْ^ط فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ^ط يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً

(١) «لم يأتوك» ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (ي، و): «اليهود».

(٣) مهملة في (ي، و). (ع): «يتبعون». وفي ط. النيل والعاصمة: «يتبعون»، وهو تحريف.

يشير المصنف إلى قوله تعالى عن اليهود: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ
 وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ
 قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المائدة: ٤٢ - ٤٥﴾.

فهذا ثناؤه على التَّوراة، وإخباره أن فيها حكم الله، وأنه أنزل التَّوراة وفيها
 ﴿هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾، وقال عقب
 ذكرها: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وهذا أعظم ممَّا ذكره في الإنجيل؛ فإنه قال في الإنجيل: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ
 فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال فيه: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ
 وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وقال في
 التَّوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾، وقال عقب ذكرها:
 ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فهو سبحانه
 مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التَّوراة بأعظم ممَّا يصف به الإنجيل، كما قال
 تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
 لِلَّذِينَ هَادُوا﴾.

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتَّوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود
 الذين كذبوا المسيح ومحمَّدًا صلى الله عليهما وسلَّم تسليمًا^(١)، وليس فيه ثناء

(١) ليست في (و).

على دين اليهود المبدّل المنسوخ باتّفاق المسلمين والنّصارى، فكذلك^(١) أيضًا ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النّصارى الذين كذّبوا محمّدًا ﷺ، وبدّلوا أحكام التّوراة والإنجيل، واتّبَعوا المبدّل المنسوخ.

واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذُكر مدح للنّصارى، والنّصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذُكر مدح لليهود بعد النّسخ والتّبديل، فعُلم اتّفاق أهل الملل كلّها -المسلمين^(٢) واليهود والنّصارى- على أنه ليس فيما ذُكر في القرآن من ذكر التّوراة والإنجيل وموسى وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذّبوا محمّدًا ﷺ، ولا مدح لدينهم المبدّل قبل مبعثه، فليس في ذلك مدح لمن تمسّك بدين مبدّل ولا بدين منسوخ، فكيف بمن تمسّك بدين مبدّل منسوخ؟!

(١) (ي، د): «وكذلك». وأشار في طرة (د) إلى أن «فكذلك» في نسخة.

(٢) (د، و، ي): «المسلمون». والمثبت من (ع) على الجادة.

فصل

وهنا^(١) أصل لا بد من بيانه^(٢)، وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولا تقوم به الحجة عليه.

قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۝١٣﴾ أقرأ كتبك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ۝١٤ ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۝﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ۝٣﴾ [الملك: ٨ - ٩]، وقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ

(١) (د، ع): «وهذا». وفي طرة (ع) إشارة إلى أن «هنا» في نسخة.

(٢) (د، ع): «ثباته».

(٣) أكملت الآية في (د، ع).

ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴿٦٠﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُونَ﴾ [القصص: ٤٧-٤٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴿٦١﴾﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وإذا كان كذلك، فمعلوم أن الحجّة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه؛ لقوله (٣): ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجّة بما بلغه دون ما لم يبلغه.

وإذا اشتبه معنى بعض الآيات، وتنازع الناس في تأويل الآية، وجب ردُّ ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله (٤)، فإذا اجتهد الناس في فهم ما أَرَادَهُ الرَّسُولُ ﷺ فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر.

(١) في الأصول: «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا»، وهو سهو وانتقال ذهن إلى الآية الأخرى في سورة طه: ١٣٤.

(٢) الآية ليست في (د، ع).

(٣) (د، ع): «كقوله».

(٤) (ي، د، ع): «والرسول».

فلا يمتنع^(١) أن يقال ذلك في أهل الكتاب قبلنا، فمن لم يبلغه جميعُ
نصوص الكتاب قبلنا لم تقم عليه الحجّة إلا بما بَلَّغَه، وما^(٢) خفي عليه^(٣)
معناه منه، فاجتهد في معرفته، فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، وخطؤه
محطوطٌ عنه. فأما من تعمّد تحريف الكتاب لفظه أو معناه، وعرف ما جاء به
الرّسول فعاندَه، فهذا مستحقٌّ للعقاب، وكذلك من فرّط في طلب الحقِّ
وأتباعه، متبعًا لهواه، مشتغلًا عن ذلك بدنيّاه.

وعلى هذا، فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرّفوا بعض الكتاب، وفيهم
آخرون لم يعلموا ذلك، وهم^(٤) مجتهدون في اتّباع ما جاء به الرّسول = لم
يجب أن يُجعل هؤلاء من المستوجبين للوعيد.

وإذا^(٥) جاز أن يكون في أهل الكتاب من لم يعرف جميع ما جاء به
المسيح، بل خفي عليه بعض ما جاء به أو بعض معانيه، فاجتهد = لم يعاقب
على ما لم يبلّغه.

وقد تُحمّل أخبار اليهود الذين كانوا مع تُبّع^(٦)، والذين كانوا ينتظرون

(١) (و): «يمنع».

(٢) (د، ع): «لم تقم عليه الحجّة بما بلغه فيما».

(٣) (و، د، ع): «عليهم».

(٤) (و): «فهم». وهو خطأ.

(٥) (د، ع): «فإذا».

(٦) تُبّان أسعد أبو كَرَب، من ملوك حمير باليمن، قدم المدينة يريد قتال أهلها، فجاءه حبران
من أخبار اليهود من بني قريظة فقالا له: لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك
وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة؛ فإنها مهاجر نبيٍّ يخرج من هذا الحرم من قريش
في آخر الزمان، تكون داره وقراره. فتناهى، ورأى أن لهما علمًا، وانصرف عن المدينة،
وصحبهما معه، واتبعهما على دينهما. انظر: «السيرة» لابن هشام (١/ ٢٠، ٢٢).

الإيمان بمحمد ﷺ من أهل المدينة، كابن الهيثبان^(١) وغيره = على هذا، وأنهم لم يكونوا مكذّبين للمسيح تكذيبَ غيرهم من اليهود.

وقد تنازع الناس: هل يمكن مع الاجتهاد واستفراغ الوسع أن لا يبين للنّاظر^(٢) المستدلّ صدقُ الرّسول أم لا؟ وإذا لم يبين^(٣) له ذلك هل يستحقّ العقوبة في الآخرة أم لا يستحقّها^(٤)؟

بل تنازع^(٥) بعض الناس في المقلّد منهم أيضًا.

والكلام في مقامين:

[المقام الأول]^(٦): في بيان^(٧) خطأ المخالف للحقّ وضلاله. وهذا مما يُعلّم بطرق متعدّدة عقلية وسمعية، وقد يُعرف الخطأ في أقوال كثير^(٨) من أهل القبلّة المخالفين للحقّ وغير أهل القبلّة بأنواع متعدّدة من الدلائل.

(١) أبو عمير، رجلٌ صالحٌ من يهود الشام، قدم المدينة قبل الإسلام يلتمس بعثة النبي ﷺ، فلم يدركه، وكان يبشر بظهوره ويحث اليهود على اتباعه. انظر: «السيرة» لابن إسحاق (٨٥)، و«الطبقات» لابن سعد (١/ ١٣٤، ٥/ ٣٩٥)، وسيذكر المصنف خبره فيما يأتي. وتحرف اسمه في (ع): «الهيثاني»، وعلى الصواب في (و، ي). وفي ط. النيل: «الهيثان». وغيره محقق ط. العاصمة إلى «التيّهان»، وترجم لأبي الهيثم ابن التيهان الأنصاري الصحابي رضي الله عنه!

(٢) (د، ع): «للمناظر».

(٣) (و): «يبين». (ي): «يتبين» مهملة.

(٤) ليست في (و).

(٥) (و، ي): «بل وتنازع». وسقطت «بل» من ط. العاصمة.

(٦) من ط. النيل، وليس في الأصول.

(٧) (د، ع): «شأن».

(٨) (و، د، ع): «كثيرة».

والمقام الثاني: الكلام في كفرهم واستحقاقهم الوعيد في الآخرة. فهذا فيه ثلاثة أقوال للناس، بل كلُّ^(١) من أصحاب الأئمة المشهورين مالك والشافعي وأحمد لهم الأقوال الثلاثة^(٢):

قيل: إنه يعذب في النار من لم يؤمن، وإن لم يُرسل إليه رسول؛ لقيام الحجة عليه بالعقل. وهذا قول كثير ممن يقول بالحكم العقلي من أهل الكلام والفقهاء من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم، وهو اختيار أبي الخطاب^(٣).

وقيل: لا حجة عليه بالعقل، بل يجوز^(٤) أن يعذب من لم تقم عليه حجة لا بالشرع ولا بالعقل. وهذا قول من يجوز تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم، وهذا قول كثير من أهل الكلام، كالجهنم، وكأبي الحسن الأشعري وأصحابه، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وغيرهم^(٥).

والقول الثالث، وعليه السلف والأئمة: إنه لا يعذب إلا من بلغته الرسالة، ولا يعذب إلا من خالف الرسل، كما دلَّ على ذلك^(٦) الكتاب والسنة، قال تعالى لإبليس^(٧): ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

-
- (١) «بل كل» لحق في (ي) مع التصحيح، وليس في (و، ع).
(٢) وهو من فروع الخلاف في مسألة الحسن والقبح العقليين. انظر: «التحسين والتقبيح» للشهراني (٢/ ٢٢٤ - ٢٢٧)، وما سيأتي (١/ ٤٧١ - ٤٧٤).
(٣) انظر: «التمهيد» لأبي الخطاب الكلوزاني (٤/ ٢٩٤ - ٣٠٦).
(٤) (د، ع): «لا يجوز». وهو خطأ مبطل للمراد، وأثبتته ط. العاصمة.
(٥) انظر: «الواضح» لابن عقيل (١/ ٤٩٥)، و«درء التعارض» (٨/ ٤٩٣)، و«النبوات» (٤٦٨ - ٤٧٠).
(٦) (ع، ي، د): «دل عليه».
(٧) ليست في (ع، د).

وإذا كان كذلك، فنحن فيما نناظر^(١) فيه أهل الكتاب متقدميهم ومتأخريهم :

* تارة نتكلم في المقام الأول، وهو بيان مخالفتهم للحق وجهلهم وضلالهم، فهذا تنبيه لجميع الأدلة الشرعية والعقلية.

* وتارة نبين^(٢) كفرهم الذي يستحقون به العذاب في الدنيا والآخرة، فهذا أمره إلى الله ورسوله، لا يتكلم فيه إلا بما أخبر به الرسل^(٣)، كما أننا أيضا لا نشهد بالإيمان والجنة إلا لمن شهدت له الرسل، ومن لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة - كالأطفال والمجانين وأهل الفترات - فهو لاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار: أنهم يمتحنون يوم القيامة، فيبعث الله إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العقاب^(٤).

(١) (د، ع): «فهو كما نناظر».

(٢) (و، د، ع): «ونبين»، بلا «تارة».

(٣) (و): «أخبر به الرسول».

(٤) روي في ذلك حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه عن النبي ﷺ عند أحمد (١٦٣٠١)، والبخاري (٩٥٩٧)، وصححه ابن حبان (٧٣٥٧).

وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس ومعاذ بن جبل وثوبان رضي الله عنهم. قال المصنف في «درء التعارض» (٤٣٧ / ٨): «روي به آثار متعددة عن النبي ﷺ حسان يصدق بعضها بعضا». وانظر: «الصفدية» (٢ / ٢٤٥).

وذهب بعض أهل العلم إلى تضعيف تلك الآثار وما دلت عليه، قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٤٠٣ / ٨): «وهي كلها أسانيد ليست بالقوية، ولا تقوم بها حجة...، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء...». وأجاب عنه ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (١١٤٩ - ١١٥٨) جوابا جيدا من جهتي الثبوت والدلالة.

وانظر: «درء التعارض» (٨ / ٤٠٠)، و«جامع المسائل» (٣ / ٢٣٤، ٢٣٨)، و«مجموع الفتاوى» (٤ / ٢٤٦، ٢٧٧، ٣٠٣، ٣٧٢).

وإذا كان كذلك، فنحن نشهد لمن كان مؤمناً بموسى متبّعاً له أنه^(١) مؤمنٌ مسلمٌ مستحقٌّ للثواب، وكذلك من^(٢) كان مؤمناً بالمسيح متبّعاً له.

ونشهد لمن قامت عليه الحجة بموسى فلم يتبعه - كآل فرعون - أنهم من أهل النار، وكذلك من قامت عليه الحجة بالمسيح الذين قال الله فيهم: ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، والذين قال فيهم: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُلُوبُكُ وَرَافِعُكَ إِنِّي وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِّن تَنْصِرِينَ ۝٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿[آل عمران: ٥٥ - ٥٧].

وَأَمَّا مَنْ بَعْدَ عَهْدِهِ بِالْمَسِيحِ وَبَلَغَتْهُ بَعْضُ أَخْبَارِهِ دُونَ بَعْضٍ، أَوْ بِمُوسَى وَبَلَغَتْهُ ^(٣) بَعْضُ ^(٤) أَخْبَارِهِ دُونَ بَعْضٍ، فَهَؤُلَاءِ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِمَا بَلَغَهُمْ مِنْ أَخْبَارِهِمْ دُونَ مَا لَمْ يَبْلُغَهُمْ مِنْ أَخْبَارِهِ.

وإذا اختلفوا في تأويل بعض التّوراة والإنجيل، فمن قَصَدَ الحَقَّ واجتهد في طلبه لم يَجِبَ أن يعذَّبَ وإن كان مخطئًا للحقِّ جاهلاً به ضالًّا عنه، كالمجتهد في طلب الحقِّ من أمة محمدٍ ﷺ.

(۱) لیست فی (د، ع).

(٢) (د، ع): «المن».

(۳) (و، ی): «وبلغه».

(٤) ساقطة من ط. العاصمة.

وعلى هذا، فإذا قيل: إن الحواريين أو بعضهم، أو كثيرًا من أهل الكتاب أو أكثرهم، كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صُلب، كانوا مخطئين في ذلك، ولم يكن هذا الخطأ مِمَّا يقدح في إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جاء به، ولا يوجبُ لهم النَّارَ^(١)؛ فإن الأناجيل التي بأيدي أهل الكتاب فيها ذِكرُ صَليبِ المسيح، وعندهم أنها مأخوذة عن الأربعة: مرقس، ولوقا، ويوحنا، ومتى، ولم يكن في الأربعة من شهد صلب المسيح، ولا من الحواريين، بل ولا في أتباعه من شهد صلبه^(٢)، وإنما الذين شهدوا الصَّلب طائفة من اليهود.

فمن النَّاس من يقول: إنهم علموا أن المصلوب غيره، وتعمَّدوا الكذب في أنهم صلبوه، وشبَّه صلبه على من أخبروهم. وهذا قول طائفة من أهل الكلام المعتزلة وغيرهم، وهو قول ابن حزم وغيره^(٣).

ومنهم من يقول: بل اشتبه على الذين صلبوه. وهذا قول أكثر النَّاس^(٤).

والأولون يقولون: إن قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] أي: شُبِّه للنَّاس الذين أخبرهم أولئك بصلبه، والجمهور يقولون: بل شُبِّه للذين صلبوه^(٥)، كما قد ذُكرت القصة في غير هذا الموضع^(٦).

والمقصود هنا أن النَّاس في هذا المقام على طرفين ووسط:

أمَّا الطرف الواحد، فهم الغلاة من النَّصارى الذين يدَّعون أن الحواريين

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/١٠٨ - ١٠٩).

(٢) (د، ع): «الصَّلب».

(٣) انظر: «الفصل» لابن حزم (١/٥٦).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٧/٦٥٠ - ٦٦٠)، وما سيأتي (٢/٧٥).

(٥) (د، ع): «للذين يقولون صلبوه».

(٦) انظر: «تثبيت دلائل النبوة» (١/١٢١)، و«المحرر الوجيز» (٤/٢٨٤).

كانوا معصومين فيما يقولونه ويروونه ويَرَوْنَهُ، وكذلك يقولون بتصويب علماء النَّصَارَى فيما تقوله^(١) من تأويل الإنجيل.

والطرف الآخر يقول: بل كلُّ من غلط وأخطأ في شيءٍ من ذلك فإنه مستحقٌّ للوعيد^(٢)، بل كافر.

والثالث الوسط: أنهم لا يُعَصِّمون ولا يُؤَثِّمون، بل قد يكونون مخطئين خطأ مغفوراً لهم إذا كانوا مجتهدين في معرفة الحقِّ وأتباعه بحسب وسعهم وطاقتهم. وعلى هذا تدلُّ^(٣) الأدلة الصَّحيحة. وكُتِبَ اللهُ تدلُّ على ذمِّ الضَّالِّ والجاحد^(٤) ومقتته، مع أنه لا يعاقب إلا بعد إنذاره.

وقد ثبت في الصَّحيح^(٥) عن عياض بن حِمَار عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «إِنْ اللهُ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، فأخبر أنه مَقَّتَهُمْ إِلَّا هَؤُلَاءِ الْبَقَايَا، وَالْمَقْتُ هُوَ الْبَغْضُ، بَلْ أَشَدُّ الْبَغْضِ.

ومع هذا، فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [القصص: ٤٧]

(١) (د، ع): «يقولونه».

(٢) (د، ع): «يستحق الوعيد».

(٣) (د، ع): «تصح».

(٤) ليست في (ي).

(٥) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَنَخْزِيَ﴾ [طه: ١٣٤]^(١)، فدلَّ ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم، ولكنَّ شرط العذاب هو بلوغ^(٢) الرسالة، ولهذا قال: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي الصحيحين^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحدُّ أحبَّ إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أرسل الرُّسل وأنزل الكتب»، وفي رواية: «من أجل ذلك بعث الرُّسل مبشرين ومنذرين، وما أحدُّ أحبَّ إليه المدح من الله؛ من أجل ذلك مدح نفسه، وما أحدُّ أغبر من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»^(٤).

وقد تنازع النَّاسُ في حُسْنِ الأفعال وقُبْحِها، كحُسْنِ العدل والتَّوحيد والصِّدق، وقُبْحِ الظُّلم والشُّرك والكذب، هل يُعَلَّمُ بالعقل أم لا يُعَلَّمُ إلا بالسَّمع؟ وإذا قيل: إنه يُعَلَّمُ بالعقل، فهل يعاقب من فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول؟ على ثلاثة أقوالٍ معروفةٍ في أصحاب الأئمة الأربعة^(٥) وغيرهم، وهي ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم^(٦).

(١) وقع في الأصول هاهنا اضطراب في سياق الآيتين، ولم ترد الثانية في (و، ي)، وسيأتي سياقهما على الوجه.

(٢) (د، ع): «بعد بلوغ».

(٣) صحيح مسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) صحيح البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ساقطة من ط. العاصمة.

(٦) انظر: «النبوات» (٤٥٢ - ٤٦٠)، و«الرد على المنطقيين» (٤٢٠ - ٤٢٢)، و«التسعينية»

(٩٠٧ - ٩٠٨)، و«بيان تلبس الجهمية» (٤٨ / ٢)، و«درء التعارض» (٨ / ٤٩٢ - ٤٩٣،

٩ / ٤٩ - ٥٠)، و«شرح الأصبهانية» (٧٠٣ - ٧٠٥)، و«منهاج السنة» (٣ / ٢٨، ٥ / ١٢٧)،

و«مجموع الفتاوى» (٨ / ٩٠، ٤٢٨ - ٤٣٦)، و«جامع المسائل» (٧ / ٣٧٧ - ٣٩٠).

فقال طائفة: لا يُعَرَفُ ذلك إلا بالشرع، لا بالعقل. وهذا قول نظار
المُجْبِرَة، كالجهم بن صفوان وأمثاله، وهو قول أبي الحسن الأشعري وأتباعه
من أصحاب الأئمة الأربعة، كالقاضي أبي بكر بن الطيّب، وأبي عبد الله بن
حامد، والقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي، وأبي الوفاء ابن عقيل، وغيرهم.

وقيل: بل قد يُعَلَمُ حُسْنُ الأفعال^(١) وقُبْحُهَا بالعقل. قال أبو الخطاب
محفوظ بن أحمد: «وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين»^(٢). وهذا هو المنقول
عن أبي حنيفة نفسه، وعليه عامة أصحابه، وكثير من أصحاب مالك والشافعي
وأحمد وأهل الحديث، كأبي الحسن التميمي، وأبي الخطاب، وأبي بكر
القفال، وأبي نصر السجزي، وأبي القاسم سعد بن علي الزنجاني، وهو قول
الكرامية وغيرهم من نظار المثبتة للقدر، وهو قول المعتزلة وغيرهم من نظار
القدرية.

ثم هؤلاء على قولين:

منهم من يقول: يستحقون عذاب الآخرة بمجرد مخالفتهم للعقل، كقول
المعتزلة والحنفية وأبي الخطاب. وقول هؤلاء مخالف للكتاب والسنة.

ومنهم من يقول: بل^(٣) لا يعذبون حتى يُبْعَثَ إليهم رسول، كما دلّ عليه
الكتاب والسنة، لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة، يذمّها الله ويبغضها،
ويوصفون بالكفر الذي يذمّه الله ويبغضه، وإن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم

(١) (د، ع): «الأقوال».

(٢) في «التمهيد» (٢٩٥ / ٤): «والى هذا ذهب عامة أهل العلم من الفقهاء والمتكلمين،
وعامة الفلاسفة».

(٣) ليست في (د، ع).

رسولاً، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح^(١) كما تقدّم: «إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وإن ربي قال لي: قم في قريش فأنذرهم، قلت: إذا يئسوا رأسي حتى يدعوه خُبْزَةً. قال: إني مبتليكَ ومُبتَلٍ بك، ومُنْزِلٌ عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظاناً، فابعثُ جنداً أبعثُ مثليهم، وقَاتِلْ بمن أطاعك من عصاك، وأنفقْ أنفقْ عليك. وقال: إني خلقتُ عبادي حنفاء، فاجتالهم الشياطين، وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً».

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «كُلُّ مولودٍ يولد على الفطرة» - وفي رواية: «على هذه الملة» - «فأبواه يهودانه وينصرّانه ويمجّسانه، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تُحسّون فيها من جدعاء؟»، ثم يقول أبو هريرة (رضي الله عنه): اقرءوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرّوم: ٣٠]. قيل: يا رسول الله، أرايت من يموت من أطفال المشركين^(٢) وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٣).

ومع مقتِ الله لهم، فقد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً، وهذا يدل على إبطال قول من قال: إنهم لم يكونوا مسيئين ولا مرتكبين لقبيح حتى جاء السّمع، وقول من قال: إنهم كانوا معذبين بدون السّمع، إمّا لقيام الحجّة بالعقل كما يقوله من يقوله من القدريّة، وإمّا لمحض المشيئة كما يقوله المُجبرّة.

(١) حديث عياض بن حمار (رضي الله عنه) المتقدم (١/٣٠٦، ٤٧٠)، وقد أخرجه مسلم (٢٨٦٥) باختلافٍ في سياقه وبعض ألفاظه.

(٢) «من أطفال المشركين» ليست في (و، د، ع).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
 ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال
 تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
 إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وقال تعالى:
 ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
 ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، فهذا يبيّن أنه لم يكن ليعذب
 الكفار حتى يبعث إليهم رسولاً، ويبيّن أنهم كانوا قبل الرّسول^(١) قد اكتسبوا
 الأعمال التي توجب المقت والذّم، وهي سبب للعذاب^(٢)، لكن شرط العذاب
 قيام الحجّة عليهم بالرسالة.

(١) (و، ي): «قبل الرّسول كانوا».

(٢) (و): «سبب العذاب».

فصل

ومما ينبغي أن يُعْلَم أن سبب ضلال النَّصارى وأمثالهم من الغالية، كغالية العباد والشيعة وغيرهم، ثلاثة أشياء:

أحدها: ألفاظٌ متشابهةٌ مجملةٌ مشككةٌ منقولةٌ عن الأنبياء، عدلوا^(١) عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها، وهم كلما سمعوا لفظاً لهم فيه شبهةً تمسكوا به وحملوه على مذهبهم، وإن لم يكن دليلاً على ذلك. والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها، وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال، يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية، ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين.

والثاني: خوارق ظنوها آيات^(٢)، وهي من أحوال الشياطين، وهذا مما ضلَّ به كثيرٌ من الضلال المشركين وغيرهم، مثل دخول الشياطين في الأصنام وتكليمهم^(٣) للناس، ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة، ولا بدَّ لهم مع ذلك من كذب، ومثل تصرفات تقع من الشياطين.

والثالث: أخبارٌ منقولةٌ إليهم ظنوها صدقاً، وهي كذب، وإلا فليس مع النَّصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقولٌ صريح، ولا منقولٌ صحيح، ولا آيةٌ من آيات الأنبياء.

بل^(٤) إن تكلموا بمعقولٍ تكلموا بألفاظٍ متشابهةٍ مجملة، فإذا استفسروا عن معاني تلك الكلمات، وفرَّق بين حقها وباطلها، تبين ما فيها من التلبس

(١) (د، و، ع): «وعدلوا».

(٢) (د، ع): «الآيات». ط. النيل: «من الآيات».

(٣) (و، ي): «وتكليمها».

(٤) ليست في (د، ع).

والاشتباه. وإن تكلموا بمنقول، فإمّا أن يكون صحيحًا لكن^(١) لا يدلّ على باطلهم، وإمّا أن يكون غير صحيح^(٢) ثابت، بل مكذوب.

وكذلك ما يذكرونه^(٣) من خوارق العادات، إمّا أن يكون صحيحًا قد ظهر على يد نبويّ، كمعجزات المسيح ومَن قبله كإلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء، وكمعجزات موسى ﷺ، فهذه حق.

وإمّا أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصّالحين، كالحواريّين، وذلك^(٤) لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء؛ فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه، لا يُتصوّر أن يقولوا على الله إلا الحق، ولا يستقرّ في كلامهم باطل لا عمدًا ولا خطأ.

وأما الصّالحون، فقد يغلط أحدهم ويخطئ، مع ظهور الخوارق على يديه، وذلك لا يخرجّه عن كونه رجلًا صالحًا، ولا يوجب أن يكون معصومًا إذا كان هو لم يدّع العصمة، ولم يأت بالآيات دلالة^(٥) على ذلك. ولو ادّعى العصمة وليس بنبيّ لكان^(٦) كاذبًا لا بدّ أن يظهر كذبُه، فتقترن^(٧) به الشّياطين فتضلّه، ويدخل في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿الشعراء: ٢٢١﴾.

-
- (١) ليست في (د، ع).
(٢) ليست في (د، ي، ع).
(٣) (د، ع): «يظهرونه».
(٤) (د، ع): «ذلك».
(٥) (د، ي، ع): «دالة».
(٦) (ي): «إذ كان».
(٧) (و، ي): «وتقترن».

والنصارى عندهم منقول في الأناجيل^(١) أن الذي صُلب ودُفن في القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دُفن قام من قبره، رآوه^(٢) مرّتين أو ثلاثاً، وأراهم موضع المسامير، وقال: لا تظنّوا أني شيطان. وهذا إذا كان صحيحاً فذاك شيطان ادّعى أنه المسيح، والتبس^(٣) على أولئك^(٤).

ومثل هذا قد جرى لخلق كثير^(٥) في زماننا وقبل زماننا، كناسٍ كانوا بتدُمّر، فرأوا شخصاً عظيماً طائرًا في الهواء، وظهر لهم مرّاتٍ بأنواعٍ من اللباس، وقال لهم: أنا المسيح ابن مريم، وأمرهم بأموالٍ يمتنع أن يأمر بها المسيح ﷺ، وحضروا إلى عند الناس ويبنوا لهم أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلّهم^(٦).

وآخرون يأتي أحدهم إلى قبر من يعظّمه ويحسنُ به الظنَّ من الصّالحين وغيرهم، فتارةً يرى القبر قد انشقَّ وخرج منه إنسانٌ على صورة ذلك الرّجل،

(١) إنجيل يوحنا (٢٠: ١٤ - ٢٩)، إنجيل متى (٢٨: ٩ - ٢٠)، إنجيل مرقس (١٦: ٩ - ١٤)، إنجيل لوقا (٢٤: ١٥ - ٥١).

(٢) ليست في (د، ع).

(٣) مهملة في (ي). (ع، د): «وألبس».

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٩٤، ١٠٧، ٢٧/ ٣٩٠).

(٥) (و، ي): «عظيم».

(٦) ذكر المصنف هنا وفي مواضع من كتبه كثيرًا من صور تمثّل الشيطان بالإنس لإضلال الناس وإغوائهم. انظر: «النبوات» (١٠٥٣ - ١٠٥٩، ١٠٩٦)، و«الرد على البكري» (١٤٦، ٤٨٠، ٥١١، ٥٦٣، ٥٩١، ٦٧٨)، و«الإخائية» (١٩٠)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٦٨)، و«منهاج السنة» (١/ ٤٨٣)، و«الصفدية» (٢/ ٢٩٢)، و«بغية المرتاد» (٣٧٢)، و«الرد على المنطقيين» (١٨٤، ١٨٥)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٨٢، ١٦٨ - ١٧٨، ٣٥٠، ٣٦٠، ٤٠٦/ ١٠، ٣٠٩/ ١١، ٦٦٤، ٧١/ ١٣، ٧٩، ٨٤، ٩١ - ٩٤، ٢٨٣/ ١٤ - ٢٨٤، ٤٥٦/ ١٧، ٤٥٦/ ٢٧، ١٨/ ٣٩١، ٣٥/ ١١٥)، و«جامع الرسائل» (١/ ١٩٥ - ١٩٦)، و«جامع المسائل» (١/ ٩١، ٢١٦).

وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل في القبر، وتارة يراه إمّا راكبًا وإمّا ماشيًا داخلًا إلى مكان ذلك الميت كالقبة المبنية على القبر، وتارة يراه خارجًا من ذلك المكان ويظنُّ أن ذلك هو ذلك الرجل الصّالح، وقد يظنُّ أن قومًا استغاثوا به فذهب إليهم، ويكون ذلك شيطانًا تصوّر بصورته^(١)، وهذا جرى لغير واحد ممّن أعرّفهم.

وتارة يستغيث أقوامٌ بشخصٍ يحسنون به الظنَّ إمّا ميتٍ وإمّا غائب، فيرونه بعيونهم قد جاء، وقد يكلمهم، وقد يقضي بعض حاجاتهم، فيظنّونه ذلك الشخص الميت، وإنما هو شيطانٌ زعم أنه هو وليس هو إيّاه، وكثيرًا ما يأتي الشخصُ بعد الموت في صورة الميت، فيحدّثهم ويقضي ديونًا ويردُّ ودائع ويخبرهم عن الموتى، ويظنّون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم، وإنما هو شيطانٌ تصوّر بصورته.

وهذا كثيرٌ جدًّا، لا سيّما في بلاد الشّرك، كبلاد الهند ونحوها.

ومن هؤلاء من يراه ابنه^(٢) تحت سريره آخذًا بيد ابنه في الجنازة^(٣)، ومنهم من يقول: إذا متُّ فلا تدعوا أحدًا يغسّلني، فأنا آتي من هذه الناحية أغسّل نفسي، فيأتي بعد الموت شخصٌ في الهواء على صورته يغسّله هو والذي أوصاه، ويظنُّ ذاك أنه جاء، وإنما هو شيطانٌ تصوّر بصورته^(٤).

وتارة يرى أحدهم شخصًا، إمّا طائرًا في الهواء، وإمّا عظيم الخلق، وإمّا أن يخبره بأشياء غائبة، ونحو ذلك، ويقول له: أنا الخضر، ويكون ذلك شيطانًا

(١) (ي، د): «صورة».

(٢) مهملة في (ي)، (د، ع): «تراه انت»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/١٧٨، ١٣/٧٩).

(٤) من قوله: «ومن هؤلاء من تراه» إلى هنا ليس في (و).

كذب على ذلك الشخص، وقد يكون الرائي من أهل الدين والزهد والعبادة، وقد جرى هذا لغير واحد.

وتارة يرى عند قبر نبيٍّ أو غيره أن الميت قد خرج إمّا من حجرته وإمّا من^(١) قبره، وعانق ذلك الزائر وسلّم عليه، ويكون شيطاناً تصوّر بصورته.

وتارة يجيء من يجيء إلى عند قبر ذلك الشخص، فيستأذنه في أشياء، ويسأله عن أمور، فيخاطبه شخصٌ يراه، أو يسمع صوتاً ولا يرى^(٢) شخصاً، ويكون ذلك شيطاناً أضلّه.

وقد يرى أشخاصاً في اليقظة، إمّا ركبناً وإمّا غير ركبّان، ويقولون: هذا فلان النبي، إمّا إبراهيم وإمّا المسيح وإمّا محمّد، وهذا فلان الصديق، إمّا أبو بكر وإمّا عمر وإمّا بعض الحواريين، وهذا فلان لبعض من يُعتقّد فيه الصّلاح، إمّا جرجس^(٣) أو غيره^(٤) ممّن تعظّمه النصارى، وإمّا بعض شيوخ المسلمين^(٥)، ويكون ذلك شيطاناً ادّعى أنه ذلك النبي أو ذلك الشيخ أو الصديق أو القديس.

ومثل هذا يجري كثيراً لكثير من المشركين والنصارى، وكثير من

(١) (ع): «أو من».

(٢) (د، ع): «أو يرى»، وهو خطأ.

(٣) مار جرجس، قديسٌ صالح، ولد في الرملة في النصف الآخر من القرن الثالث بعد مولد عيسى عليه السلام، وقيل: أدرك بقايا من حواريه. عذبه بعض القياصرة وقتله بفلسطين، والنصارى تعظّمه وتنسب له كثيراً من الخوارق. انظر: «نظم الجوهر» (١/١١٦)، وتاريخ ابن جرير (٢/٢٤ - ٣٦)، و«تثبيت دلائل النبوة» (١/١٤٣)، و«التحرير والتنوير» (١٥/٣٦٣)، و«النصرانية وآدابها» (١٢٦، ١٥٢).

(٤) (د، ع): «وإما غيره».

(٥) (و): «المتكلمين».

المسلمين، ويرى أحدهم شيخاً يحسنُ به الظنَّ، ويقول: أنا الشيخ فلان، ويكون شيطاناً.

وأعرف من هذا شيئاً كثيراً، وأعرف غير واحدٍ ممَّن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين والموتى، يراه قد أتاه في اليقظة وأعانه.

وقد جرى مثل هذا لي ولغيري ممَّن أعرفه، ذكر غير واحدٍ أنه استغاث بي من بلادٍ بعيدة، وأنه رآني قد جئته، ومنهم من قال: رأيتك راكباً بشابك^(١) وصورتك، ومنهم من قال: رأيتك على جبل، ومنهم من قال غير ذلك، فأخبرتهم أني لم أَعْثُهم، وإنما ذلك شيطانٌ تصوّر بصورتي؛ ليضلَّهم لما أشركوا بالله ودعوا غير الله^(٢).

وكذلك غير واحدٍ ممَّن أعرفه من أصحابنا، استغاث به بعضٌ من يحسنُ به الظنَّ، فرآه قد جاءه وقضى حاجته، قال صاحبي: وأنا لا أعلم بذلك.

ومن هؤلاء الشيوخ^(٣) من يقول^(٤): إنه يسمع صوت ذلك الشخص المستغيث به، ويجيبه، وتكون الشياطين أسمعته صوتاً يشبه صوت^(٥) المستغيث به، فأجابه الشيخُ بصوته، فأسمعت المستغيث صوتاً يشبه صوت

(١) (و): «لباسك».

(٢) قال شيخ الإسلام: «فذكرت لهم أني ما دريتُ بما جرى أصلاً وحلفتُ لهم على ذلك حتى لا يظنوا أني كتمتُ ذلك كما تُكتم الكرامات». وهذا من دلائل صدقه وتجرُّده، ورغبته عن طلب الرياسة والعلو في الأرض، رحمه الله ورفع درجته. انظر: «قاعدة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق» (١٥٤)، و«مجموع الفتاوى» (١/٣٥٠، ٣٦٠، ٩٢/١٣، ٤٥٨/١٧، ٤٧/١٩، ٣٥/١١٥)، و«جامع الرسائل» (١/١٩٥).

(٣) (ي): «من الشيوخ». وضرب على «من» في (و).

(٤) (ي، و): «يقال».

(٥) ط. العاصمة: «صوت الشيخ»، وهو خطأ مخالف للأصول.

الشيخ، فيظنُّ أنه صوتُ ^(١) الشيخ.

وهذا جرى لمن أعرفه، وأخبر ^(٢) بذلك عن نفسه، وقال: بقي الجنِّي الذي يحدثني يبلِّغني مثل صوت المستغيثين بي، ويبلِّغهم مثل ^(٣) صوتي، ويريني في شيء أبيض نظير ما أسأل عنه، فأخبر به النَّاسَ أني رأيته، وأنه سيأتي، ولا أكون قد رأيته، وإنما رأيت شبيهه ^(٤).

وهكذا تفعلُ الجنُّ بمن يُعزِّم عليهم ^(٥) ويُقسِّم عليهم.

وكذلك ما رآه قسطنطين من الصَّليب الذي رآه من نجوم ^(٦)، والصَّليب الذي رآه مرَّةً أخرى، هو ممَّا مثَّله الشَّياطين، وأرتهم ذلك؛ لتُضِلَّهُم به ^(٧)، كما فعلت الشَّياطينُ ما هو أعظم من ذلك لعباد ^(٨) الأوثان.

وكذلك من ذَكَر أن المسيح جاءه في اليقظة وخاطبه بأمور، كما يُذكر عن بولس؛ فإنه إذا كان صادقاً كان ذلك الذي رآه في اليقظة ^(٩) وقال: إنه المسيح شيطاناً من الشَّياطين، كما جرى مثل ذلك لغير واحد.

(١) من قوله: «المستغيث» إلى هنا سقط من (و) لانتقال النظر.

(٢) (د، ع): «فأخبر».

(٣) (و): «من».

(٤) مهملة في (ي)، (ع، د): «شبهه».

(٥) المعزِّم: الراقي بالعزائم، وهي الرقَى التي يُعزِّم بها على الجن، كأنه يُقسِّم بها عليهم. انظر:

«المطلع» (٤٦٢)، و«تاج العروس» و«المعجم الوسيط» (عزم)، و«مجموع الفتاوى»

(١٩/٤٥)، و«تحريم أقسام المعزِّمين» للمصنف.

(٦) سيأتي ذكر قصته نقلاً عن تاريخ ابن البطريق (٣/١٣٦، ٢٩١، ٢٩٢).

(٧) (د، ع): «مثله الشَّياطين وأراهم ذلك ليضلَّهم به»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٨) (و): «بعباد».

(٩) من قوله: «وخاطبه» إلى هنا ليس في (ع، د).

والشَّيْطَانُ إِنَّمَا يَضِلُّ النَّاسَ وَيَغْوِيهِمْ بِمَا يَظُنُّ^(١) أَنَّهُمْ يَطِيعُونَهُ فِيهِ،
فِيخَاطِبُ النَّصَارَى بِمَا يُوَافِقُ دِينَهُمْ، وَيَخَاطِبُ مَنْ يَخَاطِبُ مِنْ ضُلَّالِ
الْمُسْلِمِينَ بِمَا يُوَافِقُ اعْتِقَادَهُ، وَيَنْقُلُهُ إِلَى مَا يَسْتَجِيبُ لَهُ^(٢) فِيهِ بِحَسَبِ
اعْتِقَادِهِمْ.

ولهذا يَتِمَثَّلُ لِمَنْ يَسْتَغِيثُ مِنَ النَّصَارَى بِجُرْجِسٍ^(٣) فِي صُورَةِ جُرْجِسٍ أَوْ
بصُورَةٍ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ النَّصَارَى^(٤) مِنْ أَكَابِرِ دِينِهِمْ، إِمَّا بَعْضَ الْبَتَارِكَةِ، وَإِمَّا
بَعْضَ الْمَطَارَنَةِ، وَإِمَّا بَعْضَ الرُّهْبَانِ.

وَيَتِمَثَّلُ لِمَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ مِنْ ضُلَّالِ الْمُسْلِمِينَ بِشَيْخٍ مِنَ الشُّيُوخِ فِي صُورَةِ
ذَلِكَ الشَّيْخِ، كَمَا تَمَثَّلُ لَجَمَاعَةٍ مِمَّنْ أَعْرَفَهُمْ^(٥) فِي صُورَتِي وَفِي صُورَةِ جَمَاعَةٍ
مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ ذَكَرُوا لِي^(٦) ذَلِكَ، وَيَتِمَثَّلُ كَثِيرًا فِي صُورَةِ بَعْضِ الْمَوْتَى، تَارَةً
يَقُولُ: أَنَا الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ^(٧)، وَتَارَةً يَقُولُ: أَنَا الشَّيْخُ أَبُو الْحَجَّاجِ
الْأَقْصَرِيُّ^(٨)، وَتَارَةً يَقُولُ: أَنَا الشَّيْخُ عَدِيّ^(٩)، وَتَارَةً يَقُولُ: أَنَا أَحْمَدُ ابْنُ

(١) (و): «والشياطين إنما تضل الناس وتغويهم بما تظن».

(٢) (و، ي): «لهم».

(٣) تقدمت ترجمته قريبًا. وذكر المصنف فتنة النصاري به في مواضع. انظر: «الإخائية»
(١٩٨)، و«مجموع الفتاوى» (١١/٣٠٩، ١٧/٤٥٥، ٤٥٦، ١٩/٤٧).

(٤) (د، ع): «من النصاري».

(٥) (ع، ي، د): «أعرفه».

(٦) (د، و، ع): «في». وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٧) الجيلي الحنبلي الإمام العارف. توفي سنة ٥٦١. «السير» (٢٠/٤٣٩).

(٨) يوسف بن عبد الرحيم، شيخ زاهد صوفي له أتباع ومريدون. توفي سنة ٦٤٤. «تاريخ
الإسلام» (١٤/٥٠٩)، و«الطالع السعيد» (٧٢٢).

(٩) عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى الشامي، الشيخ الصالح، زاهد وقته. توفي سنة
٥٥٧. «السير» (٢٠/٣٤٢). ولشيخ الإسلام رسالة جليلة إلى أتباعه، في «مجموع
الفتاوى» (٣/٣٦٦ - ٤٣٠)، أثنى عليه فيها ثناء حسنًا (٣/٣٧٧).

الرِّفَاعِي^(١)، وتارةً يقول: أنا أبو مَدَيْنَ المغربي^(٢).

وإذا كان يقول: أنا المسيح، أو إبراهيم، أو محمد، فغيرهم بطريق الأولى.

والنبي ﷺ قال: «من رآني في المنام فقد رآني حقًّا؛ فإن الشَّيْطَان لا يتمثِّل في صورتي»^(٣)، وفي رواية: «في صور»^(٤) «الأنبياء»^(٥)، فرؤيا الأنبياء في المنام حقٌّ، وأمَّا رؤية الميت في اليقظة فهذا جنِّي تمثِّل في صورته.

وبعض النَّاس يسمي هذا «روحانيَّة الشيخ»، وبعضهم^(٦) يقول: هي رقيقته^(٧).

(١) أحمد بن علي ابن رفاعة المغربي، الشيخ الزاهد، توفي سنة ٥٧٨. وللمتسبين إليه من الرفاعية الأحمدية مخارق وضلالات، ولشيخ الإسلام معهم مناظراتٌ وصولات. قال الذهبي: «ولكن أصحابه فيهم الجيد والردِّيء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا لا عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه». انظر: «العبر» (٤/ ٣٣٤)، و«تاريخ الإسلام» (١٢/ ٦٠٥)، و«النبوات» (١٥٨، ١٦٢)، و«مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٤٥ - ٤٧٦، ٤٩٤)، و«الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (١٦٠، ١٦١، ٢٠٩، ٥٠٣).

(٢) شعيب بن الحسين، أبو مدين الأندلسي، الزاهد العارف، شيخ أهل المغرب، وكبير الصوفية في عصره. توفي سنة ٥٩٤. «تاريخ الإسلام» (١٢/ ٩٢٢)، و«نيل الابتهاج بتطريز الديباج» (١٩٣). ولم يقف على ترجمته محقق ط. العاصمة.

(٣) أخرجه البخاري (١١٠، ٦٩٩٤)، ومسلم (٢٢٢٦، ٢٢٦٨) من حديث أبي هريرة وأنس وجابر رضي الله عنهم، دون قوله: «حقًّا».

(٤) (و): «صورة».

(٥) لم أقف عليها. وقد جعل بعض أهل العلم هذا مما خُصَّ به النبي ﷺ دون غيره من الأنبياء. انظر: «غاية السؤل» لابن الملقن (٢٩٣). وذهب بعضهم إلى عموم ذلك للأنبياء. انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ٢٢٨)، و«شرح المصابيح» لابن ملك (٥/ ١٣٤). والأول أظهر.

(٦) (د، ع): «وبعض الناس».

(٧) مهملة في (ي). وتحرفت في (د، ع) إلى «رفيقه»، وكذلك أثبتتها المطبوعات. وعلى =

وكثيرٌ من هؤلاء يُرى^(١) يقوم من مكانه ويدعُ في مكانه صورةً مثل صورته، وكثيرٌ من هؤلاء ومن هؤلاء من يُرى^(٢) في مكانين، ويُرى واقفاً بعرفاتٍ وهو في بلده لم يذهب، فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرِينَ؛ فإن العقل الصَّريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون في الوقت الواحد في مكانين، والصادقون قد رأوا ذلك عياناً لا يشكُّون فيه، ولهذا يقع النزاع كثيراً بين هؤلاء وهؤلاء، كما قد جرى ذلك غير مرَّة، وهذا صادقٌ فيما رأى وشاهد، وهذا صادقٌ فيما دلَّ عليه العقل^(٣) الصَّريح، لكن ذلك المرئي كان جنياً تمثِّل في صورة^(٤) الإنسان، والحسيَّات إن لم يكن معها عقليَّات تكشف حقائقها وإلا وقع فيها غلطٌ كثير^(٥).

وهذا القسم المشهود في الخارج غير ما يتخيَّله الإنسان في نفسه؛ فإن هذا يعرفه جميعُ الناس، ويُقرُّ به^(٦) جميعُ العقلاء، يتخيَّلون أشياء في أنفسهم كما يتخيَّله النَّائم في منامه، وتكون تلك الصُّورة موجودةً في الخيال لا في الخارج.

= الصواب في (و). وانظر: «مجموع الفتاوى» (١/١٥٨، ١٧٣، ١٧٨، ١٣/٧٨، ١٤/٢٨٤). وذكر محقق ط. العاصمة أن المقصود: قرينه ورفيقه من الشياطين! و«الريقة» من مصطلحات المتصوفة، يعنون بها اللطيفة الروحانية والواسطة اللطيفة الرابطة بين الشيتين. انظر: «لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام» للقاشاني (١/٤٠٥)، و«التعريفات» (١١١)، و«المعجم الصوفي» لسعاد الحكيم (٥٣٥). وترد كذلك بمعنى الجزء اليسير من الشيء، كالأنموذج. انظر: «طريق الهجرتين» (١/٦٩)، و«زاد المعاد» (٤/٣٣).

(١) (د، ع): «من».

(٢) ليست في (ي). (و): «من يقول يرى».

(٣) ليست في (و، د، ع).

(٤) (ي، و): «بصورة».

(٥) ط. العاصمة: «كبير»، خلاف الأصول.

(٦) (و): «ويصوبه»، (د، ع): «ويعرفه». والمثبت من (ي) أشبه.

والفلاسفة وسائر^(١) العقلاء يعترفون بهذا، لكن كثير من الفلاسفة يظن أن ما رآته الأنبياء من الملائكة وما سمعته من الكلام كان من هذا النوع، ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هذا النوع، وهؤلاء جهال غالطون في هذا، كما جهلوا وغلطوا في ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية أو طبيعية أو قوى فلكية، وأن الفرق بين النبي ﷺ والساحر إنما هو^(٢) حسن قصد هذا وفساد قصد^(٣) الآخر، وإلا فكلاهما خوارق^(٤) سببها قوى نفسانية أو فلكية. وهذا النفي باطل، كما قد بسطنا الكلام عليه وبيننا جهل هؤلاء وضلالهم في غير هذا الموضع^(٥).

والذين شاهدوا ذلك في الخارج، وثبت عندهم بالأخبار الصادقة المتواترة وغير المتواترة^(٦) وجود ذلك في الخارج، يعلمون أن هؤلاء جاهلون ضالون، ويعلمون أن الملائكة تظهر في صورة البشر، كما ظهرت لإبراهيم ولوط ومريم في صورة البشر، وكما كان جبريل يظهر للنبي ﷺ تارة في صورة دحية الكلبي، وتارة في صورة أعرابي، ويراه كثير من الناس عياناً، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره.

وكذلك الشياطين^(٧)، كما ظهر إبليس^(٨) للمشركين في صورة الشيخ

(١) (د، ع): «وجميع».

(٢) (ع): «ما هو إلا».

(٣) (د، ع): «قصد ظن».

(٤) ط. النيل: «خوارق». وتبعها ط. العاصمة خلافاً للأصول.

(٥) انظر: «النبوات» (١٣٨، ٥٠٦، ٦٧٨، ٧٠٤، ٨٣٧-٨٦٦)، «الصفدية» (١/ ١٣٤ -

١٦٣، ١٦٥، ٢٢٢)، و«شرح الأصبهانية» (٥٧٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٣٧،

١٥٨/ ١٩).

(٦) «وغير المتواترة» ساقطة من ط. النيل والعاصمة.

(٧) ليست في (و، ع، د). ولم تثبتها ط. العاصمة.

(٨) (د، ع): «لما ظهر الشيطان».

النَّجْدِيُّ^(١)، وظهر لهم يوم بدرٍ في صورة سُراقَة بن مالك بن جُعْشَم، فلمَّا رأى الملائكة هرب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وروي عن ابن عباس وغيره قال: تبدَّى إبليسُ في جندٍ من الشَّيَاطِين ومعه رايةٌ في صورة رجالٍ من مُدْلِج، والشَّيْطَانُ في صورة سُراقَة بن مالك بن جُعْشَم، فقال: لا غالب لكم اليوم من النَّاسِ، وإني جارٌّ لكم، وأقبل جبريلُ عليه السلام على إبليس، فلمَّا رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع^(٢) إبليسُ يده وولَّى مدبرًا هو وشيعته، فقال الرَّجُل: يا سُراقَة، أترعِمُ أنكَ لنا جارٌّ؟! فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب. قال ابن عباس: وذلك لمَّا رأى الملائكة^(٣).

قال الضَّحَّاك: سار الشَّيْطَان معهم برايته وجنوده، وألقى في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم، وأنتم تقاتلون على دينكم ودين آبائكم^(٤).

وكثيرٌ من النَّاسِ تحمله الجنُّ إلى مكانٍ بعيد، فتحمل كثيرًا من النَّاسِ إلى عرفاتٍ وغير عرفات، وإذا رئي واحدٌ من هؤلاء في غير بلده يكون تارةً محمولًا قد حملته^(٥) الجنُّ، وتارةً قد^(٦) تصوَّرت على صورته، ولا يكون هذا من أولياء

(١) (د، ع): «النجدي وغيره».

(٢) (د، ع): «انزع».

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢٢ / ١١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧٩ / ٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٥ / ٥).

(٥) (د، ع): «تارة قد حملته».

(٦) ليست في (ي، و).

الله المتقين الذين لهم كرامات، بل قد^(١) يكون من الكافرين أو الفاسقين، وأعرف من ذلك قضايا كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها^(٢).

وعند المشركين والنصارى من ذلك شيء كثير يظنون من جنس الآيات التي للأنبياء، وإنما^(٣) هي من جنس ما للسحرة والكهّان.

ومن لم يفرّق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ويفرّق بين معجزات الأنبياء وكرامات الصّالحين، وبين خوارق السحرة والكهّان ومن تقترن بهم الشياطين، وإلا التبس عليه الحقّ بالباطل، فإمّا أن يكذب بالحقّ الذي جاء به الأنبياء الصّادقون، وإمّا أن يصدّق بالباطل الذي يقوله الكاذبون^(٤) والغالطون.

وهذه الأمور مبسوطّة في موضع آخر^(٥)، والمقصود هنا التّنبية على هذا الأصل.

وعلماء النصارى يسلمون هذا، وعندهم من ذلك أخبار كثيرة من حكايات أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمن وأبطلوا أحوالهم، كما أبطل موسى صلوات الله عليه ما عارضته به السحرة من الخوارق، كما ذكر ذلك^(٦) في التّوراة^(٧)، وكما يذكرونه عن فلان وفلان، مثل حكاية سيمون السّاحر مع الحواريين^(٨)، وغير ذلك.

(١) ليست في (ي).

(٢) (د، ع): «قصصاً كثيرة ليس تفصيلها في هذا الموضع».

(٣) ط. العاصمة: «إنما»، خلاف الأصول.

(٤) (د، ع): «الكافرون».

(٥) بسطها في قاعدة «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، والمصادر السابقة في الفرق بين خوارق العادات من الأنبياء والسحرة.

(٦) ليست في (د، ع).

(٧) سفر الخروج (٧: ٩-١٣).

(٨) سفر أعمال الرسل (٨: ٩-٢٤). ومعنى سيمون بالعبرانية: السّامع، ولفظه في الأصل نفس لفظ الاسم «سمعان». وقد كان لسيمون السّاحر أتباعٌ يعتبرونه مسيحهم. انظر: «موسوعة الكتاب المقدس» (٥٠٩).

فإذا كان هذا معلومًا كان ما يذكرونه من هذا الجنس إذا كان مخالفًا لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان، فلا يجوز أن يُحتجَّ به على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم، بل هؤلاء من جنس الدَّجَال الكبير الذي أُنذرت به الأنبياء كلُّهم، حتى نوحٌ أُنذره^(١) قومه، وقال خاتم الرُّسل ﷺ: «ما من نبيٍّ إلا قد أُنذره أمته، حتى نوحٌ أُنذره قومه. وسأقول لكم فيه قولًا لم يقله نبيٌّ لأُمَّته: إنه أعور، وإنَّ ربَّكم ليس بأعور، مكتوبٌ بين عينيه: كافر (ك ف ر)، يقرؤه كلُّ مؤمنٍ قارئٍ وغير قارئٍ»، وقال: «واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربَّه حتى يموت»^(٢).

وقد أخبر أن المسيح عيسى بن مريم مسيح الهدى ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق، فيقتل مسيح الضلالة، وهذا هو الذي تنتظره اليهودُ ويجحدون المسيح عيسى بن مريم، ويقولون: هذا هو الذي بشرت به الأنبياء، ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا مُطيلسين، ويقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم شرًّا قتلًا، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلمُ هذا يهوديٌّ ورائي تعالِ اقْتُلْهُ^(٣).

وكلُّ هذا ثابتٌ في الصحيح عن النبي ﷺ.

ولهذا أمر أمته أن يستعينوا بالله من فتنه، فقال: «إذا قعد أحدكم في التَّشَهُّد في الصَّلَاة فليتعوَّذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنه المحيا والممات، ومن فتنه المسيح الدَّجَال»^(٤).

(١) غيَّره ط. العاصمة إلى «أنذر» هنا وفي الموضعين الآتين في نصِّ الحديث، مخالفة للأصول ومتابعة للمطبوعة، وزعمت أنه خطأ واضح!

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٥٧) ومسلم (٢٢٤٥/٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو في الصحيحين من حديث أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

(٣) مضى تخريجه (١/٢٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والأنبياء كلُّهم أنذروا بالكذابين الذين يتشبهون بالأنبياء، لكن من الناس من يتعمد الكذب، وكثيرٌ منهم لا يتعمد، بل يلتبس عليه، فيغلط، فيخبر بما يظنه حقًا ولا يكون كذلك، ويرى في اليقظة ما يظنه فلانًا الوليَّ أو النبيَّ ﷺ أو الخضر ولا يكون كذلك^(١).

والغلط جائزٌ على كلِّ أحدٍ إلا الأنبياء عليهم السَّلام، فإنهم معصومون لا يُقرُّون على خطأ، فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم^(٢) عن الأنبياء وإلا كان ضالًّا، فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحين: مسيح هدى من ولد داود، ومسيح ضلالٍ يقول أهل الكتاب: إنه من ولد يوسف.

ومتفقون على أن مسيح الهدى سوف يأتي كما يأتي مسيح الضلالة، لكن المسلمون والنصارى يقولون: مسيح الهدى هو عيسى بن مريم، وإن الله أرسله، ثم يأتي مرةً ثانية.

لكن المسلمون يقولون: إنه ينزل قبل يوم القيامة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يبقى دينًا إلا دين الإسلام، ويؤمن به أهل الكتاب اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْنُنَ بِهَا عِلْمُ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]، والقول الصحيح الذي عليه الجمهور: قبل موت

(١) من قوله: «ويرى في اليقظة» إلى هنا سقط من (د، ع).

(٢) (ع، د): «بالعلوم».

المسيح^(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١].

وأما النصارى فتظنُّ أنه الله، وأنه يأتي يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم، وهذا ممَّا ضلُّوا فيه، واليهود تعترف بمجيء مسيح هدى يأتي، لكن يزعمون أن عيسى عليه السلام لم يكن مسيح هدى؛ لظنهم^(٢) أنه جاء بدين النصارى المبدل، ومن جاء به فهو كاذب، وهم ينتظرون المسيحين^(٣).

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ٦٦٣ - ٦٦٦، ٦٧٢)، وما سيأتي (٢/ ٤٦٨).

(٢) (د، ي، ع): «لزعمهم».

(٣) من قوله: «والمسلمون وأهل الكتاب» إلى هنا وقع متأخراً خطأً في (ع، د) وط. النيل بعد صفحات، وهذا حاق موضعه.

فصل

والخوارق التي تُضِلُّ^(١) بها الشياطين لبني^(٢) آدم، مثلُ تصوُّر الشَّيْطَان بصورة شخصٍ غائبٍ أو ميِّتٍ ونحو ذلك، ضلُّ بها خلقٌ^(٣) كثيرٌ من النَّاس من المنتسبين إلى المسلمين أو إلى أهل الكتاب وغيرهم، وهم بنوا ذلك على مقدماتين:

إحدهما: أن من ظهرت هذه على يديه فهو وليُّ الله، وبلغة النصارى: هو قَدِيسٌ عظيم.

الثانية: أن من يكون كذلك فهو معصوم، وكلُّ^(٤) ما يخبر به فهو حقٌّ، وكلُّ ما يأمر به فهو عدلٌ، وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارقٌ لا رحمانية ولا شيطانية، ولكن صَنَعَ حيلةً من حِيل أهل الكذب والفجور، وحِيلُ أهل الكذب والفجور كثيرةٌ جدًّا، فيُظَنُّ أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة، ولا يكون كذلك، مثل الحِيل المذكورة عن الرُّهبان^(٥).

وقد صنَّف بعض النَّاس مصنِّفًا^(٦) في حِيل الرُّهبان.

(١) مهملة في (ي)، (د، ع): «يضل».

(٢) كذا في الأصول.

(٣) ليست في (ع، د).

(٤) (و، ي): «فكل».

(٥) انظر: «جامع المسائل» (٥/ ٢٢٤)، و«إغاثة اللهفان» (١٠٥٦، ١٠٥٩، ١٠٦١).

(٦) ذكر شيخ الإسلام في مواضع أخرى أنها مصنفاتٌ وكتب. انظر: «مجموع الفتاوى»

(٢٨/ ٦٠٩، ٦٦١). وقد أفرد زين الدين الجوبري (من علماء القرن السابع) فصلًا

لكشف حيل الرهبان ومخاريقهم في كتابه «المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار»

(٨٠-٨٧)، والخزرجي (ت: ٥٨٣) في «مقامع الصلبان» (١٧٣-١٧٧)، والقرطبي

(ت: ٦٧١) في «الإعلام» (٣٨٤-٣٨٦)، والقرافي (ت: ٦٨٤) في «الأجوبة الفاخرة»

(٦١-٦٦)، وأشار الجاحظ إلى طرف منها في «الحيوان» (٤/ ٤٨٣).

مثل الحيلة المحكيّة عن أحدهم في جعل الماء زيتًا، بأن يكون الزيتُ في جوف منارة، فإذا نقص صبَّ فيها ماءً، فيطفو الزيت على الماء، فيظنُّ الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتًا.

ومثل الحيلة المحكيّة عنهم في ارتفاع النّخلة، وهو أن بعضهم مرَّ بدير راهب، وأسفل منه نخلة، فأراه النّخلة صعدت شيئًا شيئًا حتى حاذت الدّير، فأخذ من رطبها، ثم نزلت حتى عادت كما كانت. فكشف الرّجلُ الحيلة، فوجد النّخلة في سفينة في مكانٍ منخفضٍ إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة، وإذا صرف الماء إلى موضعٍ آخر هبطت السفينة.

ومثل الحيلة المحكيّة عنهم في التكلُّ بدموع السيّدة، يضعون كحلًا في ماءٍ متحرّكٍ حركةً لطيفة، فيسيل حتى ينزل من تلك الصّورة، فيخرج من عينها، فيظنُّ أنه دموع.

ومثل الحيلة التي صنعوها بالصّورة التي يسمونها «القونة»^(١) بصيدنايا، وهي أعظم مزاراتهم بعد القمامة وبيت لحم حيث وُلد المسيح وحيث قُبِر؛ فإن هذه هي^(٢) صورة السيّدة مريم، وأصلها خشبة نخلة سُقيت بالأدهان حتى تنعّمت^(٣)، وصار الدّهن يخرج منها دهناً مصنوعاً^(٤) يُظنُّ أنه من بركة الصّورة. ومن حيلهم الكثيرة: النّار التي يظنُّ عوامُّهم أنها تنزل من السّماء في

(١) قال المصنف: «ويحجّون إلى القونة التي بصيدنايا، والقونة الصّورة، وغير ذلك من كنائسهم التي بها الصّور التي يعظمونها ويدعونها ويستشفعون بها». مجموع الفتاوى (٣٥٥ / ٢٧). والقونة والأيقونة: التمثال والصّورة، معرّب إيكونيا باليونانية. انظر: «محيط المحيط» (٢٣، ٧٦٤)، و«تفسير الألفاظ الدخيلة» للعنيسي (٥).

(٢) ليست في (و).

(٣) (د، ع): «سمت». ط. النيل: «سمنت».

(٤) (د، ع): «يخرج منها مصنوع».

عندهم في قُمَامَة^(١)، وهي حيلةٌ قد شهدها غيرُ واحدٍ من المسلمين والنصارى، ورأوها بعيونهم أنها نارٌ مصنوعةٌ يُضَلُّون بها عوامَّهم، يظنُّون أنها نزلت من السَّماء ويتبرَّكون بها، وإنما هي صنعةٌ صاحبِ مُحَالٍ وتلبيس.

ومثل ذلك كثيرٌ من حِيلِ النصارى، فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق إمَّا حالٌ شيطانيٌّ وإمَّا مُحَالٌ بهتانيٌّ ليس فيه شيءٌ من كرامات الصالحين.

وكذلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد ﷺ، الذين يتخذون دينًا لم يشرعه الله ورسوله، ويجعلونه طريقًا إلى الله، وقد يختارونه على الطريق التي شرعها الله ورسوله، مثل أن يختاروا سماع الدُّفوف والشَّبَابَات^(٢) على سماع كتاب الله تعالى، فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشَّيطاني ما يلبسه معه الشَّيطان حتى يتكلَّم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذلك الشَّخص إذا أفاق، كما يتكلَّم الجنِّي على لسان المصروع، وقد يخبر بعض الحاضرين بما في نفسه، ويكون ذلك من الشَّيطان، فإذا فارق الشَّيطان ذلك الشَّخص لم يدر ما قال.

ومنهم من يحمله الشَّيطان ويصعد به قدام النَّاس في الهواء.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين، فيموت، أو يمرض، أو يصير مثل الخسبة.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين، فيلبسه الشَّيطان، ويزول عقله،

(١) أعظم كنيسة لهم ببيت المقدس، وتقدم التعريف بها وبكنيسة صيدنايا (١/ ١٨٧).

(٢) جمع شَبَابَة، وهي البراعة، قصبةٌ يُزَمَّر بها. انظر: «التلخيص» لأبي هلال (٤٢٢)،

و«مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٤٦)، و«شفاء الغليل» للخفاجي (١٨٤). وظن محقق ط.

العاصمة أن المراد بها التشبيب بالنساء!

حتى يبقى دائراً زماناً طويلاً بغير اختياره.

ومنهم من يدخل النار ويأكلها، ويبقى لهبها في بدنه وشعره.

ومنهم من تُحْضِرُ له الشَّيَاطِينُ طعاماً أو شيئاً من لَدَنِ^(١) أو سَكَّرَ أو زعفران أو ماء ورد.

ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشَّيَاطِينُ من بعض المواضع، ثم من هؤلاء من^(٢) إذا فَرَّقَ الدَّرَاهِمَ على الحاضرين أَخَذَتْ منهم، فلا يُمَكِّنُونَ من التصرف فيها.

إلى أمور يطول وصفها.

وآخرون ليس لهم من يُعِينُهُمْ على ذلك من الشَّيَاطِينِ، فيصنعون حِيَلًا وَمَخَارِيقَ.

فالملحدون المبدّلون لدين الرُّسل -دين المسيح أو دين مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ- هم كأمثالهم من أهل الإلحاد والضلال الكفار المرتدّين والمشرّكين^(٣) ونحوهم^(٤)، كمْسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي، وبابا الرُّومي^(٥)، وغيرهم ممّن لهم خوارقُ شيطانية.

وأما أهل الحِيلِ فيكُثِّرون، وهؤلاء ليسوا أولياء الله، بل خوارقهم إذا

(١) وهو رطوبةٌ ونَدَى يكون على نباتٍ ترعاه المعزى، فيتعلّق بها، ويتخذ منه دواءً وعطر.
انظر: «الفروع» (٤/ ١٢٤)، و«تاج العروس» (لذن)، و«المعتمد» (٣١٩)، و«تكملة المعاجم» (٩/ ٢٢٥).

(٢) ليست في (ع، د).

(٣) (د، ع): «المشرّكين».

(٤) (و، د، ع): «وغيرهم».

(٥) مضت ترجمته وترجمة الحارث الدمشقي (١/ ٢٦٧).

كانت شيطانيَّةً من جنس خوارق الكهنة والسَّحرة، لم يكن لهم حالٌ شيطانيٌّ بل مُحالٌ بهتانيٌّ، فهم متعمِّدون للكذب والتلبس، بخلاف من تقترن به الشَّياطين، فإنَّ فيهم من يلتبسُ^(١) عليه فيظنُّ أن هذا من جنس كرامات الصَّالحين، كما أن فيهم من يعرف أن ذلك من الشَّياطين ويفعله لتحصيل أغراضه.

فالمقصود أنه كثيرٌ^(٢) من الخوارق ما يكون من الشَّياطين أو يكون حيلاً ومَخَارِيق، ويُظنُّ أنها من كرامات الصَّالحين، فإنَّ ما يكون سببه^(٣) الشَّرك أو الفجور إنما يكون من الشَّيطان، مثل أن يشرك الرَّجلُ بالله، فيدعو الكواكب، أو يدعو مخلوقاً من البشر ميّتاً أو غائباً، أو يُعزِّم ويُقسِّم بأسماء مجهولة لا يَعْرِف معناها أو يَعْرِف أنها أسماء الشَّياطين، أو يستعين بالفواحش والظُّلم، فإنَّ ما كان هذا سببه من الخوارق فهو من الشَّيطان، كما قد بُسِّط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع^(٤).

والصَّالِحون لهم كرامات، مثل كرامات صالحِي هذه الأُمَّة، ومثل كرامات الحواريِّين وغيرهم ممَّن كان على دين المسيح، لكن وجود الكرامات على أيدي الصَّالحين لا توجبُ أن يكونوا معصومين كالأنبياء، بل^(٥) يكون الرَّجلُ صالحاً وليّاً لله وله كراماتٌ ومع هذا فقد يغلط ويخطئ فيما يظنُّه، أو فيما يسمعه ويرويه، أو فيما يراه، أو فيما يفهمه من الكتب.

(١) (د، ع): «يلبس».

(٢) كذا في الأصول، وهو سائغ.

(٣) مهملة في (ي). وفي (و): «شبيه»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة. وسيأتي على الصواب في قوله: «فإنَّ ما كان هذا سببه من الخوارق...».

(٤) تقدمت الإحالة إلى مظانِّ هذا (١/ ٤٨٥، ٤٨٧).

(٥) (و): «لكن»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

ولهذا كان كلُّ من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم^(١) ويترك، بخلاف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فإنه يجب تصديقهم في كلِّ ما أخبروا به من الغيب، وطاعتهم في كلِّ ما أمروا به.

ولهذا أوجب الله الإيمان بكلِّ ما أوتوه^(٢)، ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتي به غيرهم. قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَن تُولُواْ وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذب نبياً معلوماً النبوة فهو كافر مرتدٌّ، ومن سبَّ نبياً وجب قتله^(٣)، بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون كلُّهم، وأن لا يُفرَّق بين أحدٍ منهم فيؤمن ببعض ويكفر ببعض^(٤)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿[النساء: ١٥٠، ١٥١].

(١) (ع): «قوله».

(٢) (ي، و): «الإيمان بما أوتوه».

(٣) حكى إسحاق بن راهويه الإجماع على كفر من شتم نبياً، كما في «تعظيم قدر الصلاة» (٩٣٠)، وانظر لقتله: «الصارم المسلول» (١٨٨، ٤٢١، ١٠٤٨).

(٤) (و): «نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض».

وليس هذا لأحدٍ غير الأنبياء، ولو كان من رُسُل الأنبياء وكانوا من أعظم الصّديقين القدّيسين^(١).

فضلال الضّلال من هؤلاء مبنيّ على مقدّمتين:

إحداهما^(٢): أن هذا له كرامة، فيكون وليّاً لله.

والثانية: أن وليّ الله لا يجوز أن يخطئ، بل يجب تصديقُه في كلّ ما أخبر، وطاعته في كلّ ما أمر. وليس لأحدٍ من البشر أن يصدّق في كلّ ما أخبر به ويطاع في كلّ ما أمر به^(٣) إلا أن يكون نبياً.

والمقدّمتان المذكورتان قد تكون إحداهما باطلة، وقد تكون كلاهما باطلة^(٤). فالرجل المعيّن:

* قد لا يكون من أولياء الله، وتكون^(٥) خوارقُه من الشّياطين.

* وقد يكون من أولياء الله، ولكن ليس بمعصوم، بل يجوز عليه الخطأ.

* وقد لا يكون من أولياء الله، ولا يكون له خوارق، ولكن له مُحَالَاتٌ وأكاذيب^(٦).

(١) (و، د): «المقدمين».

(٢) (د، ع): «أحدهما ... والثاني».

(٣) ليست في (و، ع، د). وفي ط. العاصمة: «في كل أمر»، خلاف الأصول.

(٤) ط. العاصمة: «باطلاً»، خلاف الأصول.

(٥) (ي، و): «تكون».

(٦) هنا موضع النص الذي سبقت الإشارة إلى وقوعه متأخراً في (د، ع) وط. النيل، ويبدأ بقوله: «والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحين» إلى آخر الفصل.

فصل

قالوا: «وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، فأعنى أيضًا بالكتاب المنير الذي هو الإنجيل المقدس»^(١).

فيقال: قد تقدّم أن «الرُّسل» تناول^(٢) قطعًا الرُّسل الذين ذكرهم الله في القرآن، لا سيّما أولو العزم، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم؛ فإن هؤلاء مع محمّد ﷺ خاتم النبيّين - صلوات الله عليهم وسلامه - خصّهم الله وفضّلهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۖ﴾ [الصّافات: ٧-٨]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فالدين دين رسل الله دين واحد، كما بيّنه الله في كتابه وكما ثبت في الصّحاحين عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنّه^(٣) ليس بيني وبينه نبيٌّ»^(٤).

ويتناول أيضًا اسم «الرُّسل» من لم يسمّهم^(٥) بأعيانهم في القرآن، قال

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٦).

(٢) (د، ع): «يتناول».

(٣) (د، ع): «وأنا أولى الناس بابن مريم لأنه».

(٤) تقدم تخريجه في صدر الكتاب (١٠/١).

(٥) (ي): «يسم».

تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وأما الحواريون، فإن الله تعالى ذكرهم في القرآن، ووصفهم بالإسلام واتباع الرسول وبالإيمان بالله، كما أنزل في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ولم يذكر الله تعالى في القرآن أنه أرسلهم البتة، بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله، وأنهم أمروا باتباع رسوله.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ لا يدلُّ على النبوة؛ فإنه قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وأمُّ موسى لم تكن نبيّة، بل ليس

في النساء نبيّة^(١)، كما تقوله عامّة علماء المسلمين^(٢)، وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد، مثل القاضيين: أبي بكر بن الطيّب وأبي يعلى ابن الفراء^(٣)، والأستاذ أبي المعالي الجويني، وغيرهم^(٤).

ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، فجعل غاية مريم الصّدّيقّة، كما جعل غاية المسيح الرّسالة.

وقد ثبت في الصّحيحين^(٥) عن النّبِيِّ ﷺ أنه قال: «كَمَل من الرّجال كثير، ولم يَكْمُل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مُزاحم»، يعني من نساء الأمم قبلنا. وهذا يدلّ على أن أمّ موسى ليست ممّن كَمَل من النساء، فكيف تكون نبيّة؟!!

وقوله تعالى: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، والكتاب اسمُ جنسٍ كما تقدّم^(٦)، يتناول كلّ كتابٍ أنزله تعالى.

(١) كما تقدم في مريم (١/ ٣٧٢).

(٢) (ع) وط. النيل: «عامّة علماء النصارى والمسلمين»، وأشار في طرة (د) إلى أنها في نسخة. وفي ط. العاصمة: «عامّة النصارى والمسلمين». وكلاهما خطأ.

(٣) (د، ع): «ابن أبي الفراء»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٤) انظر: «الأذكار» للنووي (١١٩)، و«شرح مسلم» (١٥/ ١٩٩). وخالف في ذلك أبو الحسن الأشعري وابن حزم والقرطبي. انظر: «الفصل» (٥/ ١٢)، و«فتح الباري» (٤٤٧/ ٦).

(٥) صحيح البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٦) (١/ ٤٧، ٤٢١، ٤٣٤).

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، وقوله: ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ نكرة في سياق النفي ^(١) تعم ^(٢) كل كتاب منير، ولو لم يكن إلا الإنجيل ل قيل: «ولا الكتاب المنير».

وأيضًا، فالتَّوراة أعظم من الإنجيل، وقد بيّن الله أنه لم ينزل كتابًا أهدى من التَّوراة والقرآن، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ^٣﴾ ^(٤) أولم يكفروا بما أُوتِيَ موسى من قبل^٥ قَالُوا سِحْرَانِ - وقرئ^(٤): ﴿سَجِرَانِ﴾ - ﴿تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكِلَايَا كَافِرُونَ﴾ ^(٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨ - ٤٩].

وهذا تعجيزٌ لهم أن يأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما، كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ^(٥)﴾ [يونس: ٣٨]، وهذا يبيّن أنه ليس الإنجيل ولا الزبور أهدى من التَّوراة والقرآن، فكيف يُجعل «الكتاب المنير» هو الإنجيل دون التَّوراة والزبور؟!

وأيضًا، فإن الله تعالى إنما يخصُّ بالذكر من الكتب المتقدّمة التَّوراة دون غيرها، فهي التي يقرنها بالقرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ^٦

(١) ط. العاصمة: «المعنى»، وهو تحريف مخالف للأصول.

(٢) (و): «فيعم».

(٣) وقع صدر الآية في الأصول: «وقالوا لنؤمن حتى نؤتي مثل ما أُوتِيَ موسى»، وهو سهو وانتقال ذهن إلى آية الأنعام: ١٢٤. وأصلحها ناسخ (ع) في الطرة.

(٤) قرأ بها ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، كما تقدم (١/٣٨).

(٥) الأصول: «من مثله»، وهو سهو، تلك آية البقرة: ٢٣.

يَجْعَلُونَهُ رِقَا طَيْسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ
 ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾
 [الأنعام: ٩١ - ٩٢]، وقد وصف التَّوراة بأن فيها نورًا وهدى للناس، فكيف يُجعل
 النور في الإنجيل دونها؟!

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا
 لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ
 فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا
 وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ [الأنعام: ١٥٤ - ١٥٦]، فقد ذكر التَّوراة والقرآن،
 وقولهم: أنزل الكتاب على طائفتين^(١)، فبين أن «الكتاب» اسمُ جنسٍ يتناول
 هنا التَّوراة والإنجيل، كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله
 تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، فذكر «الكتاب» بلفظ
 المفرد^(٢)، ومعلوم أنه أراد بالذين أُوتوا الكتاب من قبلنا اليهود والنصارى، لا
 يختص ذلك بالنصارى، كما قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ
 قَبْلِنَا﴾.

وقد تبين^(٣) بطلان قول هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويفسرون
 كلام الله ورسوله بما يعلم كل من عرف حاله من مؤمن وكافر أنه لم يرْده.

(١) زادت ط. النيل: «من قبلنا».

(٢) (و): «المنفرد»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٣) (و): «بين». وكذا الموضع الآتي.

وتبيّن أن الله لم يُرد بالكتاب الإنجيل وحده، كما لم يُرد بالرُّسل
الحواريّين، بل أراد بالكتاب المنير ما أنزله الله من الكتب كالتَّوراة والإنجيل،
كما أراد بالرُّسل من أرسله الله مطلقاً كنوح وإبراهيم وموسى والمسيح ابن
مريم صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين.

فصل

قالوا: «وقال أيضا: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:
٩٤]»^(١).

فيقال لهم: من المعلوم بالاضطرار أنه ليس المراد بهذا النصارى فقط،
كما تقدّم^(٢)، بل اليهود يقرءون الكتاب من قبلنا، والنصارى يقرءون الكتاب
من قبلنا، و«الكتاب» اسم جنس، كما تقدّم نظائره في قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ
الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]، وقوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾
[المائدة: ٥]، وقوله: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ﴾ [آل عمران: ٦٤] في غير موضع، وقوله: ﴿لَمْ
يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ
حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ
أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾
[آل عمران: ١٨ - ٢٠].

وقد قال تعالى: ﴿يَتَأْيِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ
مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).

(٢) (١/٤٢١، ٥٠٢).

أَمَرَ اللَّهُ مَفْعُولًا ﴿ [النساء: ٤٧]، وتناولُ لفظ «أهل الكتاب» هنا لليهود أظهر من تناوله للنصارى؛ لذكره لعنة أصحاب السَّبْت.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢]، فهذا خبرٌ عن^(١) طائفةٍ من اليهود قالوا ذلك.

وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وسبب نزولها أنه^(٢) أراد طائفةً من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين^(٣)، فهم داخلون قطعاً، وإن كان الخطاب مطلقاً يتناول الطائفتين.

وأمره تعالى بسؤال الذين يقرؤون الكتاب من قبله على تقدير الشك لا يقتضي أن يكون الرسول شك ولا سأل^(٤)، إن قيل: الخطابُ له، وإن قيل: لغيره فهو أولى وأحرى؛ فإن تعليق الحكم بالشرط لا يدلُّ على تحقيق الشرط، بل قد يعلّق بشرطٍ ممتنع لبيان حكمه.

قال تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ^(٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ^(٨٦) وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ

(١) ليست في (و).

(٢) ليست في (ي، د). وألحقت في (و، ع).

(٣) روي عن جماعة من السلف. انظر: «العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٧٢٣ - ٧٢٨)، و«الدر المشور» (٣/ ٦٩٨ - ٧٠١).

(٤) (ع): «يشك ولا يسأل».

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٨]،
فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون، مع انتفاء الشُّرك عنهم، بل
مع امتناعه؛ لأنهم قد ماتوا، ولأن^(٢) الأنبياء معصومون من الشُّرك به^(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ٦٤ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ
وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ٦٥ ﴿ بَلِ اللَّهُ
فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦]، فهذا خطابٌ للجميع، وذكر هنا لفظ
«إن»^(٤) لأنه خطابٌ لموجود، وهناك خبرٌ عن ميت^(٥).

وكذلك قوله: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ ۖ لَا يَدُلُّ عَلَى وَقْعِ
الشَّكِّ وَلَا السُّؤَالِ ﴾^(٦)، بل النبي ﷺ لم يكن شاكاً، ولا سأل أحداً منهم، بل روي
عنه أنه قال: «والله لا أشكُّ ولا أسأل»^(٧).

(١) سقطت الآيتان الأخيرتان من ط. العاصمة. وهي في الأصول وط. النيل.

(٢) ط. العاصمة: «لأن»، وهو خطأ مخالف الأصول.

(٣) ليست في (د، ي، ع).

(٤) في قوله تعالى: «لئن أشركت».

(٥) انظر: «الرد على البكري» (٤٦٣).

(٦) انظر: «النبوات» (١٨٠)، و«مجموع الفتاوى» (٤/٢٠٩، ١٦/٣٢٥)، و«أحكام أهل

الذمة» (١/٩٩ - ١٠٥).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١١٧٣)، وابن جرير (٢٨٨/١٢) عن قتادة قال: بلغنا
أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل». وهو مرسلٌ صحيح الإسناد.

وأخرج ابن أبي حاتم (١٠٥٨٣) من طريق سعيد بن شرحبيل عن هشيم عن أبي بشر عن
سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ قال: «لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل»، وظاهر
إسناده الصحة، وخرجه الضياء في «المختارة» (١٠/٩٤)، وصححه ابن حجر في «نتائج
الأفكار» (٤/١٣٧)، إلا أنه معلول، والصواب روايته من قول سعيد بن جبير، كما
أخرجه سعيد بن منصور (١٠٧٦، ١٠٧٧)، وابن جرير (٢٨٧/١٢) من طريق جماعة
من الثقات الكبار عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد.

ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبتك فيه الكافرون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِءِ فَنَأْمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِءِ هُمْ بِهِءِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِءِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِءِ مُسْلِمِينَ﴾ الآية (١) [القصص: ٥٢ - ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِءِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ ﴿٢﴾﴾ [النساء: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ فَتَلَوُا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُءِ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فالمقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبتك فيه الكافرون، وذلك من وجوه:

(١) كذا في الأصول. وأسقطتها ط. العاصمة.

(٢) الحق في (و) بقلم حديث فوق السطر كلمة «إليك»، وليست في سائر الأصول.

أحدها: أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك، فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرًا مثلهم، لم يرسل إليهم ملكًا؛ فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكًا أو بشرًا معه ملك، ويتعجبون من إرسال بشرٍ ليس معه ملك ظاهر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٤ - ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ فَنَرَبُّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿[المؤمنون: ٢٣ - ٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا نَبُغُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿(١) الآية (١) [القمر: ٢٣ - ٢٤].

(١) يعني الآيات. وأسقطتها ط. العاصمة.

وكذلك قال الذين من بعدهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿[المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

وكذلك قال قوم فرعون لموسى وهارون: ﴿أَتُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿[الزخرف: ٥٢-٥٣].

وكذلك قالوا لمحمد ﷺ، قال (١) تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿(٢) [يونس: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿[الأنعام: ٨-٩].

فبين سبحانه أنكم لا تطيقون التلقي عن الملك، فلو أنزلناه ملكًا لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ كنتم تظنونونه بشرًا، فيحصل (٣) اللبس عليكم، فأمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب ممن أرسل إليهم أكان بشرًا أم كان ملكًا؟ ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]،

(١) (و، ي): «وقال». وضرب على الواو في (د).

(٢) أكملت الآية في ط. العاصمة، خلافاً للأصول.

(٣) مهملة في (ي)، (ع): «فيجعل» وهو خطأ، وأصلحت في (د) لتوافق الصواب.

وقال تعالى^(١): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا أَلَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ [الأنبياء: ٧ - ٩]، وأهل الذكر هم أهل الذكر الذي أنزله^(٢) الله تعالى.

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عمّا جرى للرّسل مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذّبين لهم.

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدّين الذي بعث الله به رسله، وهو دينُ الإسلام الذي اتّفقت عليه الرّسل، كالأمر بالتّوحيد والصّدق والعدل وبرّ الوالدين وصلة الأرحام، والنّهي عن الشّرك والظلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم عمّا وصفت به الرّسل ربّهم هل هو موافق لما وصفه به محمّدٌ أم لا؟ وهذه الأمور المسؤول عنها متواترةٌ عند أهل الكتاب، معلومةٌ لهم، ليست مما يشكّون فيه. وليس إذا كان مثلُ هذا معلومًا لهم بالتّواتر، فيُسألون^(٣) عنه، يجب أن يكون كلّ ما يقولونه معلومًا لهم بالتّواتر.

وأيضًا، فإنهم يُسألون أيضًا عمّا عندهم من الشّهادات والبشارات بنبوّة محمّد ﷺ.

وقد أخبر الله بذلك في القرآن، فقال تعالى^(٤): ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦)

(١) من أول الآية السابقة هنا سقط من (و) لانتقال النظر، ولم تثبت المطبوعات.

(٢) (و): «أنزل».

(٣) (و): «يسألون».

(٤) «فقال تعالى» ليست في (و).

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ
وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٦﴾
[الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾
[الصف: ٦]، فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذي قبله وهو
التَّوراة، وبشر بالرسول الذي يأتي بعده وهو أحمد.

قال تعالى: ﴿فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا^(١) فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٩٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤ - ١٤٦]،
وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ
مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أُولَئِكَ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ
عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧].

وقال تعالى عن من أثنى عليه من النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴿٢٠٢﴾﴾ [المائدة: ٨٣].

(١) أول الآية في الأصول: «ومن حيث خرجت»، وهو سهو وانتقال ذهنٍ للآية الأخرى.
وأثبت الصواب، كما صنعت في نظائره.

(٢) زادت ط. العاصمة: «يقولون ربنا آمنا»، وليست في الأصول.

وقال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا أَنْتَ فَرَغْتَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۝١٠٦﴾ قُلْ

ءَامِنُوا بِهِ ۖ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

خُشُوعًا ﴿[الإسراء: ١٠٦ - ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي

أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿[الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ

لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ ۝٥١﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا

صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿[القصص: ٥١ - ٥٤].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ

أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ

عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا

جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿[البقرة: ٨٩].

والأخبارُ بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمدٍ ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة

متواترة عنهم.

وكان قبل أن يُبعث النبي ﷺ تجري حروبٌ و قتالٌ بين العرب وبين أهل

الكتاب، فيقول^(١) أهل الكتاب: قد قُربَ مبعثُ هذا النبي ﷺ الأمِّي الذي

يُبعثُ بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتبعناه وقتلناهم معه شرَّ قِتلة^(٢)، فلَمَّا بُعث النبي

(١) مهملة في (د، ي)، (و): «فتقول».

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٨٤)، ومن طريقه ابن جرير (٢/٢٣٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/٧٥) عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ له من الأنصار.

ﷺ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ
يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أَي: يَسْتَنْصِرُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ
مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ولهذا كان النبي ﷺ في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم: «والله الذي لا إله
إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله»^(١)، وكذلك من أسلم منهم كعبد الله بن
سَلَام كان يقول لغيره من أهل الكتاب: «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون
أنه رسول الله ﷺ»^(٢)، وهذا أمرٌ معروفٌ في الأحاديث الصَّحاح المخرَّجة في
الصَّحيحين وغيرهما.

فظهر بما ذكرناه تحريفُ هؤلاء لكلام الله، وأنه لا حجةَ لهم فيما أُنزل
على مُحَمَّدٍ ﷺ، كما تقدَّم نظائر ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٣٩١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أنس السابق.

فصل

قالوا: «ثبت بهذا ما معنا. نعم، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التَّهَم والتَّبدِيل^(١) لها والتَّغْيِير لما فيها بتصديقه^(٢) إِيَّاهَا»^(٣).

فيقال: كلامكم الذي تحتجُّون به في هذا الموضع وغيره إمَّا أن يكون باطلاً محضاً، وإمَّا أن يكون ممَّا لَبَسْتُمْ فيه الحقَّ بالباطل.

فإنَّ قولكم: «بتصديقه إِيَّاهَا» إن أردتم أنه صدَّق التَّوراة والإنجيل والزُّبور التي أنزلها الله على أنبيائه فهذا لا ريب فيه؛ فإن هذا مذكورٌ في القرآن في غير موضع، وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بكلِّ كتاب أنزله، وكلِّ نبيٍّ من الأنبياء، مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن، وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه.

قال^(٤) تعالى: ﴿الَمْ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ - ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١]،

(١) رسالة بولس: «بالتبديل». وهو أجود.

(٢) (د، و، ع): «تصديقه». ومضى على الصواب غير مرة.

(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).

(٤) ط. العاصمة: «وقال»، خلاف الأصول.

وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧] (١).

وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض، فقال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦) فَإِن ءَامِنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن لَّوَلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

فدَمَّ التَّفْرِيقُ (٢) بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض، ويؤمن أنه فضل بعضهم على بعض، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]،

(١) وقع في سياق الآيات اضطرابٌ في الأصول، ولعل ذلك لأن المصنف ألحق بعضها في طرر نسخته فاشتبهت مواضعها على النساخ، وقد أثبت مجموعها.

(٢) ط. النيل: «المفرق»، وتبعها المطبوعات، خلاف الأصول.

فَبَيَّنَ أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] (١).

وقد اتَّفَقَ المسلمون على ما هو معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنه يجبُ الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزله (٢) الله من الكتب.

فمن كفر بنبيٍّ واحدٍ تُعْلَمُ نبوُّته، مثل: إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى، فهو كافرٌ عند جميع المسلمين، حكمه حكم الكفار، وإن كان مرتدًّا استُتِيب، فإن تاب وإلا قُتِل.

ومن سبَّ نبيًّا واحدًا من الأنبياء قُتِل أيضًا باتفاق المسلمين.

وما عَلِمَ المسلمون أن نبيًّا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديقُ به، كما يصدِّقون بما أخبر به مُحَمَّدٌ ﷺ، وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف.

وما لم يعلموا أن النبيَّ أخبر به فهو كما لم يعلموا أن مُحَمَّدًا أخبر به صلى الله عليهم أجمعين، ولكن لا يكذبون إلا بما علموا أنه كذب، كما لا يجوز أن يصدِّقوا إلا بما علموا أنه صدق.

وما لم يعلموا أنه كذبٌ ولا صدقٌ لم يصدِّقوا به ولم يكذبوا به، كما أمرهم نبيُّهم مُحَمَّدٌ ﷺ (٣)، وبهذا أمر (٤) المسيح ﷺ، فقال: «الأمور ثلاثة:

(١) من هنا إلى آخر الفصل كتبه ناسخ (د) في ورقة طيارة، وأشار إليه في الطرة بقوله: «الوريقة»، وهي من جملة ما أعاد الناسخ المتأخر ترميمه من النسخة.

(٢) (د، ع): «أنزل».

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) (و، د، ع): «أمرهم»، وهو خطأ، وأثبتته المطبوعات.

أَمْرٌ تَبَيَّنَ رَشْدُهُ فَاتَّبَعُوهُ، وَأَمْرٌ تَبَيَّنَ غِيَّهُ فَاجْتَنَبُوهُ، وَأَمْرٌ اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ فَكَلُّوهُ
إِلَى عَالِمِهِ»^(١).

(١) أخرجه عبد بن حميد (٦٧٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٧ / ١٠)، وغيرهما بإسناد ضعيف جداً من طريق هشام بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن عيسى بن مريم قام في قومه فقال ...» فذكره في سياق طويل. وهشام متروك الحديث. وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢٧٠ / ٤)، فتعقبه الذهبي في تلخيصه وأعله بهشام وحكم بطلانه، وأعله به في «معجم الشيوخ» (٣٦ / ١)، وكذا البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٤٠٧ / ٧)، وضعف إسناده العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١٧٧٥).

ولم يسمعه هشام من محمد بن كعب، وإنما يرويه عن يحيى بن فلان عن محمد بن كعب، كما ذكر عفان بن مسلم فيما رواه عنه مسلم في مقدمة «الصحیح» (١٨ / ١)، ورواه من طريق عفان ابن سعد في «الطبقات» (٣٦٠ / ٧). قال ابن حجر في «النكت الظراف» (٢٣٥ / ٥): «فأفادت هذه الطريق أن بين هشام ومحمد بن كعب فيه شخصاً مجهولاً». وسرقه بعض المتروكين من هشام، ولم يحدث به عن محمد بن كعب ثقة، كما قال العقيلي في «الضعفاء» (٤٦٩ / ١)، وانظر: «نصب الراية» (٦٣ / ٣). وأخرج أبو دواد طرفاً من الحديث (١٤٨٥) من طريق راوٍ لم يسمَّ - ويشبه أن يكون هشاماً، كما ذكر ابن عدي في «الکامل» (٣٢٩ / ١٠) في إسناده نحوه - عن محمد بن كعب به، وقال: «روي هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب، كلها واهية، وهذا الطريق أمثلها، وهو ضعيفٌ أيضاً». وقال العقيلي في «الضعفاء» (٢٦٠ / ٦): «ليس لهذا الحديث طريقٌ يثبت»، وقال ابن خزيمة في صحيحه (٤١٨ / ١): «لم يرو ذلك الخبر أحدٌ يجوز الاحتجاج بخبره».

ولم يصب الحافظ المنذري حين قال في «الترغيب والترهيب» (٧٩ / ١): «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به»، ولا الهيثمي إذ قال في «مجمع الزوائد» (١٥٧ / ١): «رجاله موثقون».

فهرس موضوعات المجلد الأول

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة مركز تأصيل
٩	مقدمة المشرف على تحقيق الكتاب
١٣	بين يدي الكتاب
١٨	اسم الكتاب
٢٤	إثبات نسبة الكتاب للمؤلف
٢٨	سبب تأليف الكتاب
٣١	موضوع الكتاب وأهميته وترتيبه
٤٤	منهج المؤلف في كتابه
٤٨	موارد الكتاب
٥٥	وصف النسخ الخطية
٧٣	طباعات الكتاب وتقويمها
٨٣	منهج التحقيق
٨٦	نماذج من النسخ الخطية
	النص المحقق: كتاب الجواب الصحيح
٥	خطبة الكتاب
٧	تصديق القرآن للكتب السماوية وهيمنته عليها
١٠	دين الأنبياء والمرسلين واحد
١١	خصائص أمة الإسلام
١٦	مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم
١٨	الإسلام دين الله الذي بعث به الرسل
١٩	عبادة الله بطاعة رسله عليهم السلام
٢٠	الإيمان بجميع الرسل

٢٠	من أعظم أسباب ظهور الدين ظهور المعارضين للمرسلين
٢٢	الفرق بين آيات الأنبياء وخوارق السحرة
٢٣	الدين الحق والدين الباطل
٢٥	اتباع بعض المسلمين سنن اليهود والنصارى
٢٧	الحلول والاتحاد نوعان
٢٨	سبب تأليف الكتاب
٢٨	الرسالة الواردة من قبرص في الاحتجاج لدين النصارى
٣٠	تفصيل مضامين تلك الرسالة
٣١	منهج المصنف في نقض الرسالة
٣١	كل ما يحتج به المبطلون من النصوص هو حجة عليهم
٣٢	الأنبياء وأتباعهم هم أهل العلم والعدل
٣٤	دين النصارى الباطل دين مبتدع
٣٥	تناقض اليهود والنصارى وتعاديهم
٣٨	مقدمة رسالة الأسقف بولص في الاحتجاج لدين النصارى
٣٩	سبب عدم اتباعهم للنبي ﷺ ودين الإسلام
٤١	الجواب عن زعمهم أنه أرسل إلى العرب ولم يرسل إليهم
٤٣	دلائل صدق النبي وكذب المتنبي
٤٥	الرد المفصل على دعواهم أن النبي ﷺ لم يرسل إليهم
٤٦	الجواب عن احتجاجهم بآيات من القرآن
٥٧	الإرسال الديني والإرسال الكوني ونظائرهما
٦٢	تفرق الكفار واختلافهم وطعنهم في الأنبياء والرسل
٦٨	تتمة الجواب عن دعوى النصارى أن النبي ﷺ لم يرسل إليهم
٦٨	تواتر الأخبار عن النبي ﷺ أنه أرسل إلى جميع بني آدم
٧٠	دعوة النبي ﷺ لأهل الكتاب
٧٢	خبر وفد نجران النصارى الذين قدموا على النبي ﷺ
٩٢	نزول آية الجزية وأول من أداها

٩٨	الأمر بمجادلة أهل الكتاب محكم لم ينسخه شيء
٩٩	وجوه الجمع بين آيات الجدال وآيات القتال:
٩٩	الوجه الأول
٩٩	الوجه الثاني
١٠٠	الوجه الثالث
١٠٧	الوجه الرابع
١١٠	الوجه الخامس
١١١	الوجه السادس
١١٢	الوجه السابع
١١٥	الوجه الثامن
١١٥	الوجه التاسع
١١٧	قصة إيمان النجاشي وهجرة المسلمين إلى الحبشة
١٢٨	أول نزول الوحي على النبي ﷺ بمكة وإيمان بعض النصارى به
١٣٠	إرسال النبي ﷺ رسوله إلى جميع الطوائف بعد عام الحديبية
١٣٠	إرساله إلى هرقل ملك الروم
١٤٤	إرساله إلى المقوقس ملك مصر
١٥١	غزو النبي ﷺ النصارى بعد الإرسال إلى ملوكهم
١٥٢	أمره ﷺ بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب
١٥٣	قيام خلفائه ﷺ أبي بكر وعمر بذلك من بعده
١٥٤	فتح عمر الشام وبيت المقدس ومشارطته أهل الذمة
١٥٩	إرسال النبي ﷺ رسوله إلى كسرى وتمزق ملكه
١٦٦	ضرب الجزية على المجوس
١٦٩	تواتر آيات القرآن في دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالنبي ﷺ
١٧٢	اختلاف أهل الملل في نسخ الشرائع وتغيير الدين
١٧٥	إظهار النبي ﷺ من كمال التوحيد ما لم يظهر بمن قبله
١٧٨	المقارنة بين مقالة المشركين والثنوية والفلاسفة

- النصارى وعبادة الأوثان ١٨٣
- الفرق بين ما أجمع عليه المسلمون وما ابتدعه النصارى ١٨٥
- كفر النصارى بالنبي ﷺ ككفر اليهود بالمسيح عليه السلام ١٨٩
- احتجاج النصارى بالقرآن على أن نبوة النبي ﷺ خاصة بالعرب دليل على عدم أهليتهم للاستدلال ١٩٢
- الجواب عن زعم تناقض القرآن في عموم رسالته ﷺ وخصوصها ١٩٤
- الجواب عن زعمهم تناقض القرآن واحتجاجهم بما يوافق قولهم ١٩٧
- عموم رسالته ﷺ لا ينافي إرساله إلى العرب ١٩٩
- الندارة ليست مختصة بمن شافهم النبي ﷺ بالخطاب ٢٠١
- دعوة النبي ﷺ قريشاً وغيرهم من قبائل العرب ٢٠٣
- معجزات النبي ﷺ الدالة على صدقه ٢١١
- إخباره ﷺ بالغيوب الماضية والمستقبلية ٢١٣
- كل من أيده الله من المدعين للنبوة لا يكون إلا صادقاً ٢١٨
- سورة القمر وإخبارها بانشقاق القمر ٢٢٥
- انشقاق القمر آية على صدق النبي ﷺ وعلى مجيء الساعة ٢٢٧
- إمكانية انشقاق القمر والرد على الدهرية ٢٢٨
- الأحاديث الواردة في انشقاق القمر على عهد النبي ﷺ ٢٢٩
- تحدي العرب بالقرآن وعجزهم أن يأتوا بمثله ٢٣٠
- إخبار القرآن أن النبي ﷺ أرسل إلى العرب لا يقتضي أنه لم يرسل لغيرهم ونظائر ذلك من القرآن ٢٣١
- الجواب عن احتجاج النصارى ببعض الآيات على أنه ﷺ إنما أرسل إلى العرب خاصة ٢٤٠
- إخبار النبي ﷺ أنه أرسل إلى الناس كافة كما نطق به القرآن ٢٤٤
- إلزام النصارى بطلان دينهم إن كذبوا محمداً ﷺ ٢٤٨
- التصديق بأن محمداً رسول الله يوجب بطلان كل دين خالفه ٢٤٩
- أقوال النصارى في عيسى عليه السلام ٢٥٢

٢٥٦	كلام الإمام أحمد في كتاب الرد على الجهمية
٢٦٠	الطريق الذي يُعَلِّم به نبوة موسى وعيسى عليهما السلام يُعَلِّم به نبوة محمد ﷺ بطريق الأولى
٢٦٤	الجواب عن زعم النصارى أن عيسى عليه السلام بشرت به الأنبياء بخلاف محمد ﷺ
٢٦٦	الجواب عن تمثيل النصارى القرآن بالوثيقة التي كُتِب الوفاء في ظهرها
٢٦٨	النزاع في جواز وقوع الغلط من الأنبياء
٢٧٠	تممة الجواب عن تمثيل النصارى القرآن بالوثيقة
٢٧٤	لا يجوز استدلال النصارى بقول أحد من الأنبياء على صحة دينهم
٢٨٠	ولا يجوز لهم الاحتجاج بذلك على المسلمين
٢٨٢	الأجوبة عن كون القرآن نزل باللسان العربي وحده
٢٨٢	الوجه الأول
٢٨٧	الوجه الثاني
٢٩٠	الوجه الثالث
٢٩٠	الوجه الرابع
٢٩٠	الوجه الخامس
٢٩٣	توجيه بعض الآيات الواردة بإنزال القرآن باللسان العربي
٢٩٦	قصة بحيرا الراهب ودلالاتها على نبوته ﷺ
٢٩٩	في القرآن من ذكر المعاد وتفصيله ما لا يوجد في التوراة والإنجيل
٣٠٠	الأجوبة عن زعم النصارى أن كتبهم ترجمها لهم الحواريون وهم معصومون، بخلاف القرآن الذي لم يترجمه معصوم
٣٠٠	الجواب الأول
٣٠٢	الجواب الثاني
٣٠٢	الجواب الثالث
٣٠٤	الجواب عن قول النصارى: لا يلزمنا اتباعه لأنه قد جاءتنا رسل من قبله
٣٠٤	الوجه الأول

٣٠٤	الوجه الثاني
٣٠٥	الوجه الثالث
٣٠٦	الوجه الرابع
٣٠٦	الوجه الخامس
٣١٠	الوجه السادس
٣١٠	الوجه السابع
٣١٦	الجواب عن قول النصارى: ليس من عدل الله أن يطالب أمة باتباع إنسان لم يأت إليهم
٣١٦	الوجه الأول
٣١٦	الوجه الثاني
٣١٧	الوجه الثالث
٣١٧	اختلاف الناس في عدل الله
٣١٨	التزاع فيما لا يتم الواجب إلا به
٣٢١	الوجه الرابع
٣٢٢	الرد على زعم النصارى أن الله إنما مكن الكفار من صلب عيسى ليحتال بذلك على عقوبة إبليس
٣٣١	الرد على تفسير النصارى الآيات التي فيها عدم قبول غير دين الإسلام بأن المراد بها قوم النبي ﷺ لا غيرهم
٣٤٣	تعظيم القرآن للمسيح وأمه
٣٤٣	المسلمون وسطاً بين اليهود والنصارى في الشريعة والعقيدة
٣٥١	ذكر القرآن لقصة يحيى وعيسى عليهما السلام
٣٥٥	ورود قصة مريم وعيسى في سورتين مكية ومدنية
٣٥٦	المراد بـ «روح القدس» وضلال النصارى فيه
٣٦٠	المضاف إلى الله نوعان: إضافة صفة وإضافة عين
٣٦٤	اختلاف الناس في هذا الباب
٣٦٦	اضطراب النصارى في كلام الله

- ٣٧٠ من تفاسير النصارى الباطلة وتحريفهم لآيات القرآن
- ٣٧٤ بطلان تفسيرهم قوله تعالى: (فيكون طيرًا بإذن الله)
- ٣٧٧ المراد بقوله تعالى: (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا)
- ٣٨٠ معنى تأييد عيسى عليه السلام بروح القدس
- ٣٨٦ الرهبانية التي ابتدعتها النصارى وتفسير آية سورة الحديد
- ٣٩٣ الآيات التي فيها ثناء على أهل الكتاب والمراد بها
- ٤٠٤ كيف ذكر القرآن معابد أهل الكتاب من الصوامع والبيع
- ٤٠٩ الرد على زعم النصارى أن القرآن أوجب لهم التمسك بدينهم
- ٤١٢ الرد على استدلال النصارى بالقرآن على ما يعتقدونه في الحواريين
- ٤١٣ الحواريون رسل المسيح لا رسل الله المذكورون في القرآن
- ٤٢٦ الرد على من زعم أن الحواريين هم (المرسلون) في سورة يس
- ٤٣٤ تمة الرد على استدلال النصارى بآيات القرآن على الحواريين
- ٤٣٥ اختلاف بني آدم على وجهين
- ٤٣٧ المسلمون على الحق والعدل بين طرفي الباطل من اليهود والنصارى
- ٤٤٢ توجيه شهادة القرآن للحواريين بأنهم أنصار الله
- ٤٤٤ الرد على زعم النصارى تعظيم القرآن لما بين أيديهم من الكتب وبيان
- معاني الآيات التي احتجوا بها
- ٤٦٢ دلالة النصوص على أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه
- ٤٦٥ هل يمكن ألا يبين للناظر المجتهد صدق الرسول؟ وإذا لم يتبين له هل
- يستحق العقوبة في الآخرة؟
- ٤٦٧ طريقة المصنف في مناظرة أهل الكتاب
- ٤٦٩ حكم من اعتقد من أهل الكتاب المؤمنين بعيسى أنه صلب
- ٤٧١ نزاع الناس في حسن الأفعال وقبحها
- ٤٧٥ أسباب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية
- ٤٧٧ من صور تمثل الشياطين بالإنس لإضلال الناس
- ٤٨٩ مسيح الهدى ومسيح الضلالة

- ٤٩١ سبب ضلال الناس بالخوارق التي تفضل بها الشياطين بني آدم
- ٤٩٢ من حيل النصارى ومخاريقهم
- ٤٩٣ ومن حيل أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد ﷺ
- ٤٩٨ الجواب عن بعض استدلالات النصارى بالقرآن على الإنجيل والحواريين
- ٥٠٠ عامة علماء المسلمين على أنه ليس في النساء نبية
- ٥٠٤ الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾
- ٥١٤ وجه تصديق القرآن للكتب السابقة
- ٥١٥ الإيمان بجميع رسل الله وكتبه
- ٥١٩ فهرس موضوعات المجلد الأول